

كَلِيلُ ذُرْمِنتَ

لبيدا الفيلسوف الهندي

ترجمه ونظله إلى العربية

عبد الله بن المظفر

تحقيق وتعليق

محمد إبراهيم سليم



مكتبة إبراهيم

للنشر والتوزيع والتصدير

ناهذتك على الفكر العربي
والعالمي من خلال ما تقدمه
لك من روائع الفكر العالمي
والكتب العلمية والأدبية
والطبية ونوادير التراث
واللغات الحية. شعارنا:
قدم الجديد..

وبسعر أرخص

يشرف عليها ويديرها

مهندس

مصطفى عاشور

٧٦ شارع محمد فريد - النزهة - مصر الجديدة - القاهرة

تليفون: ٢٦٣٧٨٨٦٢ - ٢٦٣٨٩٧٧ فاكس: ٢٦٣٨٠٤٨٢

Web site: www.ibnsina-eg.com

E-mail: info@ibnsina-eg.com

جميع الحقوق محفوظة للناس

لا يجوز طبع أو نسخ أو تصوير أو
تسجيل أو اقتباس أي جزء من
الكتاب أو تخزينه بأية وسيلة
ميكانيكية أو إلكترونية بدون إذن
كتابي سابق من الناشر.

اسم الكتاب: كلية ودمنة.
اسم المؤلف: الفيلسوف الهندي بيدبا.

رقم الإيداع: ١٩٩٢/٤٣١٤

تصميم الغلاف: جلال عبادة

تطلب جميع مطبوعاتنا من وكيلنا الوحيد بالملكة العربية السعودية

مكتبة الساعي للنشر والتوزيع

ص.ب ٥٠٦٤٩ الرياض ١١٥٣٣ - هاتف: ٤٣٥٣٧٦٨ - ٤٣٥١٩٦٦ - ٤٣٥٩٠٦٦

فاكس: ٤٣٥٩٤٥ جوال: ٥٥٠٦٧١٩٦٧

جدة، هاتف/ فاكس: ٦٢٩٤٣٧٧ جوال: ٥٥٠٦٧١٩٦٦

E-mail: alsaaay99@hotmail.com

مطابع العبور الحديثة - القاهرة

تليفون: ٤٤٨٩١٠١٣ فاكس: ٤٤٨٩١٠٥٩٩

بسم الله الرحمن الرحيم

«كتاب كليله ودمنة» قال عنه برزويه - الذي نقله من الهندية إلى الفارسية في حضرة كسرى وخاضته :
هو أصل كل أدب .. ورأس كل علم .. والدليل على كل منفعة ..

ومفتاح عمل الآخرة وعلمها، ومعرفة النجاة من أهوالها!

والمقوي على جميع الأمور .. والمعين على ما تحتاج إليه الملوك في تدبيرهم لأمر ممالكهم، وآداب السوقة فيما يرضون به ملوكهم ويصلحون به معائسهم.

وكتاب هذا شأنه من حقك أن تعرف كيف وصل إلينا، ولماذا ظل حيًا متالفًا على مر العصور والقرون !!
تعال نتابع قصة تأليفه وترجمته ومسيرة حياته ..

هذا الكتاب ..

هذا الكتاب ألفه الفيلسوف الهندي «بِيدبا» للملك «دَبشليم» . وفي أوائل القرن السادس الميلادي أرسل «كسرى أُنُوشِرْوان» ملك الفرس الطبيب الفارسي «بَرزُويه» ليقوم بنقله إلى اللسان الفهلوي : (الفارسية القديمة) . ثم في منتصف القرن الثاني الهجري نقله الأديب العربي «عبد الله ابن المقفع» عن الفهلوية إلى العربية وكان أوله «باب الأسد والثور» . ولكنك تجد في أوله أربعة أبواب : ثلاثة منها مزيدة في اللغة البهلوية . أما الرابع فقد زاده عبد الله بن المقفع عند تعريبه للكتاب في عهد الخليفة المنصور .

وهذه الأبواب الأربعة المزيدة على الكتاب تشكل رُبْعَه تقريبًا، لكن لا بد لمن يريد الانتفاع بالكتاب أن يقرأها :

١ - ففي مقدمة الكتاب نجد «بهنود بن سحوان» الذي يعرف بعلي بن الشاه الفارسي يذكر السبب الذي من أجله عمل بيدبا الفيلسوف هذا الكتاب لملك الهند .

٢ - أما الباب الثاني فيسلط الأضواء على بعثة برزويه الطبيب الفارسي إلى الهند لتحصيل هذا الكتاب بأمر من الملك كسرى أُنُوشِرْوان .

٣ - وفي الباب الثالث يعرض عبد الله بن المقفع ما تضمنه الكتاب، وقد تضمنت مقدمته مبادئ تربوية على جانب كبير من الأهمية ، لم يتعرض لها بيدبا، ولا برزويه؛ فرأى أن يسجلها.

٤ - ويأتي الباب الرابع تخليدًا لبرزويه ، ومكافأة له على ما قام به، وقد طلب برزويه أن يكون قبل «باب الأسد والثور» أول أبواب كليله ودمتة، وقد كتبه الوزير الفارسي «بَرزُجمهر» بأمر الملك مكافأة لصنيع برزويه، وتخليدًا لذكراه.

ويشاء الله أن تكتسب النسخة العربية شهرة عالمية بعد فقد الأصل الهندي، واختفاء الترجمة الفارسية .

وكانما حملت النسخة العربية مسئولية الحفاظ على هذا الكتاب، وتقديمه إلى طلاب المعرفة، ومتذوقي الفن القصصي، وعلماء الأخلاق والسياسة عبر

وتمر السنون فإذا الناس لا يذكرون إلا عبد الله بن المقفع، وينسبون إليه «كليلة ودمنة» وإذا كان هذا الكتاب يحمل ملامح ثلاث حضارات هي : الهندية، والفارسية، والعربية؛ فإن بصمات ابن المقفع صاحب «الأدب الكبير» و«الأدب الصغير» تبدو واضحة جلية؛ فلا شك أنه نموذج راق للنثر، ترك أثره في أساليب الكتابة العربية على مر السنين.

إنه مثل يُحتذى تتراعى لنا من خلاله مدرسة ابن المقفع وطريقته التي أبدعها في النثر الفني.

وقد يقول قائل : أهنالك ما يدعو إلى هذا الكتاب في عصرنا الحديث ؟
ويجيب واحد ممن يهتمهم أمر التراث^(١) العربي بقوله :

«إن كتاب كليلة ودمنة قضية حاضرة ما دامت أخلاق الأفراد، وسلوك الجماعات، وعلاقات القوى الفاعلة في أي تكوين بشري موضع درس وتحليل من الفلاسفة وعلماء الاجتماع، والنفسانيين وستظل حاضرة مادام اهتمام النقاد والدارسين باللغة الفنية».

ومما يميز الكتاب عن غيره من الكتب أنه وضع لمستويات ثلاثة :
فالبسطاء ، وهواة التسلية يجدون فيه الجانب الترفيهي، ويسعدهم ذلك ويمتعهم.

أما الحكماء : فيختارونه لحكمته ؟ ليستخلصوا منه دوافع السلوك ، وأسرار النفس، وآداب الحياة الاجتماعية بين طوائف الشعب المختلفة، وقادته وأولي الأمر فيه .

وهناك المستوى الثالث : وهم المتعلمون ؛ فإنهم يجدون فيه المعلومات الكثيرة، وتروقهم لغته الصافية في سلاسة وعدوبة!

«وهكذا تتدرج مستويات المعرفة مع مستويات الخبرة، وتنمية الدُرْبَة، فيكفي الصبي أن يعي الحوادث التي قرأها، حتى إذا اكتمل عقله، ونمت خبرته، وصل بنفسه إلى المستوى الأعلى في إدراك ما قد وعى وحفظ»^(٢).

ومن يتصفح مقدمة ابن المقفع يجد أنها قد تضمنت مبادئ تربوية على

(١) التراث : رؤية عصرية للدكتور محمد حسن عبد الله .

(٢) المصدر السابق بتصرف .

جانب عظيم من الأهمية :

إنه يركز على جودة القراءة، والتثبت من المعاني، وتنظيم المعلومات في كل مرحلة بحيث لا يجاوزها إلى ما يليها حتى يتقن ما بدأ به.

ثم هو يؤكد على ضرورة وضع المعرفة النظرية موضع التطبيق، بحيث تتحول الخبرة إلى سلوك ، وهو ما ينادي به علماء التربية اليوم، وبخاصة في مجال الأخلاق والدين!

ويطلب من كل قارئ أن يحدد هدفه لكل عمل، ولا شك أن تحديد الهدف يحمي العمل من الانحراف وضياح الجهد.

وينصح بضرورة وضع حدود ومعالم لكل عمل، وهو ما يسميه التربويون «المنهج» بينما يسميه الإداريون «الخطة» وكم توقفت مشروعات بسبب سوء التخطيط . وإلى جانب هذه المبادئ الأربعة نجده يشير باستخدام القياس والتنظير في تنمية المعرفة، وتوجيه السلوك. وتنشيط العقل لاستخدام القياس هو بذاته بناء للقوة التي هي أعز قوى الإنسان وأشرفها.

الحق أقول : إن هذا الكتاب ثروة أدبية : فكرية، ولغوية.

ولذا نراه ترجم إلى معظم لغات العالم : إنه كتاب عالمي بكل المقاييس ! وأخيرًا فسوف تعرف من مقدمة الكتاب قصة غزو الإسكندر بلاد الهند، وثورة الشعب عليه، وتولي الملك الهندي ديشليم مقاليد الحكم، وغروره وظلمه، مما دفع الفيلسوف بيدبا إلى نصحه، فيقوم الملك بسجنه، ولكنه يندم على فعلته فيقربه إليه، ويجعله وزيرًا له، يستشيريه في كل الأمور، ويطلب منه أن يضع خبرته ونصائحه في كتاب هو : كتاب «كليلة ودمنة».

وكليلة ودمنة : كلاهما من الفصيلة الكلبية، ولكنهما أصغر حجمًا من الذئب! والحديث على ألسنة الحيوانات ليس إلا من قبيل «الأدب الرمزي» الذي ينطبق على عالم الإنسان، وتُسَخَّرُ منه الحكمة والموعظة الحسنة.

ومن أجل هذا كله قمت بتحقيقه، وبذلت جهدي في العناية به ليظهر في هذه الصورة الجميلة شكلًا ومضمونًا، والله حسبي.



شخصيات الحوار



كليلة	: حيوان من الفصيلة الكلبية ، وهو أصغر حجما من الذئب : (ابن أوى) . وكذلك "دملة" .
دبشليم	: الملك الهندي الذي طلب وضع هذا الكتاب .
بيدبا	: الفيلسوف الهندي الذي قام بوضع الكتاب .
برزويه	: الطبيب الفارسي الذي سافر إلى الهند لنقل هذا الكتاب .
كسرى أنوشروان	: ملك الفرس الذي كلف برزويه نقل هذا الكتاب .
أرزويه	: صديق برزويه في الهند وقد ساعده على أداء مهمته .
بهنود بن سحوان	: كتب مقدمة الكتاب ويعرف بعلي بن الشاه .
بزرجمهر بن البختگان	: وزير كسرى، يؤب الكتاب وكتب بابا عن برزويه تكريما له قبل "باب الأسد والثور" .
إيلاز	: وزير الملك وصاحبه وكان ناسكا متعبدا .
بلاز	: أحد الملوك .
كال	: صاحب سر الملك وسيفه .
كباريون	: الحكيم الفاضل ، العالم بالأمور .
إيراخت	: الملكة المحمودة أم جوير .
جوير	: ابن الملك .
حورقناه	: أكرم نساء الملك .
شترية	: الثور .

نسخ الكتاب التي اعتمدت عليها :

" أ " المخطوطة :

تضم دار الكتب المصرية "الهيئة العامة للكتاب" أربع مخطوطات هي :

الفن والرقم	عدد الأوراق	رقم الميكروفيلم
١ - أدب : ٩٥٩٩	٢٠٥	٣٢٦٤٤
٢ - أدب تيمور : ٨٢٤	٣٤٦ صفحة	٢٧٨٥٤

[وقد تم نسخها سنة

١٠٣٠هـ]

٣ - أدب تيمور : ٩٦٧	١٤٢ صفحة	٢٨٢٤٧
٤ - أدب طلعت : ٤٦١٦	١٠٣ ورقات	[وقد نسخت سنة ٧٢١ هـ]

وهي تختلف فيما بينها في متن القصص ، وعدد الأبواب وترتيبها .
وتكاد هذه الظاهرة تشمل النسخ غير العربية كما ذكر العلامة سلفستر دي
ساسي حيث أشكل عليه اختيار نسخة يعتمدها في الطبع .

"ب" النسخ المطبوعة :

ولقد ساعدني على اختيار هذه النسخة على هذا الوجه تلك النسخ الثلاث
المطبوعة وهي :

(١) طبعة بيروت المطبعة الأدبية سنة ١٨٨٤ تحقيق الشيخ خليل اليازجي .

(٢) طبعة بولاق التي قررتها وزارة المعارف المصرية ١٩٠٢ م وكان قد

تم اختيارها في عهد محمد علي وراجعها الشيخ حسن العطار ، بعد

أن شهد لمصححها بالألمعية ، وانفق الناس على صحتها .

(٣) طبعة المطبعة العلمية ليوسف إبراهيم صادر في بيروت سنة ١٩٠٢م .

وعلى الرغم مما بين هذه النسخ المطبوعة من اختلاف شأنها شأن
المخطوطة فقد تيسر لي اختيار هذه النسخة، وقد علقـت عليها، وضبطت
ألفاظها بالشكل الكامل تيسيرا على الناشئين من طلاب العلم.
وسوف يلمس القارئ الكريم أن هذه النسخة جاءت جامعة لمحاسن ما
رجعت إليه من نسخ مخطوطة ومطبوعة مهذبة مما في بعضها من شوائب
التحريف والتصحيف معنونة بما يساعد القارئ على الاستفادة من قصصها ،
والانتفاع بمغزاها، فهرسة بما يتضمن ذكر كل باب وما وضع من أجله .
وها هي ذي بين يديك لتحكم لها أو عليها .

محمد إبراهيم سليم





الثروة اللغوية



من يقرأ "كلىة ودمنة" يعيش مع ابن المقفع في أساليبه وعباراته التي بلغت القمة !

وإذا كان للناشئين فيه نصيبهم ، فمن حقهم علينا أن نتوقف معهم عند الكلمات الصعبة نجلو غامضها حتى يتاح لهم معايشة ابن المقفع في ترجمته العربية للكتاب .

وحتى لا تزدحم الصفحات بأرقام الكلمات قصرنا الترقيم في كل صفحة على فقرات طويلة تضم كل واحدة منها ما تضمنته من ألفاظ وأساليب ليرجع إليها من شاء من القراء .

وسوف يلمس الجميع مدى الجهد المبذول .
نسأل الله أن ينفع به أبناءنا وبناتنا إنه أكرم مسئول .



بَابُ مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ

قَدَّمَهَا بَهْنُودُ بْنُ سَحَوَانَ وَيُعْرَفُ بِعَلِيِّ بْنِ الشَّاهِ الْفَارِسِيِّ. ذَكَرَ فِيهَا السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ عَمِلَ يَتَدَبَّأُ الْفَيْلَسُوفُ الْهِنْدِيُّ رَأْسَ الْبَرَاهِمَةِ لِدَبْشَلِيمَ مَلِكِ الْهِنْدِ كِتَابَهُ الَّذِي سَمَّاهُ «كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ» وَجَعَلَهُ عَلَى أَلْسِنِ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ؛ صِيَانَةً لِعَرْضِهِ فِيهِ مِنَ الْعَوَامِّ، وَضَنًّا بِمَا ضَمَّنَهُ عَنِ الطَّغَامِ، وَتَنْزِيهَاً لِلْحِكْمَةِ وَفُنُونِهَا وَمَحَاسِنِهَا وَعُيُونِهَا؛ إِذْ هِيَ لِلْفَيْلَسُوفِ مَنْدُوحَةٌ، وَلِخَاطِرِهِ مَفْتُوحَةٌ، وَلِمُحِبِّبِهَا تَثْقِيفٌ، وَلِطَالِبِهَا تَشْرِيفٌ^(١).

وَذَكَرَ السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَنْفَذَ كِسْرَى أَوِشِيَرَوَانُ بْنُ قَبَّاذَ بْنِ فَيَزُورَ مَلِكُ الْفُرسِ بَرْزَوِيَّهَ رَأْسَ أَطِبَّاءِ فَارِسَ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ لِأَجْلِ كِتَابِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ؛ وَمَا كَانَ مِنْ تَلَطُّفٍ بَرْزَوِيَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ إِلَى الْهِنْدِ؛ حَتَّى حَضَرَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ الَّذِي اسْتَنْسَخَهُ لَهُ سِرًّا مِنْ خِزَانَةِ الْمَلِكِ لَيْلًا مَعَ مَا وَجَدَ مِنْ كُتُبِ عُلَمَاءِ الْهِنْدِ^(٢).

وَقَدْ ذَكَرَ الَّذِي كَانَ مِنْ بَغْيَةِ بَرْزَوِيَّهَ إِلَى مَمْلَكَةِ الْهِنْدِ لِأَجْلِ نَقْلِ هَذَا الْكِتَابِ؛ وَذَكَرَ فِيهَا مَا يَلْزَمُ مُطَالَعَهُ مِنْ إِتْقَانِ قِرَائَتِهِ، وَالْقِيَامِ بِدِرَاسَتِهِ، وَالنَّظَرِ إِلَى بَاطِنِ كَلَامِهِ؛ وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمْ يَحْصُلْ عَلَى الْغَايَةِ مِنْهُ.

وَذَكَرَ فِيهَا حُضُورَ بَرْزَوِيَّهَ وَقِرَاءَةَ الْكِتَابِ جَهْرًا وَقَدْ ذَكَرَ السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وَضَعَ بُرْزُجْمَهْرُ بَابًا مَفْرُودًا يُسَمَّى «بَابَ بَرْزَوِيَّهَ الطَّبِيبِ»، وَذَكَرَ فِيهِ شَأْنَ بَرْزَوِيَّهَ مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ، وَإِنْ مَوْلَاهُ إِلَى أَنْ بَلَغَ الثَّانِيَةَ، وَأَحَبَّ الْحِكْمَةَ وَأَعْتَبَرَ فِي أَقْسَامِهَا. وَجَعَلَهُ قَبْلَ «بَابِ الْأَسَدِ وَالنَّوْرِ» الَّذِي هُوَ أَوَّلُ الْكِتَابِ^(٣).

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الشَّاهِ الْفَارِسِيُّ: كَانَ السَّبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وَضَعَ يَتَدَبَّأُ الْفَيْلَسُوفُ لِدَبْشَلِيمَ مَلِكِ الْهِنْدِ كِتَابَ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ: أَنَّ الْإِسْكَانْدَرَ ذَا الْقَرْنَيْنِ الرَّومِيِّ، لَمَّا فَرَعَ مِنْ أَمْرِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كَانُوا بِإِنْحِيَةِ الْمَغْرِبِ، سَارَ يُرِيدُ مُلُوكَ الْمَشْرِقِ مِنَ الْفُرسِ وَغَيْرِهِمْ؛ فَلَمْ يَزَلْ يُحَارِبُ مَنْ نَارَعَهُ

(١) رَأْسُ الْبَرَاهِمَةِ: الْبَرَاهِمَةُ: خِدْمَةُ إِلَهِ الْهِنْدِ. وَرَأْسُهُمْ: كَبِيرُهُمْ وَمَفْرُودًا: يَزْعُمُنْ. وَالْفَيْلَسُوفُ: الْمَحْبِبُّ لِلْحِكْمَةِ. ضَنًّا: بِخِلَافِ

الطَّغَامِ: أَرَادَ النَّاسَ وَأَوْغَادَهُمْ. عِيُونُهَا: نَفَاسُهَا. وَالْعَيْنُ: النَّفْسُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَيُقَالُ: هَذِهِ الْقَصِيدَةُ مِنْ عِيُونِ الشَّعْرِ.

(٢) أَنْفَذَ: بَعَثَ وَأَرْسَلَ. الرَّأْسُ: مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَعْلَاهُ، وَسِيدُ الْقَوْمِ. تَلَطَّفَ: تَرَفَّقَ وَاحْتِيَالًا. اسْتَنْسَخَهُ: طَلَبَ مِنْهُ نَسْخَهُ.

(٣) الْحِكْمَةُ: مَعْرِفَةُ أَفْضَلِ الْأَشْيَاءِ بِأَفْضَلِ الْعُلُومِ. اعْتَبَرَ: بَحَثَ وَنَظَرَ وَاتَمَعَّظَ.

وَيُؤَاقِعُ مَنْ وَاقَعَهُ؛ وَيُسَالِمُ مَنْ وَادَعَهُ مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ، وَهُمْ الطَّبَقَةُ الْأُولَى، حَتَّى ظَهَرَ عَلَيْهِمْ، وَفَهَرَ مَنْ نَاوَاهُ وَتَغَلَّبَ عَلَى مَنْ حَارَبَهُ، فَتَفَرَّقُوا طَرَائِقَ وَتَمَزَّقُوا خَزَائِقَ^(١).

فَتَوَجَّهَ بِالْجُنُودِ نَحْوَ بِلَادِ الصِّينِ؛ فَبَدَأَ فِي طَرِيقِهِ بِمَلِكِ الْهِنْدِ لِيَدْعُوهُ إِلَى طَاعَتِهِ، وَالذُّخُولِ فِي مِلَّتِهِ وَوِلَايَتِهِ. وَكَانَ عَلَى الْهِنْدِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مَلِكٌ ذُو سَطْوَةٍ وَبَأْسٍ وَقُوَّةٍ وَمِرَاسٍ، يُقَالُ لَهُ «فُوز».

فَلَمَّا بَلَغَهُ إِقْبَالُ ذِي الْقَرْنَيْنِ نَحْوَهُ تَأَهَّبَ لِمُحَارَبَتِهِ وَاسْتَعَدَّ لِمُجَادَبَتِهِ؛ وَضَمَّ إِلَيْهِ أَطْرَافَهُ؛ وَجَدَّ فِي التَّأَلُّبِ عَلَيْهِ، وَجَمَعَ لَهُ الْعُدَّةَ فِي أَسْرَعِ مَدَّةٍ مِنَ الْفِيلَةِ الْمُعَدَّةِ لِلْحُرُوبِ، وَالسَّبَاعِ الْمُضْرَاةِ بِالْوُثُوبِ؛ مَعَ الْخِيُولِ الْمُسْرَجَةِ، وَالسُّيُوفِ الْقَوَاطِعِ، وَالْحِرَابِ اللَّوَامِعِ^(٢).

فَلَمَّا قَرَّبَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْ فُوزِ الْهِنْدِيِّ، وَبَلَغَهُ مَا قَدْ أَعَدَّ لَهُ مِنَ الْخَيْلِ، الَّتِي كَانَتْهَا قِطْعُ اللَّيْلِ مِمَّا لَمْ يَلْقَهُ بِمِثْلِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْأَقَالِيمِ، تَخَوَّفَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْ تَقْصِيرِ يَقَعُ بِهِ إِنْ عَجَلَ الْمُبَارَزَةَ.

وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ رَجُلًا ذَا حَيْلٍ وَمَكَايِدَ، مَعَ حُسْنِ تَذْيِيرٍ وَتَجْرِبَةٍ، فَرَأَى إِعْمَالَ الْحِيلَةِ وَالْتِمَهُلَ، وَاحْتَفَرَ خَنْدَقًا عَلَى عَشْكِرِهِ، وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ لِاسْتِنْبَاطِ الْحِيلَةِ وَالتَّذْيِيرِ لِأَمْرِهِ؛ وَكَيْفَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى الْإِيقَاعِ بِهِ. فَاسْتَدْعَى بِالْمُنْجِمِينَ^(٣).

وَأَمَرَهُمْ بِالْإِخْتِيَارِ لِيَوْمٍ مُوَافِقٍ تَكُونُ لَهُ فِيهِ سَعَادَةٌ لِمُحَارَبَةِ مَلِكِ الْهِنْدِ وَالتَّصَرُّعِ عَلَيْهِ؛ فَاسْتَعْلَوْا بِذَلِكَ.

وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ لَا يَمُرُّ بِمَدِينَةٍ إِلَّا أَخَذَ الصَّنَاعَ الْمَشْهُورِينَ مِنْ صُنَائِعِهَا بِالْحِذْقِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ. فَتَنَجَّحَ لَهُ هِمَّتُهُ وَذَلَّتْهُ فِطْنَتُهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى الصَّنَاعِ الَّذِينَ مَعَهُ، أَنْ يَصْنَعُوا حَيْلًا مِنْ نُحَاسٍ مُجَوَّفَةٍ، عَلَيْهَا تَمَائِيلُ مِنَ الرُّجَالِ عَلَى بَكْرِ تَجْرِي، إِذَا دُفِعَتْ مَرَّتْ سِرَاعًا. وَأَمَرَ إِذَا فَرَّغُوا مِنْهَا

(١) تجل قصته في سورة الكهف من ٨٣ - ٩٨، وفي الأربعة الذين ملكوا العالم: مؤمنان وكافران من إصدار مكتبة ابن سينا. يواقع: يحارب. وتسمى المعركة: موقعة. وادعه: سالمه، وصالحه، وهادنه، وتاركه. ظهر عليهم: غلبهم. ناواه: عاداه. الطرائق: الفرق المختلفة الأهواء. خزائق: قطعاً وجماعات. والجزقة: الجماعة من كل شيء وجمعها جزق. يقال: تتابعوا كأنهم خزق الجراد.

(٢) مِرَاس: جَلَدٌ، وَقُوَّةٌ، وَمَعَارَسَةٌ لِلْأُمُورِ. مُجَادَبَتُهُ: مُنَازَعَتُهُ وَمَقَاتَلَتُهُ. ضَمَّ أَطْرَافَهُ: اسْتَجْمَعَ كُلَّ قَوَاهِ. التَّأَلُّبُ عَلَيْهِ: التَّحْرِيسُ وَالتَّضَافُرُ. الْعُدَّةُ: الْمَالُ وَالسَّلَاحُ وَمَا يَلْزَمُ لِلْحَرْبِ. السَّبَاعُ الْمُضْرَاةُ بِالْوُثُوبِ: الْحَيَوَانَاتُ الْمَذْبُوزَةُ عَلَى الْإِفْتِرَاسِ وَالْمَعُودَةُ عَلَيْهِ وَالهجوم على من تراه، والفتك به. الحِرَابُ: جمع حربة.

(٣) استنباط الحيلة: استخراجها والبحث عن حيلة. الإيقاع به: البطش والفتك. فاستدعى المنجمين: وكانت تلك عادتهم، ولا يعلم الغيب إلا الله، ولعلك قد سمعت القول المشهور: «كذب المنجمون وإن صدقوا».

أَنْ تُحَسِّيَ أَجْوَأَهَا بِالْفَيْلِ وَالْكَبِيرِ؛ وَتُلَبِّسَ وَتُقَدِّمَ أَمَامَ الصَّفِّ فِي الْقَلْبِ وَوَقْتَمَا يَلْتَقِي الْجَمْعَانِ تُضْرَمُ^(١) فِيهَا النَّيْرَانُ؛ فَإِنَّ الْفَيْلَةَ إِذَا لَفَتْ خَرَاطِيمَهَا عَلَى الْفُرْسَانِ وَهِيَ حَامِيَةٌ وَلَتْ هَارِبَةٌ.

وَأَوْعَزَ إِلَى الصُّنَاعِ بِالنَّشْمِيرِ وَالْإِنْكَمَاشِ وَالْفَرَاغِ مِنْهَا؛ فَجَدُّوا فِي ذَلِكَ وَعَجِلُوا وَقَرَّبَ أَيْضًا وَقْتُ اخْتِيَارِ الْمُتَنَجِّمِينَ؛ فَأَعَادَ ذُو الْقَرْنَيْنِ رُسُلَهُ إِلَى فُورٍ بِمَا يَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَالْإِدْعَانِ لِدَوْلَتِهِ؛ فَأَجَابَ جَوَابَ مَصْرٍ عَلَى مُخَالَفَتِهِ، مُقِيمٌ عَلَى مُحَارَبَتِهِ. فَلَمَّا رَأَى ذُو الْقَرْنَيْنِ عَزِيمَتَهُ سَارَ إِلَيْهِ بِأَهْبَتِهِ وَقَدَّمَ فُورَ الْفَيْلَةِ أَمَامَهُ وَدَفَعَتِ الرِّجَالُ تِلْكَ الْخَيْلَ وَتَمَائِيلَ الْفُرْسَانِ^(٢)؛ فَأَقْبَلَتِ الْفَيْلَةُ نَحْوَهَا وَلَفَّتْ خَرَاطِيمَهَا عَلَيْهَا؛ فَلَمَّا أَحَسَّتْ بِالْحَرَارَةِ أَلْقَتْ مَنْ كَانَ عَلَيْهَا، وَدَاسَتْهُمْ تَحْتَ أَرْجُلِهَا، وَمَضَتْ مَهْزُومَةً هَارِبَةً، لَا تَلْوِي عَلَى شَيْءٍ، وَلَا تَمُرُّ بِأَحَدٍ إِلَّا وَطَقَتْهُ. وَتَقَطَّعَ فُورٌ وَجْمَعُهُ، وَتَبِعَهُمْ أَصْحَابُ الْإِسْكَندَرِ؛ وَأَتَخَنُوا فِيهِمُ الْجِرَاحَ، وَصَاحَ الْإِسْكَندَرُ: يَا مَلِكَ الْهِنْدِ، ابْزُرْ إِلَيْنَا، وَأَبْقِ عَلَى عُدَّتِكَ وَعِيَالِكَ، وَلَا تَحْمِلْهُمْ إِلَى الْفَنَاءِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُرُوءَةِ أَنْ يَزِمِي الْمَلِكُ بَعْدَتِهِ فِي الْمَهَالِكِ الْمُتَلِفَةِ وَالْمَوَاضِعِ الْمُجْحِفَةِ؛ بَلْ يَقِيهِمْ بِمَالِهِ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ بِنَفْسِهِ، فَأَبْزُرْ إِلَيَّ وَدَعِ الْجُنْدَ، فَأَيُّنَا قَهَرٌ صَاحِبُهُ فَهُوَ الْأَسْعَدُ^(٣).

فَلَمَّا سَمِعَ فُورٌ مِنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ذَلِكَ الْكَلَامَ دَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى مُلَاقَاتِهِ طَمَعًا فِيهِ، وَظَنَّ ذَلِكَ فُرْصَةً، فَبَزَرَ إِلَيْهِ الْإِسْكَندَرُ فَتَجَاوَلَا عَلَى ظَهْرَيْ فَرَسَيْهِمَا سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ لَيْسَ يَلْقَى أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ فُرْصَةً، وَلَمْ يَزَالَا يَتَعَارَكَانِ.

فَلَمَّا أَعْيَى الْإِسْكَندَرُ أَمْرُهُ، وَلَمْ يَجِدْ فُرْصَةً وَلَا حِيلَةً، أَوْقَعَ ذُو الْقَرْنَيْنِ فِي عَسْكَرِهِ صَبِيحَةً عَظِيمَةً، ارْتَجَّتْ لَهَا الْأَرْضُ وَالْعَسَاكِرُ؛ فَالْتَفَتَ فُورٌ عِنْدَمَا سَمِعَ الرُّعْفَةَ وَظَنَّهَا مَكِيدَةً فِي عَسْكَرِهِ. فَعَاجَلَهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِضَرْبَةٍ أَمَلَتْهُ عَنْ سَرِّهِ، أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى فَوَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ. فَلَمَّا رَأَتْ الْهُنُودُ مَا نَزَلَ بِهِمْ، وَمَا صَارَ إِلَيْهِ مَلِكُهُمْ؛ حَمَلُوا عَلَى الْإِسْكَندَرِ فَقَاتَلُوهُ قِتَالًا أَحْبَبُوا مَعَهُ الْمَوْتَ^(٤). فَوَعَدَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ الْإِحْسَانَ، وَمَنَحَهُ اللَّهُ أَكْثَانَهُمْ؛ فَاسْتَوْلَى عَلَى بِلَادِهِمْ وَمَلَّكَ

(١) الحذق : المهارة والإجادة والانتقان . فطنته : حذقه ومهارته . تلبس : تغطى بحيث لا يفتضح أمرها . تضرم : تشعل .

(٢) أوعز : أشار ، والنشيمير : الجذ والانكماش : الإسراع . الإدعان : الخضوع والامتثال والانقياض . الأهبة : العدة .

(٣) لا تلوي على شيء : لا تتوقف ، ولا تنتظر . ووطنه : داتته . تقطع : تمزق وتفرق . أتخنوا فيهم الجراح : بالغوا في قتلهم . عيالك : من يتولى أمرهم من شعبه . المروءة : كمال الرجولية ، أو الآداب النفسية التي تكسب صاحبها محاسن الأخلاق وجميل العادات . المجحفة : المهلكة . قهره : غلبه وهزمه .

(٤) تجاؤلا : تطاردا وتصارولا . أعيا : أعجز . أوقع : أنزل فيهم صبيحة كان لها وقعها . والنزج : زحل الدابة . حملوا عليه : كزوا ، وهجموا .

عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ ثِقَاتِهِ. وَأَقَامَ بِالْهِنْدِ حَتَّى اسْتَوْتَقَ لَهُ مَا أَرَادَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَاتَّفَاقِ كَلِمَتِهِمْ؛ ثُمَّ انْصَرَفَ عَنِ الْهِنْدِ وَخَلَّفَ ذَلِكَ الرَّجُلَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ مَا قَصَدَ لَهُ.

فَلَمَّا بَعْدَ ذُو الْقَرْنَيْنِ عَنِ الْهِنْدِ بِجُيُوشِهِ، تَغَيَّرَتِ الْهُنُودُ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ طَاعَةِ الرَّجُلِ الَّذِي خَلَفَهُ عَلَيْهِمْ؛ وَقَالُوا لَيْسَ يَصْلُحُ لِلْإِسْكَانْدَرِ وَلَا تَرْضَى الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ أَنْ يَمْلِكُوا عَلَيْهِمْ رَجُلًا لَيْسَ هُوَ مِنْهُمْ وَلَا مِنْ أَهْلِ يُوْتِيهِمْ؛ فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَسْتَدِلُّهُمْ وَيَسْتَقْلِبُهُمْ^(١). وَاجْتَمَعُوا يَمْلِكُونَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ مُلُوكِهِمْ؛ فَمَلَكُوا عَلَيْهِمْ مَلِكًا يُقَالُ لَهُ: دَبْشَلِيمُ، وَخَلَعُوا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ خَلَفَهُ عَلَيْهِمْ الْإِسْكَانْدَرُ. فَلَمَّا اسْتَوْتَقَ لَهُ الْأَمْرُ، وَاسْتَقَرَّ لَهُ الْمُلْكُ، طَعَى وَبَغَى وَتَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ، وَجَعَلَ يَغْزُو مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمُلُوكِ. وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مُؤَيَّدًا مُظْفَرًا مُنْصُورًا فَهَابَتْهُ الرَّعِيَّةُ. فَلَمَّا رَأَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْمُلْكِ وَالسُّطُورَةِ عَيْثُ بِالرَّعِيَّةِ، وَاسْتَصَغَرَ أَمْرُهُمْ، وَأَسَاءَ السَّيْرَةَ فِيهِمْ، وَكَانَ لَا يَزِيحُ حَالَهُ إِلَّا أَرَادَ عُثُوءًا؛ فَمَكَثَ عَلَى ذَلِكَ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ^(٢).

وَكَانَ فِي زَمَانِهِ فَيَلْسُوفٌ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ فَاضِلٌ حَكِيمٌ يُعْرِفُ بِفَضْلِهِ، وَيُزِجُّ فِي الْأُمُورِ إِلَى قَوْلِهِ، يُقَالُ لَهُ: يَتَدَبَّا. فَلَمَّا رَأَى الْمُلْكَ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ لِلرَّعِيَّةِ، فَكَّرَ فِي وَجْهِ الْحِيلَةِ فِي صَرْفِهِ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ، وَرَدَّهِ إِلَى الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ؛ فَجَمَعَ لِدَلِيلِكَ تَلَامِيذَهُ، وَقَالَ: اتَّعَلَّمُونَ مَا أُرِيدُ أَنْ أَشَاوِرْكُمْ فِيهِ؟ اَعْلَمُوا أَنِّي أَطَلْتُ الْفِكْرَةَ فِي دَبْشَلِيمِ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنِ الْعَدْلِ، وَزُرُومِ الشَّرِّ، وَرَدَاةِ السَّيْرَةِ، وَسُوءِ الْعِشْرَةِ مَعَ الرَّعِيَّةِ^(٣). وَنَحْنُ مَا نَرُوضُ أَنْفُسَنَا لِمِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ إِذَا ظَهَرَتْ مِنَ الْمُلُوكِ إِلَّا لِنَرُدَّهُمْ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ، وَلِزُرُومِ الْعَدْلِ. وَمَتَى أَغْفَلْنَا ذَلِكَ وَأَهْمَلْنَا هَؤُلَاءِ لَزِمَ وَقُوعُ الْمَكْرُوهِ بِنَا، وَبُلُوغُ الْمُخْذُورَاتِ إِلَيْنَا إِذْ كُنَّا فِي أَنْفُسِ الْجُهَالِ أَجْهَلُ مِنْهُمْ وَفِي الْعُيُونِ عِنْدَهُمْ أَقَلُّ مِنْهُمْ!

وَلَيْسَ الرَّأْيُ عِنْدِي الْجَلَاءُ عَنِ الْوَطَنِ، وَلَا يَسْغَنَانِي فِي حِكْمَتِنَا إِنْقَاؤُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السَّيْرَةِ، وَفُتْحِ الطَّرِيقَةِ، وَلَا يُمْكِنُنَا مُجَاهَدَتُهُ بَعْدَ أَلْسِنَتِنَا، وَلَوْ ذَهَبْنَا إِلَى أَنْ نَسْتَعِينَ بِغَيْرِنَا لَمْ تَنْتَهِيَا لَنَا مُعَانَدَتُهُ.

(١) منحہ اللہ آکٹھام : ممکنہ منہم . والثقات : جمع ثقة وهو المؤتمن . واستوتق له ما أراد : أصبح على ثقة ويقين وأخذ الثقة . يستقلهم : يحتقرهم .

(٢) استوتق له الأمر : اجتمع وانضم وانتظم . مظفراً : متصراً . والرعية : الشعب . وهابته : خافته . أساء حكمها ومعاملتها . والسيرة : السلوك والمعاملة . والعنق : الاستكبار والتجبر والظن . وبُرْهَةً من دهره : فترة من الزمان .

(٣) الحكيم : الفيلسوف ، والمحب للحكمة ، ويرجع في الأمور إليه : يُسْتَشَارُ ، ويؤخذ رأيه . الخارج عن العدل : يكون ظالماً . ورداة السيرة : قبح المعاملة .

وَأِنْ أَحْسَنَ مِنَّا بِمُخَالَفَتِهِ وَإِنْ كَارِنَا سُوءَ سِيرَتِهِ كَانَ فِي ذَلِكَ بَوَازُنًا^(١).

وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مُجَاوِرَةَ السَّبْعِ وَالْكَلْبِ وَالْحَيَّةِ وَالثَّوْرِ عَلَى طَيْبِ الْوَطَنِ وَنَضَارَةِ الْعَيْشِ عَدْرٌ بِالنَّفْسِ، وَإِنَّ الْفَيْلَسُوفَ لِحَقِيقٍ أَنْ تَكُونَ هَيْئَتُهُ مَضْرُوفَةً إِلَى مَا يُحْصَنُ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ نَوَازِلِ الْمَكْرُوهِ، وَلَوْ أَحَقَّ الْمَحْذُورِ، وَيَذْفَعُ الْمَخُوفَ لِاسْتِجْلَابِ الْمَحْبُوبِ.

وَلَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّ فَيْلَسُوفًا كَتَبَ إِلَى تَلْمِيذِهِ يَقُولُ: إِنَّ مُجَاوِرَ رِجَالِ السُّوءِ وَالْمُصَاحِبِ لَهُمْ كَرَائِبَ الْبَحْرِ: إِنْ هُوَ سَلِمَ مِنَ الْغَرَقِ، لَمْ يَسَلِّمْ مِنَ الْمَخَافِ؛ فَإِذَا هُوَ أَوْرَدَ نَفْسَهُ مَوَارِدَ الْهَلَكَاتِ، وَمَصَادِرَ الْمَخُوفَاتِ عُدَّ مِنَ الْحَمِيرِ الَّتِي لَا نَفْسَ لَهَا؛ لِأَنَّ الْحَيَوَانَاتِ الْبَهِيمِيَّةَ قَدْ خُصَّتْ فِي طَبَائِعِهَا بِمَعْرِفَةِ مَا تَكْتَسِبُ بِهِ النَّفْعَ وَتَتَوَقَّى الْمَكْرُوهَ^(٢).

وَذَلِكَ أَنَّنَا لَمْ نَرَهَا تُورِدُ أَنْفُسَهَا مَوْرِدًا فِيهِ هَلَكْتُهَا، وَأَنَّهَا مَتَى أَشْرَفَتْ عَلَى مَوْرِدٍ مُهْلِكٍ لَهَا مَالَتْ بِطَبَائِعِهَا الَّتِي رُكِبَتْ فِيهَا شُحًا بِأَنْفُسِهَا، وَصِيَانَةً لَهَا إِلَى التَّنْفُورِ وَالتَّبَاعُدِ عَنْهُ. وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهَذَا الْأَمْرِ لِأَنَّكُمْ أُسْرَتِي، وَمَكَانُ سِرِّي، وَمَوْضِعُ مَعْرِفَتِي، وَبِكُمْ أَعْتَصِدُ، وَعَلَيْكُمْ أَعْتَمِدُ؛ فَإِنَّ الْوَحِيدَ فِي نَفْسِهِ وَالْمُنْفَرِدَ بِرَأْيِهِ حَيْثُ كَانَ فَهُوَ ضَائِعٌ، وَلَا نَاصِرَ لَهُ. عَلَى أَنَّ الْعَاقِلَ قَدْ يَبْلُغُ بِحِيلَتِهِ مَا لَا يَبْلُغُ بِالْحَيْلِ وَالْجُنُودِ^(٣).

وَالْمَثَلُ فِي ذَلِكَ: أَنَّ قُبْرَةَ انْخَدَثَتْ أُذْجِيَّةً وَبَاضَتْ فِيهَا عَلَى طَرِيقِ الْفَيْلِ؛ وَكَانَ لِلْفَيْلِ مَشْرَبٌ يَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ، فَمَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى عَادَتِهِ لِيَرِدَ مَوْرِدَهُ؛ فَوَطِئَ عُشَّ الْقُبْرَةِ، وَهَشَّمَ يَنْصُصَهَا، وَقَتَلَ فِرَاحَهَا؛ فَلَمَّا نَظَرَتْ مَا سَاءَ مَا عِلِمَتْ أَنَّ الَّذِي نَالَهَا مِنَ الْفَيْلِ لَا مِنْ غَيْرِهِ؛ فَطَارَتْ فَوَقَعَتْ عَلَى رَأْسِهِ بِاِكِيَّةٍ ثُمَّ قَالَتْ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، لِمَ هَشَّمْتَ يَنْصُصِي، وَقَتَلْتَ فِرَاحِي، وَأَنَا فِي جِوَارِكَ؟! أَفَعَلْتَ هَذَا اسْتِصْغَارًا مِنْكَ لِأَمْرِي، وَاحْتِقَارًا لِشَأْنِي؟! قَالَ: هُوَ الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى ذَلِكَ؛ فَتَرَكْتُهُ وَانْصَرَفْتُ إِلَى جَمَاعَةِ الطَّيْرِ؛ فَشَكَّتْ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ الْفَيْلِ^(٤). فَقُلْنَ لَهَا: وَمَا عَسَى أَنْ تَبْلُغَ مِنْهُ

(١) نَرُوضُ أَنْفُسَنَا: نُذَلِّلُهَا وَنَجْعَلُهَا تَخَضَعُ وَتَصْبِرُ إِلَى حِينٍ. وَالْمَحْذُورَاتُ: جَمْعُ مُحْذَرٍ، وَهُوَ مَا يَنْقُضُ وَيُخْخِزُ. الْجَلَاءُ: التَّزَوُّجُ وَالهَجْرَةُ وَالْفِرَاقُ. وَمُجَاهَدَتُهُ: مُحَارَبَتُهُ وَمَقَاتَلَتُهُ. بَغِيرُ أَلْسِنَاتٍ: وَتَغْيِيرُ الْمَنْكَرِ يَكُونُ بِالْيَدِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلُغَتِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ. وَمَعَانِدَتُهُ: مَقَاتَلَتُهُ. وَالْوُقُوفُ فِي وَجْهِهِ. بَوَازُنًا: هَلَاكُنَا.

(٢) نَضَارَةُ الْعَيْشِ: رَغَدُهُ، وَنَعِيمُهُ وَحَسَنُهُ. لِحَقِيقٍ: لِحَدِيدٍ بِهِ. النَّوَازِلُ: جَمْعُ نَازِلَةٍ وَهِيَ الْمَصِيبَةُ الشَّدِيدَةُ. وَلَوْ أَحَقَّ الْمَحْذُورِ: الْمَصَابِغُ الْمُتَلَاحِقَةُ الْمُتَابِعَةُ. وَاسْتِجْلَابُ الْمَحْبُوبِ: طَلْبُهُ وَجَلْبُهُ.

(٣) أَوْرَدَ نَفْسَهُ مَوَارِدَ الْهَلَكَاتِ: دَفَعَهَا إِلَى أَنْ تَذُوقَ الْهَلَاكَ. وَالْمَخُوفَاتُ: كُلُّ مَا نَخَافُهُ وَنَتَّقِيهِ وَنَحْذَرُهُ. وَالنَّفْسُ: الرُّوحُ. وَالْمَوَارِدُ: جَمْعُ مَوْرِدٍ وَهُوَ الْمَنْهَلُ، وَالطَّرِيقُ، وَمَصْدَرُ الرِّزْقِ. شُحًا بِأَنْفُسِهَا: ضَنْبًا بِهَا وَجَفَظًا عَلَيْهَا. التَّنْفُورُ: التَّبَعْدُ. أَعْتَصَدُ: أَسْتَعِينُ وَأَتَقَوَّى.

(٤) الْقُبْرَةُ: وَاحِدَةُ الْقُبْرِ وَهُوَ جَنْسٌ مِنَ الطُّيُورِ مَخْرُوطِيَّةُ الْمَنَاقِيرِ، سَمَرُ فِي أَعْلَاهَا، ضَارِبَةٌ إِلَى بَيَاضٍ فِي أَسْفَلِهَا، وَعَلَى صَدْرِهَا بَقْعَةٌ سَوْدَاءُ. أُذْجِيَّةٌ: مَوْضِعُ بَيْضِ النِّعَامِ وَتَفْرِيقُهُ وَكَذَلِكَ الْأَذْخُوءَةُ. مَشْرَبٌ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يَشْرَبُ مِنْهُ.

وَنَحْنُ طُيُورٌ؟ فَقَالَتْ لِلْعَقَاقِ وَالْغُرَبَانِ: أَحِبُّ مِنْكُنَّ أَنْ تَصِرْنَ مَعِيَ إِلَيْهِ، فَتَفْقَأَنَّ عَيْنَيْهِ، فَإِنِّي أَحْتَالُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِحِيلَةٍ أُخْرَى! فَأَجْبَنَهَا إِلَى ذَلِكَ، وَذَهَبْنَ إِلَى الْفِيلِ فَلَمْ يَزَلْنَ يَنْفَرُونَ عَيْنَيْهِ حَتَّى ذَهَبْنَ بِهِمَا، وَبَقِيَ لَا يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقِ مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ إِلَّا مَا يَقُمُّهُ مِنْ مَوْضِعِهِ! فَلَمَّا عَلِمَتْ ذَلِكَ مِنْهُ جَاءَتْ إِلَى غَدِيرٍ فِيهِ صَفَادُغٌ كَثِيرَةٌ؛ فَشَكَتْ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ الْفِيلِ^(١).

قَالَتِ الصَّفَادُغُ: مَا حِيلَتُنَا نَحْنُ فِي عِظَمِ الْفِيلِ وَأَيْنَ نَبْلُغُ مِنْهُ؟ قَالَتْ: أَحِبُّ مِنْكُنَّ أَنْ تَصِرْنَ مَعِيَ إِلَى وَهْدَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُ؛ فَتَنْفَقَنَّ فِيهَا وَتَضْجَجَنَّ، فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَ أَصْوَاتَكُنَّ لَمْ يَشْكُ فِي الْمَاءِ فَيَهْوِي فِيهَا؟ فَأَجْبَنَهَا إِلَى ذَلِكَ؛ وَاجْتَمَعْنَ فِي الْهَآوِيَةِ؛ فَسَمِعَ الْفِيلُ نَقِيقَ الصَّفَادُغِ وَقَدْ أَجْهَدَهُ الْعَطَشُ؛ فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَعَ فِي الْوَهْدَةِ فَارْتَطَمَ فِيهَا. وَجَاءَتِ الْقُبْرَةُ تُزْفِرُ عَلَى رَأْسِهِ؛ وَقَالَتْ: أَيُّهَا الطَّاعِي الْمُعْتَرِّ بِقُوَّتِهِ الْمُخْتَرِّ لِأَمْرِي، كَيْفَ رَأَيْتَ عِظَمَ حِيلَتِي مَعَ صِغَرِ جُثَّتِي عِنْدَ عِظَمِ جُثَّتِكَ وَصِغَرِ هِمَّتِكَ^(٢)!؟

فَلْيُشِرْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُم بِمَا يَسْتَحُ لُهُ مِنَ الرَّأْيِ. قَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ: أَيُّهَا الْفِيلُ اسُوفُ الْفَاضِلُ، وَالْحَكِيمُ الْعَادِلُ، أَنْتَ الْمُقَدَّمُ فِينَا، وَالْفَاضِلُ عَلَيْنَا، وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ مَبْلَغُ رَأْيِنَا عِنْدَ رَأْيِكَ، وَفَهْمِنَا عِنْدَ فَهْمِكَ!؟ غَيْرَ أَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ السَّابَّاحَةَ فِي الْمَاءِ مَعَ التَّمْسَاحِ تَغْيِيرٌ، وَالذَّنْبُ فِيهِ لِمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ، وَالَّذِي يَسْتَخْرِجُ السَّمَّ مِنْ نَابِ الْحَيَّةِ فَيَتَلَّغُهُ لِيَجْرِيَهُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَيْسَ الذَّنْبُ لِلْحَيَّةِ، وَمَنْ دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فِي غَابَتِهِ لَمْ يَأْمَنْ وَثْبَتُهُ. وَهَذَا الْمَلِكُ لَمْ تُفْرَعُهُ النَّوَائِبُ، وَلَمْ تُؤْذَنْهُ التَّجَارِبُ^(٣). وَلَسْنَا نَأْمَنْ عَلَيْكَ مِنْ سَوْرَتِهِ، وَمُبَادَرَتِهِ بِسُوءٍ إِذَا لَقِيْتَهُ بِغَيْرِ مَا يُحِبُّ. فَقَالَ الْحَكِيمُ بَيِّنْدَبَا: لَعَمْرِي لَقَدْ قُلْتُمْ فَأَحْسَنْتُمْ، لَكِنَّ ذَا الرَّأْيِ الْحَازِمَ لَا يَدْعُ أَنْ يُشَاوَرَ مَنْ هُوَ دُونَهُ، أَوْ فَوْقَهُ فِي الْمَنْزِلَةِ. وَالرَّأْيُ الْفَرْدُ لَا يُكْتَفَى بِهِ فِي الْخَاصَّةِ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي الْعَامَّةِ. وَقَدْ صَحَّتْ غَرِيبَتِي عَلَى لِقَاءِ دَبْشَلِيمَ. وَقَدْ سَمِعْتُ مَقَالَاتِكُمْ؛ وَتَبَيَّنَ لِي نَصِيحَتُكُمْ، وَالْإِشْفَاقُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ! غَيْرَ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيَا، وَعَزَمْتُ عَزْمًا، وَسَتَعْرِفُونَ حَدِيثِي عِنْدَ الْمَلِكِ، وَمُجَاوِبَتِي

(١) وما عسى أن يبلغ منه: كيف ننال منه، وننتقم لك!؟ العقاقق: جمع عقق، وهو طائر من الفصيلة الغرابية، وهو صخاب، له ذنب طويل، ومنقار، والعرب تشامم به. يَقُمُّهُ: يتناول به خرطومه مما يجده على وجه الأرض لياكله. غدير: نهر صغير.

(٢) وهدة: مُنْخَفِضٌ مِنَ الْأَرْضِ وَهُوَ. فَتَنْفَقَنَّ: فَتَحِلَّنَّ صَوْتًا وَضَجَّةً. وَصَوْتُ الصَّفَدُغِ: نَقِيقٌ. فَيَهْوِي: فَيَسْقُطُ. وَالْهَآوِيَةُ: الْحَفْرَةُ. أَجْهَدَهُ: أَصَابَهُ بِالتَّعَبِ الشَّدِيدِ. ارْتَطَمَ: تَرَدَّى وَسَقَطَ فِي الْوَحْلِ. الطَّاعِي: الطَّالِمُ.

(٣) يستح: له: يتيسر له، ويعرض. تغرير: ترميض النفس للهلاك. وثبته: انتفاضه وهجومه واقتراحه. النوائب: المصائب. جمع نابة.

إِيَّاهُ ، فَإِذَا اتَّصَلَ بِكُمْ خُرُوجِي مِنْ عِنْدِهِ فَاجْتَمِعُوا إِلَيَّ . وَصَرَفَهُمْ ، وَهُمْ يَدْعُونَ لَهُ بِالسَّلَامَةِ (١) .
 ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا اخْتَارَ يَوْمًا لِلدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ . حَتَّى إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْوَقْتُ أَلْقَى عَلَيْهِ مُسُوْحَهُ ،
 وَهَبِي لِبَاسِ الْبَرَاهِمَةِ ، وَقَصَدَ بَابَ الْمَلِكِ ، وَسَأَلَ عَنْ صَاحِبِ إِذْنِهِ ، وَأُرْشِدَ إِلَيْهِ ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِ
 وَأَعْلَمَهُ ، وَقَالَ لَهُ : إِنِّي رَجُلٌ قَصَدْتُ الْمَلِكَ فِي نَصِيحَةٍ ، فَدَخَلَ الْإِذْنَ عَلَى الْمَلِكِ فِي وَقْتِهِ ،
 وَقَالَ : بِالْبَابِ رَجُلٌ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ يُقَالُ لَهُ بَيْدَبَا ذَكَرَ أَنَّ مَعَهُ لِلْمَلِكِ نَصِيحَةً . فَأَذِنَ لَهُ ، فَدَخَلَ
 وَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَكَفَّرَ ، وَسَجَدَ لَهُ ، وَاسْتَوَى قَائِمًا ، وَسَكَتَ (٢) . وَفَكَرَ دَبْشَلِيمُ فِي سُكُوتِهِ ،
 وَقَالَ : إِنَّ هَذَا لَمْ يَقْصِدْنَا إِلَّا لِأَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَلْتَمِسَ مِنَّا شَيْئًا يُصْلِحُ بِهِ حَالَهُ ، أَوْ لِأَمْرِ لِحَقِّهِ فَلَمْ
 يَكُنْ لَهُ بِهِ طَاقَةٌ . ثُمَّ قَالَ : إِنَّ كَانَ لِلْمُلُوكِ فَضْلٌ فِي مَمْلَكَتِهَا ، فَإِنَّ لِلْحُكَمَاءِ فَضْلًا فِي حِكْمَتِهَا
 أَعْظَمَ ؛ لِأَنَّ الْحُكَمَاءَ أَغْنِيَاءُ عَنِ الْمُلُوكِ بِالْعِلْمِ ، وَلَيْسَ الْمُلُوكُ بِأَغْنِيَاءَ عَنِ الْحُكَمَاءِ بِالْمَالِ ! وَقَدْ
 وَجَدْتُ الْعِلْمَ وَالْحَيَاءَ الْفَيْنِ مُتَأَلِّفَيْنِ لَا يَفْتَرِقَانِ : مَتَى فَقَدْ أَحَدُهُمَا لَمْ يُوجَدْ الْآخَرُ ؛ كَالْمُتَصَافِيَيْنِ
 إِنْ غَدِمَ مِنْهُمَا أَحَدٌ لَمْ يَطِبْ صَاحِبُهُ نَفْسًا بِالْبَقَاءِ بَعْدَهُ تَأْسُفًا عَلَيْهِ (٣) .

وَمَنْ لَمْ يَسْتَحِ مِنَ الْحُكَمَاءِ ، وَيُكْرِمُهُمْ وَيَعْرِفَ فَضْلَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ ، وَيَصْنَهُمْ عَنِ الْمَوَاقِفِ
 الْوَاهِنَةِ ، وَيَنْزُهُهُمْ عَنِ الْمَوَاطِنِ الرَّذِيلَةِ كَانَ مِمَّنْ حَرَّمَ عَقْلُهُ ، وَخَسِرَ دُنْيَاهُ ، وَظَلَمَ الْحُكَمَاءَ
 حُقُوقَهُمْ ، وَعَدَّ مِنَ الْجُهَالِ ! . ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى بَيْدَبَا وَقَالَ لَهُ : نَظَرْتُ إِلَيْكَ يَا بَيْدَبَا سَاكِتًا لَا
 تَعْرُضُ حَاجَتَكَ ، وَلَا تَذْكُرُ بُعِيَّتَكَ ؛ فَقُلْتُ : إِنْ الَّذِي أَسْكَنَهُ هَيْبَةُ سَاوَرْتُهُ ؛ أَوْ حَيْرَةُ أَدْرَكَتُهُ .
 وَتَأَمَّلْتُ عِنْدَ ذَلِكَ فِي طُولِ وَقُوفِكَ ، وَقُلْتُ : لَمْ يَكُنْ لِبَيْدَبَا أَنْ يَطْرُقَنَا عَلَى غَيْرِ عَادَةٍ إِلَّا لِأَمْرِ
 حَرَكَةٍ إِلَى ذَلِكَ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ زَمَانِهِ ، فَهَلَّا نَسَأَلُهُ عَنْ سَبَبِ دُخُولِهِ (٤) ؟ ! فَإِنْ يَكُنْ مِنْ ضَمِيمِ
 نَالِهِ كُنْتُ أَوَّلَى مَنْ أَخَذَ بِيَدِهِ ، وَسَارَعَ فِي تَشْرِيفِهِ ، وَتَقَدَّمَ فِي الْبُلُوغِ إِلَى مُرَادِهِ وَإِعْزَازِهِ ، وَإِنْ
 كَانَتْ بُعِيَّتُهُ عَرَضًا مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا أَمَرْتُ بِإِرْضَائِهِ مِنْ ذَلِكَ فِيمَا أَحَبَّ ؛ وَإِنْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِ
 الْمُلِكِ ، وَمِمَّا لَا يَنْبَغِي لِلْمُلُوكِ أَنْ يَتَذَلُّوهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَا يَتَقَادُوا إِلَيْهِ نَظَرْتُ فِي قَدْرِ عُقُوبَتِهِ ؛
 عَلَى أَنْ مِثْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَى إِدْخَالِ نَفْسِهِ فِي بَابِ مَسْأَلَةِ الْمُلُوكِ ؛ وَإِنْ كَانَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ

(١) سَوْرَتُهُ : حَدَثُهُ وَغَضَبُهُ . مَبَادِرَتُهُ : مَسَارَعَتُهُ وَسَبْقُهُ . لَغْمَرِي : الْغَمَرُ : مَدَّةُ الْحَيَاةِ . وَهُوَ قَسَمٌ . مَنْ هُوَ دُونَهُ : أَقَلُّ مِنْهُ . صَحَّتْ
 عَزِيمَتِي : قَرَّرْتُ وَصَمَّمْتُ .

(٢) مُسُوْحَةٌ : جَمْعُ مِسْحٍ ، وَهُوَ ثَوْبٌ مِنْ صُوفٍ . صَاحِبُ إِذْنِهِ : الْحَاجِبُ الَّذِي يَأْذِنُ لِلْوَافِدِينَ عَلَيْهِ . وَهُوَ أَيْضًا الْآذَنُ . كَفَّرَ لِسِيْدِهِ :
 انْحَنَى وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ وَطَاطَأَ رَأْسَهُ كَالرُّكُوعِ تَعْظِيمًا لَهُ . وَاسْتَوَى قَائِمًا : نَهَضَ .

(٣) يَلْتَمِسُ مِنَّا : يَطْلُبُ مِنَّا . الْفَيْنِ : حَبِيبِينَ . كَالْمُتَصَافِيَيْنِ : مِنْ بَيْنِهِمَا صِفَاءٌ وَمُودَةٌ .

(٤) الْوَاهِنَةُ : الضَّعِيفَةُ الَّتِي لَا تَنَاسِبُ مَنَازِلَهُمْ . وَيَنْزُهُهُمْ : يَبْعِدُهُمْ . وَالرَّذِيلَةُ : الرَّدِيئَةُ الْخَسِيسَةُ . بُعِيَّتَكَ : مَا تَطْلُبُهُ وَتُبْغِيهِ وَتُرِيدُهُ . سَاوَرْتُهُ :
 صَارَعْتُهُ . وَيَقَالُ : سَاوَرْتُهُ الْهَمُومَ وَالْهَوَاجِسَ وَالْأَفْكَارَ . وَالْهَيْبَةُ : الْإِجْلَالُ وَالتَّعْظِيمُ ، وَقَدْ تَكُونُ الْهَيْبَةُ حَذَرًا وَخَوْفًا . يَطْرُقُنَا : يَفْدُ عَلَيْنَا
 وَيَأْتِينَا .

الرَّعِيَّةَ يَقْصِدُ فِيهِ أَنْ أَصْرِفَ عِنَايَتِي إِلَيْهِمْ؛ نَظَرْتُ مَا هُوَ؛ فَإِنَّ الْحُكَمَاءَ لَا يُشِيرُونَ إِلَّا بِالْخَيْرِ،
وَالْجُهَالُ يُشِيرُونَ بِضَدِّهِ، وَأَنَا قَدْ فَسَحْتُ لَكَ فِي الْكَلَامِ^(١).

فَلَمَّا سَمِعَ يَتَدَبَّأُ ذَلِكَ مِنَ الْمَلِكِ أَفْرَحَ رُوعُهُ، وَسُرِّي عَنْهُ مَا كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ خَوْفِهِ،
وَكَفَّرَ لَهُ، وَسَجَدَ، ثُمَّ قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ: أَوَّلُ مَا أَقُولُ أَنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى بَقَاءَ الْمَلِكِ عَلَى
الْأَبَدِ، وَدَوَامَ مُلْكِهِ عَلَى الْأَمَدِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ مَنَحَنِي الْمَلِكُ فِي مَقَامِي هَذَا مَحَلًّا جَعَلَهُ شَرَفًا لِي عَلَى
جَمِيعِ مَنْ بَعْدِي مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَذَكَرًا بَاقِيًا عَلَى الدَّهْرِ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ^(٢). ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْمَلِكِ
بِوَجْهِهِ مُسْتَبْشِرًا بِهِ، فَرِحَا بِمَا بَدَأَ لَهُ مِنْهُ، وَقَالَ: قَدْ عَطَفَ عَلَيَّ الْمَلِكُ بِكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَالْأَمْرُ
الَّذِي دَعَانِي إِلَى الدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ، وَحَمَلَنِي عَلَى الْمُخَاطَرَةِ فِي كَلَامِي، وَالْإِقْدَامِ عَلَيْهِ،
نَصِيحَةٌ اخْتَصَصْتُهَا بِهَا دُونَ غَيْرِهِ. وَسَيَعْلَمُ مَنْ يَتَّصِلُ بِهِ ذَلِكَ أَنِّي لَمْ أَقْصُرْ عَنْ غَايَةِ فِيمَا يَجِبُ
لِلْمَوْلَى عَلَى الْحُكَمَاءِ. فَإِنْ فَسَحَ فِي كَلَامِي وَوَعَاهُ عَنِّي، فَهُوَ حَقِيقٌ بِذَلِكَ، وَإِنْ هُوَ الْفَاقُ، فَقَدْ
بَلَغْتُ مَا يَلْزُمُنِي، وَخَرَجْتُ مِنْ لَوْمٍ يَلْحَقُنِي! قَالَ الْمَلِكُ: يَا يَتَدَبَّأُ تَكَلَّمَ مَعَهَا شِئْتُ، فَإِنِّي مُضْغٍ
إِلَيْكَ، وَمُقْبِلٌ عَلَيْكَ، وَسَامِعٌ مِنْكَ، حَتَّى أَسْتَفْرِغَ مَا عِنْدَكَ إِلَى آخِرِهِ، وَأُجَازِيكَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا
أَنْتَ أَهْلُهُ^(٣). قَالَ يَتَدَبَّأُ: إِنِّي وَجَدْتُ الْأُمُورَ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا الْإِنْسَانُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْحَيَوَانَ أَرْبَعَةً
أَشْيَاءَ، وَهِيَ جُمَاعٌ مَا فِي الْعَالَمِ، وَهِيَ: الْحِكْمَةُ وَالْعِفَّةُ، وَالْعَقْلُ، وَالْعَدْلُ.

وَالْعِلْمُ وَالْأَدَبُ وَالرَّيَّةُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْحِكْمَةِ.

وَالْحِلْمُ وَالصَّبْرُ وَالْوَقَارُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعَقْلِ.

وَالْحَيَاءُ وَالْكَرَمُ وَالصِّيَانَةُ وَالْأَنَفَةُ، دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعِفَّةِ.

وَالصَّدْقُ وَالْإِحْسَانُ وَالْمُرَاقَبَةُ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعَدْلِ.

وَهَذِهِ هِيَ الْمَحَاسِنُ، وَأَضْدَادُهَا هِيَ الْمَسَاوِيءُ. فَمَتَى كَمُلْتَ هَذِهِ فِي وَاحِدٍ لَمْ يُخْرِجْهُ
النَّقْصُ فِي نِعْمَتِهِ إِلَى سُوءِ الْحَظِّ مِنْ دُنْيَاهُ، وَلَا إِلَى نَقْصٍ مِنْ عُقْبَاهُ، وَلَمْ يَتَأَسَّفْ عَلَى مَا لَمْ يُعِنِ
التَّوْفِيقُ بِتَقَاتِهِ، وَلَمْ يُخْرِجْهُ مَا تَجَرَّى بِهِ الْمَقَادِيرُ فِي مُلْكِهِ، وَلَمْ يَذْهَبْ عِنْدَ مَكْرُوهِهِ^(٤).

(١) ضَمِيمٌ: ظُلْمٌ وَإِذْلَالٌ. مَسْأَلَةٌ: سُؤَالٌ. فَسَحْتُ لَكَ فِي الْكَلَامِ: أَذْنْتُ لَكَ.

(٢) أَفْرَحَ رُوعُهُ وَسُرِّي عَنْهُ: ذَهَبَ فَرْعُهُ وَخَوْفُهُ. وَالْأَصَحُّ أَنْ يَقُولَ: أَفْرَحَ رُوعُهُ: وَمَعْنَاهُ: خَرَجَ الرُّوعُ وَالْفَرْعُ مِنْ رُوعِهِ وَهُوَ الْقَلْبُ
مَوْضِعُ الرُّوعِ وَسُرِّي عَنْهُ: زَالَ عَنْهُ الْخَوْفُ.

(٣) وَعَاهُ عَنِّي: حَفَظَهُ. حَقِيقٌ: جَدِيدٌ وَأَهْلٌ. أَسْتَفْرِغُ مَا عِنْدَكَ: أَسْمَعُ كُلَّ كَلَامِكَ وَتَفْرِغُ مِنْهُ. بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ: بِمَا تَسْتَحِقُّهُ. جُمَاعٌ: كُلٌّ
وَجَمِيعٌ.

(٤) الرِّيَّةُ: إِعْمَالُ الْفِكْرِ. الْوَقَارُ: الْحِلْمُ وَالزَّانَةُ وَالْعِظْمَةُ. وَالصِّيَانَةُ: وَقَايَةُ النَّفْسِ مِمَّا يَصِيهَا. الْأَنَفَةُ: التَّرَفُّعُ عَنِ الصِّغَاثِرِ وَالْدُنْيَا.
الْمُرَاقَبَةُ: التَّقْوَى. يَذْهَبُ: يَتَحَيَّرُ.

فَالْحِكْمَةُ كَثُرَ لَا يَفْنَى عَلَى الْإِنْفَاقِ، وَذَخِيرَةٌ لَا يُضْرَبُ لَهَا بِالْإِمْلَاقِ، وَحُلَّةٌ لَا تَخْلُقُ جَدَّتُهَا، وَلَذَّةٌ لَا تُضْرَمُ مَدَّتُهَا. وَلَئِنْ كُنْتُ عِنْدَ مُقَامِي بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ، أَمْسَكْتُ عَنِ اتِّدَائِهِ بِالْكَلَامِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنِّي إِلَّا لِهَيْبَتِهِ وَالْإِجْلَالِ لَهُ. وَلَعَمْرِي إِنَّ الْمُلُوكَ لَأَهْلٌ أَنْ يُهَابُوا، وَلَا سِيَّما مَنْ هُوَ فِي الْمَنْزِلَةِ الَّتِي جَلَّ فِيهَا الْمَلِكُ عَنْ مَنَازِلِ الْمُلُوكِ قَبْلَهُ^(١).

وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : الزَّمُ الشُّكُوتُ فَإِنَّ فِيهِ السَّلَامَةَ، وَتَجَنَّبَ الْكَلَامَ الْفَارِغَ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ النَّدَامَةُ. وَحِكْمِي أَنْ أَرْبَعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ ضَمُّهُمْ مَجْلِسَ مَلِكٍ، فَقَالَ لَهُمْ : لِيَتَكَلَّمُ كُلُّ مِنْكُمْ بِكَلَامٍ يَكُونُ أَصْلًا لِلْأَدَبِ؛ فَقَالَ أَحَدُهُمْ : أَفْضَلُ خَلَّةٍ الْعُلَمَاءِ الشُّكُوتُ. وَقَالَ الثَّانِي : إِنَّ مِنْ أَنْفَعِ الْأَشْيَاءِ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ مَنْزِلَتِهِ مِنْ عَقْلِهِ. وَقَالَ الثَّالِثُ : أَنْفَعُ الْأَشْيَاءِ لِلْإِنْسَانِ أَلَّا يَتَكَلَّمَ بِمَا لَا يَغْنِيهِ. وَقَالَ الرَّابِعُ : أَرْوَحُ الْأُمُورِ لِلْإِنْسَانِ التَّسْلِيمُ لِلْمَقَادِيرِ^(٢). وَاجْتَمَعَ فِي بَعْضِ الزَّمَانِ مُلُوكُ الْأَقَالِيمِ مِنَ الصِّينِ، وَالْهِنْدِ، وَفَارِسَ، وَالرُّومِ، وَقَالُوا : يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمَ كُلُّ مِنَّا بِكَلِمَةٍ تَدُونُ عَنْهُ عَلَى غَايِرِ الدَّهْرِ.

قَالَ مَلِكُ الصِّينِ : أَنَا عَلَى مَا لَمْ أَقُلْ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى رَدِّ مَا قُلْتُ .

قَالَ مَلِكُ الْهِنْدِ : عَجِبْتُ لِمَنْ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ فَإِنْ كَانَتْ لَهُ لَمْ تَنْفَعُهُ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْهِ أَوْبَقَتْهُ.

قَالَ مَلِكُ فَارِسَ : أَنَا إِذَا تَكَلَّمْتُ بِالْكَلِمَةِ مَلَكْتُنِي، وَإِذَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَا مَلَكْتُهَا.

قَالَ مَلِكُ الرُّومِ : مَا نَدِمْتُ عَلَى مَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهِ قَطُّ وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ كَثِيرًا.

وَالشُّكُوتُ عِنْدَ الْمُلُوكِ أَحْسَنُ مِنَ الْهَذَرِ الَّذِي لَا يُوجِعُ مِنْهُ إِلَى نَفْعٍ، وَأَعْضَلُ مَا اسْتَضِلَّ بِهِ الْإِنْسَانُ لِسَانَهُ^(٣). غَيْرَ أَنَّ الْمَلِكَ - أَطَالَ اللَّهُ مَدَّتَهُ - لَمَّا فَسَحَ لِي فِي الْكَلَامِ، وَأَوْسَعَ لِي فِيهِ، كَانَ أَوْلَى مَا أَبْدَأُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ غَرَضِي أَنْ تَكُونَ ثَمَرَةً ذَلِكَ لَهُ دُونِي، وَأَنْ أُخْتَصَّصَهُ بِالْفَائِدَةِ قَبْلِي. عَلَى أَنَّ الْعَقْبَتِي هِيَ مَا أَقْصِدُ فِي كَلَامِي لَهُ، وَإِنَّمَا نَفْعُهُ وَشَرْفُهُ رَاجِعٌ إِلَيَّ، وَأَكُونُ أَنَا قَدْ قَضَيْتُ فَوْضًا وَجَبَ عَلَيَّ فَأَقُولُ :

أَيُّهَا الْمَلِكُ : إِنَّكَ فِي مَنَازِلِ آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ مِنَ الْعَبَايِرَةِ الَّذِينَ أَسَّسُوا الْمُلْكَ قَبْلَكَ،

(١) يُضْرَبُ لَهَا : يُسْعَى إِلَيْهَا لِيَسْتَفِدَّ ؛ فَالْحِكْمَةُ ذَخِيرَةٌ لَا تَنْفَدُ عَلَى كَثَرَةِ الْإِنْفَاقِ . لَا تَخْلُقُ : لَا تَبْلَى ؛ فَهِيَ مُتَجَدِّدَةٌ بَاقِيَةٌ . لَا تُضْرَمُ : لَا تُقْطَعُ ؛ فَهِيَ دَائِمَةٌ . مُقَامِي : وَقُوفِي .

(٢) الْخَلَّةُ : الْخِصْلَةُ وَالصَّفَةُ . أَرْوَحُ الْأُمُورِ : أَكْثَرُهَا رَاحَةً لِلْإِنْسَانِ . لِلْمَقَادِيرِ : لِلْأَقْدَارِ ؛ أَيِ الرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ .

(٣) أَوْبَقَتْهُ : أَهْلَكَتْهُ . الْهَذَرُ : مَا لَا يَلْتَمِسُ مِنَ الْكَلَامِ، وَسَقَطَ الْقَوْلُ . وَأَعْضَلُ مَا اسْتَضَلَّ : أَيِ أَنْ لِسَانَ الْإِنْسَانِ هُوَ مُشْكَلَتُهُ الَّتِي تَوَقَّعُهُ فِي الضَّلَالِ وَالْهَلَاكِ . وَفِي نَسْخَةٍ : وَأَفْضَلُ مَا اسْتَظَلَّ بِهِ الْإِنْسَانُ لِسَانَهُ ؛ فَهُوَ يَحْمِيهِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْخَطَا .

وَسَيَدُوهُ دُونَكَ، وَبُنُوا الْقِلَاعَ وَالْحُصُونَ، وَمَهَّدُوا الْبِلَادَ، وَقَادُوا الْجُيُوشَ، وَاسْتَجَاشُوا الْعُدَّةَ^(١)، وَطَالَتْ لَهُمُ الْمُدَّةُ، وَاسْتَكْتَرُوا مِنَ السِّلَاحِ وَالْكَرَاعِ، وَعَاشُوا الدُّهُورَ فِي الْغِنَى وَالشُّرُورِ؛ فَلَمْ يَمْنَعُهُمْ ذَلِكَ مِنْ اكْتِسَابِ جَمِيلِ الذِّكْرِ، وَلَا قَطْعَهُمْ عَنِ اغْتِنَامِ الشُّكْرِ، وَاسْتِعْمَالِ الْإِحْسَانِ إِلَى مَنْ خَوْلُوهُ، وَالرَّفْقِ بِمَنْ وُلُوهُ، وَحَسَنِ السَّيْرِ فِيمَا تَقَلَّدُوهُ، مَعَ عِظَمِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ غِرَّةِ الْمَلِكِ، وَسَكْرَةِ الْإِفْتِدَارِ. وَإِنَّكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ السَّعِيدُ جَدُّهُ، الطَّالِعُ كَوْكَبِ سَعْدِهِ، قَدْ وَرِثْتَ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَمَنَازِلَهُمُ الَّتِي كَانَتْ عُدَّتَهُمْ، فَأَقَمْتَ فِيمَا خَوْلْتَ مِنَ الْمَلِكِ، وَوَرِثْتَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْجُنُودِ، وَلَمْ تَقُمْ فِي ذَلِكَ بِحَقِّ مَا يَجِبُ عَلَيْكَ، بَلْ طَغَيْتَ وَبَغَيْتَ، وَغَتَوْتَ وَغَلَوْتَ عَلَى الرِّعِيَّةِ، وَأَسَأْتَ السَّيْرَ، وَعَظُمَتْ مِنْكَ الْبَلِيَّةُ^(٢).

وَكَانَ الْأَوَّلَى وَالْأَشْبَهُ بِكَ أَنْ تَسْلُكَ سَبِيلَ أَسْلَافِكَ، وَتَتَّبِعَ آثَارَ الْمُلُوكِ قَبْلَكَ، وَتَقْفُو مَحَاسِنَ مَا أَتَقَوْهُ لَكَ، وَتَقْلَعَ عَمَّا عَارُهُ لَزِمَ لَكَ، وَسَيُنْهَ وَاقِعَ بِكَ، وَتُحْسِنَ النَّظَرَ بِرِعِيَّتِكَ، وَتُسَنَّ لَهُمْ سُنَنَ الْخَيْرِ الَّذِي يَبْقَى بَعْدَكَ ذِكْرُهُ، وَيُعْقِبُكَ الْجَمِيلُ فَخْرُهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ أَبْقَى عَلَى السَّلَامَةِ، وَأَدْوَمَ عَلَى الْأَسْتِقَامَةِ^(٣)؛ فَإِنَّ الْجَاهِلَ الْمُعْتَرِّ مَنِ اسْتَعْمَلَ فِي أُمُورِهِ الْبَطَرَ وَالْأَمْنِيَّةَ، وَالْحَازِمَ اللَّيِّبَ مَنْ سَاسَ الْمَلِكَ بِالْمُدَارَةِ وَالرَّفْقِ؛ فَانْظُرْ أَيُّهَا الْمَلِكُ مَا أَلْقَيْتَ إِلَيْكَ، وَلَا يَثْقُلَنَّ ذَلِكَ عَلَيْكَ، فَلَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَذَا اتِّبَاعًا غَرَضِ تُجَازِينِي بِهِ، وَلَا أَلْتِمَاسَ مَعْرُوفٍ تَسْؤِفُهُ إِلَيَّ. وَلَكِنِّي أَتَيْتُكَ نَاصِحًا مُشْفِقًا عَلَيْكَ^(٤).

فَلَمَّا فَرَعَ يَدَيْهَا مِنْ مَقَالَتِهِ، وَقَضَى مُنَاصَحَتَهُ، أَوْعَرَ قَلْبَ الْمَلِكِ، فَأَغْلَظَ لَهُ فِي الْجَوَابِ اسْتِصْغَارًا لِأَمْرِهِ؛ وَقَالَ: لَقَدْ تَكَلَّمْتَ بِكَلَامٍ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِي يَسْتَقْبِلُنِي بِمِثْلِهِ، وَلَا يُقَدِّمُ عَلَيَّ مَا أَقَدَّمْتَ عَلَيْهِ. فَكَيْفَ أَنْتَ مَعَ صِغَرِ شَأْنِكَ، وَضَعْفِ مُتَيْتِكَ وَعَجْزِ قُوَّتِكَ؟! وَلَقَدْ أَكْثَرْتَ إِعْجَابِي مِنْ إِفْدَامِكَ عَلَيَّ، وَتَسَلُّطِكَ بِلِسَانِكَ فِيمَا جَاوَزْتَ فِيهِ حَدَّكَ! وَمَا أَحَدٌ شَيْئًا فِي تَأْدِيبِ غَيْرِكَ أَبْلَغَ مِنَ التَّنْكِيلِ بِكَ!؛ فَذَلِكَ عِبْرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ لِمَنْ عَسَاهُ أَنْ يَبْلُغَ وَيَرْوِمَ

(١) المُغَيُّ: العاقبة والنهاية. استجاشوا العدة: جمعوا.

(٢) الكُراع: الخيل والدواب. الغِنَةُ: أحسن حال. خَوْلُوهُ: ملكوه. والرفق: حسن المعاملة وهو ضد الغف. وَلُوهُ: تولوا عليه. تَقَلَّدُوهُ: احتملوه من مسئولية. غِرَّةُ الْمَلِكِ: غفلته. الْحَظُّ: خَوْلْتُ: وَلِيتَ: طَغَيْتَ: جاوزت حد العدل. بَغَيْتَ: ظلمت واعتدت. غَتَوْتَ: استكبرت وجاوزت الحد. الْبَلِيَّةُ: المصيبة التي ابتليت بها شعبك.

(٣) الْأَشْبَهُ: الأليق والمناسب لك. أَسْلَافَكَ: آبائك الماضين. تَقْفُو: تتبع. تَقْلَعَ: تعف وتمتنع. شَيْنُهُ: عيبه وهو ضد الزين. يُغْفِيكَ: يورثك.

(٤) الْبَطَرُ: عدم القيام بحق النعمة وشكرها. وَالْأَمْنِيَّةُ: التعلق بالأمال والتلهي بها دون عمل. الْمُدَارَةُ: الملاطفة والملاينة والرفق. مُشْفِقًا عَلَيْكَ: خائفًا عليك عطفًا.

مَا رُمْتُ أَنْتَ مِنَ الْمُلُوكِ إِذَا أَوْسَعُوا لَهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ. ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُقْتَلَ وَيُصَلَّبَ^(١). فَلَمَّا مَضَوْا بِهِ فِيمَا أَمَرَ، فَكَّرَ فِيمَا أَمَرَ بِهِ، فَأَحْجَمَ عَنْهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِحَبْسِهِ وَتَقْيِيدِهِ، فَلَمَّا حُبِسَ أُنْفَذَ الْمَلِكُ فِي طَلَبِ تِلَامِذِيهِ، وَمَنْ كَانَ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ، فَهَرَبُوا فِي الْبِلَادِ، وَاعْتَصَمُوا بِجَزَائِرِ الْبَحَارِ، فَمَكَثَ يَتَدَبَّأُ فِي مُحَبْسِهِ أَيَّامًا لَا يَسْأَلُ الْمَلِكُ عَنْهُ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، وَلَا يَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَهُ. حَتَّى إِذَا كَانَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي، سَهَدَ الْمَلِكُ سُهْدًا شَدِيدًا، وَطَالَ سُهْدُهُ، فَمَدَّ إِلَى الْفَلَكَ بَصَرَهُ، وَتَفَكَّرَ فِي تَفَلُّكِ الْفَلَكَ، وَحَرَكَاتِ الْكَوَاكِبِ، فَأَغْرَقَ الْفِكْرَ فِيهِ، فَسَلَكَ بِهِ إِلَى اسْتِنْبَاطِ شَيْءٍ عَرَضَ لَهُ مِنْ أُمُورِ الْفَلَكَ، وَالْمَسْأَلَةِ عَنْهُ، فَذَكَرَ عِنْدَ ذَلِكَ يَتَدَبَّأُ، وَتَفَكَّرَ فِيمَا كَلَّمَهُ فِيهِ؛ فَأَرْغَى لِدَلِيلِكَ^(٢).

وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: لَقَدْ أَسَأْتُ فِيمَا صَنَعْتُ بِهِذَا الْفَيْلَسُوفِ، وَضَيَّعْتُ وَاجِبَ حَقِّهِ، وَحَمَلَنِي عَلَى ذَلِكَ سُرْعَةُ الْعُصْبِ. وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: أَرْبَعَةٌ لَا يَتَّبِعِي أَنْ تَكُونَ فِي الْمُلُوكِ: الْعُصْبُ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ الْأَشْيَاءِ مَقْتًا، وَالْبُخْلُ فَإِنَّ صَاحِبَهُ لَيْسَ بِمَعْدُورٍ مَعَ ذَاتِ يَدِهِ؛ وَالْكَذِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُجَاوِرَهُ؛ وَالْعُنفُ فِي الْمُحَاوَرَةِ فَإِنَّ السَّفَهَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا. وَإِنِّي أَتَيْتُ إِلَى رَجُلٍ نَصَحَ لِي وَلَمْ يَكُنْ مُبْلَغًا، فَعَامَلْتُهُ بِضِدِّ مَا يَسْتَحِقُّ، وَكَافَأْتُهُ بِخِلَافِ مَا يَسْتَوْجِبُ^(٣). وَمَا كَانَ هَذَا جَزَاءَهُ مِنِّي؛ بَلْ كَانَ الْوَاجِبُ أَنْ أَسْمَعَ كَلَامَهُ، وَأَنْفَادَ لِمَا يُشِيرُ بِهِ. ثُمَّ أُنْفَذَ فِي سَاعَتِهِ مَنْ يَأْتِيهِ بِهِ. فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ: يَا يَتَدَبَّأُ، أَلَسْتَ الَّذِي قَصَدْتَ إِلَى تَقْصِيرِ هِمَّتِي، وَعَجَّزْتَ رَأْيِي فِي سِيرَتِي بِمَا تَكَلَّمْتَ بِهِ آيَفَا؟ قَالَ لَهُ يَتَدَبَّأُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ النَّاصِحُ الشَّفِيقُ، وَالصَّادِقُ الرَّفِيقُ، إِنَّمَا نَبَأْتُكَ بِمَا فِيهِ صَلَاحٌ لَكَ وَلِرَعِيَّتِكَ، وَدَوَامٌ لِمُلْكِكَ لَكَ.

قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا يَتَدَبَّأُ أَعِدْ عَلَيَّ كَلَامَكَ كُلَّهُ، وَلَا تَدْعُ مِنْهُ حَرْفًا إِلَّا جِئْتُ بِهِ. فَجَعَلَ يَتَدَبَّأُ يَنْثُرُ كَلَامَهُ، وَالْمَلِكُ مُصْغٍ إِلَيْهِ وَجَعَلَ دَبْشَلِيمُ كُلَّمَا سَمِعَ مِنْهُ شَيْئًا يَنْكُثُ الْأَرْضَ بِشَيْءٍ كَانَ فِي يَدِهِ، ثُمَّ رَفَعَ طَرَفَهُ إِلَى يَتَدَبَّأُ، وَأَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ^(٤). .. وَقَالَ لَهُ: يَا يَتَدَبَّأُ، إِنِّي قَدْ اسْتَعْذَبْتُ كَلَامَكَ، وَحَسَّنَ مَوْقِعَهُ فِي قَلْبِي، وَأَنَا نَاطِلٌ فِي الَّذِي أَشْرْتُ بِهِ، وَعَامِلٌ بِمَا أَمَرْتُ. ثُمَّ أَمَرَ بِقِيُودِهِ فَحُلَّتْ،

(١) مناصحته: تقديم النصيحة له. أوغر قلب الملك: ملاء غيظًا. مُثْبِتٌ: قوتك. يقال: ليس لقلبه ثمة: أي قوة. التنكيل بك: عقابك بما يروعك، ويروع غيرك من إتيان مثل صنيعك. ويروم ما رمت: ويطلب ما طلبت.

(٢) أحجم عنه: رجع فيما أمر به من قتله. اعتصموا: التجنوا وتحصنوا. يَجْسُرُ: يجرؤ. سَهَدَ: أرق وطار النوم عنه. الْفَلَكَ: المدار يسبح فيه الجرم السماوي. وَتَفَلَّكَ: استداره. فأغرق: تعمق وسبح بخياله مع النجوم والأفلاك. استنباط: استخراج. المسألة عنه: السؤال عنه. ارعوى لذلك: كف وارتدع.

(٣) مقنا: بغضًا. ذات يده: غناه. العنف: الخشونة وعدم الرفق.

(٤) أُنْفَذَ: أرسل. مثل: وقف. وعجَّزْتَ رأيي: جعلته رأيا عاجزا ووصفته بالعجز. نبأتك: اخترتك. ينثر كلامه: يلقيه على مسامعه. ينكت الأرض: يقلب فيها بعود ونحوه مفكرا. طرفه: نظره.

وَأَلْقَى عَلَيْهِ مِنْ لِبَاسِهِ ، وَتَلَفَّاهُ بِالْقَبُولِ . فَقَالَ يَتَدَبَّا : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ فِي ذُونٍ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ نُهْيَةً لِيَمْلِكُ . قَالَ : صَدَقْتَ أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ وَقَدْ وَلَيْتُكَ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى جَمِيعِ أَقَاصِي مَمْلَكَتِي ^(١) .

فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، أَعْنِفَنِي مِنْ هَذَا الْأَمْرِ ؛ فَإِنِّي غَيْرُ مُضْطَلِعٍ بِتَقْوِيمِهِ إِلَّا بِكَ فَأَعْفَاهُ مِنْ ذَلِكَ . فَلَمَّا انْصَرَفَ عَلِمَ أَنَّ الَّذِي فَعَلَهُ لَيْسَ بِرَأْيٍ ؛ فَبَعَثَ فَرْدَهُ وَقَالَ : إِنِّي فَكَّرْتُ فِي إِعْفَائِكَ مِنَّمَا عَرَضْتُهُ عَلَيْكَ ، فَوَجَدْتُهُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِكَ ، وَلَا يَنْهَضُ بِهِ غَيْرُكَ ، وَلَا يَضْطَلِعُ بِهِ سِوَاكَ ، فَلَا تُخَالِفْنِي فِيهِ ، فَأَجَابَهُ يَتَدَبَّا إِلَى ذَلِكَ ^(٢) .

وَكَانَ عَادَةُ ذَلِكَ الزَّمَانِ إِذَا اسْتَوْزَرُوا وَزِيرًا أَنْ يَغْدُوا عَلَى رَأْسِهِ تَاجًا ، وَيَرْكَبَ فِي أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ ، وَيُطَافَ بِهِ فِي الْمَدِينَةِ ؛ فَأَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يُفْعَلَ بِيَتَدَبَّا ذَلِكَ ؛ فَوُضِعَ التَّاجُ عَلَى رَأْسِهِ ، وَرَكِبَ فِي الْمَدِينَةِ ، وَرَجَعَ فَجَلَسَ بِمَجْلِسِ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ : يَأْخُذُ لِلدَّيْنِ مِنَ الشَّرِيفِ ، وَيُسَاوِي بَيْنَ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ ، وَرَدَّ الْمَظَالِمَ ، وَوَضَعَ سُنْنَ الْعَدْلِ ، وَأَكْثَرَ مِنَ الْعَطَاءِ وَالْبَذْلِ . وَاتَّصَلَ الْخَبَرُ بِتَلَامِيذِهِ فَجَاءُوا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَرَحِينَ بِمَا جَدَّدَ اللَّهُ لَهُ مِنْ جَدِيدِ رَأْيِ الْمَلِكِ فِيهِ ، وَشَكَرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى تَوْفِيقِ يَتَدَبَّا فِي إِزَالَةِ دَبْشَلِيمَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السَّيْرِ ، وَاتَّخَذُوا ذَلِكَ النَّوْمَ عِيدًا يُعِيدُونَ فِيهِ فَهُوَ إِلَى النَّوْمِ عِيدٌ يُعِيدُونَهُ فِي بِلَادِ الْهِنْدِ ^(٣) .

ثُمَّ إِنَّ يَتَدَبَّا لَمَّا أَخْلَى فِكْرَهُ مِنْ اسْتِغَالِهِ بِدَبْشَلِيمَ ، تَفَرَّغَ لَوْضِعِ كُتُبِ السِّيَاسَةِ ، وَنَشِطَ لَهَا ؛ فَعَمِلَ كُتُبًا كَثِيرَةً فِيهَا دَقَائِقُ الْحَيْلِ ، وَمَضَى الْمَلِكُ عَلَى مَا رَسَمَ لَهُ يَتَدَبَّا مِنْ حُسْنِ السَّيْرِ وَالْعَدْلِ فِي الرِّعْيَةِ ، فَزِعِبَتْ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ الَّذِينَ كَانُوا فِي نَوَاحِيهِ ، وَانْقَادَتْ لَهُ الْأُمُورُ عَلَى أَسْتَوَائِهَا ، وَفَرِحَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ وَأَهْلُ مَمْلَكَتِهِ ^(٤) .

ثُمَّ إِنَّ يَتَدَبَّا جَمَعَ تَلَامِيذَهُ ، فَأَحْسَنَ صِلَتَهُمْ ، وَوَعَدَهُمْ وَعْدًا جَمِيلًا ، وَقَالَ لَهُمْ : لَسْتُ أَشْكُ أَنَّهُ وَقَعَ فِي نُفُوسِكُمْ وَفَتْ دُخُولِي عَلَى الْمَلِكِ أَنْ قُلْتُمْ إِنَّ يَتَدَبَّا قَدْ ضَاعَتْ حِكْمَتُهُ ، وَبَطَلَتْ فِكْرَتُهُ ، إِذْ عَزَمَ عَلَى الدُّخُولِ عَلَى هَذَا الْجَبَّارِ الطَّاغِي . فَقَدْ عَلِمْتُمْ نَتِيجَةَ رَأْيِي ، وَصِحَّةَ فِكْرِي ،

(١) استعذبت كلامك : استحلته . من لباسه : منحه ملابس ملكية . ذون ما كلمتك : أقل منه فملاك بكفيه ما قل ودل . نهية : ما يجعلك تنتهي وتترك ما لا يرضاه شعبك . وليتك : جعلتك واليا . أقاصي : أطراف .

(٢) غير مضطلع بتقويمه : غير قادر على النهوض بإصلاحه ، ولا أقوى على ذلك بدونك .

(٣) استوزروا : اتخذوا لهم وزيرا وكلفوه . الدنيء : الحقير . المظالم : ما أخذ ظلما ، والمفرد : مظلمة وكذلك الظلامة . وهي ما يطلبه المظلوم . سنن العدل : جمع سنة وهي الشريعة والقانون .

(٤) أخلى فكره : أراح ضميره . نشيط لها : أقبل عليها مسرعا . فرغت إليه الملوك : مالت .

وَأَنِّي لَمْ آتِهِ جَهْلًا بِهِ؛ لِأَنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ مِنَ الْحُكَمَاءِ قَبْلِي تَقُولُ : إِنَّ الْمُلُوكَ لَهَا سَكْرَةٌ كَسَكْرَةِ الشَّرَابِ. فَالْمُلُوكُ لَا تَفِيقُ مِنَ السَّكْرَةِ إِلَّا بِمَوَاعِظِ الْعُلَمَاءِ، وَأَدَبِ الْحُكَمَاءِ وَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُلُوكِ أَنْ يَتَعَضُّوا بِمَوَاعِظِ الْعُلَمَاءِ^(١).

وَالْوَاجِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ تَقْوِيمُ الْمُلُوكِ بِالسِّيَرَتِهَا، وَتَأْدِيبُهَا بِحِكْمَتِهَا، وَإِظْهَارُ الْحُجَّةِ الْبَيِّنَةِ الْإِلَازِمَةِ لَهُمْ لِيَزِدَّوْا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَعْوَجَاجِ وَالْخُرُوجِ عَنِ الْعَدْلِ؛ فَوَجَدْتُ مَا قَالَتْ الْعُلَمَاءُ فَرَضًا وَاجِبًا عَلَى الْحُكَمَاءِ لِمُلُوكِهِمْ؛ لِيُوقِظُوهُمْ مِنْ سِنَةِ سَكْرَتِهِمْ. كَالطَّيِّبِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ فِي صِنَاعَتِهِ حِفْظُ الْأَجْسَادِ عَلَى صِحَّتِهَا، أَوْ رَدُّهَا إِلَى الصَّحَّةِ. فَكِرِهْتُ أَنْ يَمُوتَ، أَوْ أَنْ أَمُوتَ وَمَا يَبْقَى عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ يَقُولُ : إِنَّهُ كَانَ يَتَدَبَّأُ الْفَيْلَسُوفُ فِي زَمَانِ دَبْشَلِيمِ الطَّاغِي فَلَمْ يَزِدَّهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ! فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : إِنَّهُ لَمْ يُمْكِنَهُ كَلَامُهُ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ، قَالُوا: كَانَ الْهَرَبُ مِنْهُ وَمِنْ جَوَارِهِ أَوَّلَى بِهِ^(٢).

وَالْأَنْزِعَاجُ عَنِ الْوَطَنِ شَدِيدٌ^(٣) فَرَأَيْتُ أَنْ أَجُودَ بِحَيَاتِي، فَأَكُونُ قَدْ أَتَيْتُ فِيهَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْحُكَمَاءِ بَعْدِي غُذْرًا فَحَمَلْتُهَا عَلَى التَّغْرِيرِ أَوْ الظُّفْرِ بِمَا أُرِيدُهُ، وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ مَا أَنْتُمْ مُعَانِيُوهُ فَإِنَّهُ يُقَالُ فِي بَعْضِ الْأَمْثَالِ: إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ مَرَّتَبَةً إِلَّا بِأَحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا بِمَسَقَّةٍ تَنَالُهُ فِي نَفْسِهِ، وَإِمَّا بِوَضِيعَةٍ فِي مَالِهِ، أَوْ وَكْسٍ فِي دِينِهِ، وَمَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْأَهْوَالَ لَمْ يَنْلِ الرِّغَائِبَ. وَإِنَّ الْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ قَدْ بَسَطَ لِسَانِي فِي أَنْ أَصْعَ كِتَابًا فِيهِ ضُرُوبُ الْحِكْمَةِ؛ فَلْيَضَعْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ شَيْئًا فِي أَيِّ فَنٍّ شَاءَ، وَلْيَعْرِضْهُ عَلَيَّ لِأَنْظُرَ مِقْدَارَ عَقْلِهِ، وَأَيُّنَ بَلَغَ مِنَ الْحِكْمَةِ فَهْمُهُ؟! قَالُوا: أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ، وَاللَّيِّبُ الْعَاقِلُ، وَالَّذِي وَهَبَ لَكَ مَا مَنَحَكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعَقْلِ وَالْأَدَبِ وَالْفَضِيلَةِ: مَا خَطَرَ هَذَا بِقُلُوبِنَا سَاعَةً قَطُّ. وَأَنْتَ رَئِيسُنَا وَفَاضِلُنَا، وَبِكَ شَرْفُنَا، وَعَلَى يَدِكَ انْتَعَشْنَا. وَلَكِنْ سَنَجْهَدُ أَنْفُسَنَا فِيمَا أَمَرْتَ. وَمَكَتَ الْمَلِكُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ حُسْنِ السَّيْرِ زَمَانًا يَتَوَلَّى لَهُ ذَلِكَ يَتَدَبَّأُ وَيَقُومُ بِهِ^(٤).

ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ لَمَّا اسْتَقَرَّ لَهُ الْمُلْكُ، وَسَقَطَ عَنْهُ النَّظَرُ فِي أُمُورِ الْأَعْدَاءِ بِمَا قَدْ كَفَاهُ

(١) أحسن صلتهم: أمدهم بمساعدته وعونه. سكرة: فقدان العقل والصواب. والشراب: الخمر التي تذهب بالعقول.

(٢) ليرتدعوا: ليكفوا ويركعوا. سينة: غفلة. (٣) الانزعاج عن الوطن: تركه والتحول عنه إلى غيره.

(٤) أجود بحياتي: أضحي بها. التفرير: تعريض النفس للهلاك. معانيه: رأيتموه ومشاهدوه. وضعية في ماله: خسارة. وكس: نقصان. يركب الأهوال: يواجه المخاوف المفزعة ويخوضها. الرغائب: كل ما يرغب فيه. والمفرد: زغبة. بسط لساني: أعطاني حرية الكلام. ضروب الحكمة: أصناف وأنواع وألوان جمع ضرب. والذي وهب لك: قسم بالله واهب النعم. ما منحك: ما أعطاك. انتعشنا: نهضنا من عثرتنا.

ذَلِكَ يَبْدَأُ، صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى النَّظَرِ فِي الْكُتُبِ الَّتِي وَضَعَتْهَا فَلَا سِفَةَ الْهِنْدِ لآبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ؛ فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَيْضًا كِتَابٌ مَشْرُوحٌ يُنْسَبُ إِلَيْهِ، وَتَذَكَّرَ فِيهِ أَيَّامَهُ، كَمَا ذَكَرَ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ مِنْ قَبْلِهِ. فَلَمَّا عَزَمَ عَلَى ذَلِكَ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِبَيْدَبَا. فَدَعَاهُ، وَخَلَا بِهِ وَقَالَ لَهُ: يَا بَيْدَبَا، إِنَّكَ حَكِيمُ الْهِنْدِ وَفَيْلَسُوفُهَا. وَإِنِّي فَكَّرْتُ وَنَظَرْتُ فِي خَزَائِنِ الْحِكْمَةِ الَّتِي كَانَتْ لِلْمُلُوكِ قَبْلِي فَلَمْ أَرِ فِيهِمْ أَحَدًا إِلَّا وَقَدْ وَضَعَ كِتَابًا يَذْكُرُ فِيهِ أَيَّامَهُ وَسِيرَتَهُ، وَيُنَبِّئُ عَنْ أَدْيِهِ وَأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ^(١).

فَمِنْهُ مَا وَضَعْتَهُ الْمُلُوكُ لِأَنْفُسِهَا، وَذَلِكَ لِفَضْلِ حِكْمَةٍ فِيهَا، وَمِنْهُ مَا وَضَعْتَهُ حُكَمَاؤُهَا. وَأَخَافُ أَنْ يَلْحَقَنِي مَا لَحِقَ أَوْلَئِكَ مِمَّا لَا حِيلَةَ لِي فِيهِ، وَلَا يُوجَدُ فِي خَزَائِنِي كِتَابٌ أَذْكُرُ بِهِ بَعْدِي، وَأُنْسَبُ إِلَيْهِ كَمَا ذِكُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي بِكُتُبِهِمْ. وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَضَعَ لِي كِتَابًا بَلِيغًا تَسْتَفْرِغُ فِيهِ عَقْلَكَ، يَكُونُ ظَاهِرُهُ سِيَاسَةَ الْعَامَّةِ وَتَأْدِيبُهَا، وَبَاطِنُهُ أَخْلَاقَ الْمُلُوكِ وَسِيَاسَتَهَا لِلرَّعِيَّةِ عَلَى طَاعَةِ الْمَلِكِ وَخِدْمَتِهِ؛ فَيَسْقُطَ بِذَلِكَ عَنِّي وَعَنْهُمْ كَثِيرٌ مِمَّا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مُعَانَاةِ الْمَلِكِ^(٢)، وَأُرِيدُ أَنْ يُبْقِيَ لِي هَذَا الْكِتَابُ بَعْدِي ذِكْرًا عَلَى غَايِرِ الدُّهُورِ.

فَلَمَّا سَمِعَ بَيْدَبَا كَلَامَهُ خَرَّ لَهُ سَاجِدًا، وَرَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ السَّعِيدُ جَدُّهُ، عَلَا نَجْمُكَ، وَغَابَ نَحْشُكَ، وَدَامَتْ أَيَّامُكَ، إِنَّ الَّذِي قَدْ طُبِعَ عَلَيْهِ الْمَلِكُ مِنْ جُودَةِ الْقَرِيحَةِ، وَوُفُورِ الْعَقْلِ، حَرَّكَهُ إِلَى عَالِي الْأُمُورِ، وَسَمَتْ بِهِ نَفْسُهُ وَهَمَّتُهُ إِلَى أَشْرَفِ الْمَرَاتِبِ مَنَزَلَةً وَأَبْعَدَهَا غَايَةً؛ وَأَدَامَ اللَّهُ سَعَادَةَ الْمَلِكِ وَأَعَانَهُ عَلَى مَا عَزَمَ مِنْ ذَلِكَ، وَأَعَانَنِي عَلَى بُلُوغِ مُرَادِهِ^(٣).

فَلْيَأْمُرِ الْمَلِكُ بِمَا شَاءَ مِنْ ذَلِكَ؛ فَإِنِّي صَائِرٌ إِلَى غَرْضِهِ، مُجْتَهِدٌ فِيهِ بِرَأْيِي. قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا بَيْدَبَا، لَمْ تَزَلْ مَوْصُوفًا بِحُسْنِ الرَّأْيِ، وَطَاعَةِ الْمُلُوكِ فِي أُمُورِهِمْ. وَقَدْ اخْتَبَرْتُ مِنْكَ ذَلِكَ، وَاخْتَرْتُ أَنْ تَضَعَ هَذَا الْكِتَابَ، وَتَعْمَلَ فِيهِ فِكْرَكَ، وَتَجْتَهِدَ فِيهِ نَفْسَكَ بِغَايَةِ مَا تَجِدُ إِلَيْهِ السَّبِيلَ. وَلْيَكُنْ مُشْتَمِلًا عَلَى الْجِدِّ وَالْهَزْلِ، وَاللَّهْوِ وَالْحِكْمَةِ وَالْفَلَسَفَةِ. فَكَفَّرَ لَهُ بَيْدَبَا، وَسَجَدَ، وَقَالَ: قَدْ أَحْبَبْتُ الْمَلِكُ أَدَامَ اللَّهُ أَيَّامَهُ إِلَى مَا أَمَرَنِي بِهِ، وَجَعَلْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَجَلًا. قَالَ: وَكَمْ الْأَجَلُ؟ قَالَ: سَنَةٌ. قَالَ: قَدْ أَجَلْتُكَ، وَأَمَرُ لَهُ بِجَائِزَةِ سَنِيَّةٍ، تُعِينُهُ عَلَى عَمَلِ الْكِتَابِ. فَبَقِيَ بَيْدَبَا مُفَكِّرًا فِي

(١) فوقع في نفسه: أي خطر بباله. خزان الحكمة: المكتبات.

(٢) لفضل حكمة: لحكمة زائدة. وأخاف أن يلحقني إلخ: يريد الموت، لأنه لا حيلة لأحد فيه. تستفرغ فيه عقلك: تسجل فيه كل ما في عقلك من أفكار. معاناة الملك: معالجته، وبيان كيف تساس الشعوب وكيف تحكم.

(٣) على غابر الدهور: على باقي الزمن. جدُّه: حظه. جودة القرية: طبيعته التي جبل عليها، وملكته التي يستطيع بها ابتداع الكلام وإبداء الرأي.

الْأَخْذَ فِيهِ، وَفِي أَيِّ صُورَةٍ يَتَّيْدُ بِهَا فِيهِ وَفِي وَضْعِهِ^(١).

ثُمَّ إِنَّ يَتَدَبَّأَ جَمَعَ تَلَامِيذَهُ وَقَالَ لَهُمْ : إِنَّ الْمَلِكَ قَدْ نَدَيْتَنِي إِلَى أَمْرِ فِيهِ فَخَرِي وَفَخَرُكُمْ، وَفَخَرُ بِلَادِكُمْ، وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهَذَا الْأَمْرِ. ثُمَّ وَصَفَ لَهُمْ مَا سَأَلَ الْمَلِكُ مِنْ أَمْرِ الْكِتَابِ، وَالْغَرَضِ الَّذِي قَصَدَ فِيهِ، فَلَمْ يَقَعْ لَهُمُ الْفِكْرُ فِيهِ. فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُمْ مَا يُرِيدُهُ، فَكَّرَ بِفَضْلِ حِكْمَتِهِ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ إِنَّمَا يَنْتَمِ بِاسْتِفْرَاحِ الْعَقْلِ وَإِعْمَالِ الْفِكْرِ^(٢)، وَقَالَ : أَرَى السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي فِي الْبَحْرِ إِلَّا بِالْمَلَاحِينَ لِأَنَّهُمْ يُعَدِّلُونَهَا، وَإِنَّمَا تَسْلُكُ اللَّحَّةَ بِمُدِيرِهَا الَّذِي تَفْرُدُ بِأَمْرِهَا، وَمَتَى شُجِنَتْ بِالرُّكَّابِ الْكَثِيرِينَ، وَكَثُرَ مَلَأُحُوهَا لَمْ يُؤْمَرْ عَلَيْهَا مِنَ الْغَرَقِ^(٣).

وَلَمْ يَزَلْ يُفَكِّرُ فِيمَا يَعْمَلُهُ فِي بَابِ الْكِتَابِ حَتَّى وَضَعَهُ عَلَى الْإِنْفِرَادِ بِنَفْسِهِ مَعَ رَجُلٍ مِنْ تَلَامِيذِهِ كَانَ يَقْبُ بِهِ؛ فَخَلَا بِهِ مُتَفَرِّدًا مَعَهُ بَعْدَ أَنْ أَعَدَّ مِنَ الْوَرَقِ الَّذِي كَانَتْ تَكْتُبُ فِيهِ الْهِنْدُ شَيْئًا، وَمِنَ الْقُوتِ مَا يَقُومُ بِهِ وَيَتَلَمِّذُهُ تِلْكَ الْمُدَّةَ وَجَلَسَا فِي مَقْصُورَةٍ، وَرَدَّا عَلَيْهِمَا الْبَابَ ثُمَّ بَدَأَ فِي نَظْمِ الْكِتَابِ، وَتَصْنِيفِهِ، وَلَمْ يَزَلْ هُوَ يُمْلِي، وَتَلْمِذُهُ يَكْتُبُ، وَيَزْجَعُ هُوَ فِيهِ حَتَّى اسْتَقَرَّ الْكِتَابُ عَلَى غَايَةِ الْإِتْقَانِ وَالْإِحْكَامِ. وَرَتَّبَ فِيهِ خَمْسَةَ عَشَرَ بَابًا كُلُّ بَابٍ مِنْهَا قَائِمٌ بِنَفْسِهِ وَفِي كُلِّ بَابٍ مَسْأَلَةٌ وَالْجَوَابُ عَنْهَا لِيَكُونَ لِمَنْ نَظَرَ فِيهِ حِظٌّ مِنَ التَّبَصُّرَةِ وَالْهِدَايَةِ، وَضَمَّنَ تِلْكَ الْأَبْوَابَ كِتَابًا وَاحِدًا وَسَمَّاهُ كِتَابَ كَلِيلَةٍ وَدِمْنَةٍ. ثُمَّ جَعَلَ كَلَامَهُ عَلَى أَلْسِنِ الْبَهَائِمِ، وَالسَّبَاعِ، وَالطَّيْرِ لِيَكُونَ ظَاهِرُهُ لَهَوًا لِلْخَوَاصِّ وَالْعَوَامِّ، وَبَاطِنُهُ رِيَاضَةً لِعُقُولِ الْخَاصَّةِ^(٤). وَضَمَّنَهُ أَيْضًا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ مِنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ، وَأَهْلِيهِ وَخَاصَّتِهِ، وَجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهِ وَآخِرَتِهِ وَأَوْلَاةٍ وَيُخَصُّهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ لِلْمُلُوكِ، وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانِبَتُهُ خَيْرًا لَهُ. ثُمَّ جَعَلَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا كَرَسَمِ سَائِرِ الْكُتُبِ الَّتِي يَرَسُمُ الْحِكْمَةُ، فَصَارَ الْحَيَوَانُ لَهَوًا وَمَا يَنْطَلِقُ بِهِ حِكْمَةً وَأَدَبًا^(٥). فَلَمَّا انْتَدَأَ يَتَدَبَّأُ بِذَلِكَ، جَعَلَ أَوَّلَ الْكِتَابِ وَصَفَ الصِّدِّيقِ، كَيْفَ يَكُونُ الصِّدِّيقَانِ، وَكَيْفَ تُقَطَّعُ الْمَوَدَّةُ الثَّابِتَةُ بَيْنَهُمَا بِحِيلَةٍ ذِي النَّمِيمَةِ، وَأَمَرَ تَلْمِذَهُ أَنْ يَكْتُبَ عَلَى لِسَانِ يَتَدَبَّأُ بِمِثْلِ مَا كَانَ الْمَلِكُ شَرَطَهُ فِي أَنْ يَجْعَلَهُ لَهَوًا وَحِكْمَةً. فَذَكَرَ يَتَدَبَّأُ أَنَّ الْحِكْمَةَ مَتَى دَخَلَهَا كَلَامُ الثَّقَلَةِ

(١) صائر إلى غرضه : ممثل أمره ومحقق هدفه . وتعمل فيه فكرك : تبذل كل جهدك العقلي . أجلاً : موعداً . جائزة سنوية : ريفية .

(٢) ندبني : دعاني وكلفني . فلم يقع لهم الفكر فيه : لم ينهضوا فكرهم للاشتراك في تأليفه .

(٣) الملاحين : البحارة والنوتية . اللجة : معظم البحر وتردد أمواجه . بإمرتها : بإرادتها وقيادتها .

(٤) مقصورة : حجرة . حظ : نصيب . التبصرة : تبين ما يأتيه من خير أو شر . البهائم : ذوات الأربع مما عدا السباع . رياضة لعقول الخاصة : تدريباً وتعميماً .

(٥) سياسة نفسه : تعهدها وتقويمها وتهذيبها . وخاصته : حاشيته . وأولاده : حياته . يحضه : يدعوه ويحثه . كرسم : مثل كتابة كتب الحكمة .

أَفْسَدَهَا وَاسْتَجْهَلَ حِكْمَتَهَا. فَلَمْ يَزَلْ هُوَ وَتَلْمِيزُهُ يُعْمِلَانِ الْفِكَرَ فِيمَا سَأَلَهُ الْمَلِكُ حَتَّى فَتَقَ لَهُمَا الْعَقْلُ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُمَا عَلَى لِسَانِ بَهِيمَتَيْنِ^(١) فَوَقَعَ لَهُمَا مَوْضِعُ اللَّهْوِ وَالْهَزْلِ بِكَلَامِ الْبَهَائِمِ، وَكَانَتْ الْحِكْمَةُ مَا نَطَقًا بِهِ، فَأَضَعَتِ الْحُكَمَاءُ إِلَى حِكْمِهِ وَتَرَكُوا الْبَهَائِمَ وَاللَّهْوَ، وَعَلِمُوا أَنَّهَا السَّبَبُ فِي الَّذِي وُضِعَ لَهُمْ وَمَالَتْ إِلَيْهِ الْجُهَالُ عَجَبًا مِنْ مُحَاوَرَةِ بَهِيمَتَيْنِ، وَلَمْ يَشْكُرُوا فِي ذَلِكَ، وَاتَّخَذُوهُ لَهْوًا، وَتَرَكُوا مَعْنَى الْكَلَامِ أَنْ يَفْهَمُوهُ، وَلَمْ يَعْلَمُوا الْغَرَضَ الَّذِي وُضِعَ لَهُ؛ لِأَنَّ الْفِيلَسُوفَ إِنَّمَا كَانَ غَرَضُهُ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ أَنْ يُخْبِرَ عَنِ تَوَاضُلِ الْإِخْوَانِ كَيْفَ تَتَأَكَّدُ الْمَوَدَّةُ بَيْنَهُمْ عَلَى التَّحْفِظِ مِنْ أَهْلِ السَّعَايَةِ، وَالتَّخَوُّزِ مِمَّنْ يُوقِعُ الْعَدَاوَةَ بَيْنَ الْمُتَحَاتِّينِ لِيَجُزَّ بِذَلِكَ نَفَقًا إِلَى نَفْسِهِ^(٢).

فَلَمْ يَزَلْ يَبْدَأُ وَتَلْمِيزُهُ فِي الْمَقْصُورَةِ حَتَّى اسْتَنْتَمَ عَمَلَ الْكِتَابِ فِي مُدَّةِ سَنَةٍ. فَلَمَّا تَمَّ الْحَوْلُ، أَتَفَذَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ أَنْ قَدْ جَاءَ الْوَعْدُ فَمَاذَا صَنَعْتَ؟ فَأَتَفَذَ إِلَيْهِ يَبْدَأُ: إِنِّي عَلَى مَا وَعَدْتُ الْمَلِكَ، فَلْيَأْمُرْنِي بِحَمْلِهِ بَعْدَ أَنْ يَجْمَعَ أَهْلُ الْمَمْلَكَةِ لِيَتَكُونَ قِرَاءَتِي هَذَا الْكِتَابِ بِحَضْرَتِهِمْ، فَلَمَّا رَجَعَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَلِكِ سُرَّ بِذَلِكَ وَوَعَدَهُ يَوْمًا مَا يَجْمَعُ فِيهِ أَهْلُ الْمَمْلَكَةِ؛ ثُمَّ نَادَى فِي أَقَاصِي بِلَادِ الْهِنْدِ لِيَحْضُرُوا قِرَاءَةَ الْكِتَابِ؛ فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يُنْصَبَ لِيَبْدَأُ سَرِيرٌ مِثْلُ سَرِيرِهِ، وَكُرَاسِيٌّ لِأَتْنَاءِ الْمُلُوكِ وَالْعُلَمَاءِ وَأَتَفَذَ فَأَحْضَرَهُ^(٣).

فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَامَ فَلَمَسَ الثَّيَابَ الَّتِي كَانَ يَلْبَسُهَا إِذَا دَخَلَ عَلَى الْمُلُوكِ، وَهِيَ الْمُسَوَّحُ الشَّوْدُ، وَحَمَلَ الْكِتَابَ تَلْمِيزُهُ. فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ وَثَبَ الْخَلَائِقُ بِأَجْمَعِهِمْ، وَقَامَ الْمَلِكُ شَاكِوًا، فَلَمَّا قَرُبَ مِنَ الْمَلِكِ كَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ، وَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا يَبْدَأُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ؛ فَإِنَّ هَذَا يَوْمٌ هَنَاءٍ وَفَرَحٍ وَسُرُورٍ، وَأَمَرَهُ الْمَلِكُ أَنْ يَجْلِسَ^(٤).

فَجِئَ جُلُوسَ لِقَاءَةِ الْكِتَابِ سَأَلَهُ الْمَلِكُ عَنْ مَعْنَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْكِتَابِ، وَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ قَصِدَ فِيهِ؟ فَأَجَبَهُ بِغَرَضِهِ فِيهِ، وَفِي كُلِّ بَابٍ، فَأَرَادَ الْمَلِكُ مِنْهُ تَعَجُّبًا وَسُرُورًا، فَقَالَ لَهُ: يَا يَبْدَأُ، مَا عَدَدْتُ إِلَيَّ فِي نَفْسِي، وَهَذَا الَّذِي كُنْتُ أَطْلُبُ، فَأُطْلَبُ مَا نَيْتُ، وَتَحَكُّمٌ؛ فَدَعَا لَهُ يَبْدَأُ بِالسَّعَادَةِ، وَطُولِ الْحَيَاةِ، وَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، أَمَّا الْمَالُ فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ، وَأَمَّا الْكُشُورَةُ فَلَا

(١) التَّمِيمَةُ: نَقْلُ الْكَلَامِ بَيْنَ الْأَصْدِقَاءِ بِقَصْدِ الْإِفْسَادِ. يَعْمَلَانِ الْفِكَرَ: يَفَكِّرَانِ. فَتَقَ لَهُمَا الْعَقْلُ: كَشَفَ وَأَبْرَزَ.

(٢) تَوَاضُلُ الْإِخْوَانِ: انْتِصَالُهُمْ وَتَوَاطُّعُهُمْ بِرَوَابِطِ الْمَحَبَّةِ. التَّحْفِظُ: الْحَذَرُ وَالْإِحْتِيَاظُ. أَهْلُ السَّعَايَةِ: التَّامِّينَ.

(٣) اسْتَنْتَمَ: كَتَلَ وَتَمَّ. الْحَوْلُ: السَّنَةُ. بِحَضْرَتِهِمْ: أَمَامَهُمْ. سَرِيرُ الْمَلِكِ: الْعَرْشُ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَيْهِ. أَتَفَذَ: بَعَثَ وَأَرْسَلَ.

(٤) الْمُسَوَّحُ: جَمْعُ بَشْعَةٍ وَهِيَ ثِيَابٌ مِنْ شَعَرٍ أَوْ صُوفٍ. وَثَبَ الْخَلَائِقُ: تَهَضُّوا وَوَقَفُوا مَسْرِعِينَ.

أَخْتَارَ عَلَى لِبَاسِي هَذَا شَيْئًا ، وَلَسْتُ أَخْلِي الْمَلِكَ مِنْ حَاجَةٍ : قَالَ الْمَلِكُ : يَا يَتَدَبَا ، مَا حَاجَتُكَ ؟ فَكُلُّ حَاجَةٍ لَكَ قَبْلَنَا مَقْضِيَّةٌ ^(١) .

قَالَ : يَأْمُرُ الْمَلِكُ أَنْ يُدَوَّنَ كِتَابِي هَذَا كَمَا دَوَّنَ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ كُتُبَهُمْ ، وَيَأْمُرُ بِالمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ فَيَتَنَاوَلَهُ أَهْلُ فَارِسَ إِذَا عَلِمُوا بِهِ ، فَالْمَلِكُ يَأْمُرُ أَلَّا يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِ الْحِكْمَةِ . ثُمَّ دَعَا الْمَلِكُ بِتَلَامِيذِهِ وَأَحْسَنَ لَهُمُ الْجَوَائِزَ !

ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا مَلَكَ كِسْرَى أَنْوِشِروَانَ وَكَانَ مُسْتَأْثِرًا بِالكُتُبِ وَالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَالنَّظَرِ فِي أَخْبَارِ الْأَوَائِلِ وَقَعَ إِلَيْهِ خَبَرُ الْكِتَابِ ، فَلَمْ يَقْرَأْ قَرَأَهُ حَتَّى بَعَثَ بَرَزَوَيْهِ الطَّبِيبَ ، وَتَلَطَّفَ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ فَأَقْرَأَهُ فِي خَزَائِنِ فَارِسَ ^(٢) .

بَابُ

بَعَثَ الْمَلِكُ كِسْرَى أَنْوِشِروَانَ بْنِ قَبَادَ بَرَزَوَيْهِ بْنَ أَزْهَرَ الطَّبِيبَ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ فِي تَحْصِيلِ هَذَا الْكِتَابِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِيَدِهِ مَفَاتِيحُ غَيْبِهِ ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى كُلِّ عِلْمٍ وَغَايَةِ الدَّلَالِ عَلَى الْخَيْرِ ، الْمُسَبِّبُ كُلِّ فَضِيلَةٍ ، أَلْهَمَ عِبَادَهُ كُلَّ مَا يَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ مِنْ نَوَافِلِ الْخَيْرَاتِ ، وَنَوَامِي الْبَرَكَاتِ ؛ لِمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ إِذْ أَمَرَهُمْ بِالشُّكْرِ لَهُ ، لِيَسْتَوْجِبُوا بِذَلِكَ الْمَزِيدَ مِنْهُ ، وَيُسَارِعُوا فِيمَا يُؤْضِيهِ عَنْهُمْ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ^(٣) .

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ مُسَبِّبٍ عِلَّةً ، وَلِكُلِّ عِلَّةٍ مَجْرَى يُجْرِِيهَا اللَّهُ تَعَالَى بِهِ عَلَى يَدِ عَبْدٍ مِنْ عِبِيدِهِ ، وَيُقَدِّرُهَا لَهُ عَلَى أَيَّامِ دَوْلَتِهِ وَأَيَّامِ عُمْرِهِ . وَذَلِكَ أَنَّ مَا كَانَ مِنْ عِلْمٍ أُنْتَسَاخَ هَذَا الْكِتَابِ ، وَنَقْلِهِ مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ إِلَى مَمْلَكَةِ فَارِسَ إِلَهُامَ أَلْهَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى كِسْرَى أَنْوِشِروَانَ لِلْبَعْثِ فِي نَقْلِهِ وَنَسْخِهِ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَكْبَرَ مُلُوكِ الْفُرسِ ^(٤) ، وَأَكْثَرَهُمْ حِكْمَةً ، وَأَسَدَّهُمْ رَأْيًا ، وَأَرْشَدَهُمْ تَذْيِيرًا ، وَأَحَبَّهُمْ لِلْعُلُومِ ، وَأَبَحَّتْهُمْ عَنْ مَكَامِنِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، وَأَخْرَصَهُمْ عَلَى الْخَيْرِ ، وَتَقَرَّبَهُ إِلَى اللَّهِ

(١) ما عدوت : ما تجاوزت ، وما خرجت عما كنت أفكر فيه فهو حسب المطلوب . وتحكم : تصرف كما تشاء . ولست أخليه : أي لست أعفيه ؛ فلي عنده طلب . قَبْلَنَا : عندنا .

(٢) مستأثرا بالكُتُبِ : منفردا بها . وقع إليه خبر الكتاب : بلغه . تَلَطَّفَ : تحايل .

(٣) نوافل الخيرات : الزائد من الأعمال الحسنة فوق الواجب . ونوامي البركات : البركات النامية .

(٤) دولته : حكمته .

تَعَالَى، وَإِلَى أَقْتِنَاءِ مَا يَزِينُهُ بِزِينَةِ الْحِكْمَةِ مِنْ طَالِييِ الْأَدَبِ وَالْعِلْمِ فِي مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالنَّفْعِ وَالضَّرِّ، وَالصَّدِيقِ وَالْعَدُوِّ.

وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ إِلَّا بِنُورِ اللَّهِ تَعَالَى فِي سِيَاسَتِهِ عَبِيدَهُ، وَبِلَادَهُ لِإِقَامَةِ رَعِيَّتِهِ وَأُمُورِهِ. وَهُوَ الْمَلِكُ الْمُعَظَّمُ فِي قَوْمِهِ كِسْرَى الْمُتَزَيَّنِّ بِزِينَةِ الْبَهَاءِ، وَالْفَاضِلُ الْمَاجِدُ الرَّشِيدُ السَّعِيدُ الَّذِي لَمْ يَغْدِلْهُ أَحَدٌ مِمَّنْ مَضَى قَبْلَهُ مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ، النَّاقِذُ الْبَصِيرُ الْكَامِلُ الْأَدَبُ^(١)، الْمُعِينُ لَهُ نَفْسُهُ عَلَى التَّمَاسِ فُرُوعِ الْحِكْمِ، الْمُسْتَعِينُ بِنُورِ الْعَقْلِ، وَجُودَةُ الْفِكْرِ الَّذِي اخْتَصَّصَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِذِهِ الْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ، وَزَيْنَةُ بِرِينَةِ الْكِرَامَةِ، وَتَوَجُّهُ بِهِذِهِ النُّعْمَةِ السَّابِغَةِ حَتَّى أَدْعَنَتْ لَهُ الرَّعِيَّةَ، وَطَاعَتْ لِسُلْطَانِهِ الْبَرِيَّةَ، وَصَفَتْ لَهُ الدُّنْيَا، وَدَانَتْ لَهُ الْبِلَادُ وَانْقَادَتْ لَهُ الْمُلُوكُ، وَرَكَعَتْ إِلَى طَاعَتِهِ وَخِدْمَتِهِ وَمُنَاصَحَتِهِ. وَذَلِكَ مِنْهُ مِنَ الْخَالِقِ - جَلَّ وَعَلَا - قَسَمَهَا لَهُ فِي دَوْلَتِهِ، وَجَمَلَهُ بِهَا فِي أَقْطَارِ مَمْلَكَتِهِ^(٢).

فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي غُفْوَانِ دَوْلَتِهِ وَسَمْعِهَا، وَعِزَّةِ مَمْلَكَتِهِ وَقَعْسِهَا، إِذْ أَخْبَرَهُ بَعْضُ جُلَسَائِهِ أَنَّ عِنْدَ بَعْضِ مُلُوكِ الْهِنْدِ فِي خَزَائِنِهِ كِتَابًا مِنْ تَأْلِيفِ الْحُكَمَاءِ، وَتَصَانِيفِ الْعُلَمَاءِ، وَاسْتِنْبَاطِ الْفُضْلَاءِ، وَقَدْ فُصِّلَتْ لَهُ عَرَائِبُ مِنْ عَجَائِبِهِ الْمَوْضُوعَةِ عَلَى أَقْوَامِ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ وَالْوَحْشِ وَالْهَوَامِّ وَخَشَاشِ الْأَرْضِ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَضْلَاءُ الْمُلُوكِ لِسِيَاسَةِ رَعِيَّتِهَا وَنِظَامِ أُمُورِ مَمَالِكِهَا وَتَنْدَبِيرِهَا. فَدَعَتْهُ الْحَاجَةُ إِلَى أَقْتِنَاءِ هَذَا الْكِتَابِ لِكَمَالِ مُلْكِهِ^(٣)، وَأَنَّهُ بِعَدَمِهِ نَاقِصٌ وَبِتَحْصِيلِهِ كَامِلٌ، وَبِاتِّبَاعِهِ يَحْصُلُ عَلَى رِضَى الْخَالِقِ - جَلَّ وَعَلَا - وَاتِّقَادِ الْمَخْلُوقِ لَهُ وَزَجْرِهِ عَنِ الْمَعَاصِي الَّتِي يَتَّبِعُهَا شِرَارُ الْخَلْقِ، وَيَتَجَنَّبُهَا أَصْفَاهُمْ جُودَهَا، وَأَجُودُهُمْ طَبْعًا، وَأَتَّبِعُهُمْ حَسَبًا.

وَإِنَّهُ لَمَّا عَزَمَ عَلَى مَا أَرَادَ مِنْ أَمْرِهِ، وَهَمَّ بِأَقْتِنَائِهِ، وَنَسَخَهُ قَالَ فِي نَفْسِهِ: مَنْ لِي هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ، وَالْخَطْبِ الْجَسِيمِ، وَالْأَدَبِ النَّفِيسِ الَّذِي بِهِ تَتَكَمَّلُ الْفَضَائِلُ، وَلَمْ تَتَزَيَّنْ بِهِ مُلُوكُ الْهِنْدِ دُونَ مُلُوكِ فَارِسَ؟ وَقَدْ هَمَمْتُ أَلَا أَدْعَ مَشَقَّةً وَلَا صُعُوبَةً وَلَا مُخَاطَرَةً حَتَّى أَبْذُلَهَا فِي طَلَبِ هَذَا

(١) البهاء: الجمال والحسن يُعَدُّلُهُ: يشابهه، ويمثله، ويساويه. الناقد: المميز. البصير: العالم الخبير الذي لديه قوة إدراك وفطنة.

(٢) السابغة: الشاملة. أذعنت: خضعت. البرية: المخلوقات. دانت له البلاد: خضعت. منحة: عطية وهبة.

(٣) غُفْوَانِ دولته: غُفْوَانِ الشيء: أوله. يقال: هو في غُفْوَانِ شَيْءٍ: أي في نشاطه وحذته. وشمعها: عظمته. قعسها: عزتها ومنعتها. استنباط: استخراج. تصانيف: مؤلفات. الهوام: ما يقتل من الحشرات. خشاش الأرض: الحشرات. زجره: نهي.

شِرَار: أشرار. أتبعهم حسبًا: أظهرهم سمعة. والحسب: المفاخر التي يكتسبها الإنسان بعلمه.

الكتاب، حَتَّى أَصِلَ إِلَى نَسِجِهِ وَأَقْنَانِيهِ، عَلَى تَرْتِيبِ مَنَافِعِهِ وَعَجَائِبِهِ مِنْ أَقْوَالِ الْحُكَمَاءِ، وَوَضَعَ
الْعُلَمَاءُ لِيَقَعَ لَنَا اسْتِنْبَاطُهُ دُونَ سَائِرِ الْمُلُوكِ مِنْ أَحَادِيثٍ مُعْجَبَةٍ، وَفَضَائِلٍ مُحْكَمَةٍ، يَكَادُ الْعَقْلُ
يَمُدُّ يَدًا إِلَى أَجْنِيَاءِ ثَمَرِهَا، وَيَفْتَحُ فَمَا لِلدِّيدِ مَذَاقُهَا، وَيَتَعَلَّقُ بِوَبِيقِ حَبْلِهَا إِذْ يَرُوضُ النَّفْسَ
بِالْعُدُولِ عَنْ مَسَاوِيئِهَا، وَيَعْدِلُ بِهَا عَنْ تَتَبُعِ أَهْوَائِهَا^(١).

فَلَمَّا فَحَصَ كِشْرَى رَأْيَهُ السَّيِّدَ وَعَزَمَهُ الرَّشِيدَ فِيمَا صَمَّمَ عَلَيْهِ، وَهَمَّ بِهِ، قَالَ : الْأَمْرُ فِي
ذَلِكَ جَلِيلٌ، وَالْخَطْبُ عَظِيمٌ، وَالشُّقَّةُ بَعِيدَةٌ، وَالْمَسَافَةُ طَوِيلَةٌ شَاقَّةٌ^(٢).

وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ نَنْتَحِلَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابَةِ أَصْلَبَهُمْ عُودًا، وَأَجْوَدَهُمْ عَزْمًا وَحَزْمًا، وَهَذَا يُوجَدُ إِمَّا
فِي كُتَابِ الدِّيَوَانِ، وَإِمَّا فِي طَبِّ الْخَاصِّ؛ لِأَنَّ الْخَاصَّ وَالْعَامَّ تَجْمَعُ مَسَالِكُهُمَا جَمِيعَ الْفَضَائِلِ
وَالْأَدَبِ وَفُنُونِ الْعِلْمِ وَمَحْضِ الْحِكْمِ فِي أَنَاةٍ وَتَوَدِّعٍ، وَبُلُوغِ الْأَعْرَاضِ لِمُلُوكِهَا بِحُسْنِ الْحِيلِ،
وَجُودَةِ الذَّهْنِ، وَكَمَالِ الْمُرُوءَةِ، وَكَيْثَمَانِ السَّرِّ، وَإِظْهَارِ أَصْدَادِهَا^(٣).

فَلَمَّا تَمَّ عَزْمُهُ، وَانْتَضَمَ، سَأَلَ وَزَرَءَهُ أَنْ يَتَقَدَّمُوا وَيَجْتَهِدُوا فِي تَطْلُبِ رَجُلٍ كَامِلٍ عَالِمٍ
أَدِيبٍ، قَدْ جَمَعَ الْفَضَائِلَ بِحَذَافِيرِهَا، وَنُسِبَ إِلَى الْكَمَالِ، مِنْ أَهْلِ الْأَصْنَفَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ، إِمَامًا
كَاتِبًا نَحْرِيزًا، أَوْ طَبِيبًا فَيَلَسُوفًا مَاهِرًا، قَدْ أَدْبَنَهُ التَّجَارِبُ، عَارِفًا بِلِسَانِ الْفَارِسِيَّةِ، خَبِيرًا بِاللُّغَةِ
الْهِنْدِيَّةِ، يَكْتُبُهُمَا جَمِيعًا حَرِيصًا عَلَى الْعِلْمِ مَجْتَهِدًا فِي الْأَدَبِ مُوَاطِبًا عَلَى الطَّبِّ أَوْ الْفَلَسَفَةِ
فَيَأْتِيهِ بِهِ. فَخَرَجَ أَهْلُ مَشُورَتِهِ، وَوَزَرَءُهُ مُسْرِعِينَ، فَبَحَثُوا عَمَّنْ هَذِهِ صِفَتُهُ، فَوَجَدُوهُ وَظَفَرُوا بِهِ،
فَإِذَا هُوَ شَابٌّ جَمِيلُ الْوَجْهِ، كَامِلُ الْعَقْلِ وَالْأَدَبِ، ذُو حَسَبٍ وَصِنَاعَةٍ شَرِيفَةٍ يُعْرِفُ بِهَا وَهْيَ
الطَّبِّ^(٤).

وَكَانَ مَاهِرًا فِي الْفَارِسِيَّةِ وَالْهِنْدِيَّةِ، وَهُوَ بَرَزَوِيهِ بْنُ أَزْهَرَ الْفَيَلَسُوفِ، وَكَانَ مِنْ فَضَلَاءِ أَطِبَّاءِ
فَارِسَ. فَأَحْضَرَ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ كِشْرَى، فَخَرَّ سَاجِدًا وَعَفَّرَ وَجْهَهُ طَاعَةً لِلْمَلِكِ، فَشَرَحَ لَهُ الْأَمْرَ
بِمَحْضَرٍ مِنْ وَزَرَئِهِ وَخَوَاصِّهِ وَأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ، وَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ، إِنِّي تَقَدَّمْتُ إِلَى
وَزَرَءِ دَوْلَتِي، وَأَهْلِ نَصِيحَتِي أَنْ يَنْظُرُوا لِي رَجُلًا كَامِلَ الْفَضْلِ، قَدْ جَهَدَ نَفْسَهُ فِي طَلَبِ الْعُلُومِ،

(١) الخطب الجسيم : الأمر العظيم . ليقع : ليثبت ويحصل . محكمة : منقته . بوثيق حبليها : بعين حبليها . يروض النفس : يهذبها .

(٢) السديد : السليم . الشقة بعيدة : السفر طويل .

(٣) نتحل : نختار . أصلبهم عودًا : أقواهم . حزمًا : ضبطًا لأمره . ومحض الحكم : خالص . أناة : حلم . تودة : تأن .

(٤) تطلب رجل : البحث عنه والسعي في طلبه وإحضاره . بحذافيرها : جمع خذافر أو خذفور الجانب والناحية، ويقال : أخذ الشيء بحذافيره : بأسره، أو بجوانبه ونواحيه . نحريزًا : عالمًا متقنًا . فيلسوف : مجاب للحكمة . ذو حَسَبٍ : ذو شرف ثابت متعدد النواحي له ولاياته .

وَأَقْنَاءِ الْفَضَائِلِ، كَاتِمًا لِأَسْرَارِ الْمُلُوكِ، أَطْلَعُهُ عَلَى مَا أَنْطَوَى عَلَيْهِ ضَمِيرِي، وَأَوْصِلُهُ إِلَى مَكْنُونِ سِرِّي، فَيَأْخُذُ ذَلِكَ بِقَبُولِ وَإِقْبَالِ وَسِيَّاسَةِ وَإِذْعَانِ، وَيُظْهِرُ الْخِدْمَةَ، وَيَمَحْضُ الْمَهْنَةَ، وَيَبْذُلُ الْاجْتِهَادَ فِي بُلُوغِ الْمَلِكِ مَنَاهُ وَأَمَلَهُ، وَيُمَيِّزُهُ عَلَى سَائِرِ مُلُوكِ الدُّوَلِ لِيَصِلَ إِلَى مَطْلُوبِهِ، وَيُكَافَأَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَنْقَى فِي عَقِبِهِ، بِإِذْلَا نَفْسَهُ فِيمَا لِسُلْطَانِهِ^(١).

وَقَدْ ذُكِرَ عَنْكَ فَضَائِلُ كَثِيرَةٌ، وَحِكْمُ شَرِيفَةٍ أَنْتَ بِفِرَاسَتِكَ أَهْلٌ لَهَا، وَيَنْبُوعُ تَصَدُّرُ عَنْكَ، فَكُنْ عِنْدَ رَجَاءِ الْوُزَرَاءِ وَالْأَصْفِيَاءِ فِيكَ، وَأَنْزِلْ نَفْسَكَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي تُخَيِّرُ لَهَا، وَأَنْفِقُ مِنْ سَعَةٍ، وَتَسَبِّبُ بِأَسْبَابِ مَنْ صَفَا جَوْهَرُهُ، وَطَابَ غُنْصَرُهُ، وَارْتَفَعَ بِعِلْمِهِ وَحَلَمِهِ وَطَاعَةِ بَارِيهِ بِطَاعَةِ سُلْطَانِهِ الَّتِي أَمَرَ بِاتِّبَاعِهَا، وَنَهَى وَزُجَرَ عَنِ الْخُرُوجِ عَنْهَا؛ فَإِنِّي قَدْ اخْتَرْتُكَ لِمَا بَلَغَنِي مِنْ فَضْلِكَ، وَعِلْمِكَ، وَعَقْلِكَ، وَحِرْصِكَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ حَيْثُ كَانَ^(٢).

وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ كِتَابِ بِالْهِنْدِ مَخْرُوضٍ فِي خَزَائِنِهِمْ، وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ، وَمَا بَلَغَهُ عَنْهُ، وَقَالَ لَهُ: تَجَهَّزْ فَإِنِّي مُرَحِّلُكَ إِلَى أَرْضِ الْهِنْدِ؛ فَتَلَطَّفَ فِي ذَلِكَ بِعَقْلِكَ وَحُسْنِ أَدَبِكَ وَنَاقِدِ رَأْيِكَ لَا سِتِّخْرَاجِ هَذَا الْكِتَابِ مِنْ خَزَائِنِهِمْ، وَمِنْ قِبَلِ عُلَمَائِهِمْ وَحُكَمَائِهِمْ تَأْمَنًا كَامِلًا مَكْتُوبًا بِالْفَارِسِيَّةِ، فَتَسْتَفِيدَهُ أَنْتَ وَتُقِيدَنَا بِإِيَّاهُ^(٣).

وَمَا قَدَّرْتَ عَلَيْهِ مِنْ كُتُبِ الْهِنْدِ مِمَّا لَيْسَ فِي خَزَائِنِنَا مِنْهُ شَيْءٌ فَاحْمِلْهُ مَعَكَ، وَقَدْ أَمَرْنَا أَنْ يُطْلَقَ لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا تَخْتَارُ وَتَحْتَاجُ إِلَيْهِ؛ فَإِذَا نَفَذَ مَا تَسْتَصَحِبُهُ فَأَكْتُبْ إِلَيْنَا نُمِدَّكَ بِالْمَالِ، وَإِنْ كَثُرَتْ فِيهِ التَّفَقُّةُ فَإِنَّ جَمِيعَ مَا فِي خَزَائِنِنَا مَبْدُولٌ لَكَ فِي طَلَبِ الْعُلُومِ، وَهَذَا الْكِتَابُ؛ فَطَبْتُ نَفْسًا، وَقَرَّ عَيْنًا، وَعَجَّلَ فِي ذَلِكَ، وَلَا تُقْصِرْ فِي طَلَبِ الْعُلُومِ، وَأَعْمَلْ عَلَى مَسِيرِكَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى^(٤).

قَالَ بَزْرَوِيَّةُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ - عِشْتَ دَهْرًا طَوِيلًا سَعِيدًا، وَمُلَكْتَ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ فِي خَفْضِ وَدَعَةِ مُؤَيَّدًا مَنْصُورًا - إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِكَ، وَسَهْمٌ مِنْ سِهَامِكَ؛ فَلْيَرْزَمْ بِي الْمَلِكُ حَيْثُ شَاءَ

(١) عفر: مزغ على عادة الفرس في تحينهم لملوكهم. وقد منع الإسلام السجود لغير الله. مكنون سرى: مستوره. إذعان: خضوع وامتنال. ويمحض المهنة: يخلص الخدمة. عقيب: أولاده من بعده فهم الذين يعقبونه ويأتون بعده.

(٢) بفراستك: بذكائك وصدق نظرك. الأصفياء: جمع صفي وهم المخلصون المختارون. وكن عند رجائهم: أي حقق أملهم ورجاءهم فيك. تخيَّرت: اصطفت وتم اختيارك. وأنفق من سعة: أي توسع في إنفاق المال. تسبب بأسباب: تعلق بها وتوصل بتلك الوسائل. غنصرة: أصله.

(٣) مَرَحَّلُكَ: أَمَرَ بِتَرْحِيلِكَ وَسَفَرِكَ. وناقِدِ رَأْيِكَ: مُمَيِّز. قَبِلَ: نَاحِيَةً.

(٤) نَفَذَ: انْتَهَى. نُمِدَّكَ: نَبَعْتُ إِلَيْكَ بِمَدَدٍ وَنَسَاعَدَكَ. وَقَرَّ عَيْنًا: أَهْنَأَ وَأَسْعَدَ وَاهْدَأَ وَارْضَ. مَسِيرِكَ: سَبِيلِكَ، أَيْ اسْتَعَدَّ لِلْسَفَرِ وَالسَّيْرِ.

مِنَ الْأَرْضِ، مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ الْمَلِكُ - أَدَامَ اللَّهُ أَيَّامَهُ فِي غِبْطَةٍ وَسُرُورٍ - أَنْ يَعْقِدَ لِي مَجْلِسًا قَبْلَ سَفَرِي، يَحْضُرُهُ الْخَوَاصُّ لِيَعْلَمَ أَهْلُ الطَّاعَةِ وَالْمَمْلَكَةِ مَا اسْتَخَصَّنِي بِهِ الْمَلِكُ، وَرَأَيْي أَهْلًا لَهُ، وَنَوْهَ بِاسْمِي، فَلَيَفْعَلَ ذَلِكَ مُنْعِمًا عَلَى الْعَبْدِ الطَّائِعِ^(١).

فَقَالَ الْمَلِكُ : يَا بَزْرَوِيه، قَدْ رَأَيْتَكَ لِذَلِكَ أَهْلًا، وَأَجَبْتُكَ إِلَى مَا طَلَبْتَ، وَأَذْنْتُ لَكَ فِيمَا سَأَلْتَ، فَافْعَلْ مِنْ ذَلِكَ حَسَبَ مَا تَرَاهُ مُوَافِقًا لَكَ مِنْوَهَا بِاسْمِكَ، ثُمَّ خَرَجَ بَزْرَوِيه مِنْ بَيْنِ يَدَيِ الْمَلِكِ فَرِحًا مَسْرُورًا، وَأَعَدَّ لَهُ الْمَلِكُ يَوْمًا أَمَرَ أَنْ يُجْمَعَ لَهُ فِيهِ أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ وَخَوَاصُّ أُمَرَاءِ دَوْلَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَنْ يُنْصَبَ لَهُ مِنْبَرٌ، فَتُصَبَّ، وَرَقِي عَلَيْهِ بَزْرَوِيه ثُمَّ قَالَ :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ بِرَحْمَتِهِ، وَمَنْ عَلَى عِبَادِهِ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَرَزَقَهُمْ مِنَ الْعَقْلِ مَا يَقْدِرُونَ بِهِ عَلَى إِصْلَاحِ مَعَايِشِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَيُذَرِّكُونَ بِهِ اسْتِنْقَادَ أَرْوَاحِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ^(٢).

وَأَفْضَلَ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَمَنْ بِهِ عَلَيْهِمُ الْعَقْلُ الَّذِي هُوَ الدَّعَامَةُ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَالَّذِي لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا عَلَى إِصْلَاحِ مَعِيشَتِهِ، وَلَا إِحْرَازِ نَفْعٍ، وَلَا دَفْعِ ضَرَرٍ إِلَّا بِفَيْضِهِ مِنَ الْخَالِقِ الْمُبْدِعِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ، وَكَذَلِكَ طَالِبُ الْآخِرَةِ الزَّاهِدُ الْمُجْتَهِدُ فِي الْعَمَلِ الْمُنْجِي بِهِ نَفْسَهُ، عِمَايَةِ الضَّلَالِ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِيْتِمَامِ عَمَلِهِ وَإِكْمَالِهِ، وَلَا يَتِمُّ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْعَقْلِ الَّذِي هُوَ السَّبَبُ الْمُوَصِّلُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَالْمِفْتَاحُ لِكُلِّ سَعَادَةٍ، وَالْمُبْلَغُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ؛ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَنْهُ غِنَى وَلَا بَغْيَرُهُ أَكْتِفَاءً^(٣).

وَالْعَقْلُ غَرِيزِيٌّ مَطْبُوعٌ، وَيَتَزَانَدُ بِالتَّجَارِبِ وَالْآدَابِ وَغَرِيزَتُهُ مَكْنُونَةٌ فِي الْإِنْسَانِ، كَامِنَةٌ فِيهِ كُمُونُ النَّارِ فِي الْحَجَرِ. فَإِنَّ النَّارَ طَبِيعَتُهَا فِيهِ كَامِنَةٌ لَا تَظْهَرُ وَلَا يُرَى ضَوْؤُهَا حَتَّى يُظْهَرَهَا قَادِحٌ مِنْ غَيْرِهَا، فَإِذَا قَدَحَهَا ظَهَرَتْ طَبِيعَتُهَا بِضَوْئِهَا وَحَرِّيقِهَا. وَكَذَلِكَ الْعَقْلُ كَامِنٌ فِي الْإِنْسَانِ، لَا يَظْهَرُ حَتَّى يُظْهَرَهُ الْأَدَبُ وَتَقْطِئَهُ التَّجَارِبُ؛ فَإِذَا اسْتَعْمَكَمَ كَانَ أَوْلَى بِالتَّجَارِبِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمُتَعَرِّفُ لِكُلِّ فَضِيلَةٍ، وَالْمُعِينُ عَلَى دَفْعِ كُلِّ رَذِيلَةٍ؛ فَلَا شَيْءَ أَفْضَلَ مِنَ الْعَقْلِ، إِذَا مَنَّ اللَّهُ تَعَالَى

(١) الأقاليم : جمع إقليم، والأقاليم السبعة عند القدماء : هي أقسام الأرض . في خفص : دعة : متعة عيش، وسكنية نفس . غبطة : حسن الحال والسرة . الخواص : السادة والطبقة العليا . ونوه باسمي : رفعه، وأشاد بذكرى .

(٢) ينصب له منبر : يقام له مكان عال يثقف عليه . ورقى : صعد . إصلاخ معاشهم : حياتهم جمع معيشة . استنقاذ : إنقاذ وإنقاذ .

(٣) مَنْ بِهِ عَلَيْهِمْ : أنعم . الدعامة : الأساس . إحراز : امتلاك وتحصيل . غفاية الضلال : التخطي في الباطل وعدم الاهتداء إلى الحق . دار الخلود : الجنة .

عَلَى عَبْدِهِ بِهِ وَأَعَانَهُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُواظَبَةِ عَلَى طُرُقِ الْأَدَبِ وَالْعِلْمِ وَالْحِرَاصِ عَلَى ذَلِكَ^(١).

وَمَنْ رَزَقَ الْعَقْلَ، وَمَنْ بِهِ عَلَيْهِ، وَأَعِينَ عَلَى صِدْقِ قَرِيبَتِهِ بِالْأَدَبِ، حَرَصَ عَلَى طَلَبِ سَعْدِ جَدِّهِ، وَأَذَرَ فِي الدُّنْيَا أَمَلَهُ، وَحَارَ فِي الْآخِرَةِ ثَوَابَ الصَّالِحِينَ. فَالْعَقْلُ هُوَ الْمُقْوَى لِلْمَلِكِ عَلَى مُلْكِهِ، فَإِنَّ الشُّوقَةَ وَالْعَوَامَّ لَا يَصْلُحُونَ إِلَّا بِإِفَاضَةِ يَنْبُوعِ الْعَدْلِ الْفَائِضِ عَنِ الْعَقْلِ لِأَنَّهُ سَبَاجُ الدُّوَلَةِ^(٢).

وَقَدْ رَزَقَ اللَّهُ مَلِكَنَا السَّعِيدَ كَسْرَى أُنُوشِرَوَانَ مِنَ الْعَقْلِ أَفْضَلَ الْحَظِّ، وَأَجَزَلَهُ، وَمَنِ الْعِلْمِ أَجْمَلَهُ وَأَكْمَلَهُ، وَمَنِ الْمَعْرِفَةِ بِالْأُمُورِ أَصْوَبَهَا، وَسَدَّدَهُ مِنَ الْأَفْعَالِ إِلَى أَسَدِّهَا، وَمَنِ الْبَحْثِ عَنِ الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ إِلَى أَنْفَعِهِ، وَبَلَّغَهُ مِنْ فُنُونِ اخْتِلَافِ الْعِلْمِ وَبُلُوغِ مَنْزِلَةِ الْفَلَسَفَةِ مَا لَمْ يَتَلَّغُهُ مَلِكٌ قَطُّ مِنَ الْمُلُوكِ قَبْلَهُ؛ وَكَانَ هُوَ الْقَابِلُ لِذَلِكَ بِجُودَةِ الْمَادَّةِ الْقَابِلَةِ لِانْطِبَاعِ الصُّورِ؛ فَبَلَغَ بِذَلِكَ الرُّتَبَةَ الْقُصْوَى فِي الْفَضْلِ عَلَى مَنْ مَضَى مِنَ الْمُلُوكِ قَبْلَهُ^(٣).

حَتَّى كَانَ فِيهَا طَلَبَ وَبَحْثَ عَنْهُ، وَسَمَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ بَلَغَهُ عَنْ كِتَابِ بِالْهِنْدِ مِنْ كُتُبِ فَلَا سِفَتِهَا وَعُلَمَائِهَا مَحْزُونٍ عِنْدَ مُلُوكِهِمْ، عَلِمَ أَنَّهُ أَضَلُّ كُلِّ أَدَبٍ وَرَأْسُ كُلِّ عِلْمٍ، وَالذَّلِيلُ عَلَى كُلِّ مَنْفَعَةٍ، وَمِفْتَاحُ عَمَلِ الْآخِرَةِ وَعِلْمِهَا، وَمَعْرِفَةُ النَّجَاةِ مِنْ أَهْوَالِهَا، وَالْمُقْوَى عَلَى جَمِيعِ الْأُمُورِ، وَالْمُعِينُ عَلَى مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ فِي تَذْيِيرِهِمْ لِأُمُورِ مَمَالِكِهِمْ، وَآدَابِ الشُّوقَةِ فِيمَا يُرْضُونَ بِهِ مُلُوكَهُمْ، وَيُصْلِحُونَ بِهِ مَعَايِشَهُمْ وَهُوَ «كِتَابُ كَلِيلَةِ دِمْنَةٍ».

فَلَمَّا تَيَقَّنَ مَا بَلَغَهُ عَنْ ذَلِكَ الْكِتَابِ، وَكَشَفَ عَمَّا فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ مِنْ تَقْوِيَةِ الْعَقْلِ وَالْأَدَبِ، رَأَى أَهْلًا لِذَلِكَ، وَتَذَيَّنَى إِلَى اسْتِخْرَاجِهِ وَاللَّهُ الْمُؤَفِّقُ وَالسَّلَامُ^(٤).

فَعِنْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ لِلْمَلِكِ عِلْمُهُ وَنَجَابَتُهُ وَسَهَامَتُهُ، فَسَرَّ بِذَلِكَ سُرُورًا شَدِيدًا، ثُمَّ أَمَرَ الْمَلِكُ عِنْدَ ذَلِكَ بِإِحْضَارِ الْمُتَنَجِّمِينَ، وَأَنْ يَتَخَيَّرُوا لَهُ يَوْمًا سَعِيدًا وَطَالِعًا صَالِحًا، وَسَاعَةً مُبَارَكَةً لِيَتَوَجَّهَ فِيهَا، فَأَخْتَارُوا لَهُ يَوْمًا يَسِيرُ فِيهِ، وَسَاعَةً صَالِحَةً يَخْرُجُ فِيهَا، فَسَارَ بِرُؤْيَيْهِ بِطَالِعِ سَعِيدٍ، وَحَمَلَ

(١) غريزي: طبيعي نسبة إلى الغريزة. والغريزة: صورة من صور النشاط النفسي، وطرز من السلوك يعتمد على الفطرة والوراثة البيولوجية. كامنة: مخفية. قادح: مؤثر ومُخْرَج ومُظْهِر. تعضده: يُعِين. استحکم: تمكن. رذيلة: ضد الفضيلة.

(٢) صدق القريحة: الطبيعة التي جُبل عليها. والقريحة أيضا ملكة يستطيع بها الإنسان ابتداء الكلام وإبداء الرأي، وجمعها قرائح. جدّه: خطّه. وحاز: أحرز، ونال. ثواب: أجر. الشُّوقَة: الرّعية. ويقال: الناس ملوك وسوقة. سباج: سور وإطار وافي وحام.

(٣) وأجزله: وأعظمه. وسدده: أرشده. إلى أسدّها: إلى أصولها وأكثرها سداً واستقامة. القصوى: البعيدة مؤنث الأقصى وهو الأبعد.

(٤) استخراج: إخراجه ونقله والحصول عليه.

مَعَهُ مِنَ الْمَالِ عِشْرِينَ جَرَابًا كُلُّ جَرَابٍ فِيهِ عَشْرَةُ آلَافٍ دِينَارٍ^(١).

وَتَوَجَّهَ جَادًا فِي طَلَبِ حَاجَتِهِ نَهَارًا وَلَيْلًا حَتَّى قَدِمَ بِلَادَ الْهِنْدِ؛ فَجَعَلَ يَطُوفُ بِيَابِ الْمَلِكِ وَمَجَالِسِ الشُّوقَةِ، وَيُجَالِسُ الْحُكَمَاءَ، وَيَسْأَلُ عَنْ خَوَاصِّ الْمَلِكِ وَالْأَشْرَافِ مِنْ جُلَسَائِهِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ، وَجَعَلَ يَغْشَاهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ، وَيَتَلَقَّاهُمْ بِالْتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ، وَيُخَبِّرُهُمْ أَنَّهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ قَدِمَ بِلَادَهُمْ لِيُطَلِّبَ الْعِلْمَ وَالْأَدَبَ وَالتَّحِثَ عَنْهُ، وَرِيَاضَتِهِ بِهِ، وَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فِيمَا يَطْلُبُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَسْأَلُهُمْ بِذَلِكَ الدُّعَاءَ لَهُ بِبُلُوغِ آمَالِهِ مَعَ شِدَّةِ كِتْمَانِهِ لِمَا قَدِمَ بِسَبَبِهِ وَدَفْنِهِ لِسِرِّهِ؛ فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ زَمَانًا طَوِيلًا يَتَأَدَّبُ عَلَى عُلَمَاءِ الْهِنْدِ بِمَا هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِهِ، وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مِنْهُ شَيْئًا^(٢).

وَهُوَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ يَسْتَرْ بُغْيَتَهُ وَحَاجَتَهُ، وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ يَتَحَثُّ فِي مَطْلُوبِهِ بِخُنْكَةٍ وَسِيَّاسَةٍ وَعَقْفَةٍ وَنَزَاهَةٍ، وَاتَّخَذَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ لَطُولِ مُقَامِهِ أَصْدِقَاءَ أَصْفِيَاءَ كَثِيرَةً، كُلُّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْهِنْدِ مِنَ الْأَشْرَافِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ، وَالشُّوقَةِ، وَمِنْ أَهْلِ كُلِّ طَبَقَةٍ وَصِنَاعَةٍ.

وَكَانَ قَدْ اتَّخَذَ مِنْ بَيْنِ أَصْدِقَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ رَجُلًا وَاحِدًا اصْطَفَاهُ لِسِرِّهِ، وَاخْتَصَّه لِمَشُورَتِهِ لِذِي ظَهَرٍ لَهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَدَبِهِ وَحِكْمَتِهِ وَفَهْمِهِ وَكِتْمَانِهِ لِسِرِّ نَفْسِهِ، وَلَمَّا اسْتَبَانَ لَهُ مِنْ صِحَّةِ إِخَائِهِ، يُسَمَّى أَرْزَوِيهِ^(٣).

وَكَانَ يُشَاوِرُهُ فِي الْأُمُورِ وَيَزْتَاخُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ مَا أَهَمَّهُ. إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَكْتُمُ عَنْهُ الْأَمْرَ الَّذِي قَدِمَ مِنْ أَجْلِهِ، حَتَّى يَبْلُغَهُ وَيَخْتَبِرُهُ، وَيَنْظُرَ هَلْ هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُطْلِعَهُ عَلَى سِرِّهِ؟ وَلَمْ يَزَلْ يَتَحَثُّ عَنْهُ وَيَجْتَهِدُ فِي أَمْرِهِ حَتَّى وَثِقَ بِهِ وَثُوقَ الْأَكْفَاءِ بِالْأَكْفَاءِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ مَحَلٌّ لِيَكْشِفَ الْأَسْرَارَ الْجَلِيلَةَ الْخَطِيرَةَ، وَأَنَّهُ مَأْمُونٌ عَلَى مَا يُسْتَوْدَعُ مِنْ ذَلِكَ غَيْرُ خَائِنٍ، صَدِيقٌ صَدَقَ^(٤).

ثُمَّ زَادَ لَهُ الْإِطْفَافُ، وَبِهِ أَحْتِفَاءٌ، وَعَلَيْهِ حُنُوءًا إِلَى أَنْ حَضَرَ النَّيُّومُ الَّذِي رَجَا فِيهِ بُلُوغُ أَمْنِيَّتِهِ، وَالظَّفَرُ بِحَاجَتِهِ مَعَ طُولِ الْغَيْبَةِ، وَعَظُمِ النَّفَقَةِ فِي اسْتِطْلَافِ الْإِخْوَانِ وَمُجَالَسَتِهِمْ عَلَى الطَّعَامِ

(١) نجايته: بأن فضله على من كان مثله. وشهامته: ذكاء فؤاده. وطالما صالحا: الطالع: ما يتنبأ به المنجم من الحوادث بطلوع كوكب معين كما في اصطلاح المنجمين أو الفلكيين.

(٢) يطوف: يجول. يغشاهم: ياتيهم. ورياضته: تهذيب نفسه به.

(٣) بغيته: هدفه وما قدم من أجله. بخنكة: دراية وحسن تصرف وإحكام الخطة التي رسمها للحصول على الكتاب. ونزاهة: وطهارة. أصفياء مخلصين: جمع صفي. اصطفاه: اختاره. استبان: بان وظهر. إخاء: أخوة.

(٤) ويزتاح إليه: تنبسط إليه نفسه. يبلوه: يجربه ويمتحنه. الأكفاء: جمع كفء وهو القوى القادر على تصريف الأمور. وثوق الأكفاء بالأكفاء: الأمثال والنظراء. الجليلة: الهامة والرفيعة والعليا. صدق: صادق.

وَالشَّرَابِ. وَإِنَّهُ لَمَّا وَثِقَ بِصَدِيقِهِ الْهِنْدِيِّ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وَأَنَسَ بِهِ، وَسَبَرَ عَقْلَهُ، وَأَطْمَأَنَّ إِلَيْهِ فِي سِرِّهِ، قَالَ لَهُ يَوْمًا وَهُمَا خَالِيَانِ: يَا أَخِي، مَا أُرِيدُ أَنْ أَكْتُمَكَ مِنْ أَمْرِي فَوْقَ الَّذِي كَتَمْتُكَ لِأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَلِكَ (١).

فَاعْلَمْ أَنِّي لِأَمْرِ قَدِمْتُ بِلَادَكُمْ وَهُوَ غَيْرُ الَّذِي يَظْهَرُ مِنِّي. وَالْعَاقِلُ يَكْتَفِي مِنَ الرَّجُلِ بِالْعَلَامَاتِ مِنْ نَظَرِهِ، وَإِشارَتِهِ، فَيَعْلَمُ بِذَلِكَ سِرَّ نَفْسِهِ، وَمَا يُضْمِرُهُ قَلْبُهُ. فَقَالَ لَهُ صَدِيقُهُ الْهِنْدِيُّ: إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ بَادَأْتُكَ وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا لَهُ جِئْتُ، وَإِيَّاهُ تَرِيدُ، وَإِلَيْهِ قَصَدْتُ، وَأَنْتَ تَكْتُمُ أَمْرًا تَطْلُبُهُ، وَتُظْهِرُ غَيْرَهُ، فَمَا خَفِيَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْكَ، وَلَا ذَهَبَ عَنِّي مَا كَتَمْتَهُ. وَلَكِنِّي لِرَغْبَتِي فِيكَ، وَفِي إِحَائِكَ، كَرِهْتُ أَنْ أُوَاجِهَكَ بِذَلِكَ، وَأُفَاجِئَكَ بِهِ لِأَنِّي قَدْ ظَهَرَ لِي مَا تَكْتُمُ، وَبَانَ لِي مَا أَنْتَ لَهُ مُخْفٍ. فَأَمَّا إِذْ قَدْ أَظْهَرْتَ ذَلِكَ، وَأَفْصَحْتَ بِهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنِّي مُخْبِرُكَ عَنْ نَفْسِكَ، وَمُظْهِرُكَ لَكَ سَرِيرَةِ أَمْرِكَ، وَمُعْلِمُكَ عَنْ سِرِّ حَاجَتِكَ الَّتِي قَدِمْتُ بِسَبَبِهَا، وَأَطَلْتُ مُقَامَكَ فِي طَلَبِهَا (٢).

وَذَلِكَ أَنَّكَ إِنَّمَا وَطِئْتَ أَرْضَنَا، وَقَدِمْتَ إِلَى بِلَادِنَا لِتَسْلُبْنَا كُنُوزَنَا النَّفِيسَةَ، فَتَذْهَبَ بِهَا إِلَى بِلَادِكَ وَتَسْرِ بِهَا مِلْكَكَ، وَكَانَ قُدُومُكَ إِلَيْنَا بِالْمَكْرِ وَمُضَادَّةُكَ لَنَا بِالْخَدِيعَةِ، وَلَكِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ صَبْرَكَ، وَمُواظَبَتَكَ عَلَى طَلَبِ حَاجَتِكَ، وَالتَّحَفُّظَ مِنْ أَنْ تَسْقُطَ فِي الْكَلَامِ مَعَ طُولِ مَكِيدِكَ عِنْدَنَا عَلَى كَتْمِ أَمْرِكَ بِشَيْءٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى سَرِيرَتِكَ وَأُمُورِكَ، أَرَدَدْتُ رَغْبَةً فِي إِحَائِكَ، وَثِقَةً بِعَقْلِكَ، وَأَحْبَبْتُ مَوَدَّتَكَ (٣)؛ فَإِنِّي لَمْ أَرَفِ الرِّجَالَ رَجُلًا هُوَ أَزْصَنُ مِنْكَ عَقْلًا، وَلَا أَحْسَنُ أَدَبًا، وَلَا أَضَبِرُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، وَلَا أَكْتُمُ لِسِرِّهِ مِنْكَ، وَلَا سِيَّما فِي بِلَادِ غُرَبَةٍ، وَمَمْلَكَةِ غَيْرِ مَمْلَكَتِكَ، وَعِنْدَ قَوْمٍ لَا تَعْرِفُ سُنَنَهُمْ وَلَا شِيَمَهُمْ. وَإِنَّ عَقْلَ الرَّجُلِ لَيَبِينُ فِي خِصَالِ ثِمَانٍ: الْأُولَى مِنْهَا: الرَّفْقُ. وَالثَّانِيَةُ: أَنْ يَعْرِفَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ فَيَحْفَظَهَا. وَالثَّالِثَةُ: طَاعَةُ الْمُلُوكِ وَالتَّحَرُّيَ لِمَا يُزْضِيهِمْ. وَالرَّابِعَةُ: مَعْرِفَةُ الرَّجُلِ مَوْضِعَ سِرِّهِ، وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يُطْلَعَ عَلَيْهِ صَدِيقُهُ. وَالخَامِسَةُ: أَنْ يَكُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمُلُوكِ أَدِيئًا مَلِيقَ اللِّسَانِ. وَالسَّادِسَةُ: أَنْ يَكُونَ لِسِرِّهِ وَلِسِرِّ غَيْرِهِ حَافِظًا. وَالسَّابِعَةُ: أَنْ يَكُونَ عَلَى لِسَانِهِ قَادِرًا فَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا يَأْمَنُ تَبِعَتَهُ، وَلَا يُطْلِعُ عَلَى سِرِّهِ إِلَّا

(١) إطفاء: برأ وحسن معاملة وتكراما. احتفاء: مبالغة في الإكرام. حنونا: عطفا. أمنيته: ما يتمناه. استلطاف الإخوان: التلطف معهم. سبر عقله: اختبره وامتحنه والمشار آلة يقاس بها، وتختبر الأشياء. واطمان إليه: وثق به وأمن.

(٢) إخوانك: صداقتك وأخوتك. سريرة أورك: ما تخفيه.

(٣) النفيسة: الغالية. والتحفظ: الاحتراس. مكنتك: بقائك وإقامتك.

الثَّقَاتِ. وَالتَّائِمَةُ: أَلَا يَتَكَلَّمُ فِي الْمَحَافِلِ بِمَا لَا يُسْأَلُ عَنْهُ^(١).

فَمَنْ اجْتَمَعَتْ فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالُ كَانَ هُوَ الدَّاعِي الْخَيْرَ إِلَى نَفْسِهِ. وَهَذِهِ الْخِصَالُ كُلُّهَا قَدْ اجْتَمَعَتْ فِيكَ، وَبَانَتْ لِي مِنْكَ، قَالَهُ تَعَالَى يَحْفَظُكَ وَيُعِينُكَ عَلَى مَا قَدِمْتُ لَهُ، وَيُظْفِرُكَ بِحَاجَتِكَ؛ لِأَنَّكَ إِنَّمَا صَادَقْتَنِي لِتَسْلُبَنِي عِلْمِي وَفَخْرِي، وَإِنَّكَ أَهْلٌ لِأَنْ تُشْفَعَ بِحَاجَتِكَ، وَتُشْفَعَ بِطَلَبَتِكَ وَتُعْطَى سُؤْلُكَ^(٢).

وَلَكِنْ حَاجَتَكَ الَّتِي تَطْلُبُ قَدْ أَرْهَبَتْ نَفْسِي، وَأَدْخَلَتْ عَلَيَّ الْفَرْقَ وَالْخَشْيَةَ. فَلَمَّا عَرَفَ بَزْرَوْنَهُ أَنَّ الْهِنْدِيَّ قَدْ عَرَفَ أَنَّ مُصَادَقَتَهُ إِنَّمَا كَانَتْ مَكْرًا وَخَدِيعَةً، وَطَلَبَ حَاجَتَهُ فَلَمْ يَرْجُرْهُ، وَلَمْ يَنْتَهِرْهُ، بَلْ رَدَّ عَلَيْهِ رَدًّا لَيِّنًا كَرَّدَ الْأَخَ عَلَى أَخِيهِ بِالتَّعْطِيفِ وَالرَّفْقِ، وَثَقَّةَ بِقَضَاءِ حَاجَتِهِ مِنْهُ. فَقَالَ لَهُ: إِنِّي قَدْ كُنْتُ هَيَأْتُ كَلَامًا كَثِيرًا وَشَعَبْتُ لَهُ شِعَابًا، وَأَنْشَأْتُ لَهُ أَصُولًا وَطُرُقًا، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ فِيهِ إِلَى مَا بَادَأْتَنِي بِهِ مِنْ أَطْلَاعِكَ عَلَى أَمْرِي، وَالَّذِي قَدِمْتُ لَهُ، وَالْقَيْصَةَ إِلَيَّ مِنْ ذَاتِ نَفْسِكَ وَرَغْبَتِكَ فِيمَا أَلْفَيْتُ مِنَ الْقَوْلِ، اكْتَفَيْتُ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْخِطَابِ مَعَكَ عَمَّا كُنْتُ أَخْتَلِفُ فِيهِ، إِذْ عَرَفْتُ الْكَثِيرَ مِنْ أُمُورِي بِالْقَلِيلِ مِنَ الْكَلَامِ؛ لِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ مِنَ الْعَقْلِ وَالْأَدَبِ فَكَفَيْتَنِي مُؤُونَةَ الْكَلَامِ، فَاقْتَصَرْتُ بِهِ مَعَكَ عَلَى الْإِيجَازِ^(٣).

وَرَأَيْتُ مِنْ إِسْعَافِكَ إِثَّائِي بِحَاجَتِي مَا دَلَّنِي عَلَى كَرَمِكَ وَحُسْنِ وَفَائِكَ، فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا أَلْفِيَ إِلَى الْفَيْلَسُوفِ، وَالسَّرَّ إِذَا اسْتُودِعَ اللَّيِّبَ الْحَافِظَ، فَقَدْ حُصِّنَ، وَبُلِّغَ بِهِ نِهَآيَةَ أَمَلِ صَاحِبِهِ، كَمَا يُحْصَنُ الشَّيْءُ النَّفِيسُ فِي الْقِلَاعِ الْحَصِينَةِ^(٤).

فَقَالَ لَهُ الْهِنْدِيُّ: لَا شَيْءَ أَفْضَلَ مِنَ الْمَوَدَّةِ، وَمَنْ خَلَصَتْ مَوَدَّتُهُ كَانَ أَهْلًا أَنْ يَخْلِطَهُ الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ، وَلَا يَذْخَرُ عَنْهُ شَيْئًا، وَلَا يَكْتُمُهُ سِرًّا، وَلَا يَمْنَعُهُ حَاجَتَهُ وَمُرَادَهُ إِنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ. وَرَأْسُ الْأَدَبِ حِفْظُ السَّرِّ؛ فَإِذَا كَانَ السَّرُّ عِنْدَ الْأَمِينِ الْكَثُومِ فَقَدْ اخْتَرَزَ مِنَ التَّضْيِيعِ؛ لِأَنَّهُ خَلِيقُ أَلَا يَتَكَلَّمُ بِهِ. وَلَا يَكْتُمُ سِرَّ يَتَيْنِ اثْنَيْنِ قَدْ عَلِمَاهُ وَتَفَاضَا فِيهِ وَلَا يَكُونُ سِرًّا لِأَنَّ اللِّسَانَيْنِ قَدْ تَكَلَّمَا بِهِ. فَإِذَا تَكَلَّمَ بِالسَّرِّ اثْنَانِ فَلَا بُدَّ مِنْ ثَالِثٍ مِنْ جِهَةٍ أَحَدَهُمَا، فَإِذَا صَارَ إِلَى الثَّلَاثَةِ فَقَدْ شَاعَ

(١) أَرْضَنُ: أَخْكَمُ وَائْتِبَ: شِيمَهُمْ: جَمْعُ شَيْمَةٍ وَهِيَ الْخُلُقُ: لَيِّبِينَ: لِيُظْهَرَ: التَّحْزِي: الْبَحْثُ وَطَلَبُ الْأُخْرَى. مَلَقَ اللِّسَانَ: مِنْ الْمَلَقِ وَهُوَ الْوُذُ وَاللَّطْفُ. تَبَعْتَهُ: عَاقَبْتَهُ. الْمَحَافِلُ: الْمَجَامِعُ وَأَمَاكِنُ الْجَمَاعَةِ وَالْإِحْتِفَالِ. وَهِيَ جَمْعُ مَخْفَلٍ وَهُوَ الْمَكَانُ الْحَافِلُ بِأَهْلِهِ.

(٢) يُظْفِرُكَ: يَجْعَلُكَ تَظْفَرُ وَتَفُوزُ بِهَا. وَتُشْفَعُ بِطَلَبَتِكَ: تَجَابَ إِلَيَّ مَا تَطْلُبُهُ. سُؤْلُكَ: مَا سَأَلْتَهُ.

(٣) الْفَرْقُ: الْخَوْفُ. يَزْجُرُهُ: يَمْنَعُهُ وَيَكْفُهُ. يَنْتَهَرُهُ: يَغْضِبُهُ وَيَزْجُرُهُ. شَعَبْتُ لَهُ شِعَابًا: فَصَلْتُ لَهُ طُرُقًا. مُؤُونَةُ الْكَلَامِ: أَيِ أَغْنَيْتَنِي عَنْهُ. الْإِيجَازُ عَكْسُ الْإِطَالَةِ وَالْإِطْنَابِ.

(٤) اللَّيِّبُ: الذَّكِيُّ الْفَطْنُ. النَّفِيسُ: الْغَالِي. الْقِلَاعُ: جَمْعُ قَلْعَةٍ. وَالْحَصِينَةُ: الْمَحْصَنَةُ بِالسَّلَاحِ وَالرِّجَالِ وَالْأَسْوَارِ.

وَذَاغَ، حَتَّى لَا يَسْتَطِيعَ صَاحِبُهُ أَنْ يَجْحَدَهُ وَيُكَابِرَ فِيهِ، كَالْغَيْمِ إِذَا كَانَ مُتَقَطِّعًا فِي السَّمَاءِ؛ فَقَالَ قَائِلٌ: إِنَّ هَذَا الْغَيْمَ مُتَقَطِّعٌ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ^(١).

وَأَنَا فَقَدْ يَدْخُلُنِي مِنْ مَوَدَّتِكَ وَمُخَالَطَتِكَ، مَعَ أَنْسِي بِقُرْبِكَ سُرُورٌ لَا يَغْدِلُهُ شَيْءٌ. وَهَذَا الْأَمْرُ الَّذِي تَطْلُبُهُ مِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ مِنَ الْأَسْرَارِ الَّتِي لَا تُكْتَمُ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَفْشَوْ وَيُظْهَرَ حَتَّى يَتَحَدَّثَ بِهِ النَّاسُ، فَإِذَا فَشَا فَقَدْ سَعَيْتُ فِي هَلَاكِي هَلَاكًا لَا أَقْدِرُ عَلَى الْفِدَاءِ مِنْهُ بِالْمَالِ وَإِنْ كَثُرَ؛ لِأَنَّ مَلِكَنَا قَطٌّ غَلِيظٌ، يُعَاقِبُ عَلَى الذَّنْبِ الصَّغِيرِ أَشَدَّ الْعِقَابِ فَكَيْفَ مِثْلُ هَذَا الذَّنْبِ الْعَظِيمِ^(٢)؟! وَإِذَا حَمَلْتَنِي الْمَوَدَّةَ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، فَأَسْعِفْتُكَ بِحَاجَتِكَ لَمْ يَزِدْ عِقَابُهُ عَنِّي شَيْءًا! قَالَ بَرَزَوِيه: إِنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ مَدَحْتَ الصَّدِيقَ إِذَا كَتَمَ سِرَّ صَدِيقِهِ، وَأَعَانَهُ عَلَى الْفُوزِ. وَهَذَا الْأَمْرُ الَّذِي قَدِمْتُ لَهُ لِمَتْلِكَ دَخَرْتُهُ، وَبِكَ أَرْجُو بُلُوغَهُ، وَأَنَا وَاثِقٌ بِكَرَمِ طِبَاعِكَ، وَوُفُورِ عَقْلِكَ فِيهِ، وَإِنْ كُنْتُ قَدْ وَصَلْتُ إِلَيْكَ مِنِّي مَا وَصَلَ مِنَ الْمَشَقَّةِ فَأَنْعِمَ بِتَحْمُلِ ذَلِكَ. وَأَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَخْشَى مِنِّي، وَلَا تَخَافُ أَنْ أُبْدِيَهُ، بَلْ تَخْشَى أَهْلَ بَلَدِكَ الْمُطِيفِينَ بِكَ، وَبِالْمَلِكِ أَنْ يَسْعُوا بِكَ إِلَيْهِ، وَيُتْلَعُوهُ ذَلِكَ عَنْكَ^(٣).

وَأَنَا أَرْجُو أَلَّا يَشِيْعَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ؛ لِأَنِّي أَنَا ظَاعِنٌ، وَأَنْتَ مُقِيمٌ، وَمَا أَقَمْتُ فَلَا ثَالِثَ بَيْنَنَا. فَتَعَاهَدَا عَلَى هَذَا جَمِيعًا. وَكَانَ الْهِنْدِيُّ خَازِنَ الْمَلِكِ وَبِيَدِهِ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِهِ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ الْكِتَابِ، وَإِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ وَسَلَّمَهَا إِلَيْهِ، فَأَكَّبَ عَلَى تَفْسِيرِهِ وَنَقْلِهِ مِنَ اللِّسَانِ الْهِنْدِيِّ إِلَى اللِّسَانِ الْفَارِسِيِّ، وَأَتَعَبَ نَفْسَهُ، وَأَنْصَبَ بَدَنَهُ نَهَارًا وَلَيْلًا، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ وَجِلٌ فَرَعٌ مِنْ مَلِكِ الْهِنْدِ، خَائِفٌ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَذْكُرَ الْمَلِكُ الْكِتَابَ فِي وَقْتٍ، وَلَا يُصَادِفُهُ فِي خِزَانَتِهِ^(٤).

فَلَمَّا فَرَعَ مِنْ انْتِسَاخِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِ مِمَّا أَرَادَ مِنْ سَائِرِ الْكُتُبِ، كَتَبَ إِلَى أَنْوِشِروَانَ يُعَلِّمُهُ بِذَلِكَ. فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ الْكِتَابُ سَرَّ سُرُورًا شَدِيدًا، ثُمَّ تَحَوَّفَ مُعَاجَلَةَ الْمَقَادِيرِ أَنْ تُنْغَصَ عَلَيْهِ فَرَحُهُ، وَيَنْتَقِضَ سُرُورُهُ. فَكَتَبَ إِلَى بَرَزَوِيهِ يَأْمُرُهُ بِتَعْجِيلِ الْقُدُومِ، فَسَارَ بَرَزَوِيهِ مُتَوَجِّهًا نَحْوَ كِشْرَى^(٥).

(١) يخلطه بنفسه: يصاحبه ويخلص له وكأنه من أهله. ولا يذخر عنه شيئًا: ولا يخفي ولا يخشى. احتزن: احتاط واثق. خليق: جدير.

وتفاوضا فيه: تشاركا. ذاع: انتشر. يجهده: ينكره. ويكابره فيه: يعاند وينازع ويجادل بالباطل. الغيم: السحاب.

(٢) لا يغدله: لا يساويه. يفشؤ: يشيع وينتشر. فط: خشن لا يلين ولا يتهاون.

(٣) الفوز: الظفر بما يريد. أنعم بتحمل ذلك: من أساليب المدح. المطيفين بك: المخاطبين لك والمقارئين. يسعوا بك: يمتدحون عليك.

(٤) ظاعن: مسافر وراجل. ما أقمت: مدة إقامتي. فأكب: أقبل. أنصب بدنه: أجهده. وجل: خائف.

(٥) انتساخ الكتاب: نسخه ونقله من لغة الهند إلى لغة فارس. تنغص عليه: تكدر صفوه. وينتقض سروره: يزول ويصبح حزنا.

فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ مَا قَدْ مَسَّهُ مِنَ الشُّحوبِ وَالْإِغْيَاءِ، قَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْعَبْدُ النَّاصِحُ الَّذِي يَأْكُلُ ثَمَرَةَ مَا قَدْ غَرَسَ، أَبَشِرْ وَقَرِّ عَيْنَا؛ فَإِنِّي مُشْرَفُكَ، وَبَالِغُ بَكَ أَفْضَلَ دَرَجَةٍ، وَأَمْرُهُ أَنْ يُرِيحَ بَدَنَهُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ؛ فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّامِنُ أَمَرَ الْمَلِكُ بِإِخْضَارِ أَشْرَافِ مَمْلَكَتِهِ، وَجَمِيعِ عُلَمَاءِ مِصْرِهِ وَشُعْرَائِهِ وَالْخُطَبَاءِ. فَلَمَّا اجْتَمَعُوا، أَحْضَرَ بَزْرَوِيهَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ، وَسَجَدَ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ، وَجَلَسَ عَلَى مَرْتَبَةٍ أُعِدَّتْ لَهُ، ثُمَّ وَقَعَ الْكَلَامَ فِيمَا شَاهَدَهُ، وَرَأَاهُ، وَشَرَحَ قِصَّتَهُ وَحَالَهُ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا^(١).

فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْ رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَقُوَادِمِهَا وَأَهْلِ عُلُومِهَا عَلَى طَبَقَاتِهِمْ إِلَّا تَعَجَّبَ مِنْهُ، وَمِنْ طَوِيلِ طَرِيقِهِ وَحُسْنِ سِيرَتِهِ مَعَ صَدِيقِهِ، وَمَا وَفَى لَهُ بِهِ بِلَا عَهْدٍ مِنْهُ لَهُ وَلَا مُقَدِّمَةٍ تَقْدَمَتْ بَيْنَهُمَا مِنْ إِفْشَاءِ سِرِّهِ لَهُ مَعَ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ أَفْتِرَاقِ الْأَذْيَانِ، وَتَبَايُنِ الْأَشْكَالِ، وَمُنَافَرَةِ الْمَذْهَبِ، وَاسْتَعْظُمُوا مَا أَنْفَقَ عَلَى تَحْصِيلِ ذَلِكَ وَعَظْمَ بَزْرَوِيهِ فِي أَغْيَنِ الْحَاضِرِينَ، وَكَبَّرَ قَدْرَهُ عِنْدَ مَلِكِهِ. ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ صَرَفَ مَنْ حَضَرَ، وَأَنْصَرَفَ بَزْرَوِيهَ، وَعَمَدَ الْخُطَبَاءُ يُصْنَعُونَ مُقَدِّمَاتٍ تَصْلُحُ لِحُضُورِ الْمَجْلِسِ، وَتَأْتِيهِمْ لِذَلِكَ. وَعَقَدَ لَهُمُ الْمَلِكُ مَجْلِسًا وَحَضَرَ بَزْرَوِيهَ، وَخُطَبَاءُ الدَّوْلَةِ وَالْوُزَرَاءُ وَفُصَحَاءُ الْمَمْلَكَةِ وَأَحْضَرَ الْكِتَابَ وَسَائِرَ الْكُتُبِ^(٢).

فَلَمَّا قُرِئَتِ الْكُتُبُ، وَسَمِعُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ، وَسَائِرِ الظَّرَائِفِ وَغَرَائِبِ الْأَدَابِ، اسْتَبَشَّرَ مَنْ حَضَرَ، وَبَلَغَ الْمَلِكُ أَمْنِيَّتَهُ، وَمَدَحُوا بَزْرَوِيهَ، وَأَثْنُوا عَلَيْهِ، وَشَكَرُوهُ عَلَى مَا نَالَهُ مِنْ التَّعَبِ. فَأَمَرَ الْمَلِكُ عِنْدَ ذَلِكَ بِالذُّرِّ وَالْجَوْهَرِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَفُتِحَتْ خَزَائِنُ الْكُسُوفِ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ، وَحَمَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ جَمِيعَ ذَلِكَ. ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ أَلْبَسَهُ الثَّاجَ وَأَجْلَسَهُ عَلَى سَرِيرِهِ تَشْرِيفًا لَهُ، وَزِيَادَةً فِي إِجْلَالِهِ، وَلَمَّا تَمَّ لِبَزْرَوِيهِ ذَلِكَ خَرَّ سَاجِدًا لِلْمَلِكِ وَقَالَ: أَكْرَمَ اللَّهُ الْمَلِكَ بِأَفْضَلِ الْكَرَامَاتِ بِزِيَادَتِهِ فِي دُنْيَاهُ وَأَخْرَاهُ، وَخَلَّدَ مُلْكَهُ، وَثَبَّتَ وَطْأَتَهُ وَشَيَّدَ مَبَانِي مَجْدِهِ^(٣). إِنَّ اللَّهَ وَلِيَّ الْحَمْدِ قَدْ أَغْنَانِي عَنِ الْمَالِ بِمَا بَلَغْتَ مِنَ الرُّتْبَةِ الْعَلِيَّةِ السَّيِّئَةِ، وَالْبُعْيَةِ وَالْأَمْنِيَّةِ، بِمَا رَزَقَنِي مِنْ تَشْرِيفِ مَلِكِ الْمُلُوكِ لِلْعَبْدِ الذَّلِيلِ. لَكِنْ إِذْ كَلَّفَنِي الْمَلِكُ ذَلِكَ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَسْرُهُ فَأَنَا أَخَذُ مِمَّا أَمَرَ لِي بِهِ أَمْتِيَالًا لِأَمْرِهِ وَطَلَبًا لِمَرْضَاتِهِ. وَقَامَ فَأَخَذَ مِنْهَا تَحْتًا مِنْ طَرَائِفِ خُرَاسَانَ مِنْ مَلَابِسِ

(١) الشحوب: اصفرار اللون وتغيره. الإغْيَاء: شدة التعب. بضره: عاصمته. وقع الكلام: ألفاه.

(٢) طبقاتهم: جمع طبقة. الحال والمنزلة والمربة والدرجة. بلا عهد منه: بلا معرفة سابقة. مقدمة: أي أمر سابق. تباين الأشكال: تباعد.

(٣) وخلع عليه: ألبسه. ثبت وطأته: مكن سلطته. شيد مباني مجده: رفعه.

الْمُلُوكِ^(١).

ثُمَّ قَالَ لِلْمَلِكِ : إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَنَحَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَقْلاً وَافِرًا، وَعِلْماً رَاجِحًا، وَخُلُقًا رَحِيماً، وَدِينًا صُلْبًا، وَبَيْتَةً سَالِمَةً مِنَ الْعَاهَاتِ؛ فَلْيَشْكُرِ الصَّانِعَ الْأَرْكَانِي سَرْمَدًا عَلَى مَا وَهَبَهُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ يَسْتَحِقُّهُ، وَلَا مُقَدِّمَةَ سَبَقَتْ لَهُ، وَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أُكْرِمَ وَجِبَ عَلَيْهِ الشُّكْرُ، وَإِنْ كَانَ قَدْ اسْتَوْجَبَهُ تَعَبًا وَمَشَقَّةً. وَأَمَّا أَنَا فَمَهْمَا لَقِيْتُهُ مِنْ عَنَاءٍ وَتَعَبٍ لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ الشَّرَفَ يَا أَهْلَ هَذَا الْبَيْتِ، فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ تَابِعًا رِضَاكُمْ، أَرَى الْعَسِيرَ فِيهِ يَسِيرًا، وَالشَّاقَّ هَيِّنًا، وَالنَّصَبَ وَالْأَذَى سُرُورًا وَلَذَّةً لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ رِضًى، وَعِنْدَكُمْ قُرْبَةٌ^(٢). وَلَكِنِّي أَسْأَلُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ حَاجَةً تُشْعِفُنِي بِهَا، وَتُعْطِنِي فِيهَا سُؤْلِي فَإِنَّ حَاجَتِي يَسِيرَةٌ، وَفِي قَضَائِهَا فَائِدَةٌ كَثِيرَةٌ. قَالَ أَنُوشِروانُ: قُلْ: فَكُلُّ حَاجَةٍ لَكَ قَبْلَنَا مَقْضِيَّةٌ؛ فَإِنَّكَ عِنْدَنَا عَظِيمٌ، وَلَوْ طَلَبْتَ مُشَارَكَتَنَا فِي مُلْكِنَا لَفَعَلْنَا، وَلَمْ نَزِدْكَ طَلِبَتَكَ، فَكَيْفَ مَا سِوَى ذَلِكَ؟! فَقُلْ وَلَا تَحْتَشِمْ؛ فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا مَبْدُولَةٌ لَكَ. قَالَ بَرْزَوَيْهِ: أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَنْظُرْ إِلَى عَنَائِي فِي رِضَاكَ، وَأَنْكِمَاشِي فِي طَاعَتِكَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُكَ يَلْزُمُنِي بَذْلُ مُهْجَتِي فِي رِضَاكَ، وَلَوْ لَمْ تَجْزِنِي لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عِنْدِي عَظِيمًا وَلَا وَاجِبًا عَلَى الْمَلِكِ. وَلَكِنْ لِكَرَمِهِ وَشَرَفِ مَنْصِبِهِ عَمَدًا إِلَى مُجَازَاتِي، وَخَصَّنِي وَأَهْلَ بَيْتِي بِعُلُوِّ الْمَرْتَبَةِ، وَرَفْعِ الدَّرَجَةِ حَتَّى لَوْ قَدَّرَ أَنْ يَجْمَعَ لَنَا بَيْنَ شَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَفَعَلَ، فَجَزَاهُ اللَّهُ عَنَّا أَفْضَلَ الْجَزَاءِ^(٣).

قَالَ أَنُوشِروانُ: أَذْكَرُ حَاجَتَكَ، فَعَلَيْ مَا يَشْرُكَ. فَقَالَ بَرْزَوَيْهِ: حَاجَتِي أَنْ يَخْرُجَ أَمْرُ الْمَلِكِ أَنْفَذَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْحَكِيمِ الْفَاضِلِ الرَّفِيعِ الْمَقَامِ وَزِيَرِهِ بُزْرَجْمَهَرِ بْنِ الْبَحْتِكَانِ، أَنْ يَنْظِمَ أَمْرِي فِي نُسخَةٍ، وَيُؤَيِّبَ الْكِتَابَ وَيَجْعَلَ تِلْكَ النُّسخَةَ بَابًا يَذْكُرُ فِيهِ أَمْرِي، وَيَصِفُ حَالِي، وَلَا يَدْعُ مِنَ الْمُبَالِغَةِ فِي ذَلِكَ أَقْصَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ. وَيَأْمُرُهُ إِذَا فَرَغَ مِنْهُ أَنْ يَجْعَلَهُ أَوَّلَ الْأَبْوَابِ الَّتِي تُقْرَأُ قَبْلَ «بَابِ الْأَسَدِ وَالْثُورِ»^(٤).

فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ، فَقَدْ بَلَغَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ الشَّرَفِ، وَأَعْلَى الْمَرَاتِبِ، وَأَبْقَى لَنَا مَا لَا

(١) ولي الحمد: المستحق له. وصاحبه: يقصد كسرى. السنية: الرفيعة. والبغية: ما كان يبغيه ويتمناه ويألمه. تخنًا: وعاء يصان فيه الثياب، صندوق أو خفية. طرائف: نفائس.

(٢) وَخُلُقًا: طبعًا وسميًا. رحبا: واسعا يسع الناس ويتحملهم. صُلْبًا: متينًا لا يضعف أمام الشهوات والمغريات. العاهات: الآفات. الصانع الأركاني: الله القديم. سَرْمَدًا: دائمًا. مقدمة: سبق إحسان. عَنَاء: تعب وشدة. قرية: أي قربًا في المنزل.

(٣) سُؤْلِي: ما سألته، وما أطلبه. قَبْلَنَا: عِنْدَنَا. طَلِبَتَكَ: ما تطلبه. ولا تحتشم: بلا خجل. مهجتي: دمي. مجازاتي: مكافأتي.

(٤) أَنْفَذَهُ الله: جعله نافذًا، أي مطاعًا. يؤيب الكتاب: يقسمه إلى أبواب وفصول.

يَزَالُ ذِكْرُهُ بَاقِيًا عَلَى الْأَبَدِ حَيْثُمَا قُرِئَ هَذَا الْكِتَابُ. فَلَمَّا سَمِعَ كِسْرَى أُنُوشِرَوَانُ وَالْعُظَمَاءُ مَقَالَتَهُ، وَمَا سَمَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ مِنْ مَحَبَّةٍ إِيقَاءِ الذِّكْرِ، عَجِبُوا مِنْ أَدَبِهِ، وَحُسْنِ عَقْلِهِ، وَكِبَرِ نَفْسِهِ، وَاسْتَحْسَنُوا طَلَبَتَهُ وَاحْتِيَارَهُ. فَقَالَ كِسْرَى: حُبًّا وَكَرَامَةً يَا بَزْرَوِيه، إِنَّكَ لِأَهْلٌ أَنْ تُسَعَّفَ بِحَاجَتِكَ، فَمَا أَقَلُّ مَا قَنِعْتَ بِهِ وَأَيْسَرُهُ عِنْدَنَا، وَإِنْ كَانَ خَطَرُهُ، عِنْدَكَ عَظِيمًا^(١).

ثُمَّ أَقْبَلَ أُنُوشِرَوَانُ عَلَى وَزِيرِهِ بُزْرَجْمَهَرٍ فَقَالَ لَهُ: قَدْ عَرَفْتُ مُنَاصَحَةَ بَزْرَوِيه لَنَا، وَتَجَشُّمَهُ الْمَخَافِ وَالْمَهَالِكِ فِيمَا يُقَرَّبُهُ مِنَّا، وَإِنْعَابَهُ بِدَنِّهِ فِيمَا يَسُورُنَا، وَمَا أَتَى إِلَيْنَا مِنَ الْمَغْرُوفِ، وَمَا أَفَادَنَا اللَّهُ عَلَى يَدِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْأَدَبِ الْبَاقِي لَنَا فَخَرُّهُ، وَمَا عَرَضْنَا عَلَيْهِ مِنْ خَزَائِنِنَا لِنَجْزِيَهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، فَلَمْ تَجَلِ نَفْسُهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَكَانَتْ بُعِيَّتُهُ وَطَلَبَتُهُ مِنَّا أَمْرًا يَسِيرًا، رَأَاهُ هُوَ الثَّوَابَ مِنَّا لَهُ، وَالْكَرَامَةَ الْجَلِيلَةَ عِنْدَهُ؛ فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ، وَتُسَعِّفَهُ بِحَاجَتِهِ وَطَلَبَتِهِ. وَأَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَسُورُنِي، وَلَا تَدْعُ شَيْئًا مِنَ الاجْتِهَادِ وَالْمُبَالِغَةِ إِلَّا بَلَّغْتَهُ، وَإِنْ نَالَتْكَ فِيهِ مَشَقَّةٌ. وَهُوَ أَنْ تَكْتُبَ أَبَا مُضَارِعًا لِيَلِكَ الْأَبْوَابِ الَّتِي فِي الْكِتَابِ، وَتَذْكُرَ فِيهِ فَضْلَ بَزْرَوِيه وَنَسَبَهُ وَحَسَبَهُ وَصِنَاعَتَهُ وَأَدَبَهُ، وَكَيْفَ كَانَ أَيْدَاءُ أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ، وَتَنْسِبُهُ إِلَيْهِ، وَتَذْكُرَ فِيهِ بُعِيَّتَهُ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ فِي حَاجَتِنَا وَمَا أُفِدْنَا مِنَ الْحَكَمِ عَلَى يَدِهِ مِنْ هُنَالِكَ، وَشَرَفُنَا بِهِ، وَفُضِّلْنَا عَلَى غَيْرِنَا، وَكَيْفَ كَانَ حَالُهُ بَعْدَ قُدُومِهِ، وَمَا عَرَضْنَا عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْوَالِ فَلَمْ يَقْبَلْهُ^(٢).

فَقُلْ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ التَّقْرِيطِ وَالْإِطْنَابِ فِي مَذْجِهِ، وَبَالِغٍ فِي ذَلِكَ أَفْضَلَ الْمُبَالِغَةِ، وَاجْتِهَدِ فِي ذَلِكَ اجْتِهَادًا يَسُرُّ بَزْرَوِيه وَأَهْلَ الْمَمْلَكَةِ، وَإِنَّهُ لِأَهْلٌ لِذَلِكَ مِنْ قِبَلِي وَمِنْ قِبَلِ جَمِيعِ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَمِنْ قِبَلِكَ أَيْضًا لِمَحَبَّتِكَ لِلْعُلُومِ^(٣). وَاجْتَهِدْ أَنْ يَكُونَ غَرَضُ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَيْهِ أَفْضَلَ مِنْ أَغْرَاضِ تِلْكَ الْأَبْوَابِ عِنْدَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ، وَأَشَدَّ مُشَاكَلَةً لِحَالِ هَذَا الْكِتَابِ، فَإِنَّكَ أَسْعَدَ النَّاسِ كُلَّهُمْ بِذَلِكَ لِإِنْفِرَادِكَ بِهِ وَاجْعَلْهُ أَوَّلَ الْأَبْوَابِ. فَإِذَا أَنْتَ عَمِلْتَهُ وَوَضَعْتَهُ بِحَيْثُ رَسَمْتُ لَكَ؛ فَأَعْلِمْنِي لِأَجْمَعَ أَهْلَ الْمَمْلَكَةِ، وَتَقْرَأَهُ عَلَيْهِمْ فَيُظْهِرَ فَضْلَكَ وَاجْتِهَادَكَ فِي مَحَبَّتِنَا؛ فَيَكُونَ لَكَ بِذَلِكَ فَخْرٌ^(٤).

فَلَمَّا سَمِعَ بُزْرَجْمَهَرُ مَقَالَ الْمَلِكِ خَرَّ لَهُ سَاجِدًا، وَقَالَ: أَدَامَ اللَّهُ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْبَقَاءَ،

(١) وما سمعت: ارتفعت. إيقاء الذكر: تخليد ذكره فالذكرى للإنسان عمر ثاب. وأيسره: أسهله. خطره: شأنه وشرفه.

(٢) وتَجَشُّمُهُ: تكلفه وتحملة. مضارعا: مشابها ومماثلا. (٣) التقريظ: المدح. الإطناب: المبالغة والإطالة.

(٤) واجهد: ابدل الجهد. مشاكلة: موافقة. بحيث رسمت لك: أي كما رسمت لك.

وَبَلَغَكَ أَفْضَلَ مَنَازِلِ الصَّالِحِينَ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى، لَقَدْ شَرَّفْتَنِي فِي ذَلِكَ شَرَفًا بَاقِيًا إِلَى الْأَبَدِ، ثُمَّ خَرَجَ بُرْزُجْمَهَرُ مِنْ عِنْدَ الْمَلِكِ، فَوَصَفَ بَرَزَوِيَّهِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ دَفَعَهُ أَبَوَاهُ إِلَى الْمُؤَدِّبِ، وَمُضِيَّهُ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ فِي طَلَبِ الْعَقَاقِيرِ وَالْأَدْوِيَةِ، وَكَيْفَ تَعَلَّمَ خُطُوطَهُمْ وَلُغَتَهُمْ إِلَى أَنْ بَعَثَهُ أَنْوِشِرَوَانُ إِلَى الْهِنْدِ فِي طَلَبِ الْكِتَابِ، وَلَمْ يَدْعُ مِنْ فَضَائِلِ بَرَزَوِيَّهِ وَحِكْمَتِهِ وَخَلَائِقِهِ وَمَذْهَبِهِ أَمْرًا إِلَّا نَسَقَهُ، وَأَتَى بِهِ بِأَجُودِ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّرْحِ^(١).

ثُمَّ أَعْلَمَ الْمَلِكُ بِفِرَاقِهِ مِنْهُ، فَجَمَعَ أَنْوِشِرَوَانُ أَشْرَافَ قَوْمِهِ وَأَهْلَ مَمْلَكَتِهِ وَأَدْخَلَهُمْ إِلَيْهِ، وَأَمَرَ بُرْزُجْمَهَرَ بِقِرَاءَةِ الْكِتَابِ وَبَرَزَوِيَّهِ قَائِمًا إِلَى جَانِبِ بُرْزُجْمَهَرَ، وَابْتَدَأَ يَوْصِفُ بَرَزَوِيَّهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى آخِرِهِ، فَفَرِحَ الْمَلِكُ بِمَا أَتَى بِهِ بُرْزُجْمَهَرُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ، ثُمَّ أَتْنَى الْمَلِكُ وَجَمِيعُ مَنْ حَضَرَ عَلَى بُرْزُجْمَهَرَ وَشُكْرُوهُ وَمَدْحُوهُ، وَأَمَرَ لَهُ الْمَلِكُ بِمَالٍ جَزِيلٍ وَكُشُورَةٍ وَحِلْيَةٍ وَأَوَانِي فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا غَيْرَ كُشُورَةٍ كَانَتْ مِنْ ثِيَابِ الْمُلُوكِ، ثُمَّ شَكَرَ لَهُ ذَلِكَ بَرَزَوِيَّهِ وَقَبَلَ رَأْسَهُ وَيَدَهُ وَأَقْبَلَ عَلَى الْمَلِكِ وَقَالَ: أَدَامَ اللَّهُ لَكَ الْمُلْكَ وَالسَّعَادَةَ فَقَدْ بَلَغْتَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ الشَّرَفِ بِمَا أَمَرْتَ بِهِ بُرْزُجْمَهَرَ مِنْ صَنْعَةِ الْكِتَابِ فِي أَمْرِي وَإِتْقَاءِ ذِكْرِي. ثُمَّ انْصَرَفَ الْجَمْعُ مَسْرُورِينَ مُبْتَهَجِينَ وَكَانَ يَوْمًا لَا مِثَالَ لَهُ^(٢)!

بَابُ عَرَضِ الْكِتَابِ

لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَقِّقِ مُعَرَّبِ هَذَا الْكِتَابِ

هَذَا كِتَابٌ كَلِيلَةٌ وَدِمْنَةٌ، وَهُوَ مِمَّا وَضَعْتَهُ عُلَمَاءُ الْهِنْدِ مِنَ الْأَمْثَالِ وَالْأَحَادِيثِ الَّتِي أُلْهِمُوا أَنْ يُدْخِلُوا فِيهَا أَبْلَغَ مَا وَجَدُوا مِنَ الْقَوْلِ فِي النَّحْوِ الَّذِي أَرَادُوا. وَلَمْ تَزَلِ الْعُلَمَاءُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ وَلِسَانٍ يَلْتَمِسُونَ أَنْ يُعْقَلَ عَنْهُمْ، وَيَحْتَالُونَ لِذَلِكَ بِصُنُوفِ الْحَيْلِ، وَيَتَّبِعُونَ إِخْرَاجَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلَالِ، فِي إِظْهَارِ مَا لَدَيْهِمْ مِنَ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ، حَتَّى كَانَ مِنْ تِلْكَ الْعِلَالِ وَضَعُ هَذَا الْكِتَابِ عَلَى أَفْوَاهِ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ، فَاجْتَمَعَ لَهُمْ بِذَلِكَ خِلَالٌ^(٣).

(١) والأولى: الدنيا. دفعه: سلمه. المؤدب: المعلم. العقاقير: النباتات التي يتداوى بها. جمع عقار. نسقه: نظمه.

(٢) جزيل: عظيم. جلى: جمع جلية. وهي ما يتزين به من المعادن المصوغة.

(٣) ألهموا: ألهمهم الله وهداهم. النحو الذي أرادوا: الطريق. يُعْقَل عنهم: أي يؤخذ ويفهم. العلال: الوسائل والأسباب. خلال: أي طرق ومذاهب.

أَمَّا هُمْ فَوَجَدُوا مُنْصَرَفًا فِي الْقَوْلِ، وَشِعَابًا^(١) يَأْخُذُونَ مِنْهَا، وَوُجُوهًا يَسْلُكُونَ فِيهَا، وَأَمَّا الْكِتَابُ فَجَمَعَ حِكْمَةً وَلَهُوًا فَأَخْتَارَهُ الْحُكَمَاءُ لِحِكْمَتِهِ، وَالْأَعْرَازُ لِلْهُوِّ، وَالْمُتَعَلِّمُ مِنَ الْأَحْدَاثِ نَاشِطٌ فِي حِفْظِ مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ يُزْبِطُ فِي صَدْرِهِ، وَلَا يَذْري مَا هُوَ، بَلْ عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ ظَفِرَ مِنْ ذَلِكَ بِمَكْتُوبٍ مَرْقُومٍ، وَكَانَ كَالرَّجُلِ الَّذِي لَمَّا اسْتَكْمَلَ الرَّجُولِيَّةَ، وَجَدَ أَبَوَيْهِ قَدْ كَتَرَا لَهُ كُنُوزًا، وَعَقَدَا لَهُ عَقْدًا، اسْتَعْنَى بِهَا عَنِ الْكَذْحِ فِيمَا يَعْمَلُهُ مِنْ أَمْرِ مَعِيشَتِهِ؛ فَأَغْنَاهُ مَا أَشْرَفَ عَلَيْهِ مِنَ الْحِكْمَةِ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ وَجْهِهِ الْأَدَبِ^(٢).

فَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لِمَنْ قَرَأَ هَذَا الْكِتَابَ أَنْ يَعْرِفَ الْوُجُوهَ الَّتِي وُضِعَتْ لَهُ، وَالرُّمُوزَ الَّتِي رُمِيزَتْ فِيهِ، وَإِلَى أَيِّ غَايَةٍ جَرَى مُؤَلَّفُهُ فِيهِ عِنْدَ مَا نَسَبَهُ إِلَى الْبَهَائِمِ، وَأَضَافَهُ إِلَى غَيْرِ مُفْصِحٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَوْضَاعِ الَّتِي جَعَلَهَا أَمْثَالًا. فَإِنَّ قَارِئَهُ مَتَى لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لَمْ يَذَرْ مَا أُرِيدَ بِتِلْكَ الْمَعَانِي، وَلَا أَيُّ ثَمَرَةٍ يَجْتَنِي مِنْهَا، وَلَا أَيُّ نَتِيجَةٍ تَخْصُلُ لَهُ مِنْ مُقَدِّمَاتِ مَا تَصَمَّنَتْ هَذَا الْكِتَابَ. وَإِنَّهُ إِنْ كَانَتْ غَايَتُهُ مِنْهُ اسْتِثْمَامُ قِرَائَتِهِ، وَابْتُلُوعُ إِلَى آخِرِهِ، دُونَ تَفَهُُّمِ مَا يَقْرَأُ مِنْهُ لَمْ يَعُدْ عَلَيْهِ شَيْءٌ يَرْجِعُ إِلَيْهِ نَفْعُهُ^(٣).

وَمَنْ اسْتَكْتَرَ مِنْ جَمْعِ الْكُتُبِ، وَقِرَاءَةِ الْعُلُومِ مِنْ غَيْرِ إِعْمَالِ الرُّوِيَّةِ فِيمَا يَقْرُؤُهُ كَانَ خَلِيقًا أَلَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا أَصَابَ الرَّجُلَ الَّذِي زَعَمَتِ الْعُلَمَاءُ أَنَّهُ اجْتَنَزَ بِنَعْصِ الْمَفَاوِزِ، فَظَهَرَ لَهُ مَوْضِعُ آثَارِ كَنْزٍ، فَجَعَلَ يَحْفِرُ وَيَطْلُبُ فَوْقَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عَيْنٍ وَوَرَقٍ؛ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: إِنْ أَنَا أَخَذْتُ فِي نَقْلِ هَذَا الْمَالِ قَلِيلًا قَلِيلًا طَالَ عَلَيَّ، وَقَطَعَنِي الْأَشْتَغَالُ بِنَقْلِهِ، وَإِحْرَازِهِ عَنِ اللَّذَّةِ بِمَا أَصَبْتُ مِنْهُ. وَلَكِنْ سَأَشْتَاجِرُ أَقْوَامًا يَحْمِلُونَهُ إِلَى مَنْزِلِي، وَأَكُونُ أَنَا آخِرَهُمْ، وَلَا يَكُونُ بَقِي وَرَائِي شَيْءٌ يُشْغَلُ فِكْرِي بِنَقْلِهِ وَأَكُونُ قَدْ اسْتَظْهَرْتُ لِنَفْسِي فِي إِرَاحَةٍ بَدَنِي عَنِ الْكَدِّ بِتَسِيرِ أُجْرَةٍ أُعْطِيهَا لَهُمْ^(٤).

ثُمَّ جَاءَ بِالْحَمَّالِينَ فَجَعَلَ يُحْمِلُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا يُطِيقُ، فَيَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَيَفُوزُ بِهِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنَ الْكَنْزِ شَيْءٌ انْطَلَقَ خَلْفَهُمْ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ مِنَ الْمَالِ شَيْئًا، لَا كَثِيرًا وَلَا قَلِيلًا، وَإِذَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْحَمَّالِينَ قَدْ فَازَ بِمَا حَمَلَهُ لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لِلرَّجُلِ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْعَنَاءُ

(١) منصرفًا: مذهبا ينصرفون إليه. وشيعابًا: جمع شيعب أي طرقا.

(٢) والأعزاز: الصغار. الأحداث: الصغار. عقداً: أي عقارات. الكدح: الكد والسعي. ما أشرف عليه: أي ما وصل إليه.

(٣) مفصح: ناطق. وغير مفصح: حيوان.

(٤) الرُّوِيَّة: النظر والتفكير في الأمور، وهي خلاف البديهة. خَلِيقٌ: جديرًا ومستحقًا. المفاوز: جمع مفازة وهي الصحراء لا ماء فيها.

عين: نقود ذهبية. ورق: نقود فضية. وقطعني: منعني. وإحرازه: حفظه. استظهرت: استعنت.

وَالْتَعَبَ لِأَنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ فِي آخِرِ أَمْرِهِ. وَكَذَلِكَ مَنْ قَرَأَ هَذَا الْكِتَابَ، وَلَمْ يَفْهَمْ مَا فِيهِ وَلَمْ يَعْلَمْ غَرَضَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، لَمْ يَنْتَفِعْ بِمَا يَتَدَوُّ لَهُ مِنْ خَطِّهِ وَنَفْسِهِ، كَمَا لَوْ أَنَّ رَجُلًا قُدِّمَ لَهُ جَوْزٌ صَحِيحٌ، لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ إِلَّا أَنْ يَكْسِرَهُ وَيَسْتَخْرِجَ مَا فِيهِ^(١).

وَكَانَ أَيْضًا كَالرَّجُلِ الَّذِي طَلَبَ عِلْمَ الْفَصِيحِ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، فَأَتَى صَدِيقًا لَهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ لَهُ عِلْمٌ بِالْفَصَاحَةِ فَأَعْلَمَهُ حَاجَتَهُ إِلَى عِلْمِ الْفَصِيحِ، فَرَسَمَ لَهُ صَدِيقُهُ فِي صَحِيفَةٍ صَفْرَاءَ فَصِيحَ الْكَلَامِ، وَتَصَارِيفُهُ، وَوُجُوهُهُ، فَأَنْصَرَفَ بِهَا إِلَى مَنْزِلِهِ فَجَعَلَ يُكَيِّتُ قِرَاءَتَهَا، وَلَا يَقِفُ عَلَى مَعَانِيهَا، وَلَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ مَا فِيهَا، حَتَّى اسْتَظْهَرَهَا كُلَّهَا، فَأَعْتَقَدَ أَنَّهُ قَدْ أَحَاطَ بِعِلْمِ مَا فِيهَا^(٢). ثُمَّ إِنَّهُ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي مَحْفَلٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ، فَأَخَذَ فِي مُحَاوَرَتِهِمْ، فَجَرَتْ لَهُ كَلِمَةٌ أَخْطَأَ فِيهَا فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْجَمَاعَةِ: إِنَّكَ قَدْ أَخْطَأْتَ، وَالْوَجْهُ غَيْرُ مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ! فَقَالَ: كَيْفَ أَخْطِئْتُ وَقَدْ قَرَأْتُ الصَّحِيفَةَ الصَّفْرَاءَ، وَهِيَ فِي مَنْزِلِي؟! فَكَانَتْ مَقَالَتُهُ هَذِهِ أَوْجَبَ لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَزَادَهُ ذَلِكَ قُرْبًا مِنَ الْجَهْلِ، وَبُعْدًا مِنَ الْأَدَبِ. ثُمَّ إِنَّ الْعَاقِلَ إِذَا فَهِمَ هَذَا الْكِتَابَ، وَتَلَعَ نِهَایَهُ عِلْمِهِ فِيهِ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْمَلَ بِمَا عِلْمٌ مِنْهُ لِيَنْتَفِعَ بِهِ وَيَجْعَلَهُ مِثَالًا لَا يَحِيدُ عَنْهُ^(٣).

مثل الرجل واللص

فَإِذَا لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ كَانَ مِثْلُهُ كَالرَّجُلِ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّ سَارِقًا تَسَوَّرَ عَلَيْهِ، وَهُوَ نَائِمٌ فِي مَنْزِلِهِ، فَعَلِمَ بِهِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأَسْكُتَنَّ حَتَّى أَنْظُرَ مَاذَا يَصْنَعُ، وَلَا أَذْعُرُهُ، وَلَا أُعْلِمُهُ أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ بِهِ، فَإِذَا بَلَغَ مُرَادَهُ قُمْتُ إِلَيْهِ، فَتَنَعَّصْتُ ذَلِكَ عَلَيْهِ!

ثُمَّ إِنَّهُ أَمْسَكَ عَنْهُ، وَجَعَلَ السَّارِقُ يَتَرَدَّدُ وَطَالَ تَرَدُّدُهُ فِي جَمْعِهِ مَا يَجِدُهُ، فَغَلَبَ الرَّجُلُ النَّعَاسَ، فَتَنَامَ وَفَرَعَ اللَّصُّ مِمَّا أَرَادَ، وَأَمْكَنَهُ الدَّهَابُ، وَاسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ فَوَجَدَ اللَّصَّ قَدْ أَخَذَ الْمَتَاعَ، وَفَارَ بِهِ، فَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يَلُومُهَا، وَعَرَفَ أَنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِعِلْمِهِ بِاللَّصِّ، إِذْ لَمْ يَسْتَغْمِلْ فِي أَمْرِهِ مَا يَجِبُ^(٤)! وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ الْعِلْمَ لَا يَنْتَفِعُ إِلَّا بِالْعَمَلِ، وَإِنَّ الْعِلْمَ كَالشَّجَرَةِ، وَالْعَمَلُ بِهِ

(١) الجوز: ثمر يؤكل. وجوز الهند: التاجيل.

(٢) الفصيح: يقال: رجل فصيح: يحسن البيان ويميز جيد الكلام من رديئه. وكلام فصيح: سليم واضح يدرك السمع وحسنه، والعقل دقته. استظهرها: حفظها غيبًا.

(٣) محفل: مجتمع حافل بالناس. محاورتهم: مراجعتهم في الكلام. للحجة: الاحتجاج.

(٤) تسوّر عليه: تخطف سور بيته وعلاه. ولا أذعره: لا أفرعه. النعاس: النوم. المتاع: واحد الأمتعة. وكل ما ينتفع به ويرغب في اقتنائه كالطعام. وأثاث البيت، والسلمة، والأداة والمال.

كَالثَّمَرَةِ ، وَإِنَّمَا صَاحِبُ الْعِلْمِ يَقُومُ بِالْعَمَلِ ، لِيَنْتَفِعَ بِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَعْمِلْ مَا يَعْلَمُ فَلَيْسَ يُسَمَّى عَالِمًا . وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا كَانَ عَالِمًا بِطَرِيقِ مَخُوفٍ ، ثُمَّ سَلَكَهُ عَلَى عِلْمٍ بِهِ ، سُمِّيَ جَاهِلًا ، وَلَعَلَّهُ إِنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ وَجَدَهَا قَدْ رَكِبَتْ أَهْوَاءَ هَجَمَتْ بِهَا فِيمَا هُوَ أَغْرَفُ بَصَرِهَا فِيهِ وَأَذَاهَا ، وَمَنْ رَكِبَ هَوَاهُ ، وَرَفَضَ أَنْ يَعْمَلَ بِمَا جَرَّبَهُ هُوَ ، أَوْ أَعْلَمَهُ بِهِ غَيْرُهُ كَانَ كَالْمَرِيضِ الْعَالِمِ بِرَدِيءِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَجَيِّدِهِ وَخَفِيفِهِ ، وَثَقِيلِهِ ثُمَّ يَحْمِلُهُ الشَّرُّ عَلَى أَكْلِ رَدِيئِهِ ، وَتَرْكِ مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى النِّجَاحِ ، وَالتَّخَلُّصِ مِنْ عَلَيْهِ^(١) . وَأَقْلُ النَّاسِ عُذْرًا فِي اجْتِنَابِ مَحْمُودِ الْأَفْعَالِ ، وَأَزْكَابِ مَذْمُومِهَا مَنْ أَبْصَرَ ذَلِكَ ، وَمَيَّزَهُ ، وَعَرَفَ فَضْلَ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ . كَمَا أَنَّهُ لَوْ أَنَّ رَجُلَيْنِ : أَحَدُهُمَا بَصِيرٌ ، وَالْآخَرُ أَعْمَى سَاقَهُمَا الْأَجَلَ إِلَى حُفْرَةٍ فَوْقَهَا فِيهَا كَانَا إِذَا صَارَا فِي قَعْرِهَا بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ . غَيْرَ أَنَّ الْبَصِيرَ أَقْلُ عُذْرًا عِنْدَ النَّاسِ مِنَ الضَّرِيرِ ؛ إِذْ كَانَتْ لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا ، وَذَلِكَ بِمَا صَارَ إِلَيْهِ جَاهِلٌ غَيْرَ عَارِفٍ . وَعَلَى الْعَالِمِ أَنْ يَبْدَأَ بِنَفْسِهِ ، وَيُؤَدِّبَهَا بِعِلْمِهِ ، وَلَا تَكُونَ غَايَتُهُ اقْتِنَاءُ الْعِلْمِ ، لِمُعَاوَنَةِ غَيْرِهِ وَنَفْعِهِ بِهِ وَحِرْمَانِ نَفْسِهِ مِنْهُ ، وَيَكُونَ كَالْعَيْنِ الَّتِي تَشْرَبُ النَّاسُ مَاءَهَا وَلَيْسَ لَهَا فِي ذَلِكَ شَيْءٌ مِنَ الْمُنْفَعَةِ^(٢) . وَكَدُودَةِ الْقَرْزِ الَّتِي تُحَكِّمُ صَنَعَتَهُ ، وَلَا تَنْتَفِعُ بِهِ ! فَيَنْبَغِي لِمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ أَنْ يَبْدَأَ بِعِظَةِ نَفْسِهِ ، وَيَتَعَهَّدَهَا بِرِيَاضَتِهَا ، ثُمَّ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَقْبِسَهُ ؛ فَإِنَّ خِلَالَ بِنْبَغِي لِصَاحِبِ الدُّنْيَا أَنْ يَقْتَنِيَهَا وَيَقْبِسَهَا : مِنْهَا الْعِلْمُ ، وَالْمَالُ ، وَمِنْهَا اتِّخَاذُ الْمَعْرُوفِ ، وَلَيْسَ لِلْعَالِمِ أَنْ يَعْيبَ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُ فِيهِ غَايَةٌ وَنَهَايَةٌ يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا ، وَيَقِفُ عِنْدَهَا ، وَلَا يَتِمَادَى فِي الطَّلَبِ^(٣) .

فَإِنَّهُ يُقَالُ : مَنْ سَارَ إِلَى غَيْرِ غَايَةٍ ، فَيُوشِكُ أَنْ تَنْقَطِعَ بِهِ مَطِيلَتُهُ ، وَإِنَّهُ كَانَ حَقِيقًا أَلَّا يُعْنِيَ نَفْسَهُ فِي طَلَبِ مَا لَا حَدَّ لَهُ ، وَمَا لَمْ يَنْلُهُ أَحَدٌ قَبْلَهُ ، وَلَا يَتَأَسَّفَ عَلَيْهِ وَلَا يَكُونَ لِدُنْيَاهُ مَوْثِرًا عَلَى آخِرَتِهِ ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَغْلُقْ قَلْبُهُ بِالْغَايَاتِ ، قَلَّتْ حَسْرَتُهُ عِنْدَ مُفَارَقَتِهَا ، وَقَدْ يُقَالُ فِي أَمْرَيْنِ : إِنَّهُمَا يَجْمُلَانِ بِكُلِّ أَحَدٍ : أَحَدُهُمَا التُّسْكُ ، وَالْآخَرُ الْمَالُ الْحَلَالُ .

وَقَدْ يُقَالُ فِي أَمْرَيْنِ : إِنَّهُمَا لَا يَجْمُلَانِ بِأَحَدٍ : الْمَلِكُ أَنْ يُشَارَكَ فِي مُلْكِهِ ، وَالرَّجُلُ أَنْ يُشَارَكَ فِي خَاصَّتِهِ . وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَقْطَعَ وَيَقَاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ فِيمَا لَا يَنَالُهُ ؛ فَوَيْبًا

(١) أهواء : جمع هوى . وهو ميل النفس . ركب هواء : اتبعه . الشره : الجشع وشدة الحرص على الطعام .

(٢) الأجل : انقضاء العمر . الضير : الأعمى . غايته : هدفه .

(٣) القز : الحرير . بعطة نفسه : بوعظها . يتعدها : يتفقدتها . يقبسه : يستفيد . خلالاً : أموراً . اتخاذ المعروف : فعله واصطناعه مع الناس . غاية : حد وهدف . يتماذى : يلغ ويدأوم .

ساقَ الْقَدْرَ لَهُ رِزْقًا هَيِّقًا وَهُوَ غَافِلٌ عَنْهُ لَا يَذَرِي بِهِ وَلَا يَعْلَمُ وَجْهَهُ! (١).

مَثَلُ الْفَقِيرِ وَاللَّصِّ

وَمِنْ أَمْثَالِ هَذَا أَنَّ رَجُلًا كَانَ بِهِ فَاقَةٌ وَجُوعٌ وَعُزْيٌ ، فَأَلْجَأَهُ ذَلِكَ إِلَى أَنْ سَأَلَ بَعْضَ أَقَارِبِهِ وَأَصْدِقَائِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ فَضْلٌ يَعُودُ بِهِ عَلَيْهِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي مَنْزِلِهِ إِذْ بَصُرَ بِسَارِقٍ فِي مَنْزِلِهِ ؛ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : وَاللَّهِ مَا فِي مَنْزِلِي شَيْءٌ أَخَافُ عَلَيْهِ ! فَلْيَجْهَدْ السَّارِقُ جُهْدَهُ! (٢).

فَبَيْنَمَا السَّارِقُ يَجُولُ إِذْ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَى خَافِيَةٍ فِيهَا حِنْكَةٌ ، فَقَالَ السَّارِقُ : وَاللَّهِ مَا أَحِبُّ أَنْ يَكُونَ عَنَائِي اللَّيْلَةُ بَاطِلًا ، وَلَعَلِّي لَا أَصِلُ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ ، وَلَكِنْ سَأَحْمِلُ هَذِهِ الْحِنْطَةَ خَيْرٌ مِنْ الرُّجُوعِ بِغَيْرِ شَيْءٍ ، ثُمَّ بَسَطَ رِدَاءَهُ لِيَصُبَّ عَلَيْهِ الْحِنْطَةُ ؛ فَقَالَ الرَّجُلُ : يَذْهَبُ هَذَا بِالْحِنْطَةِ وَلَيْسَ وَرَائِي سِوَاهَا؟! فَجْتَمَعَ عَلَيْهِ مَعَ الْعُزِيِّ ذَهَابٌ مَا كُنْتُ أَقْنَأْتُ بِهِ ، وَمَا تَجْتَمِعُ وَاللَّهِ هَاتَانِ الْخَلَّتَانِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَهْلَكَتَاهُ! ثُمَّ صَاحَ بِالسَّارِقِ ، وَوَتَبَ إِلَيْهِ بِهَرَاوَةٍ كَانَتْ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ لِلْسَّارِقِ حِيلَةٌ إِلَّا الْهَرَبُ مِنْهُ ، وَتَرَكَ رِدَاءَهُ وَنَجَا بِنَفْسِهِ ، وَغَدَا الرَّجُلُ بِهِ كَاسِيًا (٣).

وَلَيْسَ بِنَبِيغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَرْكَنَ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْمَثَلِ ، فَيَتَكَلَّ عَلَيْهِ وَيَدْعَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ السَّعْيِ وَالْعَمَلِ لِصَلَاحِ مَعَاشِهِ ، بَلْ أَلَا يَأْكُلُ جَهْدًا فِي الطَّلَبِ عَلَى قَدْرِ مَعْرِفَتِهِ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَى مَنْ تَوَاتِيهِ الْمَقَادِيرُ وَتُسَاعِدُهُ عَلَى غَيْرِ التَّمَاسِ مِنْهُ ، وَلَا حَزَكَةٍ ؛ لِأَنَّ أَوَّلِيكَ فِي النَّاسِ قَلِيلٌ ، وَإِنَّمَا الْجُمْهُورُ مِنْهُمْ مَنْ يَجْهَدُ نَفْسَهُ فِي الْكَدِّ وَالسَّعْيِ فِيمَا يُصْلِحُ مِنْ أَمْرِهِ ، وَيَنَالُ بِهِ مَا يُرِيدُ (٤).

وَلْيُخْرِصْ أَنْ يَكُونَ مَكْسَبُهُ مِنْ أَطْيَبِ الْمَكَايِبِ ، وَأَفْضَلِهَا وَأَنْفَعِهَا لَهُ وَلِغَيْرِهِ مَعَ مَا أُمِكَّنَ ، وَلَا يَتَعَرَّضْ لِمَا يَجْلُبُ عَلَيْهِ الْعَنَاءُ وَالشَّقَاءُ ، وَمَا يَعْقِبُهُ الْهَمُّ وَالْغَمُّ ، وَلْيَحْذَرْ أَنْ يُعَاوِدَ مَا أَصَابَهُ مِنْهُ الضَّرَرُ ، وَيَنْبَغِي لَهُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَحْذَرَ مِمَّا يُصِيبُ غَيْرَهُ مِنَ الضَّرَرِ ، لِقَلَّ يُصِيبُهُ مِثْلُهُ فَيَكُونَ

(١) تنقطع به مطيته : تعجز عن السير دابته وتوقف . يُقْنَى : يتعب . مُؤْثِرًا : مفضلاً . بالغايات : بالمطالب . يجملان : يحسان . خاصته : ما يختص به . يقنط : يقطع الأمل ومثلها يياس . القدر : قضاء الله .

(٢) فاقة : فقر . فالجاء : اضطره ودفعه . فضل : زيادة عن عوزة . يعود به : يفضل : بصُر بسارق : لمحبه . فليجهد السارق جهده : طاقته .

(٣) خافية : وعاء الماء الذي يحفظ فيه ، جمعها الخواوي ، وأصلها الخافية والخواوي سهلت الهمزة للتخفيف . حنطة : قمح . رداءه : ثوبه الذي يلبسه فوق الثياب الداخلية . أقنأت : أعيش ، وأتغذى . الخلتان أو الصفتان . بهراوة : بعضا ضخمة . كاسيا : مكتسيا ومستورا .

(٤) لا يألو جهداً : لا يقصر في بذل الجهد . تواتيه : توافقه .

كَالْحَمَامَةِ الَّتِي تُفْرَخُ الْفِرَاحَ فَتُؤَخَذُ وَتُذْبَحُ، ثُمَّ لَا يَمْنَعُهَا ذَلِكَ مِنْ أَنْ تَعُودَ، فَتُفْرَخَ مُوَضَّعَهَا وَتُقِيمَ بِمَكَانِهَا، فَتُؤَخَذُ الثَّانِيَةَ مِنْ فِرَاحِهَا، فَتُذْبَحُ حَتَّى تُؤَخَذَ هِيَ فَتُذْبَحَ أَيْضًا. وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ حَدًّا يُوقِفُ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَجَاوَزَ فِي الْأَشْيَاءِ حَدَّهَا، أَوْشَكَ أَنْ يُلْحَقَهُ التَّقْصِيرُ عَنْ بُلُوغِهَا. وَالْمُتَجَاوِزُ الْحَدَّ، وَالْمُقْصَرُ عَنْهُ سَيِّانٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ كِلَيْهِمَا زَائِعٌ عَنْهُ فِي الْحَالَيْنِ جَمِيعًا^(١).

وَيُقَالُ: مَنْ كَانَ سَعْيُهُ لِآخِرَتِهِ وَدُنْيَاهُ فَحْيَاثُهُ لَهُ وَعَلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ لِدُنْيَاهُ خَاصَّةً فَحْيَاثُهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ سَعْيُهُ لِآخِرَتِهِ فَحْيَاثُهُ لَهُ. وَيُقَالُ فِي أَشْيَاءٍ يَجِبُ عَلَى صَاحِبِ الدُّنْيَا إِصْلَاحُهَا وَبَدَلُ جُهِدِهِ فِيهَا: مِنْهَا أَمْرٌ دِينِي، وَمِنْهَا أَمْرٌ مَعِيشِي، وَمِنْهَا مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمِنْهَا مَا يُكْسِبُهُ الذِّكْرَ الْجَمِيلَ بَعْدَهُ. وَقَدْ قِيلَ فِي أُمُورٍ مِنْ كُنْ فِيهِ لَمْ يَسْتَقِمَّ لَهُ عَمَلٌ: مِنْهَا التَّوَانِي، وَمِنْهَا تَضْيِيعُ الْفُرْصِ^(٢)، وَمِنْهَا التَّضْدِيقُ لِكُلِّ مُخْبِرٍ، وَمِنْهَا التَّكْذِيبُ لِكُلِّ عَارِفٍ، وَرُبُّ مُخْبِرٍ بِشَيْءٍ عَقْلُهُ، وَلَا يَعْرِفُ اسْتِقَامَتَهُ فَيُصَدِّقُهُ، وَالَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنَ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ يُصَدِّقُ بِمَا جَرَّبَهُ غَيْرُهُ، وَصَدَّقَهُ، فَيُصَدِّقُهُ هُوَ، وَيَتِمَادَى فِي التَّضْدِيقِ حَتَّى كَانَمَا جَرَّبَهُ بِنَفْسِهِ، وَرَجُلٌ يُصَدِّقُ بِالْأُمُورِ الَّتِي جَرَّبَهَا، وَلَكِنْ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ بِحَقِيقَتِهَا، وَرَجُلٌ تَلْتَبَسُ عَلَيْهِ الْأُمُورُ فَيُصَدِّقُ بِهَا. وَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ لِهَوَاهُ مُتَّهِمًا، وَلَا يَقْبَلِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ حَدِيثًا، وَلَا يَتِمَادَى فِي الْخَطَا إِذَا تَلْتَبَسَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ، وَلَا يَلْجُ فِي شَيْءٍ مِنْهُ، وَلَا يُقْدِمُ عَلَيْهِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الصَّوَابُ فِيهِ، وَتَسْتَوْضِحَ لَهُ الْحَقِيقَةُ^(٣).

وَلَا يَكُونَ كَالرَّجُلِ الَّذِي يَزِيغُ عَنِ الطَّرِيقِ، فَيَسْتَمِرُّ عَلَى الضَّلَالِ، فَلَا يَزْدَادُ فِي السَّيْرِ جَهْدًا إِلَّا أَزْدَادَ عَنِ الْقَصْدِ بُعْدًا، وَكَالرَّجُلِ الَّذِي تَقْدَى عَلَيْهِ فَلَا يَزَالُ يَحْكُمُهَا حَتَّى رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْحُكْمُ سَبَبًا فِي ذَهَابِهَا. وَيَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يُصَدِّقَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَيَعْلَمَ أَنَّ مَا كُتِبَ سَوْفَ يَكُونُ، وَأَنَّ مَنْ أَتَى صَاحِبَهُ بِمَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ فَقَدْ ظَلَمَ، وَيَأْخُذُ بِالْخَزْمِ فِي أُمُورِهِ، وَيُحِبُّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَيَكْرَهُ لَهُمْ مَا يَكْرَهُ لَهَا، فَلَا يَطْلُبُ أَمْرًا فِيهِ مَضَرَّةٌ لِعَيرِهِ، طَلَبًا لِصَلَاحِ نَفْسِهِ بِفَسَادِ غَيْرِهِ؛ فَإِنَّ كُلَّ غَادِرٍ مَأْخُودٌ^(٤).

(١) سيان: مثلاً. زائع عنه: بعيد عنه. (٢) الذكر الجميل: السيرة العطرة. التواني: التقصير والفتور في العمل.

(٣) عقله: أدركه بعقله. متهما: شاكاً في صدقه. وتستوضح: تتضح.

(٤) تقدى عنه: يصيبها قذى، والقذى: جمع القذاة: ما يتكون في العين من رمص وغمص وغيرها. مأخوذ: مُعاقب.

مثل الشريكين والأعدال

وهو مثل من رمى غيره بسهم ، فأصاب نفسه

وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ خَلِيقًا أَنْ يُصِيبَهُ مَا أَصَابَ التَّاجِرَ مِنْ رَفِيقِهِ؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ رَجُلًا تاجرًا، وَكَانَ لَهُ شَرِيكَ . فَاسْتَأْجَرَ حَانُوتًا، وَجَعَلَ مَتَاعَهُمَا فِيهِ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا قَرِيبَ الْمَنْزِلِ مِنَ الْحَانُوتِ، فَأَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَسْرِقَ عِدْلًا مِنْ أَعْدَالِ رَفِيقِهِ، وَمَكَرَ فِي ذَلِكَ، وَقَالَ: إِنَّ أَنَا أَتَيْتُ لَيْلًا لَمْ أَمِنْ أَنْ أَحْمِلَ عِدْلًا مِنْ أَعْدَالِي، أَوْ رُزْمَةً مِنْ رُزْمِي، وَلَا أَعْرِفُهَا فَيَذْهَبَ عَنَّا وَيَتَعَبِي بِاطِلًا^(١).

فَأَخَذَ رِداءَهُ وَأَلْقَاهُ عَلَى الْعِدْلِ الَّذِي أَضْمَرَ أَخْذَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَجَاءَ رَفِيقُهُ بَعْدَ ذَلِكَ لِيُصْلِحَ أَعْدَالَهُ، فَقَالَ: وَاللَّهِ هَذَا رِداءُ صَاحِبِي وَلَا أَحْسَبُهُ إِلَّا قَدْ نَسِيَهُ وَمَا الرَّأْيُ أَنْ أَدْعُهُ لِهَذَا، وَلَكِنْ أَجْعَلُهُ عَلَى رُزْمِهِ؛ فَلَعَلَّهُ يَسْتَبْقِي إِلَى الْحَانُوتِ، فَيَجِدُهُ حَيْثُ يُحِبُّ، ثُمَّ أَخَذَ الرِّداءَ فَأَلْقَاهُ عَلَى عِدْلِ مِنْ أَعْدَالِ رَفِيقِهِ، وَأَقْفَلَ الْحَانُوتَ وَمَضَى إِلَى مَنْزِلِهِ، فَلَمَّا جَاءَ اللَّيْلُ أَتَى رَفِيقُهُ وَمَعَهُ رَجُلٌ قَدْ وَاطَأَهُ عَلَى مَا عَزَمَ عَلَيْهِ، وَضَمِنَ لَهُ جُعْلًا عَلَى حَمْلِهِ، فَصَارَ إِلَى الْحَانُوتِ فَتَحَسَّسَ الرِّداءَ فِي الظُّلْمَةِ وَتَلَمَّسَهُ فَوَجَدَهُ عَلَى الْعِدْلِ، فَاحْتَمَلَ ذَلِكَ الْعِدْلَ وَأَخْرَجَهُ هُوَ وَالرَّجُلُ وَجَعَلَ يَتَرَاوَحَانِ حَمْلَهُ، حَتَّى أَتَى مَنْزِلَهُ وَرَمَى نَفْسَهُ تَعَبًا^(٢).

فَلَمَّا أَصْبَحَ اتَّفَقَدَهُ فَإِذَا هُوَ بَعْضُ أَعْدَالِهِ؛ فَتَدِمَ أَشَدَّ النَّدَامَةِ، ثُمَّ انْطَلَقَ نَحْوَ الْحَانُوتِ فَوَجَدَ شَرِيكَه قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهِ، فَفَتَحَ الْحَانُوتَ وَفَقَدَ الْعِدْلَ، فَأَعْتَمَ لِذَلِكَ غَمًّا شَدِيدًا وَقَالَ: وَاسْوَءَتَاهُ مِنْ رَفِيقِي صَالِحٌ قَدْ ائْتَمَنَنِي عَلَى مَالِهِ وَخَلَفَنِي فِيهِ مَاذَا يَكُونُ حَالِي عِنْدَهُ، وَلَسْتُ أَشْكُ فِي تُهْمَتِهِ إِيَّايَ! وَلَكِنْ قَدْ وَطَّنْتُ نَفْسِي عَلَى غَرَامَتِهِ^(٣)!!.

فَلَمَّا أَتَاهُ صَاحِبُهُ وَجَدَهُ مُغْتَمًّا، فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ فَقَالَ: إِنِّي قَدْ تَفَقَّدْتُ الْأَعْدَالَ، وَفَقَدْتُ عِدْلًا مِنْ أَعْدَالِكَ وَلَا أَعْلَمُ بِسَبَبِهِ، وَإِنِّي لَا أَشْكُ فِي تُهْمَتِكَ إِيَّايَ، وَإِنِّي قَدْ وَطَّنْتُ نَفْسِي عَلَى

(١) حانوتا: مكانًا. متاعهما: بضاعتهما. أضمر: نوى وأسر. عدلاً: العدل: الجوالق في البضاعة.
(٢) رُزْمِهِ: أعداله. واطأه: اتفق معه على تنفيذ خطة السرقة. جُعلاً: أجره مقابل معاونته في سرقة الجوالق. تحسَّس الرِّداء: بحث عنه وتلمس. وتطلبه بالجنس. تلمسه: تطلبه باللمس. يتراوحن حمله: يتبادلان حمله هذا مرة وذاك مرة.
(٣) اتفقده: بحث عنه فلم يجده. واسوأتاه: يا للبح الذي حلَّ بي! وكيف أرى صاحبي ورفيقي وجهي!! خلفني فيه: استخلفني نائباً عنه. وطنت نفسي: صممت. على غرامته: أي تعويضه.

عَرَامَتِهِ! فَقَالَ لَهُ: يَا أَحْيَى لَا تَعْتَمَّ فَإِنَّ الْخِيَانَةَ شَرُّ مَا عَمِلَهُ الْإِنْسَانُ، وَالْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ لَا يُؤْدِيَانِ إِلَى خَيْرٍ، وَصَاحِبُهُمَا مَغْرُورٌ أَبَدًا، وَمَا عَادَ وَبَالَ الْبَغْيِ إِلَّا عَلَى صَاحِبِهِ، وَأَنَا أَحَدُ مَنْ مَكَّرَ وَخَدَعَ وَاحْتَالَ. فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ. فَأَخْبَرَهُ بِخَبْرِهِ وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ^(١).

مثل اللص والتاجر

وهو مثل من أراد اختلاس شيء، فوقعته يده على غيره، مما لا يريده، وهو يظنه إياه

فَقَالَ لَهُ رَفِيقُهُ: مَا مَثَلُكَ إِلَّا مَثَلُ اللَّصِّ وَالتَّاجِرِ فَقَالَ لَهُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟
قَالَ: رَعِمُوا أَنَّ تَاجِرًا كَانَ لَهُ فِي مَنْزِلِهِ خَائِيَتَانِ: إِحْدَاهُمَا مَمْلُوءَةٌ حِنْطَةً، وَالْأُخْرَى مَمْلُوءَةٌ ذَهَبًا، فَتَرَقَّبَهُ بَعْضُ اللَّصُوصِ زَمَانًا، حَتَّى إِذَا كَانَ بَعْضُ الْأَيَّامِ، تَشَاعَلَ التَّاجِرُ عَنِ الْمَنْزِلِ فَتَعَفَّلَهُ اللَّصُّ، وَدَخَلَ الْمَنْزِلَ، وَكَمَنَ فِي بَعْضِ نَوَاحِيهِ، فَلَمَّا هَمَّ بِأَخْذِ الْخَائِيَةِ الَّتِي فِيهَا الدَّنَانِيرُ، أَخَذَ الَّتِي فِيهَا الْحِنْطَةُ، وَظَنَّنَا الَّتِي فِيهَا الذَّهَبُ، وَلَمْ يَزَلْ فِي كَدٍّ وَتَعَبٍ حَتَّى أَتَى بِهَا مَنْزِلَهُ، فَلَمَّا فَتَحَهَا وَعَلِمَ مَا فِيهَا نَدِمَ^(٢)!

قَالَ لَهُ الْخَائِيَتَانِ: مَا أَبْعَدْتَ الْمَثَلَ، وَلَا تَجَاوَزْتَ الْقِيَاسَ، وَقَدْ اعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي وَخَطِيئَتِي عَلَيْكَ، وَغَرِيزٌ عَلَيَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا كَهَذَا، غَيْرَ أَنَّ النَّفْسَ الرَّدِيئَةَ تَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ! فَقَبِلَ الرَّجُلُ مُعْذِرَتَهُ، وَأَضْرَبَ عَنْ تَوْبِيخِهِ، وَعَنِ الثَّقَةِ بِهِ، وَنَدِمَ هُوَ عِنْدَمَا عَايَنَ مِنْ سُوءِ فِعْلِهِ وَتَقْدِيمِ جَهْلِهِ!.

مثل الإخوة الثلاثة

وهو مثل من رأى العبرة في غيره فاعتبر، واهتم لأمره وتروى فيه.

وَقَدْ يُتَّبَعِي لِلنَّاطِرِ فِي كِتَابِنَا هَذَا أَلَّا تَكُونَ غَايَتُهُ التَّصَفُّحُ لِتَرَائِيقِهِ، بَلْ يُشْرِفُ عَلَى مَا يَتَصَوَّرُ مِنَ الْأَمْثَالِ، حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيْهِ إِلَى آخِرِهِ^(٣).

(١) وَبَالَ الْبَغْيِ: عَاقِبَتُهُ وَنَتِيجَتُهُ السَّيِّئَةُ. الْبَغْيُ: الظُّلْمُ.
(٢) مَا أَبْعَدْتَ الْمَثَلَ: إِنَّ هَذَا الْمَثَلَ شَبِيهُ بِمَا حَدَثَ مِنِّي، وَلَيْسَ بَعِيدًا. عَزِيزٌ عَلَيَّ: صَعِبٌ. الْفَحْشَاءُ: الْقَبِيحُ مِنَ الذُّنُوبِ. أَضْرَبَ: أَعْرَضَ. عَايَنَ: شَاهَدَ. وَتَقْدِيمُ جَهْلِهِ: مَا قَدَّمَ مِنْهُ. لِتَرَائِيقِهِ: لَصُورِهِ، وَقَدْ كَانَ فِي الْأَصْلِ مَزِينًا بِصُورِ أَشْخَاصِ الْحَوَادِثِ الَّتِي فِيهِ. يَأْتِي عَلَيْهِ: يَتِمُّهُ.

وَيَقِفَ عِنْدَ كُلِّ مَثَلٍ وَكَلِمَةٍ ، وَيُعْمَلْ فِيهَا رَوِيَّتُهُ وَيَكُونَ مَثَلُ الثَّالِثِ الْإِخْوَةَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَّفَ لَهُمْ آبَاؤُهُمُ الْمَالُ الْكَثِيرُ؛ فَتَنَازَعُوهُ بَيْنَهُمْ. فَأَمَّا الْإِثْنَانِ الْكَبِيرَانِ فَإِنَّهُمَا أَسْرَعَا فِي إِتْلَافِهِ وَإِنْفَاقِهِ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ، وَأَمَّا الصَّغِيرُ فَإِنَّهُ عِنْدَمَا نَظَرَ مَا صَارَ إِلَيْهِ أَخَوَاهُ مِنْ إِسْرَافِهِمَا وَتَحْلِيهِمَا مِنَ الْمَالِ، أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يُشَاوِرُهَا وَقَالَ يَا نَفْسِي: إِنَّمَا الْمَالُ يَطْلُبُهُ صَاحِبُهُ، وَيَجْمَعُهُ مِنْ كُلِّ وَجْهِ لِبَقَاءِ حَالِهِ، وَصَلَاحِ مَعَاشِهِ وَدُنْيَاهُ، وَشَرَفِ مَنْزِلَتِهِ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، وَاسْتِغْنَائِهِ عَمَّا فِي أَيْدِيهِمْ، وَصَرْفِهِ فِي وَجْهِهِ مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ، وَالْإِنْفَاقِ عَلَى الْوَلَدِ، وَالْإِفْضَالِ عَلَى الْإِخْوَانِ^(١). فَمَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ وَلَا يُنْفِقُهُ فِي حُقُوقِهِ، كَانَ كَالَّذِي يُعَدُّ فَقِيرًا، وَإِنْ كَانَ مُوسِرًا، وَإِنْ هُوَ أَحْسَنُ إِمْسَاكُهُ، وَالْقِيَامُ عَلَيْهِ لَمْ يَغْدَمْ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا: مِنْ دُنْيَا تَبْقَى عَلَيْهِ، وَحَمْدٌ يُضَافُ إِلَيْهِ. وَمَتَى قَصَدَ إِنْفَاقَهُ عَلَى غَيْرِ الْوُجُوهِ الَّتِي حُدِّثَتْ، لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُتْلَفَهُ، وَيَبْقَى عَلَى حَسْرَةٍ وَنَدَامَةٍ، وَلَكِنَّ الرَّأْيَ أَنْ أُمْسِكَ هَذَا الْمَالِ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَنْفَعَنِي اللَّهُ بِهِ، وَيُغْنِي إِيحْوَتِي عَلَى يَدَيَّ، فَإِنَّمَا هُوَ مَالُ أَبِي، وَمَالُ أَيْيِهِمَا، وَإِنْ أَوْلَى الْإِنْفَاقِ عَلَى صِلَةِ الرَّحِمِ وَإِنْ بَعْدَتْ فَكَيْفَ بِأَخَوِي؟! فَأَنْفَقْ فَأَحْضَرَهُمَا، وَسَاطَرَهُمَا مَالَهُ^(٢).

مَثَلُ الصَّيَّادِ وَالصَّدْفَةِ

وهو مثل من أوهمه ظاهر شيء نفاسة باطنه ؛ فترك ما في يده ، وأخذه

وَكَذَلِكَ يَجِبُ عَلَى قَارِيءِ هَذَا الْكِتَابِ أَنْ يُدِيمَ النَّظَرَ فِيهِ مِنْ غَيْرِ ضَجَرٍ ، وَيَلْتَمِسَ جَوَاهِرَ مَعَانِيهِ، وَلَا يَظُنَّ أَنَّ نَتِيجَتَهُ إِنَّمَا هِيَ الْإِخْبَارُ عَنْ حِيلَةٍ بِهِمَتَيْنِ، أَوْ مُحَاوَرَةٍ سَبْعَ لُتُورٍ فَيَنْصَرِفَ بِذَلِكَ عَنِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ ، وَيَكُونَ مَثَلُهُ مَثَلُ الصَّيَّادِ الَّذِي كَانَ فِي بَعْضِ الْخُلُجَانِ يَصِيدُ فِيهِ السَّمَكَ فِي زَوْزِقٍ، فَرَأَى ذَاتَ يَوْمٍ فِي عَقِيقِ الْمَاءِ صَدْفَةً تَتَلَأُلُأُ حُسْنًا، فَتَوَهَّمَهَا جَوْهَرًا لَهُ قِيَمَةٌ، وَكَانَ قَدْ أَلْقَى شَبَكَّتَهُ فِي الْبَحْرِ، فَأَشْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قُوَّتَ يَوْمِهِ، فَخَلَّاهَا، وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ لِيَأْخُذَ الصَّدْفَةَ، فَلَمَّا أَخْرَجَهَا وَجَدَهَا فَارِغَةً لَا شَيْءَ فِيهَا مِمَّا ظَنَّ؛ فَتَدِمَ عَلَى تَرْكِ مَا فِي يَدِهِ لِلطَّمَعِ، وَتَأَسَّفَ عَلَى مَا فَاتَهُ^(٣).

(١) فتنازعوه : تقاسموه . وتحلّيهما : إفلاسهما . الرحم : القرابة .

(٢) موسرًا : غنيا . إمساكه : ضبطه . القيام عليه : تدبيره . لم يلبث : يبطئ . أي سريعا ما يتسرب إليه التلف . ساطرهما : قاسمهما .

(٣) من غير ضجر : أي يكون صابرا راضيا . جواهر معانيه : معانيه الغالية النفيسة كالجواهر . الخُلُجَان : جمع خليج وهو امتداد من الماء متوغل في اليابس ، والنهر يقطع من النهر الكبير إلى جهة ينتفع به . عقيق الماء : مسيله .

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الثَّانِي تَنَحَّى عَنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ ، وَأَلْقَى شَبَكَّتَهُ فَأَصَابَ حُوتًا صَغِيرًا ، وَرَأَى
أَيْضًا صَدَفَةً سَنِيَّةً فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا ، وَسَاءَ ظَنُّهُ بِهَا فَتَرَكَهَا . وَاجْتَاَزَ بِهَا بَعْضُ الصَّيَّادِينَ ، فَأَخَذَهَا
فَوَجَدَ فِيهَا دُرَّةً تُسَاوِي أَمْوَالًا^(١) . وَكَذَلِكَ الْجُهَّالُ عَلَى إِغْفَالٍ أَمْرٍ التَّفَكُّرِ فِي هَذَا الْكِتَابِ
وَالِاغْتِرَارِ بِهِ وَتَرْكِ الْوُقُوفِ عَلَى أَسْرَارِ مَعَانِيهِ وَالْأَخْذِ بِظَاهِرِهِ دُونَ الْأَخْذِ بِبَاطِنِهِ .

وَمَنْ صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى النَّظَرِ فِي أَبْوَابِ الْهَزْلِ مِنْهُ ، فَهُوَ كَرَجُلٍ أَصَابَ أَرْضًا طَيِّبَةً حُرَّةً ، وَحَبًّا
صَحِيحًا فَزَرَعَهَا وَسَقَاهَا ، حَتَّى إِذَا قَرُبَ خَيْرُهَا تَشَاغَلَ عَنْهَا بِجَمْعِ مَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرِ ، وَقَطَعَ
الشُّوْكَ فَأَهْلَكَ بِتَشَاغُلِهِ مَا كَانَ أَحْسَنَ فَايِدَةٍ ، وَأَجْمَلَ عَائِدَةٍ^(٢) .

أغراض هذا الكتاب وأهدافه

وَيَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ فِي هَذَا الْكِتَابِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَغْرَاضٍ : أَحَدُهَا : مَا قُصِدَ فِيهِ إِلَى
وَضْعِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْبَهَائِمِ غَيْرِ النَّاطِقَةِ مِنْ مُسَارَعَةِ أَهْلِ الْهَزْلِ مِنَ الشُّبَّانِ إِلَى قِرَائَتِهِ فَتُسْتَمَالَ بِهِ
قُلُوبُهُمْ ؛ لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْغَرَضُ بِالنَّوَادِرِ مِنْ حِيَلِ الْحَيَوَانَاتِ .

وَالثَّانِي : إِظْهَارُ خَيَالَاتِ الْحَيَوَانَاتِ بِصُنُوفِ الْأَصْبَاغِ وَالْأَلْوَانِ ، لِيَكُونَ أُنْسًا لِقُلُوبِ الْمُلُوكِ ،
وَيَكُونَ حِرْصُهُمْ عَلَيْهِ أَشَدَّ لِلزُّهْمَةِ فِي تِلْكَ الصُّورِ .

وَالثَّالِثُ : أَنْ يَكُونَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ فَيَتَّخِذُهُ الْمُلُوكُ وَالسُّوْقَةُ فَيَكْثُرَ بِذَلِكَ انْتِسَاخُهُ وَلَا يَتَّعِلَّ
فَيَخْلُقَ عَلَى مُرُورِ الْأَيَّامِ ، وَلِيَتَنَفَّعَ بِذَلِكَ الْمُصَوِّرُ وَالتَّائِيخُ أَبَدًا .

وَالْغَرَضُ الرَّابِعُ : وَهُوَ الْأَقْصَى مَخْصُوصٌ بِالْفَيْلَسُوفِ^(٣) خَاصَّةً .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُقَفِّعِ : لَمَّا رَأَيْتُ أَهْلَ فَارِسَ قَدْ فَسَّرُوا هَذَا الْكِتَابَ مِنَ الْهِنْدِيَّةِ إِلَى الْفَارِسيَّةِ
وَالْحَقُّوْا بِهِ بَابًا وَهُوَ بَابُ بَرَزَوِيهِ الطَّبِيبِ ، وَلَمْ يَذْكُرُوا فِيهِ مَا ذَكَرْنَا فِي هَذَا الْبَابِ لِمَنْ أَرَادَ قِرَاءَتَهُ ،
وَأَقْتَبَسَ غُلُومِهِ وَقَوَائِدِهِ ، وَضَعْنَا لَهُ هَذَا الْبَابَ ، فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ تُرْشِدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى !

(١) تنحى : اعتزل وترك . سنيّة : قيمة . واجتاز : مر .

(٢) الأخذ بظاهرها : الاعتماد عليه . حرة : لا رمل فيها . عائدة : منفعة .

(٣) الفيلسوف : المحب للحكمة الذي لا يعتمد على الظاهر بل يفكر في بواطن الأمور ، وما وراء الظواهر .

بَابُ

بَرْزَوِيهِ لِبَرْزُجَنْهَرِ بْنِ الْبَخْتِكَانِ

قَالَ بَرْزَوِيهِ بْنُ أَزْهَرَ رَأْسُ أَطِبَّاءِ فَارَسَ وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى انْتِسَاخَ هَذَا الْكِتَابِ، وَتَرْجَمَهُ مِنْ كُتُبِ الْهِنْدِ، (وَقَدْ مَضَى ذِكْرُ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ) :

إِنَّ أَبِي كَانَ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ، وَكَانَتْ أُمِّي مِنْ عُظَمَاءِ ثُبُوتِ الزَّمَانَةِ، وَكَانَ مُنْشِئِي فِي نَعْمَةٍ كَامِلَةٍ، وَكُنْتُ أَكْرَمَ وَلَدِ أَبِيَّ عَلَيْهِمَا، وَكَانَا بِي أَشَدَّ اخْتِطَافًا مِنْ دُونِ إِخْوَتِي^(١). حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ سَبْعَ سِنِينَ، أَسْلَمَانِي إِلَى الْمُؤَدَّبِ، فَلَمَّا حَدَّثْتُ الْكِتَابَةَ، شَكَرْتُ أَبِيَّ، وَنَظَرْتُ فِي الْعِلْمِ، فَكَانَ أَوَّلُ مَا ابْتَدَأْتُ بِهِ، وَحَرَصْتُ عَلَيْهِ، عِلْمُ الطَّبِّ ؛ لِأَنِّي كُنْتُ عَرَفْتُ فَضْلَهُ فَأَقَمْتُ فِي تَعْلِيمِهِ سَبْعَ سِنِينَ، وَكُلَّمَا أَزْدَدْتُ مِنْهُ عِلْمًا، أَزْدَدْتُ عَلَيْهِ حِرْصًا، وَلَهُ أَتْبَاعًا حَتَّى أَحْطَتْ مِنْهُ بِعِلْمٍ وَافِرٍ، وَقَدَرْتُ عَلَى غَوَامِضِهِ^(٢).

فَلَمَّا هَمَّتُ نَفْسِي بِمُدَاوَةِ الْمَرْضَى، وَعَزَمْتُ عَلَى ذَلِكَ، أَمَرْتُهَا، ثُمَّ خَيَّرْتُهَا بَيْنَ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي يَطْلُبُهَا النَّاسُ، وَفِيهَا يَرْعَبُونَ، وَلَهَا يَشْعُونَ، فَقُلْتُ : أَيُّ هَذِهِ الْخِلَالِ أَتَّبِعِي فِي عِلْمِي؟ وَأَيُّهَا أُخَرَى بِي، فَأَذْرِكُ مِنْهُ حَاجَتِي؟! أَلْمَالُ أَمْ الذِّكْرُ أَمْ اللَّذَاتُ، أَمْ الْآخِرَةُ^(٣)؟

وَكُنْتُ وَجَدْتُ فِي كُتُبِ الطَّبِّ أَنَّ أَفْضَلَ الْأَطِبَّاءِ مَنْ وَاظَبَ عَلَى طِبِّهِ، لَا يَتَّبِعِي إِلَّا أَجْرَ الْآخِرَةِ. فَرَأَيْتُ أَنَّ أَطْلُبَ الْإِسْتِغَالَ بِالطَّبِّ ابْتِغَاءَ الْآخِرَةِ، وَرَجَاءَ أَجْرِ الْمُتَقَلِّبِ، لَا أَتَّبِعِي مُكَافَأَةَ الدُّنْيَا وَلَا تَعَجِيلَهَا؛ لِقَلَّ أَكُونَ كَالتَّاجِرِ الَّذِي بَاعَ يَاقُوتَةً ثَمِينَةً، كَانَ يُصِيبُ بِثَمَنِهَا غِنَى الدَّهْرِ، بِخَرْزَةِ لَا تُسَاوِي شَيْئًا؛ مَعَ أَنِّي قَدْ وَجَدْتُ فِي كُتُبِ الْأَوَّلِينَ: أَنَّ الَّذِي يَتَّبِعِي بِطِبِّهِ أَجْرَ الْآخِرَةِ لَا يَنْقُصُهُ ذَلِكَ حِطُّهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَنَّ مَثْلَهُ مِثْلُ الزَّارِعِ الَّذِي يَتَعَذَّرُ حَبَّهُ فِي الْأَرْضِ، وَيَعْمُرُهَا ابْتِغَاءَ الزَّرْعِ، لَا ابْتِغَاءَ الْعُشْبِ، ثُمَّ هِيَ لَا مُحَالَةَ نَابَتْ فِيهَا أَلْوَانُ الْعُشْبِ مَعَ نَاصِرِ الزَّرْعِ^(٤).

فَأَقْبَلْتُ عَلَى مُدَاوَةِ الْمَرْضَى ابْتِغَاءَ أَجْرِ الْآخِرَةِ، فَلَمْ أَدْعُ مَرِيضًا أَرْجُو لَهُ الْبَرَاءَ، وَآخَرَ لَا أَرْجُو

(١) المقاتلة: أي المقاتلين من رجال الجيش. الزمزمة: طائفة معروفة عندهم. نعمة كاملة: نشأة منعمة.

(٢) أسلماني: سلماني. خذفت الكتابة: تعلمتها وصرت حاذقا ماهرا فيها. غوامضه: ما غمض وخفى على غيره.

(٣) أمرتها: شاورتها واستطلعت رأيها وأمرها. أخرى: أولى.

(٤) المتقلب: المصير والنهاية والعاقبة. ويعمرها: ويضليحها. لا محالة: لا بُد. ألوان: أنواع.

لَهُ ذَلِكَ، إِلَّا أَنِّي أَطْمَعُ أَنْ يَخْفَ عَنْهُ بَعْضُ الْمَرَضِ إِلَّا بِالْعُتْ فِي مُدَاوَاتِهِ جَهْدِي. وَمَنْ قَدَرْتُ عَلَى الْقِيَامِ عَلَيْهِ قُمْتُ عَلَيْهِ بِنَفْسِي، وَمَنْ لَمْ أَقْدِرْ عَلَى الْقِيَامِ عَلَيْهِ، وَصَفْتُ لَهُ مَا يَصْلُحُ، وَأَعْطَيْتُهُ مِنَ الدَّوَاءِ مَا يَتَعَالَجُ بِهِ، وَأَمَرْتُهُ بِالَّذِي يَنْبَغِي، وَلَمْ أَرِدْ مِمَّنْ فَعَلْتُ مَعَهُ ذَلِكَ جَزَاءً وَلَا مُكَافَأَةً، وَلَمْ أَغْبِطْ أَحَدًا مِنْ نُظَرَائِي الَّذِينَ هُمْ مِثْلِي فِي الْعِلْمِ، وَلَا مَنْ هُمْ فَوْقِي فِي الْجَاهِ وَالْمَالِ وَغَيْرِهِمَا مِمَّا لَا يَعُودُ بِصَلَاحٍ وَلَا حُسْنِ سِيرَةٍ قَوْلًا وَلَا عَمَلًا^(١).

وَلَمَّا كَانَتْ نَفْسِي تَتَوَقَّعُ إِلَى ذَلِكَ، وَتُنَازِعُنِي فِي أَنْ تَنَالَ مِثْلَ مَنَالِهِمْ، كُنْتُ آتِي لَهَا إِلَّا الْخُصُومَةَ، وَأَقُولُ لَهَا: يَا نَفْسِ، أَمَا تَعْرِفِينَ نَفْعَكَ مِنْ ضُرِّكِ؟! أَلَا تَنْتَهِينَ عَنْ طَلَبِ مَا لَا يَنَالُهُ أَحَدٌ إِلَّا قَلَّ انْتِفَاعُهُ بِهِ، وَكَثُرَ عَنَاؤُهُ فِيهِ، وَاشْتَدَّتْ الْمُتُونَةُ عَلَيْهِ، وَعَظُمَتِ الْمَشَقَّةُ لَدَيْهِ بَعْدَ فِرَاقِهِ؟! يَا نَفْسِي، أَمَا تَذْكُرِينَ مَا بَعْدَ هَذِهِ الدَّارِ فَيُنْشِئُكَ مَا تَشْرَهِينَ إِلَيْهِ مِنْهَا^(٢)!.

أَلَا تَسْتَحْسِنِينَ مِنْ مُشَارَكَةِ الْفُجَّارِ فِي حُبِّ هَذِهِ الْعَاجِلَةِ الْفَانِيَةِ، الَّتِي مَنْ كَانَ فِي يَدِهِ مِنْهَا شَيْءٌ فَلَيْسَ لَهُ، وَلَيْسَ يَبْقَى عَلَيْهِ، فَلَا يَأْلُفُهَا إِلَّا الْمَغْرُورُونَ الْجَاهِلُونَ؟! يَا نَفْسِي، انْظُرِي فِي أَمْرِكَ، وَانْصَرِفِي عَنْ هَذَا السَّفَهَةِ، وَأَقْبِلِي بِقُوَّتِكَ وَسَعْيِكَ عَلَى تَقْدِيمِ الْخَيْرِ، وَإِيَّاكَ وَالتَّسْوِيفِ، وَادْكُرِي أَنَّ هَذَا الْجَسَدَ مَوْجُودٌ لآفَاتٍ، وَأَنَّهُ مَمْلُوءٌ أَخْلَاطًا فَاسِدَةً قَدِيرَةٌ مُتَعَادِيَةٌ مُتَغَالِبَةٌ، تَعْقِدُهَا الْحَيَاةُ، وَالْحَيَاةُ إِلَى نَفَادٍ كَالصَّنَمِ الْمُفْصَلَةِ أَعْضَاؤُهُ، إِذَا رُكِبَتْ وَوُضِعَتْ، جَمَعَهَا فِي مَوَاضِعِهَا مِسْمَارٌ وَاحِدٌ، يُمَسِّكُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ، فَإِذَا أُخِذَ ذَلِكَ الْمِسْمَارُ تَسَاقَطَتْ تِلْكَ الْأَوْصَالُ^(٣)!!.

يَا نَفْسِي، لَا تَعْتَرِزِي بِصُحْبَةِ أَحِبَّائِكَ وَخِلَائِكَ، وَلَا تَحْرِصِي عَلَى ذَلِكَ كُلِّ الْحِرْصِ فَإِنَّ صُحْبَتَهُمْ عَلَى مَا فِيهَا مِنَ التَّهَجُّجَةِ وَالشُّرُورِ كَثِيرَةٌ الْمُتُونَةُ وَالْأَذَى، وَغَاقِبَةُ ذَلِكَ الْفِرَاقِ!!، وَمَثَلُ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي جِدَّتِهَا لِسُخُونَةِ الْمَرَقِ وَلَذَعِهِ، فَإِذَا قَدِمَتْ صَارَتْ وَقُودًا فِي النَّارِ! يَا نَفْسِي، لَا يَحْمِلَنَّكَ أَهْلُكَ وَأَقَارِبُكَ عَلَى جَمْعِ مَا تَهْلِكُ فِيهِ إِرَادَةً صِلَتِهِمْ، فَإِذَا أَنْتِ كَالدُّخَانِ الْأَرَجَةِ الَّتِي تَحْتَرِقُ، وَيَذْهَبُ آخَرُونَ بِرِيحِهَا^(٤)!.

(١) البُزء: الشفاء. القيام عليه: ملازمته وإحاطته برعايته، والقيام بشأنه. أغبط: أتمنى مثل حاله. نُظَرَائِي: أمثالي.

(٢) تتوق: تشاقق. وتنازعني: تجاذبني. أبى: أرفض ولا أريد. الخصومة: المخاصمة. المتونة: الثقل والشدة. تشرهين: تحرصين عليه حرصاً شديداً.

(٣) العاجلة: الدنيا. السُّفَه: الخفة والطيش. التسويف: التأخير والتأجيل والبطال. الأوصال: الأعضاء.

(٤) خلانك: أصدقاؤك. جمع خليل. المتونة: التكاليف. في جذتها: وهي جديدة. كانت المغارف تصنع من الخشب كالملاعق، كما كان في اليابان. صلتهم: أي الإحسان إليهم. الدُّخنة: نوع من الطيب. الأرجة: ذات الأربع وهو الرائحة الطيبة العطرة.

يَا نَفْسِي، لَا تَوَكَّنِي إِلَى هَذِهِ الدَّارِ الْفَانِيَةِ وَلَا تَعْتَرِّي بِهَا طَمَعًا فِي الْبَقَاءِ وَالْمَنْزِلَةِ الَّتِي يَنْظُرُ إِلَيْهَا أَهْلُهَا فَكَأَيِّ مَمْنٍ لَا يُنْصِرُ صِغَرًا مَا يَسْتَعْظِمُ، وَحَقَارَتُهُ حَتَّى يُفَارِقَهُ كَشَعِرِ الرَّأْسِ الَّذِي يَخْدُمُهُ صَاحِبُهُ، وَيُكْرِمُهُ مَا دَامَ عَلَى رَأْسِهِ فَإِذَا فَارَقَ رَأْسَهُ اسْتَقْدَرَهُ وَرَفَضَهُ ! يَا نَفْسِي، لَا تَمْلِي مِنْ عِيَادَةِ الْمَرْضَى وَمُدَاوَاتِهِمْ، وَاعْتَبِرِي كَيْفَ يَجْهَدُ الرَّجُلُ أَنْ يُفَرِّجَ عَنْ مَضِيمٍ وَاحِدٍ كُرْبَةً وَاحِدَةً وَيَسْتَنْقِذَهُ مِنْهَا رَجَاءَ الْأَجْرِ. فَكَيْفَ بِالطَّبِيبِ الَّذِي يَفْعَلُ كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ مَعَ كَثِيرِينَ. إِنَّ هَذَا لَخَلِيقٌ أَنْ يَعْظُمَ رَجَاؤُهُ وَيُوثِقَ مِنْهُ بِحُسْنِ الثَّوَابِ^(١).

يَا نَفْسِي لَا يَتَعَدَّ عَلَيْكَ أَمْرُ الْآخِرَةِ فَتَمْلِي إِلَى الْعَاجِلَةِ فِي اسْتِعْجَالِ الْقَلِيلِ، وَيَتَعَ الْكَثِيرِ بِالْيَسِيرِ؛ كَالثَّاجِرِ الَّذِي كَانَ لَهُ مِلءُ نَيْتٍ مِنَ الصُّنْدَلِ، فَقَالَ: إِنَّ بَعْثَهُ وَزَنَا طَالَ عَلَيَّ، فَبَاعَهُ جَزَافًا بِأَبْخَسِ الثَّمَنِ. وَقَدْ وَجَدْتُ آراءَ النَّاسِ مُخْتَلِفَةً، وَأَهْوَاءَهُمْ مُتَبَايِنَةً وَكُلٌّ عَلَى كُلٍّ عَادٍ، وَلَهُ عَدُوٌّ وَمُعْتَابٌ، وَفِيهِ وَاقِعٌ، وَلِقَوْلِهِ مُخَالَفٌ^(٢).

مثل الرجل واللس

وهو مثل المصدق المغتر بما لا يكون !

فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ لَمْ أَجِدْ إِلَى مُتَابَعَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ سَبِيلًا، وَعَرَفْتُ أَنِّي إِنْ صَدَقْتُ أَحَدًا مِنْهُمْ لَا عِلْمَ لِي بِحَالِهِ، كُنْتُ فِي ذَلِكَ كَالْمُصَدِّقِ الْمُخْدُوعِ، الَّذِي زَعَمُوا فِيهِ أَنَّ سَارِقًا عَلَا ظَهَرَ نَيْتٍ رَجُلٍ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ، وَكَانَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَاسْتَيْقِظَ الرَّجُلُ مِنْ وَطْئِهِمْ، فَأَيَقَظَ أَمْرَأَتَهُ فَأَعْلَمَهَا بِذَلِكَ، وَقَالَ لَهَا: رُؤْيَا إِنِّي لِأَحْسَبُ اللَّصُوصَ عَلَوْا عَلَى الْبَيْتِ، فَأَيَقِظْنِي بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ اللَّصُوصُ، وَقُولِي: أَلَا تُخْبِرُنِي أَيُّهَا الرَّجُلُ عَنْ أَمْوَالِكَ هَذِهِ الْكَثِيرَةِ، وَكُنُوزِكَ الْعَظِيمَةِ، مِنْ أَيْنَ جَمَعْتَهَا؟! فَإِذَا امْتَنَعْتُ عَلَيْكَ فَأَلْحِي عَلَيَّ فِي السُّؤَالِ، وَأَسْتَحْلِفْنِي، حَتَّى أَقُولَ لَكَ^(٣).

فَفَعَلَتِ الْمَرْأَةُ ذَلِكَ، وَسَأَلَتْهُ كَمَا أَمَرَهَا، وَأَنْصَتَتِ اللَّصُوصُ إِلَى سَمَاعِ قَوْلِهَا، فَقَالَ لَهَا الرَّجُلُ: أَيُّهَا الْمَرْأَةُ قَدْ سَأَلْتُ الْقَدْرَ إِلَى رِزْقٍ وَاسِعٍ، وَمَالٍ كَثِيرٍ، فَكُلِّي وَاشْرَبِي، وَلَا تَسْأَلِي عَنْ

(١) فَكَأَيِّ: فكم، فكثير. استقدره: وجده قدرًا. عيادة: زيارة. مضيم: ذليل حل به الضيم. كربة: شدة.

(٢) استعجال القليل: طلب العجلة. الصنديل: حب طيب الرائحة. جزافًا: بلا وزن. بأبخص الثمن: أنقصه وأقله. متباينة: مختلفة. عادٍ: معتد ظالم. مغتاب: قاذع في عرضه وهو غائب. واقع: ساب له.

(٣) من وطئهم: من حركة أقدامهم. رويدًا: مهلاً. امتنعت عليك: لم أجبك، ولم أرد عليك.

أَمْرٍ إِنْ أَخْبَرْتُكَ بِهِ لَمْ أَمِنْ أَنْ يَسْمَعَهُ أَحَدٌ ؛ فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ مَا أَكْرَهُ وَتَكْرَهِيْن!! فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ :
 أَخْبِرْنِي أَتُهَا الرَّجُلُ ، فَلَعَمْرِي مَا يَقْرُبُنَا أَحَدٌ يَسْمَعُ كَلَامَنَا ؛ فَقَالَ لَهَا : فَإِنِّي مُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجْمَعْ
 هَذِهِ الْأَمْوَالُ إِلَّا مِنْ السَّرِقَةِ ! قَالَتْ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ، وَمَا كُنْتَ تَصْنَعُ وَأَنْتَ عِنْدَ النَّاسِ مِنَ
 الْبَرَةِ الصَّالِحِ ؟ قَالَ : ذَلِكَ لِعِلْمِ أَصَبْتُهُ فِي السَّرِقَةِ وَكَانَ الْأَمْرُ عَلَيَّ يَسِيرًا ، وَأَنَا آمِنٌ مِنْ أَنْ
 يَتَّهَمَنِي أَحَدٌ ، أَوْ يَرْتَابَ بِي ^(١) ! قَالَتْ : فَأَذْكُرْ لِي ذَلِكَ . قَالَ : كُنْتُ أَذْهَبُ فِي اللَّيْلَةِ الْمُقْمِرَةِ أَنَا
 وَأَصْحَابِي ، حَتَّى أَعْلُو دَارَ بَعْضِ الْأَغْنِيَاءِ مِثْلَنَا ، فَأَنْتَهِيَ إِلَى الْكُوَّةِ الَّتِي يَدْخُلُ مِنْهَا الضُّوءُ ، فَأَرْقِي
 بِهَذِهِ الرُّقِيَّةِ ، وَهِيَ : شَوْلَمْ شَوْلَمْ سَبْعَ مَرَّاتٍ ، وَأَعْتَنِقُ الضُّوءَ ، فَلَا يُجَسُّ بِوُقُوعِي أَحَدٌ ، وَلَا يَتَقَى
 فِي الْبَيْتِ شَيْءٌ إِلَّا أَنَانِي قَاصِدًا مُطِيعًا ، فَلَا أَدْعُ مَالًا وَلَا مَتَاعًا إِلَّا أَخَذْتُهُ ثُمَّ أُعِيدُ الْعَرِيْمَةَ أَضْضًا ،
 وَأَعْتَنِقُ الضُّوءَ فَيَجِدُنِي ؛ فَأَصْعَدُ إِلَى أَصْحَابِي ، فَنَمُضِي سَالِمِينَ آمِنِينَ ، وَلَيْسَ عَلَى مَنْ يَفْعَلُ
 ذَلِكَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ لَهُ جِرَاةٌ ، فَيَسْلَمَ نَفْسَهُ إِلَى حِبَالِ الضُّوءِ ، وَيَتَعَلَّقَ بِهَا ، وَيَنْزِلَ عَلَيْهَا ^(٢) !

فَأَكْتُمِي ذَلِكَ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُعْلِمِيهِ لِأَحَدٍ . فَلَمَّا سَمِعَ اللَّصُوصُ ذَلِكَ ، قَالُوا : قَدْ ظَفَرْنَا اللَّيْلَةَ بِمَا
 نُرِيدُ مِنَ الْمَالِ ! ثُمَّ إِنَّهُمْ أَطَالُوا الْمَكْتَّ ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ صَاحِبَ الدَّارِ وَزَوْجَتَهُ قَدْ هَجَعَا ، وَكَانَتْ
 تِلْكَ اللَّيْلَةُ مُقْمِرَةً ، وَلِلْبَيْتِ كُوَّةٌ نَافِذٌ مِنْهَا الضُّوءُ ؛ فَقَامَ قَائِدُهُمْ إِلَى مَدْخَلِ الضُّوءِ ، وَقَالَ : شَوْلَمْ
 شَوْلَمْ سَبْعَ مَرَّاتٍ ثُمَّ أَعْتَنِقَ الضُّوءَ لِيَنْزِلَ إِلَى أَرْضِ الْمَنْزِلِ ، فَوَقَعَ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ مُنْكَسًا ^(٣) .

فَوَثَبَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ بِهَرَاوَتِهِ ، وَقَالَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا الْمُصَدِّقُ الْمَخْدُوعُ الْمُغْتَرَّبُ بِمَا لَا يَكُونُ
 أَبَدًا ، وَهَذِهِ ثَمَرَةُ رُقِيَّتِكَ ، وَعَاقِبَةُ مَنْ يُصَدِّقُ كُلَّ مَا يَسْمَعُ .

فَلَمَّا تَحَرَّزَتْ مِنْ تَصْدِيقِ مَا لَا يَكُونُ ، وَلَمْ أَمِنْ إِنْ صَدَّقْتُهُ أَنْ يُوقِعَنِي فِي تَهْلُكَةٍ ، عُدْتُ إِلَى
 الْبَحْثِ عَنِ الْأَذْيَانِ ، وَالْتِمَاسِ الْعَدْلِ مِنْهَا ، فَلَمْ أَجِدْ عِنْدَ أَحَدٍ مِمَّنْ كَلَّمْتُهُ جَوَابًا فِيمَا سَأَلْتُهُ عَنْهُ
 فِيهَا ، وَلَمْ أَرْ فِيمَا كَلَّمُونِي بِهِ شَيْئًا يَحِقُّ لِي فِي عَقْلِي أَنْ أُصَدِّقَ بِهِ ، وَلَا أَنْ أَتَّبِعُهُ . فَقُلْتُ لَمَّا لَمْ
 أَجِدْ ثِقَةً أَخْذُ مِنْهُ ، فَالْأَرَأَيْ أَنْ أَلْزَمَ دِينَ آبَائِي وَأَجْدَادِي الَّذِي وَجَدْتُهُمْ عَلَيْهِ ، وَهَمَمْتُ بِذَلِكَ ^(٤) .

ثُمَّ التَّمَسَّسْتُ لِنَفْسِي مَخْرَجًا فَقُلْتُ : إِنْ كَانَ مَنْ يَفْعَلُ هَذَا مَعْذُورًا ، فَإِنَّ الَّذِي يَجِدُ أَبَاهُ
 سَاجِرًا وَيَجْرِي عَلَى مِثَالِهِ ، يَكُونُ غَيْرَ مَلُومٍ مَعَ أَشْبَاهِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَحْتَمِلُهُ الْعَقْلُ .

(١) فَلَعَمْرِي : قسمًا بعمري . البررة : جمع باز الصالحين . يرتاب لي : يشك في .

(٢) أَنْتَهِيَ : أَصْلُ . الْكُوَّةُ : النَّافِذَةُ . أَرَقِي : أَقْرَأُ وَأَرْدَدُ كَمَا يَفْعَلُ السَّحَرَةُ . وَأَعْتَنِقُ الضُّوءَ : أَحْتَضُهُ وَأَمْسِكُ بِهِ . الْعَرِيْمَةُ : الرُّقِيَّةُ .

(٣) الْمَكْتَّ : الْإِنْتِظَارَ وَالْبَقَاءَ . هَجَعَا : نَامَا . أُمُّ رَأْسِهِ : دِمَاغُهُ . مُنْكَسًا : مُتَقَلِّبًا .

(٤) بَهْرَاوَتُهُ : بَعْصَاءُ . الْعَدْلُ مِنْهَا : الْعَادِلُ الصَّالِحُ .

وَذَكَرْتُ فِي ذَلِكَ قَوْلَ رَجُلٍ كَانَ فَاحِشَ الْأَكْلِ فَعُوتِبَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: كَذَلِكَ كَانَ أَكْلُ أَبِي وَجَدِّي، فَلَمَّا ذَهَبْتُ أَلْتَمِسُ الْعُذْرَ لِنَفْسِي فِي لُزُومِ دِينِ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ، وَلَمْ أَجِدْ لَهَا عَلَى الثُّبُوتِ عَلَى دِينِ الْأَبَاءِ طَاقَةً، بَلْ وَجَدْتُهَا تُرِيدُ أَنْ تَتَفَرَّغَ لِلْبَحْثِ عَنِ الْأَدْيَانِ، وَالْمَسْأَلَةِ عَنْهَا، وَلِلنَّظَرِ فِيهَا، هَجَسَ فِي قَلْبِي، وَخَطَرَ عَلَى بَالِي قُرْبِ الْأَجْلِ، وَسُرْعَةُ انْقِطَاعِ الدُّنْيَا، وَاعْتِبَاطُ أَهْلِهَا، وَتَحَرُّمُ الدَّهْرِ حَيَاتِهِمْ^(١).

فَفَكَّرْتُ فِي ذَلِكَ، وَقُلْتُ أَمَا أَنَا فَالْعَلِي قَدْ قَرُبَ أَجْلِي، وَحَانَتْ نُقْلَتِي، وَقَدْ كُنْتُ أَعْمَلُ أُمُورًا مَحْمُودَةً، أَرْجُو أَنْ تَكُونَ أَصْلَحَ الْأَعْمَالِ، وَلَعَلَّ تَرُدُّدِي شَغَلَنِي عَنْ خَيْرِ كُنْتُ أَعْمَلُهُ، فَيَكُونَ أَجْلِي دُونَ مَا تَطْمَحُ إِلَيْهِ نَفْسِي، وَيَطْلُبُهُ أَمَلِي، وَيُصِيبُنِي مَا أَصَابَ الرَّجُلَ الَّذِي رَعِمُوا أَنَّهُ تَوَاطَأَ مَعَ خَادِمٍ فِي بَيْتٍ لِأَحَدِ الْأَغْنِيَاءِ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ الْبَيْتَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ يَغِيبُ أَهْلُهُ، فَيَجْمَعُ لَهُ الْخَادِمُ مِمَّا فِي الْبَيْتِ، فَيَذْهَبُ بِهِ وَيَبِيعُهُ وَيَتَشَاطَرَا ثَمَنَهُ؛ فَاتَّفَقَ ذَاتَ لَيْلَةٍ أَنْ غَابَ أَهْلُ الْبَيْتِ، وَبَقِيَ الْخَادِمُ وَحْدَهُ، فَانْفَذَ فَأَخْبَرَ صَاحِبَهُ، فَأَقْبَلَ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ، وَأَخَذَ فِي الْجَمْعِ مِمَّا فِيهِ^(٢).

وَبَيْنَا هُمَا يَجْمَعَانِ إِذْ قَرَعَ الْبَابُ، وَكَانَ لِلْبَيْتِ بَابٌ آخَرُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ الرَّجُلُ، وَكَانَ ذَلِكَ الْبَابُ عِنْدَ جُبِّ الْمَاءِ، فَقَالَ الْخَادِمُ لِلرَّجُلِ - عَلَى عَجَلٍ مِنْهُ وَخِيفَةٍ - : بَادِرْ أَخْرِجْ مِنَ الْبَابِ الَّذِي عِنْدَ جُبِّ الْمَاءِ، وَأَشَارَ لَهُ إِلَى مَوْضِعِهِ، فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ، فَوَجَدَ الْبَابَ وَلَكِنْ لَمْ يَجِدْ جُبَّ الْمَاءِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ، وَقَالَ لَهُ: أَمَا الْبَابُ فَوَجَدْتُهُ؟ وَأَمَا الْجُبُّ فَلَمْ أَجِدْهُ^(٣).

فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَاتِقُ، وَمَا تَصْنَعُ بِالْجُبِّ؟ أَنَا ذَلِكَ بِه لِتَعْرِفَ الْبَابَ، فَإِذَا عَرَفْتَهُ فَأَذْهَبْ عَاجِلًا، فَقَالَ لَهُ: لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ صِدْقًا؛ فَلِمَ ذَكَرْتَ الْجُبَّ وَلَيْسَ هُوَ هُنَاكَ؟! فَقَالَ لَهُ: وَيَحْكُ أَيُّهَا الْأَحْمَقُ! أَنْجِ بِنَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ الْحَقَّ، وَالتَّرُدُّدُ! فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ أَمْضِي وَقَدْ خَلَطْتُ عَلَيَّ، وَذَكَرْتَ الْجُبَّ وَلَيْسَ هُنَاكَ^(٤)!.

فَلَمْ يَزَلْ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ، حَتَّى دَخَلَ رَبُّ الْبَيْتِ، فَأَخَذَ بِتَلْبِيئِهِ وَأَوْجَعَهُ ضَرْبًا، وَرَفَعَهُ إِلَى السُّلْطَانِ! فَلَمَّا خِفْتُ مِنَ التَّرُدِّدِ، رَأَيْتُ الْأَتَعَرُّضَ لَهُ، وَلَا لِمَا أَتَخَوَّفُ مِنْهُ الْمَكْرُوهَ، وَاقْتَصَرْتُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ تَشْهَدُ بِهِ الْعُقُولُ، وَتَتَّفِقُ عَلَيْهِ أَهْلُ الْأَدْيَانِ، وَيُرَى أَنَّهُ صَوَابٌ وَحَقٌّ؛ فَكَفَفْتُ

(١) فاحش الأكل: يتجاوز الحد فيه. والمسألة عنها: والسؤال. هجس: خطر. قرب الأجل: الموت. واعتباط أهلها: هلاك. وتخرم الدهر حياتهم: استئصال.

(٢) نُقْلَتِي: أي انتقالي من الدنيا إلى الآخرة بالموت. تطمح: تميل. ويتشاطرأ ثمنه: يقسمانه.

(٣) وبينما: جُبِّ: بئر. (٤) الماتق: الأحمق في غبارة. ويحك: وبلك. خلطت عن: أي خلطت الحق بالباطل.

يَدِي عَنِ الضَّرْبِ وَالْقَتْلِ وَالسَّرِقَةِ، وَزَجَرْتُ نَفْسِي عَنِ الْكِبَرِ وَالْعُصْبِ، وَنَزَّهْتُ قَلْبِي عَنِ الْحَقْدِ
وَالْبَغْضِ وَالْخِيَانَةِ، وَصَنْتُ لِسَانِي عَنِ الْكَذِبِ، وَالْبُهْتَانِ، وَالغِيَةِ، وَالنَّمِيمَةِ، وَكُلُّ أَمْرٍ مَكْرُوهٍ،
وَأَصْمَرْتُ فِي نَفْسِي أَلَّا أَبْغِي عَلَى أَحَدٍ، وَلَا أُكْذِبُ بِالْبَغْثِ، وَلَا الْقِيَامَةِ، وَلَا الثَّوَابِ، وَلَا
الْعِقَابِ، وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ^(١)، يُكَافِي عَلَى الْخَيْرِ بِالْخَيْرِ، وَعَلَى الشَّرِّ بِالشَّرِّ، وَأَنْ لَا
يُدَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ وَالْحِسَابِ، وَزَانِلْتُ الْأَشْرَارَ وَحَاوَلْتُ الْجُلُوسَ مَعَ الْأَخْيَارِ بِجَهْدِي، وَزَانِلْتُ كُلًّا
مِنَ الصَّلَاحِ وَالْعِلْمِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ صَاحِبٌ، وَلَا قَرِينٌ، وَوَجَدْتُ مَكْسَبَهُ إِذَا وَفَّقَ اللَّهُ، وَأَعَانَ
يَسِيرًا، وَوَجَدْتُ يَدْلَ عَلَى الْخَيْرِ، وَيُشِيرُ بِالنُّصْحِ فَعَلَ الصَّدِيقُ بِالصَّدِيقِ وَوَجَدْتُهُ لَا يَنْقُصُ عَلَى
الْإِنْفَاقِ مِنْهُ، بَلْ يَزْدَادُ، وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الْإِسْتِعْمَالِ بَلْ يَجِدُ وَيَزْهَوُ، وَيَكْثُرُ، وَوَجَدْتُهُ لَا
خَوْفَ عَلَيْهِ مِنَ السُّلْطَانِ أَنْ يَغْصِبَهُ، وَلَا مِنَ الْآفَاتِ أَنْ تُفْسِدَهُ، وَلَا مِنَ الْمَاءِ أَنْ يُغْرِقَهُ، وَلَا مِنَ
النَّارِ أَنْ تُحْرِقَهُ، وَلَا مِنَ اللَّصُوصِ أَنْ تَسْرِقَهُ، وَلَا مِنَ السَّبَاعِ وَجَوَارِحِ الطَّيْرِ أَنْ تُمْرِقَهُ^(٢).

وَوَجَدْتُ الرَّجُلَ السَّاهِيَّ اللَّاهِيَّ الْمُؤَثِّرَ الْيَسِيرَ، يَنَالُهُ فِي يَوْمِهِ، وَيَغْدَمُهُ فِي غَدِهِ، عَلَى الْكَثِيرِ
الْبَاقِي نَعِيمُهُ، يُصِيبُهُ فِيمَا ذَهَبَتْ فِيهِ أَيَّامُهُ، مَا أَصَابَ التَّاجِرَ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ لَهُ جَوْهَرٌ نَفِيسٌ،
فَاسْتَأْجَرَ لِنَفْسِهِ رَجُلًا فِي الْيَوْمِ عَلَى مِائَةِ دِرْهَمٍ يَذْفَعُهَا إِلَيْهِ، وَأَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ لِيَعْمَلَ، وَإِذَا فِي
نَاحِيَةِ الْبَيْتِ صَنْجٍ مَوْضُوعٌ، فَقَالَ التَّاجِرُ لِلصَّانِعِ: هَلْ تُحَسِّنُ الضَّرْبَ بِالصَّنْجِ قَالَ: نَعَمْ،
وَكَانَ بِضَرْبِهِ مَاهِرًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: ذُنُوكَ الصَّنْجُ؛ فَاسْمِعْنَا ضَرْبَكَ بِهِ^(٣).

فَأَخَذَ الرَّجُلُ الصَّنْجَ، وَلَمْ يَزَلْ يُسْمِعُ التَّاجِرَ الضَّرْبَ الصَّحِيحَ، وَالصَّوْتَ الرَّجِيمَ، وَالتَّاجِرُ
يُشِيرُ بِيَدِهِ وَرَأْسِهِ طَرَبًا، حَتَّى أَمْسَى، فَلَمَّا حَانَ الْغُرُوبُ، قَالَ الرَّجُلُ لِلتَّاجِرِ: مُرْ لِي بِالْأُجْرَةِ، فَقَالَ
لَهُ التَّاجِرُ: وَهَلْ عَمِلْتَ شَيْئًا تَسْتَحِقُّ بِهِ الْأُجْرَةَ؟! فَقَالَ لَهُ: عَمِلْتُ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ، وَأَنَا أَجِيرُكَ، وَمَا
اسْتَعْمَلْتَنِي عَمِلْتُ! وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى اسْتَوْفَى مِنْهُ مِائَةَ الدَّرْهَمِ، وَبَقِيَ جَوْهَرُهُ غَيْرَ مَثْقُوبٍ! فَلَمْ
أَزْدَدْ فِي الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا نَظْرًا، إِلَّا أَرْدَدْتُ فِيهَا زَهَادَةً، وَمِنْهَا هَرَبًا، وَوَجَدْتُ التُّسْكَ هُوَ الَّذِي

(١) بتلبيه: جمع ثيابه عند صدره وعتقه صاحب إياه والجمع تلابيب. رفعه: قدمه. السلطان: الحاكم صاحب السلطة. وزجرت نفسي: منعته. البهتان: التُّقُولُ على الناس بما لم يفعلوه. والغية: ذكرهم بما يكرهون في غيبتهم. البعث: القيامة والحياة الآخرة. الصمد: من أسمائه تعالى ومعناه الدائم. أو الذي يصمد إليه ويرجع في الشدائد.

(٢) المسألة: السؤال. وزايلت الأشرار: فارقتهم. قرين: مصاحب وعشير. ولا يَخْلُقُ: لا يتلى. يغصبه: يأخذه قهراً وظلماً. جوارح الطير: ما يصيد منها.

(٣) المؤثر اليسير: المفضل القليل. ويغدمه: ولا يجده. الصنج: صفيحة مدورة من صُفْرٍ يضرب على أخرى. وصفائح صغيرة مستديرة تثبت في أطراف الدف يدق بها عند الطرب. دونك: أي خذ.

يُمَهِّدُ لِلْمَعَادِ، كَمَا يُمَهِّدُ الْوَالِدُ لَوْلَدِهِ^(١).

وَوَجَدْتُهُ هُوَ الْبَابُ الْمَفْتُوحُ إِلَى التَّعِيمِ الْمُقِيمِ، وَوَجَدْتُ النَّاسِكَ قَدْ تَدَبَّرَ فَعَلَتُهُ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، فَشَكَرَ وَتَوَاضَعَ، وَقَفَعَ فَاسْتَعْنَى، وَرَضِيَ فَلَمْ يَهْتَمْ، وَخَلَعَ الدُّنْيَا فَتَجَا مِنْ الشُّرُورِ، وَرَفَضَ الشَّهَوَاتِ، فَصَارَ طَاهِرًا، وَطَرَحَ الْحَسَدَ، فَوَجِبَتْ لَهُ الْمَحَبَّةُ، وَانْفَرَدَ بِنَفْسِهِ فَكَفَى الْأَحْزَانَ، وَسَخَتْ نَفْسُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَاسْتَعْمَلَ الْعَقْلَ، فَأَبْصَرَ الْعَاقِبَةَ؛ فَأَمِنَ النَّدَامَةَ، وَاعْتَزَلَ النَّاسَ؛ فَسَلِمَ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَخَفْهُمْ^(٢).

فَلَمْ أَرَدْ فِي أَمْرِ النَّسِكَ نَظْرًا إِلَّا أَرَدْتُ فِيهِ رَغْبَةً، حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهِ؛ ثُمَّ تَحَوَّيْتُ أَنْ لَا أَصْبِرَ عَلَى عَيْشِ النَّاسِكَ، وَلَا أَقْوَى عَلَى عُشْرِهِ وَمَشَقَّتِهِ، لِمَا اعْتَدْتُهُ وَغُذِيتُ بِهِ مُنْذُ كُنْتُ وَلِيدًا، وَلَمْ أَمِنْ أَنْ تَرَكَتُ الدُّنْيَا، وَأَخَذْتُ فِي النَّسِكَ أَنْ أَضْعِفَ عَنْ ذَلِكَ، وَأَكُونَ قَدْ رَفَضْتُ أَعْمَالًا كُنْتُ أَرْجُو عَائِدَاتِهَا، وَقَدْ كُنْتُ أَعْمَلُهَا، فَأَنْتَفِعُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، فَيَكُونُ مَثَلِي فِي ذَلِكَ مَثَلُ الْكَلْبِ الَّذِي مَرَّ بِنَهْرٍ، وَفِي فِيهِ ضِلْعٌ؛ فَرَأَى ظِلَّهُ فِي الْمَاءِ، فَأَهْوَى لِيَأْخُذَهَا، فَأَتْلَفَ مَا كَانَ مَعَهُ وَلَمْ يَجِدْ فِي الْمَاءِ شَيْئًا^(٣).

فَهَبْتُ النَّسِكَ مَهَابَةً سَدِيدَةً، وَخِفْتُ مِنَ الصَّبْرِ، وَقَلَّةِ الصَّبْرِ، وَأَرَدْتُ الثَّبُوتَ عَلَى حَالَتِي الَّتِي كُنْتُ عَلَيْهَا. ثُمَّ بَدَأَ لِي أَنْ أَقِيسَ مَا أَخَافُ أَنْ لَا أَصْبِرَ عَلَيْهِ مِنَ الشُّطْفِ وَالضَّبِيقِ وَالْخُشُونَةِ فِي النَّسِكَ، وَمَا يُصِيبُ صَاحِبَ الدُّنْيَا مِنَ الْبَلَاءِ، وَكَانَ عِنْدِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَلَذَاتِهَا إِلَّا وَهُوَ مُتَحَوِّلٌ إِلَى الْأَذَى، وَمَوْلَدٌ لِلْحُزْنِ. فَالدُّنْيَا كَالْمَاءِ الْمِلْحِ الَّذِي لَا يَزْدَادُ شَارِبُهُ شُرْبًا إِلَّا أَزْدَادَ عَطْشًا؛ وَكَالْعَظْمِ الَّذِي يُصِيبُهُ الْكَلْبُ، فَيَجِدُ فِيهِ رِيحَ اللَّحْمِ فَلَا يَزَالُ يَطْلُبُ ذَلِكَ اللَّحْمَ حَتَّى يُدْمِيَ فَاهُ، وَلَا يَنَالُ شَيْئًا مِمَّا طَلَبَ، وَكَالْحِدَاةِ الَّتِي تَظْفَرُ بِالْبُضْعَةِ مِنَ اللَّحْمِ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهَا الطَّيْرُ فَلَا تَزَالُ تَدُورُ وَتَدَابُّ حَتَّى تُعْيِي وَتَعْجِزَ، فَإِذَا تَعَبَتْ أَلْقَتْ مَا مَعَهَا^(٤).

وَكَالْكُوزِ مِنَ الْعَسَلِ الَّذِي فِي أَسْفَلِهِ السَّمُّ الَّذِي يُذَاقُ مِنْهُ حَلَاوَةٌ عَاجِلَةٌ، وَآخِرُهُ مَوْتُ زُعَافٍ، وَكَأَحْلَامِ النَّائِمِ الَّتِي يَفْرُحُ بِهَا الْإِنْسَانُ فِي نَوْمِهِ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ ذَهَبَ الْفَرَحُ، وَكَالْبَرْقِ

(١) الرخيم: اللين السهل. استعملتني: طلبت مني عمله. النسك: التزهد والتعبد. يمهّد: يسهل ويتهيأ الفرصة. للمعاد: للآخرة.
(٢) تدبر فقلته: نظر في عواقبها. بالسكينة: الطمأنينة. وسخّت نفسه: جاد بما عنده وأصبح سخيًا كريما. واعتزل الناس: تنحى عنهم وعاش في عزلة.

(٣) أرجو عائدتها: نعتتها. فأهوى لياخذها: أي انعطف ومال على الماء.

(٤) فهبت: خفت. بدا لي: عرض. الشطف: ضيق العيش وشدة. الملح: ذي الملوحة. يصيبه الكلب: يعثر عليه ويجده. يُدْمِي فَاهُ: يسيل منه الدم. الحداة: طائر من الجوارح ينقض على الجرذان والدواجن والأطعمة وغيرها. البضعة: القطعة. تداب: تتجهّد.

الَّذِي يُضَيُّ سِيرًا، فَيُطْمَعُ بِالنُّورِ، ثُمَّ يَذْهَبُ بَعْتَهُ، وَيَرْجِعُ الظُّلَامَ. وَكَدُودَةُ الْفَزِّ الَّتِي تَنْسُجُ نَهَارًا وَلَيْلًا، وَتَهْلِكُ وَسَطَ نَسِيجِهَا الَّذِي كُلَّمَا زَادَتْ مِنْهُ نَسْجًا زَادَ اسْتِحْكَامًا وَمَنْعًا لَهَا عَنِ الْخُرُوجِ^(١).

فَلَمَّا فَكَّرْتُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ، رَجَعْتُ إِلَى طَلَبِ النَّسْكِ، وَهَزَّنِي الْإِشْتِيَاقُ إِلَيْهِ، وَقُلْتُ: لَا يَلِيقُ لِي أَنْ أَقِيسَ الدُّنْيَا بِالنَّسْكِ إِذَا تَفَكَّرْتُ فِيهَا وَفِي شُرُورِهَا وَأَحْزَانِهَا، ثُمَّ خَاصَمْتُ نَفْسِي إِذْ هِيَ فِي شُرُورِهَا سَارِحَةً، وَقَدْ لَا تَثْبُتُ عَلَى أَمْرِ تَعَزُّمٍ عَلَيْهِ كَقَاضِ سَمْعٍ مِنْ خَصْمٍ وَاحِدٍ، فَحَكَمَ لَهُ، فَلَمَّا حَضَرَ الْخَصْمُ الثَّانِي، عَادَ إِلَى الْأَوَّلِ فَقَضَى عَلَيْهِ.

ثُمَّ نَظَرْتُ فِي الَّذِي أَكَابَهُ مِنْ احْتِمَالِ النَّسْكِ وَصِيقِهِ فَقُلْتُ: مَا أَصْغَرَ هَذِهِ الْمَشَقَّةَ فِي جَانِبِ رُوحِ الْأَبَدِ وَرَاحَتِهِ^(٢)!! ثُمَّ نَظَرْتُ فِيمَا تَشْرُهُ إِلَيْهِ النَّفْسُ الْبَهِيمِيَّةُ مِنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا؛ فَقُلْتُ: مَا أَمَرٌ هَذَا وَأَوْجَعُهُ!! وَهُوَ يَدْفَعُ إِلَى عَذَابِ الْأَبَدِ وَأَهْوَالِهِ. وَكَيْفَ لَا يَسْتَحْلِي الرَّجُلُ مَرَارَةً قَلِيلَةً تَعْقُبُهَا حَلَاوَةٌ طَوِيلَةٌ، وَكَيْفَ لَا تَمُرُّ عَلَيْهِ حَلَاوَةٌ قَلِيلَةٌ تَعْقُبُهَا مَرَارَةٌ دَائِمَةٌ؟! وَقُلْتُ: لَوْ أَنَّ رَجُلًا عَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَعَيشَ مِئَةَ سَنَةٍ، لَا يَأْتِي عَلَيْهِ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِلَّا بُضِعَ مِنْهُ بَضْعَةٌ، غَيْرَ أَنَّهُ يُشْرَطُ لَهُ أَنَّهُ إِذَا اسْتَوْفَى السَّنِينَ الْمِائَةَ نَجَا مِنْ كُلِّ أَلَمٍ وَأَذَى. وَصَارَ إِلَى الْأَمْنِ وَالشُّرُورِ، كَانَ حَقِيقًا أَنْ لَا يَرَى تِلْكَ السَّنِينَ سَيِّئًا. فَكَيْفَ يَأْتِي الصَّبْرَ عَلَى أَيَّامٍ قَلِيلٍ، يَعَيشُهَا فِي النَّسْكِ، وَأَذَى تِلْكَ الْأَيَّامِ قَلِيلٌ يُعْقِبُ خَيْرًا كَثِيرًا؟! أَوْ لَيْسَ أَنَّ الدُّنْيَا كُلُّهَا بَلَاءٌ، وَعَذَابٌ وَالْإِنْسَانُ إِنَّمَا يَتَقَلَّبُ فِي عَذَابِهَا مِنْ حِينَ يُولَدَ إِلَى أَنْ يَسْتَوْفِيَ أَيَّامَ حَيَاتِهِ^(٣)!؟

فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ طِفْلًا ذَاقَ مِنَ الْعَذَابِ أَلْوَانًا إِنْ جَاعَ فَلَيْسَ بِهِ اسْتَطْعَامٌ، أَوْ عَطَشَ فَلَيْسَ بِهِ اسْتِسْقَاءٌ، أَوْ وَجَعَ فَلَيْسَ بِهِ اسْتِغَاثَةٌ، مَعَ مَا يَلْقَى مِنَ الْوَضْعِ وَالْحَمْلِ وَاللَّفِّ وَالذَّهْنِ وَالْمَسْحِ، إِنْ أُنِيمَ عَلَى ظَهْرِهِ لَمْ يَسْتَطِعْ قِيَامًا وَلَا تَقَلُّبًا^(٤).

ثُمَّ يَلْقَى أَصْنَافَ الْعَذَابِ مَا دَامَ رَضِيْعًا، فَإِذَا أَفَلَّتْ مِنْ عَذَابِ الرِّضَاعِ، أَخَذَ فِي عَذَابِ الْأَدَبِ، فَأَذِيقَ مِنْهُ أَلْوَانًا مِنْ غُنْفِ الْمُعَلِّمِ، وَضَجَرِ الدَّرْسِ، وَسَامَةِ الْكِتَابَةِ، ثُمَّ لَهُ مِنَ الدَّوَاءِ وَالْحِمِيَةِ وَالْإِسْقَامِ وَالْأَوْجَاعِ أَوْفَى نَصِيبٍ، فَإِذَا أَدْرَكَ لِحَقَّهُ هَمُّ الْأَهْلِ، وَكَانَتْ هِمَّتُهُ فِي جَمْعِ

(١) زُعَافٌ: سَرِيعٌ. (٢) رُوحٌ: سُرُورٌ وَرَاحَةٌ.

(٣) تَعْقِبُهَا حَلَاوَةٌ: تَأْتِي بَعْدَهَا. بَضْعٌ مِنْهُ بَضْعَةٌ: قَطْعٌ مِنْهُ قِطْعَةٌ.

(٤) اسْتَطْعَامٌ: طَلَبُ الطَّعَامِ. اسْتِغَاثَةٌ: طَلَبُ الشُّرْبِ.

الْمَالِ، وَتَرْبِيَةِ الْوَلَدِ وَمُخَاطَرَةَ الطَّلَبِ، وَالسَّعْيِ وَالْكَدِّ وَالتَّعَبِ. وَهُوَ مَعَ كُلِّ ذَلِكَ، يَتَقَلَّبُ مَعَ أَعْدَائِهِ الْبَاطِنِيِّينَ اللَّازِمِينَ لَهُ، وَهُمْ الْمِرَّةُ الصَّفْرَاءُ وَالْمِرَّةُ السَّوْدَاءُ، وَالرَّيْحُ، وَالْبَلْعُ، وَالدَّمُ مَعَ الشَّمْسِ، الْمُمَيِّتِ، وَالْحَيَّةِ اللَّادِغَةِ، وَالْخَوْفِ مِنَ السَّبَاعِ وَالْهَوَامِّ، مَعَ تَقَلُّبِ الْفُضُولِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْأَمْطَارِ وَالرِّيَّاحِ وَالثَّلُوجِ، وَالشَّيْطَانِ الدَّائِمِ وَالْقَرِينِ السَّوِيءِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الطَّوَارِيءِ الرَّدِيئَةِ، ثُمَّ أَنْوَاعِ عَذَابِ الْهَرَمِ لِمَنْ يَتْلَعُهُ^(١).

فَلَوْ لَمْ يَخَفْ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ شَيْئًا، وَكَانَ قَدْ آمَنَ، وَوَقَّعَ بِالسَّلَامَةِ مِنْهَا فَلَمْ يُفَكِّرْ بِهَا، لَوَجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُفَكِّرًا فِي السَّاعَةِ الَّتِي يَحْضُرُهُ فِيهَا الْمَوْتُ، وَيُفَارِقُ الدُّنْيَا، فَيَذْكُرُ مَا هُوَ نَازِلٌ بِهِ، فِي تِلْكَ السَّاعَةِ، مِمَّا هُوَ أَشَدُّ جِدًّا مِنْ ذَلِكَ، مِنْ فِرَاقِ الْأَحِبَّةِ وَالْأَقَارِبِ وَالْمَالِ، وَكُلِّ مَصْنُونٍ بِهِ مِنَ الدُّنْيَا، مَعَ الْإِشْرَافِ عَلَى الْهَوْلِ الْعَظِيمِ بَعْدَ الْمَوْتِ؛ فَلَوْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لَكَانَ حَقِيقًا أَنْ يُعَذَّبَ عَاجِزًا مُفْرَطًا مُجِبًّا لِلدَّنَاةِ مُسْتَحِقًّا لِلْوَمِ^(٢).

فَمَنْ ذَا الَّذِي يَعْلَمُ هَذَا وَلَا يَسْتَعِدُّ لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وَيَخْتَالُ لِعَدِ جُهْدِهِ فِي الْحِيلَةِ، وَيَرْفُضُ مَا يَشْغَلُهُ وَيُلْهِمُهُ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَغُرُورِهَا، وَلَا سِيَّما فِي هَذَا الزَّمَانِ الشَّيْبَةِ بِالصَّافِي وَهُوَ كَذِبٌ. فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ الْمَلِكُ حَازِمًا عَظِيمَ الْمَقْدَرَةِ، رَفِيعَ الْهِمَّةِ، بَلِغَ الْفَحْصِ، عَدْلًا، مَرْجُوءًا صَدُوقًا شُكُورًا، رَحْبَ الذَّرَاعِ، مُوَظِّلًا عَلَى الْحُسْنَى، عَالِمًا بِالنَّاسِ، مُهْتَمًّا بِأُمُورِ رَعِيَّتِهِ، نَازِلًا فِي أَحْوَالِهِمْ، مُجِبًّا لِلْعِلْمِ وَالْخَيْرِ وَالْأَخْيَارِ، شَدِيدًا عَلَى الظُّلْمَةِ، غَيْرَ جَبَانٍ وَلَا خَفِيفِ الْقِيَادِ، رَفِيقًا بِالتَّوَشُّعِ عَلَى الرَّعِيَّةِ فِيمَا يُحِبُّونَ، وَالدَّفْعِ لِمَا يَكْرَهُونَ^(٣).

فَإِنَّا قَدْ نَرَى الزَّمَانَ مُذْبِرًا بِكُلِّ مَكَانٍ، حَتَّى كَأَنَّ أُمُورَ الصَّدِيقِ قَدْ نُرِعَتْ مِنَ النَّاسِ، فَأَصْبَحَ مَا كَانَ عَزِيزًا فَقَدْهُ مَفْقُودًا، وَمَوْجُودًا مَا كَانَ ضَائِرًا وَجُودُهُ، وَكَأَنَّ الْخَيْرَ أَصْبَحَ ذَائِلًا، وَالشَّرُّ نَاضِرًا، وَكَأَنَّ الْفَمَ أَصْبَحَ قَدْ زَالَتْ سُبُلُهُ، وَكَأَنَّ الْحَقَّ وَلَّى كَسِيرًا، وَأَقْبَلَ الْبَاطِلُ تَابِعَهُ، وَكَأَنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى، وَإِضَاعَةَ الْحُكْمِ أَصْبَحَ بِالْحُكَّامِ مُوَكَّلًا، وَأَصْبَحَ الْمَظْلُومُ بِالْحَافِيفِ مُقِيرًا، وَالظَّالِمُ بِنَفْسِهِ مُسْتَطِيلًا^(٤).

(١) سامة: ملل. الجمجمة: التوفي في الأكل. الجزرة الصفراء: خلط من أخلاط البدن، وكذلك المِرَّةُ السوداء، ويسمى المزاج، وأخلاط الإنسان (في الطب القديم) أمزجته الأربعة، وهي: الصفراء، والبلغم، والدم، والسوداء. الطواري: الحوادث. الهرم: الشيخوخة.

(٢) مضنون به: كل نفس غالي. الهول: الخوف. مفترطًا: مقصراً.

(٣) عدلاً: عادلاً. رحب الذراع: واسع الخلق. الظلمة: جمع ظالم. ولا خفيف القيادة: غير سهل الانقياد.

(٤) مذبراً: مؤثلاً. ضائراً: مضرراً كسيراً: أي مكسور الخاطر. موكلاً: منوطاً بهم. بالحيف: الجور والظلم. مستطيلًا: متعظماً متكبراً.

وَكَأَنَّ الْحِرْصَ أَصْبَحَ فَاغِرًا فَاهُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، يَتَلَقَّفُ مَا قَرُبَ مِنْهُ وَمَا بَعُدَ، وَكَأَنَّ الرِّضَى أَصْبَحَ مَجْهُولًا، وَكَأَنَّ الْأَشْرَارَ يَقْصِدُونَ السَّمَاءَ صُغُودًا، وَكَأَنَّ الْأَخْيَارَ يُرِيدُونَ بَطْنَ الْأَرْضِ، وَأَصْبَحَتِ الْمُرُوءَةُ مَقْدُوفًا بِهَا مِنْ أَعْلَى شَرَفٍ إِلَى أَسْفَلِ دَرَكٍ، وَأَصْبَحَتِ الدَّنَاءَةُ مُمَكَّنَةً، وَأَصْبَحَ السُّلْطَانُ مُنْتَفِلًا عَنْ أَهْلِ الْفَضْلِ إِلَى أَهْلِ التَّقْصِ، وَكَأَنَّ الدُّنْيَا جَذَلَةٌ مَسْرُورَةٌ تَقُولُ: قَدْ غُمِيَتِ الْخَيْرَاتُ وَأُظْهِرَتِ السَّيِّئَاتُ^(١)!!

فَلَمَّا فَكَّرْتُ فِي الدُّنْيَا وَأُمُورِهَا، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ أَشْرَفُ الْخَلْقِ فِيهَا، وَأَفْضَلُهُ ثُمَّ هُوَ لَا يَتَقَلَّبُ إِلَّا فِي الشُّرُورِ وَالْهُمُومِ!! عَجِبْتُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّ الْعَجَبِ، وَتَحَقَّقْتُ أَنَّهُ لَيْسَ إِنْسَانٌ ذُو عَقْلٍ يَعْلَمُ ذَلِكَ، ثُمَّ لَا يَحْتَالُ لِنَفْسِهِ فِي النَّجَاةِ، وَيَلْتَمِسُ الْخَلَاصَ، وَإِنْ فَوَّطَ فِي ذَلِكَ، فَهُوَ عِنْدِي عَاجِزٌ قَلِيلُ الرَّأْيِ، نَاقِصُ الْهِمَّةِ فِيمَا لَهُ وَعَلَيْهِ! ثُمَّ نَظَرْتُ فَإِذَا النَّاسُ كُلُّهُمْ مُفَرِّطُونَ فِي ذَلِكَ مُغْفِلُونَ لَهُ، فَقَضَيْتُ الْعَجَبَ مِنْ ذَلِكَ، وَالتَّمَسْتُ لَهُمْ عُذْرًا فِيهِ، وَنَظَرْتُ فَإِذَا الْإِنْسَانُ لَا يَمْتَنِعُهُ عَنِ الْإِحْتِيَالِ لِنَفْسِهِ إِلَّا لَذَّةَ صَبِيغَةٍ حَقِيرَةٍ مِنَ النَّظَرِ وَالسَّمْعِ وَالشَّمِّ وَالذَّوْقِ وَاللَّمْسِ، لَعَلَّهُ أَنْ يُصِيبَ مِنْهَا الطَّافِيْفَ، أَوْ يَقْتَنِي مِنْهَا الْيَسِيرَ، فَإِذَا ذَلِكَ يَشْغَلُهُ، وَيَذْهَبُ بِهِ عَنِ الْأَهْتِمَامِ لِنَفْسِهِ وَطَلَبِ النَّجَاةِ لَهَا^(٢).

مثل الرَّجُلِ وَالْبَيْتِ

وهو مثل الإنسان في الدنيا وشروطها المكتنفة له

فَالْتَمَسْتُ لِلْإِنْسَانِ مَثَلًا، فَإِذَا مَثَلُهُ مَثَلُ رَجُلٍ نَجَا مِنْ خَوْفٍ فِيلٍ هَائِجٍ، إِلَى بَيْتٍ، فَتَدَلَّى فِيهَا، وَتَعَلَّقَ بِعُصْنَيْنِ كَانَا عَلَى سَمَائِهَا، فَوَقَعَتْ رِجْلَاهُ عَلَى شَيْءٍ فِي طَيِّ الْبَيْتِ، فَإِذَا حَيَاتٌ أَرْبَعٌ قَدْ أَخْرَجْنَ رُءُوسَهُنَّ مِنْ أَجْحَارِهَا، ثُمَّ نَظَرَ فَإِذَا فِي قَعْرِ الْبَيْتِ تَيْنٌ فَاتِحٌ فَاهُ، مُنْتَظِرٌ لَهُ لِيَقَعَ فَيَأْخُذَهُ؛ فَرَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى الْعُصْنَيْنِ، فَإِذَا فِي أَصْلِهِمَا جُرْدَانٌ: أَسْوَدٌ وَأَبْيَضُ، وَهُمَا يَقْرِضَانِ الْعُصْنَيْنِ دَائِبِينَ لَا يَفْقَرَانِ^(٣).

فَبَيْنَمَا هُوَ فِي النَّظَرِ لِأَمْرِهِ، وَالْأَهْتِمَامِ لِنَفْسِهِ، إِذْ بَصُرَ قَرِيبًا مِنْهُ بِخَلِيَّةٍ فِيهَا عَسَلٌ، فَذَاقَ

(١) فاغرا فاه: فاتحا فمه. يتلقف ما قرب منه: يتناول. شرف: مكان عال. درك: أقصى قعر الشيء. جذلة: فرحة.

(٢) قضيت العجب: عجبت جدا. الطفيف: القليل.

(٣) سمائها: أعلاها. طى البئر: جانبها المبنى بالحجارة. أحجارهن جمع حجر، وهو للهوم والسباع كالوكر للطيور. دائبين: مستمرين.

الْعَسَلِ، فَشَغَلَتْهُ حَلَاوَتُهُ وَأَلْهَتْهُ لَذَّتُهُ عَنِ الْفِكْرَةِ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَنْ يَلْتَمِسَ الْخَلَاصَ لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ رِجْلَيْهِ عَلَى حَيَاتٍ أَرْبَعٍ لَا يَدْرِي مَتَى يَقَعُ عَلَيْهِنَّ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ الْجُرَذَيْنِ دَائِبَانِ فِي قِطْعِ الْعُصْنَيْنِ، وَمَتَى انْقَطَعَا وَقَعَ عَلَى التَّنِينِ! فَلَمْ يَزَلْ لَاهِيًا غَافِلًا مَشْغُولًا بِتِلْكَ الْحَلَاوَةِ حَتَّى سَقَطَ فِي قِمِّ التَّنِينِ فَهَلَكَ^(١).

فَشَبَّهْتُ بِالْبَيْرِ الدُّنْيَا الْمَمْلُوءَةَ أَفَاتٍ وَشُرُورًا، وَمَخَافَاتٍ وَعَاهَاتٍ، وَشَبَّهْتُ بِالْحَيَاتِ الْأَرْبَعِ الْأَخْلَاطِ الْأَرْبَعَةَ الَّتِي فِي الْبَدَنِ، فَإِنَّهَا مَتَى هَاجَتْ أَوْ هَاجَ أَحَدُهُمَا كَانَتْ كَحِمَّةِ الْأَفَاعِي، وَالسُّمِّ الْمُمِيتِ، وَشَبَّهْتُ بِالْعُصْنَيْنِ الْأَجَلَ الَّذِي هُوَ إِلَى حِينٍ، ثُمَّ لَا بُدَّ مِنْ فَنَائِهِ وَانْقِطَاعِهِ، وَشَبَّهْتُ بِالْجُرَذَيْنِ: الْأَسْوَدَ وَالْأَبْيَضَ اللَّيْلَ وَالنَّارَ اللَّذَيْنِ هُمَا دَائِبَانِ فِي إِفْنَاءِ الْأَجَلِ؛ وَشَبَّهْتُ بِالتَّنِينِ الْمَصِيرِ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ، وَشَبَّهْتُ بِالْعَسَلِ هَذِهِ الْحَلَاوَةَ الْقَلِيلَةَ الَّتِي يَنَالُ مِنْهَا الْإِنْسَانُ فَيَرَى وَيَطْعَمُ وَيَسْمَعُ وَيَسْمُ، وَيَلْمَسُ، وَيَتَشَاغَلُ عَنْ نَفْسِهِ، وَيَلْهُو عَنْ شَأْنِهِ؛ فَيَنْسَى أَمْرَ الْآخِرَةِ، وَيَصُدُّ عَنْ سَبِيلِ قَصْدِهِ^(٢).

فَحِينَئِذٍ صَارَ أَمْرِي إِلَى الرِّضَى بِحَالِي، وَإِصْلَاحِ مَا اسْتَطَعْتُ إِصْلَاحَهُ مِنْ عَمَلِي لَعَلِّي أَنْ أُصَادِفَ بَاقِي أَيَّامِي زَمَانًا أُصِيبَ فِيهِ دَلِيلًا عَلَى هُدَايَ وَسُلْطَانًا عَلَى نَفْسِي وَقَوَامًا عَلَى أَمْرِي. فَأَقَمْتُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، وَاتَّجَهْتُ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ فِي طَلَبِ الْعَقَاقِيرِ وَالْأَدْوِيَةِ، ثُمَّ عُدْتُ إِلَيْهَا فِي انْتِسَاحِ هَذَا الْكِتَابِ، وَانْصَرَفْتُ مِنْهَا إِلَى بِلَادِي، وَقَدْ انْتَسَخْتُ مِنْ كُتُبِهِمْ كُتُبًا كَثِيرَةً مِنْهَا هَذَا الْكِتَابُ^(٣).

بَابُ

الْأَسَدِ وَالتَّوْرِ وَهُوَ أَوَّلُ الْكِتَابِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَدْبَا الْفَيْلَسُوفِ وَهُوَ رَأْسُ الْبَرَاهِمَةِ: أَضْرِبْ لِي مَثَلًا لِمُتَحَائِنِينَ، يَقْطَعُ بَيْنَهُمَا الْكُذُوبُ الْمُحْتَالُ؛ حَتَّى يَحْمِلَهُمَا عَلَى الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ!
قَالَ يَدْبَا: إِذَا ابْتُلِيَ الْمُتَحَابَّانِ؛ بِأَنْ يَدْخُلَ بَيْنَهُمَا الْكُذُوبُ الْمُحْتَالُ، لَمْ يَلْبَثَا أَنْ يَقْطَعَا

(١) بخلية: الخلية بيت النحل. (٢) الحمة: الإبرة التي تلدغ بها. المصير: المنتهي. ويطعم: يأكل.

(٣) العقاقير: جمع عقار. النباتات التي يتداوى بها.

وَيَتَذَكَّرُ، وَآفَةُ الْمَوَدَّةِ النَّمِيمَةُ. وَمِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ «دَسْتَاوَنْد» رَجُلٌ شَيْخٌ، لَهُ ثَلَاثَةُ بَنِينَ، فَلَمَّا بَلَغُوا أَشَدَّهُمْ، أَسْرَفُوا فِي مَالِ آبِيهِمْ، وَلَمْ يَكُونُوا أَحْتَرَفُوا حِرْفَةً يَكْسِبُونَ بِهَا لِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا؛ فَلَا مَهْمُ آبُوهُمْ وَوَعظُهُمْ عَلَى سُوءِ فِعْلِهِمْ، وَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ لَهُمْ : يَا بَنِيَّ إِنَّ صَاحِبَ الدُّنْيَا يَطْلُبُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ، لَنْ يَذَرَكَهَا إِلَّا بِأَرْبَعَةِ أَشْيَاءٍ. أَمَّا الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَطْلُبُ : فَالسَّعَةُ فِي الرِّزْقِ، وَالْمَنْزِلَةُ فِي النَّاسِ، وَالزَّادُ لِلْآخِرَةِ^(١).

وَأَمَّا الْأَرْبَعَةُ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي ذِكْرِ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ : فَالْكَتْسَابُ الْمَالِ مِنْ أَحْسَنِ وَجْهِ يَكُونُ، ثُمَّ حُسْنُ الْقِيَامِ عَلَى مَا اكْتَسَبَ مِنْهُ، ثُمَّ اسْتِثْمَارُهُ، ثُمَّ إِنْفَاقُهُ، فَمَنْ ضَيَّعَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ، لَمْ يَذَرِكْ مَا أَرَادَ مِنْ حَاجَتِهِ؛ لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكْتَسِبْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ يَعِيشُ بِهِ، وَإِنْ هُوَ كَانَ ذَا مَالٍ وَاكْتَسَابَ ثُمَّ لَمْ يُحْسِنِ الْقِيَامَ عَلَيْهِ أَوْشَكَ الْمَالُ أَنْ يَفْتَى، وَيَتَقَيَّ مُعْدِمًا^(٢).

وَإِنْ هُوَ وَضَعَهُ وَلَمْ يَسْتِثْمِرْهُ، لَمْ تَمْنَعْهُ قَلَّةُ الْإِنْفَاقِ مِنْ سُرْعَةِ الذَّهَابِ كَالْكُحْلِ الَّذِي لَا يُؤْخَذُ مِنْهُ إِلَّا غَبَارُ الْمِيلِ، ثُمَّ هُوَ مَعَ ذَلِكَ سَرِيعُ فَنَاءُوه^(٣).

وَإِنْ هُوَ أَنْفَقَهُ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ، وَوَضَعَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَأَخْطَأَ بِهِ مَوَاضِعَ اسْتِحْقَاقِهِ، صَارَ بِمَنْزِلَةِ الْفَقِيرِ الَّذِي لَا مَالَ لَهُ، ثُمَّ لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ أَيْضًا مَالَهُ مِنَ التَّلَفِ بِالْحَوَادِثِ وَالْعِلَلِ الَّتِي تَجْرِي عَلَيْهِ كَمَحْبَسِ الْمَاءِ الَّذِي لَا تَزَالُ الْمِيَاهُ تَنْصَبُ فِيهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَخْرَجٌ وَمَفَاضٌ وَمُتَنَفِّسٌ يَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ بِقَدَرٍ مَا يَنْبَغِي، خَرِبَ وَسَالَ، وَنَزَّ مِنْ نَوَاحٍ كَثِيرَةٍ^(٤).

وَرُبَّمَا انْبَثَقَ الْبَثْقُ الْعَظِيمُ، فَذَهَبَ الْمَاءُ ضَيَاعًا.

وَإِنْ بَنَى الشَّيْخُ اتَّعَظُوا بِقَوْلِ آبِيهِمْ، وَأَخَذُوا بِهِ، وَعَلِمُوا أَنَّ فِيهِ الْخَيْرَ، وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ، فَانْطَلَقَ أَكْبَرُهُمْ نَحْوَ أَرْضٍ يُقَالُ لَهَا: مَيُونُ فَأَتَى فِي طَرِيقِهِ عَلَى مَكَانٍ فِيهِ وَحْلٌ كَثِيرٌ، وَكَانَ مَعَهُ عَجَلَةٌ يَجْرُهَا ثَوْرَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا : «شَثْرَبَةُ» وَلِلْآخَرِ «بَنْدَبَةُ»، فَوَحَلَ شَثْرَبَةُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، فَعَالَجَهُ الرَّجُلُ، وَأَصْحَابُهُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُمْ الْجَهْدُ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى إِخْرَاجِهِ؛ فَذَهَبَ الرَّجُلُ، وَخَلَّفَ عِنْدَهُ رَجُلًا يُشَارِفُهُ، لَعَلَّ الْوَحْلَ يَنْشَفُ فَيَتَّبَعُهُ بِهِ، فَلَمَّا بَاتَ الرَّجُلُ بِذَلِكَ الْمَكَانِ تَبَرَّمَ بِهِ،

(١) لم يلبثا: لم يبطئا مدة. يتقاطعا: بهجر بعضهما بعضا. يتذابرا: يؤلى بعضهما عن بعض. أشدهم: قوتهم. أي خرجوا سن الصبوة. احترفوا: اتخذوا.

(٢) ذك: إدراك. القيام عليه: التدبير والسياسة. استثماره: استغلاله واستخراج ما فيه من فائدة وثمرة وريع. معدما: فقيرا.

(٣) الميل: ما يجعل به الكحل في العين وهو المُلْمُول.

(٤) مفاض: مكان يفيض منه. متنفس: مكان يتنفس منه أي يطفح.

وَاسْتَوْحَشَ، فَتَرَكَ الثَّوْرَ وَالتَّحَقَّقَ بِصَاحِبِهِ، فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ الثَّوْرَ قَدْ مَاتَ^(١)!

وَقَالَ لَهُ: إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا انْقَضَتْ مُدَّتُهُ، وَخَانَتْ مَبِيتُهُ فَهُوَ وَإِنْ اجْتَهَدَ فِي التَّوَقُّي مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَخَافُ فِيهَا عَلَى نَفْسِهِ الْهَلَاكَ لَمْ يُغْنِ ذَلِكَ عَنْهُ شَيْئًا، وَرُبَّمَا عَادَ اجْتِهَادُهُ فِي تَوَقُّيهِ وَخَذَرِهِ وَبَالَآ عَلَيْهِ!

كَالَّذِي قِيلَ: إِنَّ رَجُلًا سَلَكَ مَفَازَةً فِيهَا خَوْفٌ مِنَ السَّبَاعِ، وَكَانَ الرَّجُلُ خَبِيرًا بِوَعَثِ تِلْكَ الْأَرْضِ وَخَوْفِهَا. فَلَمَّا سَارَ غَيْرَ بَعِيدٍ، اعْتَزَّضَ لَهُ ذُبُّبٌ مِنْ أَحَدِ الذَّنَابِ وَأَضْرَاهَا^(٢).

فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ أَنَّ الذُّبُّبَ قَاصِدٌ نَحْوَهُ، خَافَ مِنْهُ وَنَظَرَ يَمِينًا وَشِمَالًا لِيَجِدَ مَوْضِعًا يَتَحَرَّزُ فِيهِ مِنَ الذُّبُّبِ، فَلَمْ يَزَلْ إِلَّا قَرْيَةً خَلْفَ وَادٍ، فَذَهَبَ مُسْرِعًا نَحْوَ الْقَرْيَةِ، فَلَمَّا أَتَى الْوَادِي لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ قَنْطَرَةٌ، وَرَأَى الذُّبُّبَ قَدْ أَذْرَكَهُ، فَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ، وَهُوَ لَا يُحْسِنُ السَّبَاحَةَ، وَكَادَ يَغْرُقُ، لَوْلَا أَنْ بَصُرَ بِهِ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ فَتَوَاقَعُوا لِإِخْرَاجِهِ، فَأَخْرَجُوهُ، وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ^(٣).

فَلَمَّا حَصَلَ الرَّجُلُ عِنْدَهُمْ، وَأَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ غَائِلَةِ الذُّبُّبِ، رَأَى عَلَى عُذْوَةِ الْوَادِي بَيْتًا مُفْرَدًا، فَقَالَ: أَدْخُلْ هَذَا الْبَيْتَ فَاسْتَرِخْ فِيهِ، فَلَمَّا دَخَلَهُ وَجَدَ جَمَاعَةً مِنَ اللَّصُوصِ، قَدْ قَطَعُوا الطَّرِيقَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الثَّجَارِ، وَهُمْ يَقْتَسِمُونَ مَالَهُ وَيُرِيدُونَ قَتْلَهُ، فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ ذَلِكَ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَضَى نَحْوَ الْقَرْيَةِ، فَأَسْتَدَكَ ظَهْرَهُ إِلَى حَائِطٍ مِنْ حِيطَانِهَا لِيَسْتَرِخَ مِمَّا حَلَّ بِهِ مِنَ الْهَوْلِ وَالْإِغْيَاءِ، إِذْ سَقَطَ عَلَيْهِ الْحَائِطُ فَمَاتَ!

قَالَ الرَّجُلُ: صَدَقْتُ، قَدْ بَلَغَنِي هَذَا الْحَدِيثُ^(٤).

وَأَمَّا الثَّوْرُ فَإِنَّهُ خَلَصَ مِنْ مَكَانِهِ، وَانْتَبَعَثَ، فَلَمْ يَزَلْ فِي مَرْجٍ مُخْصِبٍ كَثِيرٍ الْمَاءِ وَالْكَلَالِ، فَلَمَّا سَمِعَ وَأَمِنَ جَعَلَ يَخُورُ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالْخُورِ^(٥).

وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ أَجَمَةٌ فِيهَا أَسَدٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ مَلِكُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ، وَمَعَهُ سَبَاعٌ كَثِيرَةٌ، وَذَنَابٌ وَبَنَاتٌ أَوْى، وَتَعَالِبٌ، وَفُهُودٌ وَثُمُورٌ، وَكَانَ هَذَا الْأَسَدُ مُفْرَدًا بِرَأْيِهِ، دُونَ أَخِيذٍ يَرَأِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ فَلَمَّا سَمِعَ خُورَ الثَّوْرِ وَلَمْ يَكُنْ رَأَى ثَوْرًا قَطُّ، وَلَا سَمِعَ خُورَهُ، خَامَرَهُ مِنْهُ هَيْبَةٌ

(١) عُولُوا عَلَيْهِ: اعْتَمَدُوا. يَشَارِفُهُ: يَطْلُعُ عَلَيْهِ. تَبَرَّمَ: تَلَّى.

(٢) مَبِيتُهُ: أَجَلُهُ. لَمْ يُغْنِ ذَلِكَ عَنْهُ: لَمْ يَنْفَعِهِ. وَبَالَآ: عَاقِبَةُ سَيْنَةٍ. مَفَازَةٌ: صَحْرَاءُ مَهْلِكَةٌ. بِوَعَثِ: بِغُشْرٍ وَوَعُورَةٍ. وَأَضْرَاهَا: أَشْدَاهَا ضَرَاوَةً وَفَتَكًا.

(٣) يَتَحَرَّزُ فِيهِ: يَتَوَقَّى وَيَحْتَمِي. بِصُرِّهِ: لِمَحْجِهِ. فَتَوَاقَعُوا: أَيِ رَمَوْا بِنَفْسِهِمْ. أَشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ: أَيِ كَادَ يَهْلِكُ.

(٤) غَائِلَةُ الذُّبُّبِ: شَرُّهُ. عُذْوَةٌ: جَانِبُ. الْهَوْلُ: الْخَوْفُ. الْإِغْيَاءُ: التَّعَبُ.

(٥) انْتَبَعَثَ: أَسْرَعَ. الْكَلَالُ: الْعُشْبُ. يَخُورُ: يَحْدُثُ صَوْتًا وَصَوْتَ الْبَقْرِ يُسَمَّى خُورًا.

وَحَشِيَّةٌ، وَكَرِهَ أَنْ يُشْعِرَ بِذَلِكَ جُنْدَهُ، فَكَانَ مُقِيمًا مَكَانَهُ لَا يَتَرَحَّحُ، وَلَا يَنْشِطُ، بَلْ يُؤْتَى بِرِزْقِهِ كُلِّ يَوْمٍ عَلَى يَدِ جُنْدِهِ، وَكَانَ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ السَّبَاعِ ابْنَا آوَى يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا : كَلِيلَةٌ وَلِلْآخَرِ دِمْنَةٌ وَكَانَا ذَوَيْ دِهَاءٍ وَعِلْمٍ وَأَدَبٍ^(١)!!

مُحَاوَرَةٌ كَلِيلَةٌ وَدِمْنَةٌ فِي شَأْنِ الْأَسَدِ

فَقَالَ دِمْنَةُ يَوْمًا لِأَخِيهِ كَلِيلَةَ : يَا أَخِي مَا شَأْنُ الْأَسَدِ مُقِيمًا مَكَانَهُ لَا يَتَرَحَّحُ وَلَا يَنْشِطُ خِلَافًا لِعَادَتِهِ؟! قَالَ لَهُ كَلِيلَةُ : مَا سَأَلْتُكَ أَنْتَ وَالْمَسْأَلَةُ عَنْ هَذَا؟! نَحْنُ عَلَى بَابِ مَلِكِنَا آخِذِينَ بِمَا أَحَبَّ، وَتَارِكِينَ مَا يَكْرَهُ، وَلَسْنَا مِنْ أَهْلِ الْمَرْتَبَةِ الَّتِي يَتَنَاوَلُ أَهْلُهَا كَلَامَ الْمُلُوكِ، وَالنَّظَرَ فِي أُمُورِهِمْ؛ فَأَمْسِكْ عَنْ هَذَا، وَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ تَكَلُّفٍ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ مَا لَيْسَ مِنْ شَكْلِهِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْقِرْدَ مِنَ النَّجَارِ^(٢).

قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟!

مَثَلُ الْقِرْدِ وَالنَّجَارِ

قَالَ كَلِيلَةُ : زَعَمُوا أَنَّ قِرْدًا رَأَى نَجَّارًا يَشُقُّ خَشَبَةً وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهَا، وَكُلَّمَا شَقَّ مِنْهَا ذِرَاعًا أَذْخَلَ فِيهَا وَتَدًا فَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَقَدْ أَعْجَبَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّ النَّجَّارَ ذَهَبَ لِيَعْبُضَ شَأْنَهُ فَقَامَ الْقِرْدُ وَتَكَلَّفَ مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ، فَزَكَبَ الْخَشَبَةَ وَجَعَلَ ظَهْرَهُ قِتْلَ الْوَتِدِ وَوَجْهَهُ قِتْلَ طَرَفِ الْخَشَبَةِ فَتَدَلَّى ذَنْبُهُ فِي الشَّقِّ، وَنَزَعَ الْوَتِدَ، فَلَزِمَ الشَّقَّ عَلَيْهِ، فَكَادَ يُغَشَى عَلَيْهِ مِنَ الْأَلَمِ! ثُمَّ إِنَّ النَّجَّارَ وَافَاهُ، فَأَصَابَتْهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَضْرِبُهُ، فَكَانَ مَا لَقِيَ مِنَ النَّجَّارِ مِنَ الضَّرْبِ أَشَدَّ مِمَّا أَصَابَهُ مِنَ الْخَشَبَةِ!^(٣)

قَالَ دِمْنَةُ : قَدْ سَمِعْتُ مَا ذَكَرْتَ ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ يَدْنُو مِنَ الْمُلُوكِ، يَقْدِرُ عَلَى صُحْبَتِهِمْ ، وَيَفُوزُ بِقُرْبِهِمْ، وَلَكِنْ اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَدْنُو مِنْهُمْ لَيْسَ يَدْنُو مِنْهُمْ لِيَطْنِيهِ، فَإِنَّ الْبَطْنَ يُحَشَى بِكُلِّ شَيْءٍ، وَإِنَّمَا يَدْنُو مِنْهُمْ لِيَسِرَّ الصَّدِيقَ، وَيَكْتِبَ الْعَدُوَّ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا مُرُوءَةَ لَهُ، وَهُمْ الَّذِينَ

(١) جمعة : شجر كثير ملتفت . بنات آوى : جمع ابن آوى وهو حيوان معروف . خامره : داخله وخالطه . يُشْعِرُ : يُغْلِمُ . وَلَا يَنْشِطُ : أَي لَا يَتَحَوَّلُ مِنْ مَكَانِهِ . ذَوَيْ مَتْنٍ : ذُو بَعْنَى صَاحِب . دِهَاءٌ : جَوْدَةٌ رَأَى .

(٢) مَا شَأْنُهُ : مَا بَالُهُ ؟

(٣) الْوَتِدُ يَفْتَحُ الْوَاوَ وَكَسَرَ الدَّالَ : مَا رَزَّ فِي الْأَرْضِ أَوْ الْحَائِطِ مِنْ خَشَبٍ، وَفِي الْمَثَلِ : «أَذَلَّ مِنْ وَتْدِهِ» . وَافَاهُ : أَنَاهُ . أَصَابَهُ : وَجَدَ .

يَفْرَحُونَ بِالْقَلِيلِ، وَيَرْضَوْنَ بِالْذَوْنِ؛ كَالْكَلْبِ الَّذِي يُصِيبُ عَظْمًا يَابِسًا، فَيَفْرَحُ بِهِ^(١).

وَأَمَّا أَهْلُ الْفَضْلِ وَالْمُرُوءَةِ فَلَا يَقْنِعُهُمُ الْقَلِيلُ، وَلَا يَرْضَوْنَ بِهِ ذَوْنَ أَنْ تَسْمُوَ بِهِمْ نَفْسُهُمْ إِلَى مَا هُمْ أَهْلُ لَهُ، وَهُوَ أَیْضًا لَهُمْ أَهْلٌ؛ كَالْأَسَدِ الَّذِي يَفْتَرِسُ الْأَرْبَ، فَإِذَا رَأَى الْبَعِيرَ، تَرَكَهَا وَطَلَبَ الْبَعِيرَ! أَلَا تَرَى أَنَّ الْكَلْبَ يُصِيبُ بِذَنَبِهِ حَتَّى تَرْمِي لَهُ الْكِبْشَةَ مِنَ الْخُبْرِ، فَيَفْرَحُ بِهَا، وَتَقْنِعُهُ مِنْكَ، وَأَنَّ الْفِيلَ الْمُعْتَرَفَ بِفَضْلِهِ وَقُوَّتِهِ، إِذَا قُدِّمَ إِلَيْهِ عُلْفُهُ لَا يَغْتَلِفُهُ حَتَّى يُمَسِّحَ وَجْهَهُ، وَيَتَمَلَّقَ لَهُ! فَمَنْ عَاشَ ذَا مَالٍ، وَكَانَ ذَا فَضْلٍ وَإِفْضَالٍ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَإِخْوَانِهِ، غَيْرَ حَامِلٍ الْمَنْزِلَةِ، فَهُوَ وَإِنْ قَلَّ عُمرُهُ طَوِيلُ الْعُمْرِ، وَمَنْ كَانَ فِي عَيْنَيْهِ ضِيقٌ، وَقَلَّةٌ وَإِمْسَاكٌ عَلَى نَفْسِهِ وَذَوِيهِ، وَكَانَ حَامِلَ الْمَنْزِلَةِ فَالْمَقْبُورُ أَحْيَا مِنْهُ، وَمَنْ عَمِلَ لِبَطْنِهِ وَشَهْوَاتِهِ وَقَبِعَ وَتَرَكَ مَا سِوَى ذَلِكَ عُذٌّ مِنَ الْبَهَائِمِ^(٢).

قال كليله: قَدْ فَهِمْتُ مَا قُلْتَ؛ فَرَاغَ عَقْلِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَنَزِلَةً وَقَدْرًا، فَإِنْ كَانَ فِي مَنَزِلَتِهِ الَّتِي هُوَ فِيهَا مَكْتَفِيًا كَانَ حَقِيقًا أَنْ يَقْنَعَ. وَلَيْسَ لَنَا مِنَ الْمَنْزِلَةِ مَا يُحْطُ حَالِنَا الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنَّ مَنَزِلَةَ الْإِنْسَانِ مَقْدُورَةٌ عَلَيْهِ مُنْذُ الْأَزَلِ؛ فَلَا سَبِيلَ لَهُ إِلَّا الرِّضَى بِهَا كَيْفَ كَانَتْ^(٣).
قال دمنه: إِنَّ الْمَنَازِلَ مُتَنَازِعَةٌ مُشْتَرَكَةٌ عَلَى قَدْرِ الْمُرُوءَةِ؛ فَالْمَرْءُ تَرَفَعَهُ مُرُوءَتُهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الْوَضِيعَةِ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ، وَمَنْ لَا مُرُوءَةَ لَهُ يَحْطُ نَفْسُهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الْوَضِيعَةِ، وَإِنَّ الِارْتِفَاعَ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الشَّرِيفَةِ شَدِيدٌ، وَالْإِنْحِطَاطُ مِنْهَا هَيِّنٌ كَالْحَجَرِ الثَّقِيلِ رَفَعُهُ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى الْعَاقِقِ عَيسٍ، وَوَضْعُهُ إِلَى الْأَرْضِ هَيِّنٌ، فَتَنْحُنْ أَحَقُّ أَنْ نَزُومَ مَا فَوْقَنَا مِنَ الْمَنَازِلِ، وَأَنْ نَلْتَمِسَ ذَلِكَ بِمُرُوءَتِنَا، ثُمَّ كَيْفَ نَقْنَعُ بِمَنَزِلَتِنَا وَنَحْنُ نَسْتَطِيعُ التَّحَوُّلَ عَنْهَا؟!^(٤).

قال كليله: فَمَا الَّذِي اجْتَمَعَ عَلَيْهِ رَأْيُكَ؟ قال دمنه: أُرِيدُ أَنْ أَتَعَرَّضَ لِلْأَسَدِ عِنْدَ هَذِهِ الْفُرْصَةِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لِي أَنَّهُ ضَعِيفُ الرَّأْيِ، قَدْ التَّبَسَّ عَلَيْهِ أَمْرُهُ، وَعَلَى جُنْدِهِ أَيْضًا، وَلَعَلِّي عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، أَذْثُرُ مِنْهُ، فَأُصِيبُ عِنْدَهُ مَنَزِلَةً وَمَكَانَةً؛ فَيَسْتَدْرِي بِالْكَلَامِ، فَأُجِيبُهُ بِمَا تَقْدَحُهُ الْقَرِيبَةُ لَعَلَّهَا تَنْتُجُ بَيْنَنَا نَتِيجَةً تُؤَدِّي إِلَى إِظْهَارِ أَمْرِ مَكْتُومٍ.

قال كليله: وَمَا يَذْرِيكَ أَنَّ الْأَسَدَ قَدْ التَّبَسَّ عَلَيْهِ أَمْرُهُ؟! قال دمنه: بِالْحِسِّ وَالرَّأْيِ أَعْلَمُ ذَلِكَ

(١) ويكتب: يذل. بالدون: بالقليل الحقيق.

(٢) يصبص بذنبه: يحركه. ويتملق له: تودد بكلام لطيف وتضرع فوق ما ينبغي. وإمساك عن نفسه: بخل. حامل المنزلة: غير مشهور ولا معروف. أحيا منه: تفضيل من الحياة.

(٣) حقيقا: جديرا. مقدورة: مقدرة. (٤) متنازعة: أي كل يطلبها. العاتق: ما بين العنق والكتف.

مِنْهُ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ ذَا الرَّأْيِ يَعْرِفُ حَالَ صَاحِبِهِ وَبَاطِنَ أَمْرِهِ بِمَا يَظْهَرُ لَهُ مِنْ دَلِّهِ وَشَكْلِهِ^(١).

قال كليله : فَكَيْفَ تَرْجُو الْمَنْزِلَةَ عِنْدَ الْأَسَدِ وَلَسْتَ بِصَاحِبِ السُّلْطَانِ، وَلَا لَكَ عِلْمٌ بِخِدْمَةِ السُّلَاطِينِ وَأَدَابِهِمْ وَأَدَابِ مَجَالِسِهِمْ؟! قال دمنة : الرَّجُلُ الشَّدِيدُ الْقَوِي لَا يَتَوَّعُ بِهِ الْحِمْلُ الثَّقِيلُ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ عَادَتُهُ الْحِمْلُ، وَالرَّجُلُ الضَّعِيفُ لَا يَسْتَقِيلُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ صِنَاعَتِهِ.

قال كليله : فَإِنَّ السُّلْطَانَ لَا يَتَوَخَّى بِكَرَامَتِهِ فُضْلَاءَ مَنْ يَحْضُرَتِهِ، وَلَكِنَّهُ يُؤْثِرُ الْأَدْنَى ، وَمَنْ قَرَّبَ مِنْهُ، وَيُقَالُ : إِنَّ مَثَلَ السُّلْطَانِ فِي ذَلِكَ مَثَلُ شَجَرِ الْكَزْمِ الَّذِي لَا يَغْلُقُ إِلَّا بِأَكْرَمِ الشَّجَرِ، وَكَيْفَ تَرْجُو الْمَنْزِلَةَ عِنْدَ الْأَسَدِ وَلَمْ تَكُنْ دَنَوْتَ مِنْهُ مِنْ قَبْلُ^(٢)!؟

قال دمنة : قَدْ فَهِمْتُ كَلَامَكَ جَمِيعَهُ، وَتَذَبَّرْتُ مَا قُلْتَ. أَنْتَ صَادِقٌ. لَكِنْ اعْلَمْ أَنَّ الَّذِينَ لَهُمُ الْمَنَازِلُ الرَّفِيعَةُ عِنْدَ الْمُلُوكِ قَدْ كَانُوا قَبْلَ أَنْ يَرْقُوا إِلَيْهَا لَيْسَتْ بِحَالَتِهِمْ، فَيَقْرُبُونَ بَعْدَ الْبُعْدِ، وَيَذْنُبُونَ بَعْدَ التَّنَاضِي، وَأَنَا مُلْتَمِسٌ بُلُوغَ مَكَانَتِهِمْ بِجَهْدِي، وَقَدْ قِيلَ: لَا يُوَاطِبُ عَلَى بَابِ السُّلْطَانِ إِلَّا مَنْ يَطْرُحُ الْأَنْفَ، وَيَحْمِلُ الْأَذَى، وَيَكْظِمُ الْغَيْظَ، وَيَرْفُقُ بِالنَّاسِ، وَيَكْتُمُ السِّرَّ، فَإِذَا وَصَلَ إِلَى ذَلِكَ فَقَدْ بَلَغَ مُرَادَهُ^(٣).

قال كليله : هَبْكَ وَصَلْتَ إِلَى الْأَسَدِ، فَمَا تَوْفِيقَكَ عِنْدَهُ الَّذِي تَرْجُو أَنْ تَنَالَ بِهِ الْمَنْزِلَةَ عِنْدَهُ، وَالْحُظُوَّةَ لَدَيْهِ؟ قال دمنة : لَوْ دَنَوْتُ مِنْهُ، وَعَرَفْتُ أَخْلَاقَهُ، لَرَفَقْتُ فِي مُتَابَعَتِهِ، وَقَلَّةِ الْخِلَافِ لَهُ، وَإِذَا أَرَادَ أَمْرًا هُوَ فِي نَفْسِهِ صَوَابٌ زَيْتُهُ لَهُ، وَصَبْرُهُ عَلَيْهِ، وَعَرَفْتُهُ بِمَا فِيهِ مِنَ النَّفْعِ وَالْخَيْرِ، وَشَجَعْتُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ حَتَّى يَزْدَادَ بِهِ سُورًا، وَإِذَا أَرَادَ أَمْرًا يُخَافُ عَلَيْهِ ضَرُّهُ وَسَيِّئُهُ، بَصَرْتُهُ بِمَا فِيهِ مِنَ الضَّرَرِ وَالشَّيْنِ، وَأَطْلَعْتُهُ عَلَى مَا فِي تَرْكِهِ مِنَ النَّفْعِ وَالزَّيْنِ، بِحَسَبِ مَا أَحَدٌ إِلَيْهِ السَّبِيلُ^(٤).

وَأَنَا أَرْجُو أَنْ أَزْدَادَ بِذَلِكَ عِنْدَ الْأَسَدِ مَكَانَةً، وَيَرَى مِنِّي مَا لَا يَرَاهُ مِنْ غَيْرِي؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ الْأَدِيبَ الرَّفِيقَ لَوْ شَاءَ أَنْ يُنْطَلَّ حَقًّا، أَوْ يُحَقِّقَ بَاطِلًا لَفَعَلَ. كَالْمُصَوِّرِ الْمَاهِرِ الَّذِي يُصَوِّرُ فِي الْجِبْطَانِ صُورًا كَأَنَّهَا خَارِجَةٌ، وَلَيْسَتْ بِخَارِجَةٍ، وَأُخْرَى كَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ، وَلَيْسَتْ بِدَاخِلَةٍ. فَإِذَا

(١) ومكانة : بمعنى المنزلة والرتبة : فيبتدئني : فيبدأ ويبادر . تتدحه القريحة : الطبع . وتقده : تخرجه . دله : دلاله وجراته . وإزالة الكلفة بينه وبينه .

(٢) لَا يَتَوَخَّى بِهِ : لَا يَحْمِلُهُ وَحْدَهُ . لَا يَتَوَخَّى : لَا يَقْصِدُ . الْكَزْمُ : الْعَنَبُ .

(٣) التَّنَاضِي : التَّبَاعُدُ . الْأَنْفَةُ : عِزَّةُ النَّفْسِ . يَكْظِمُ : يَحْبِسُ .

(٤) هَبْكَ : احْسَبْ نَفْسَكَ . الْحُظُوَّةُ : الْمَكَانَةُ وَالْحِظُّ وَالْمَنْزِلَةُ . شَيْنُهُ : عَيْبُهُ . بَصَرْتُهُ : عَرَفْتُهُ وَأَوْضَحْتُ لَهُ .

هُوَ عَرَفَ مَا عِنْدِي ، وَبَانَ لَهُ حُسْنُ رَأْيِي ، وَجُودَةُ فِكْرِي ، اَلْتَمَسَ اِكْرَامِي وَفَرَّغَنِي اِلَيْهِ .
 قَالَ كَلِيلَةُ : اَمَّا اِنْ قُلْتَ هَذَا اَوْ قُلْتَ هَذَا فَاِنِّي اَخَافُ عَلَيْكَ مِنَ السُّلْطَانِ ؛ فَاِنَّ صُحْبَتَهُ
 خَطِرَةٌ ، وَاَحْذَرُكَ مِنَ الَّذِي اَرَدْتَهُ ، كَعِظَمِ خَطَرِهِ عِنْدَكَ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : اِنْ ثَلَاثَةٌ لَا يَجْتَرِئُ
 عَلَيْهِنَّ اِلَّا اَهْوَجُ ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْهُنَّ اِلَّا قَلِيلٌ ^(١) .

وهي : صُحْبَةُ السُّلْطَانِ ، وَائْتِمَانُ النِّسَاءِ عَلَى الْأَسْرَارِ ، وَشُرْبُ الشَّمِّ لِلتَّجَرِبَةِ . وَإِنَّمَا سَبَّهَ
 الْعُلَمَاءُ السُّلْطَانَ بِالْجَبَلِ الصَّعْبِ الْمُتَوَقَّى الَّذِي فِيهِ الثَّمَارُ الطَّيِّبَةُ ، وَالْأَنْهَارُ الْجَارِيَةُ ، وَالْجَوَاهِرُ
 النَّفِيسَةُ ، وَالْأَدْوِيَةُ النَّافِعَةُ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مَعْدِنُ السَّبَاعِ وَالثَّمُورِ وَالذَّنَابِ وَكُلِّ ضَارٍ مَخُوفٍ ؛
 فَالْإِرْتِقَاءُ إِلَيْهِ شَدِيدٌ ، وَالْمُقَامُ فِيهِ أَشَدُّ .

قَالَ دِمْنَةُ : صَدَقْتَ فِيمَا ذَكَرْتَ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَزَكِبِ الْأَهْوَالَ لَمْ يَتَلِ الرِّغَائِبَ ، وَمَنْ تَرَكَ
 الْأَمْرَ الَّذِي لَعَلُّهُ يَتَلَعَّبُ فِيهِ حَاجَتُهُ هَيْبَةً وَمَخَافَةً لِمَا لَعَلَّهُ أَنْ يَتَوَقَّاهُ ، فَلَيْسَ بِبَالِغٍ جَسِيمًا ^(٢) .

وَقَدْ قِيلَ : اِنْ خِصَالًا ثَلَاثَةٌ لَنْ يَسْتَطِيعَهَا أَحَدٌ اِلَّا بِمَعُونَةٍ : مِنْ غُلُوِّ هَيْبَةٍ ، وَعَظِيمِ خَطَرٍ : مِنْهَا
 صُحْبَةُ السُّلْطَانِ ، وَتِجَارَةُ الْبَحْرِ ، وَمُنَاجَزَةُ الْعُدُوِّ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ فِي الرَّجُلِ الْفَاضِلِ الرَّشِيدِ :
 إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُرَى اِلَّا فِي مَكَانَيْنِ ، وَلَا يَتَلَقَّ بِهِ غَيْرُهُمَا : اِمَّا مَعَ الْمُلُوكِ مُكْرَمًا ، اَوْ مَعَ النَّسَاكِ
 مُتَعَبِّدًا . كَالْقَلِيلِ اِنَّمَا جَمَالُهُ وَبِهَآؤُهُ فِي مَكَانَيْنِ : اِمَّا أَنْ تَرَاهُ فِي الْبَرِّيَّةِ وَحْشِيًّا ، اَوْ مَرْكَبًا لِلْمُلُوكِ .
 قَالَ كَلِيلَةُ : خَارَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا عَزَمْتَ عَلَيْهِ ^(٣) .

ثُمَّ اِنْ دِمْنَةُ اِنْطَلَقَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ ، فَعَفَّرَ وَجْهَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ؛ فَقَالَ الْأَسَدُ
 لِبَعْضِ جُلَسَائِهِ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : هَذَا دِمْنَةُ بْنُ سَلِيطٍ . قَالَ : قَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ أَبَاهُ . ثُمَّ سَأَلَهُ أَيْنَ
 تَكُونُ ؟ قَالَ : لَمْ أَزَلْ مُرَاطِبًا بَابَ الْمَلِكِ ، دَاعِيًا لَهُ بِالنُّصْرَةِ ، وَدَوَامِ الْبَقَاءِ ؛ رَجَاءً أَنْ يَحْضُرَ أَمْرٌ ،
 فَأُعَيِّنَ الْمَلِكَ فِيهِ بِنَفْسِي وَرَأْيِي ؛ فَإِنَّ أَبْوَابَ الْمُلُوكِ تَكْثُرُ فِيهَا الْأُمُورُ الَّتِي يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى الَّذِي لَا
 يُؤْتِيهِ لَهُ ؛ وَلَيْسَ أَحَدٌ يَصْغُرُ أَمْرُهُ اِلَّا وَقَدْ يَكُونُ عِنْدَهُ بَعْضُ الْغَنَاءِ ، وَالْمَنَافِعُ عَلَى قَدَرِهِ ؛ حَتَّى الْعُودُ
 الْمُلَقَّى فِي الْأَرْضِ رُبَّمَا نَفَعَ ، فَيَأْخُذُهُ الرَّجُلُ ، فَيُحْكُ بِهِ أُذُنَهُ فَيَكُونُ عُذَّتُهُ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ^(٤) .

(١) الرفيق : اللطيف . الماهر : الحاذق العالم بالشيء . خطره : شرفه . أهوج : أحرق طائش .

(٢) المرتقى : الصعود . معدن السباع : مكان . ضار : معتد كاسر . مخوف : يخافه الناس ويخشون جانبيه . الرغائب : جمع رغبة وهي الأمر المرغوب فيه . جسيما : عظيما .

(٣) خطر : قدر ومنزلة . مناجزة العدو : مباشرة قتاله . الرشيد : من الرشد وهو الاستقامة على طريق الحق . بهآؤه : حسنه . خار الله لك : جعل لك الخير ، واختاره لك .

(٤) عفر وجهه : مزغ . أي خضع إلى الأرض بين يدي الملك . مرابطا باب الملك : ملازما له ومواطبا عليه . لا يؤبه له : لا يبتبه له ولا يلتفت إليه . الغناء (بفتح الغين) : النفع والاكتفاء . عذته : أي مما أعده لحوادث الدهر .

فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسَدُ ، قَوْلَ دِمْنَةَ أَعْجَبَهُ ، وَطَمِعَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ نَصِيحَةً وَرَأْيً . فَأَقْبَلَ عَلَى مَنْ حَضَرَ فَقَالَ : إِنَّ الرَّجُلَ ذَا النَّبْلِ وَالْمُرُوءَةِ يَكُونُ خَامِلَ الذِّكْرِ ، مُنْخَفِضَ الْمَنْزِلَةِ ، فَتَأْتِي مَنْزِلَتُهُ إِلَّا أَنْ تَشُبَّ وَتَرْتَفِعَ كَالشُّعْلَةِ مِنَ النَّارِ يَضْرِبُهَا صَاحِبُهَا ، وَتَأْتِي إِلَّا اِرْتِفَاعًا . فَلَمَّا عَرَفَ دِمْنَةُ أَنَّ الْأَسَدَ قَدْ عَجِبَ مِنْهُ ، وَحَسَنَ عِنْدَهُ كَلَامُهُ قَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ رَعِيَّةَ الْمَلِكِ تَحْضُرُ بَابَهُ رَجَاءً أَنْ يَعْرِفَ مَا عِنْدَهَا مِنْ عِلْمٍ وَافِرٍ ، كَالزَّرْعِ الْمَذْفُونِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ فَضْلَهُ ، حَتَّى يَخْرُجَ وَيُظْهَرَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ^(١) .

فَيَجِبُ عَلَى الْمَلِكِ أَنْ يَتْلَعَ بِكُلِّ أَمْرٍ مَرْتَبَتَهُ عَلَى قَدَرِ رَأْيِهِ ، وَعَلَى قَدَرِ مَا يَجِدُ عِنْدَهُ مِنَ الْمُنْفَعَةِ . وَقَدْ قِيلَ : أَمْرَانِ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَأْتِيَهُمَا : مِثْلُ أَنْ يُجْعَلَ الْخُلُخَالُ قِلَادَةً لِلْعُنُقِ ، وَمِثْلُ أَنْ تُجْعَلَ الْقِلَادَةُ خُلُخَالًا فِي الرَّجُلِ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ الْفَضْلَ فِي أَمْرَيْنِ : فَضْلُ الْمُقَاتِلِ عَلَى الْمُقَاتِلِ ، وَالْعَالِمِ عَلَى الْعَالِمِ . وَإِنَّ كَثْرَةَ الْأَعْوَانِ ، إِذَا لَمْ يَكُونُوا مُخْتَبَرِينَ ، رُبَّمَا تَكُونُ مَضَرَّةً عَلَى الْعَمَلِ ، فَإِنَّ الْعَمَلَ لَيْسَ رَجَاؤُهُ بِكَثْرَةِ الْأَعْوَانِ ، وَلَكِنْ بِصَالِحِي الْأَعْوَانِ^(٢) .

وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ الرَّجُلِ الَّذِي يَحْمِلُ الْحَجَرَ الثَّقِيلَ ، فَيَقْتُلُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا يَجِدُ لَهُ ثَمَنًا . وَحَامِلُ الْيَاقُوتِ وَإِنْ قَلَّ يَقْدِرُ عَلَى بَيْعِهِ بِالْكَثِيرِ مِنَ الْمَالِ . وَالْعَمَلُ الَّذِي يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى الْحِيلِ وَالْخِدَاعِ لَا يَفْتَحِيهِ إِلَّا أَفْهَمُ الرِّجَالِ وَأَذْكَاهُمْ ، وَالرَّجُلُ الَّذِي يُحْتَاجُ إِلَى الْجُدُوعِ لَا يُجْزِيهِ الْقَصَبُ ، وَإِنْ كَثُرَ . فَأَنْتَ الْآنَ أَيُّهَا الْمَلِكُ حَقِيقٌ أَلَّا تَحْقِرَ مُرُوءَةً أَنْتَ تَجِدُهَا عِنْدَ رَجُلٍ صَغِيرِ الْمَنْزِلَةِ ؛ فَإِنَّ الصَّغِيرَ رُبَّمَا عَظُمَ ، كَالْعَصَبِ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنَ الْمَيْتَةِ فَإِذَا عَمِلَتْ مِنْهُ الْقَوْسُ أُكْرِمَ ، فَتَقْبِضُ عَلَيْهِ الْمُلُوكُ وَتَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي النَّاسِ وَاللَّهُوِ^(٣) .

وَأَحَبُّ دِمْنَةَ أَنْ يُرَى الْقَوْمُ أَنَّ مَا نَالَهُ مِنْ كَرَامَةِ الْمَلِكِ إِنَّمَا هُوَ لِرَأْيِهِ وَمُرُوءَتِهِ وَعَقْلِهِ ؛ لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا قَبْلَ ذَلِكَ : أَنَّ ذَلِكَ لِمَعْرِفَتِهِ أَبَاهُ . فَقَالَ : إِنَّ السُّلْطَانَ لَا يُقَرِّبُ الرِّجَالَ لِقُرْبِ آبَائِهِمْ ، وَلَا يُبْعِدُهُمْ لِبُعْدِهِمْ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ بِمَا عِنْدَهُ ؛ لِأَنَّهُ لَا شَيْءَ أَقْرَبَ إِلَى الرَّجُلِ مِنْ جَسَدِهِ ، وَمِنْ جَسَدِهِ مَا يَدْرِي حَتَّى يُؤْذِيَهُ ، وَلَا يُدْفَعُ ذَلِكَ عَنْهُ إِلَّا بِالْذَّوَاءِ الَّذِي يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِ^(٤) .

فَلَمَّا فَرَغَ دِمْنَةُ مِنْ مَقَالَتِهِ هَذِهِ أَعْجَبَ الْأَسَدُ بِهِ إِعْجَابًا شَدِيدًا وَأَحْسَنَ الرَّدَّ عَلَيْهِ وَزَادَ فِي

(١) ذَا النَّبْلِ : الفضل والذكاء . تَشُبَّ : تزداد .

(٢) يَأْتِيَهُمَا : يفعلهما . الْخُلُخَالُ (يفتح الخاء) : سوار تلبسه المرأة في الرجل للزينة : أما القِلَادَةُ ففليس في العنق . الْأَعْوَانُ : المساعدون .

(٣) الْجُدُوعُ : جمع جذع وهو ساق النخلة . لَا يَجْزِيهِ : لَا يَفْنِيهِ . الْعَصَبُ : المراد به المعنى واحد الأعماء .

(٤) يَدْرِي : يصيبه داء .

كَرَامَتِهِ. ثُمَّ قَالَ الْمَلِكُ لِجُلَسَائِهِ: يَنْبَغِي لِلسُّلْطَانِ أَلَّا يُلْحَقَ فِي تَضْيِيعِ حَقِّ ذَوِي الْحُقُوقِ؛ فَإِنَّ عَاقِبَةَ ذَلِكَ رَدِيقَةٌ حَتَّى مِمَّنْ لَا يَتَوَقَّعُ أَذَاهُ، وَالنَّاسُ فِي ذَلِكَ رَجُلَانِ: رَجُلٌ طَبِيعُهُ الشَّرَاسَةُ، فَهُوَ كَالْحَيَّةِ إِنْ وَطَّئَهَا الرُّوَاطِيُّ فَلَمْ تَلْدَغْهُ لَمْ يَكُنْ جَدِيرًا أَنْ يَغْرُهُ ذَلِكَ مِنْهَا فَيَعُودَ إِلَيْهَا وَطَّيْهَا ثَانِيَةً فَتَلْدَغْهُ، وَرَجُلٌ أَضْلُ طِبَاعِهِ السُّهُولَةُ، فَهُوَ كَالصَّنْدَلِ الْبَارِدِ الَّذِي إِذَا أُفْرِطَ فِي حَكِّهِ صَارَ حَارًّا مُؤَذِيًا^(١).

ثُمَّ إِنَّ دِمْنَةَ اسْتَأْنَسَ بِالْأَسَدِ وَخَلَا بِهِ فَقَالَ لَهُ يَوْمًا: رَأَيْتُ الْمَلِكَ قَدْ أَقَامَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، لَا يَخْرُجُ مِنْهُ خِلَافًا لِمَالُوفِهِ، وَهُوَ - أَعْظَمُهُ اللَّهُ - مَنِيعُ الْجَانِبِ، نَافِذُ الْأَمْرِ، آمِنُ السَّاحَةِ، فَرَأَيْتُ أَنْ أَتَطَاوَلَ عَلَيْهِ بِالْإِسْتِمْهَامِ عَلَى وَجْهِ النَّصِيحَةِ؛ فَإِنَّ الْأُمُورَ الْخَفِيَّةَ لَا يُظْهِرُهَا إِلَّا الْبَحْثُ عَنْهَا، فَإِذَا ظَهَرَتْ أُجِيلَتْ الْفِكْرَةُ فِيهَا، فَبَيْنَمَا هُمَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ، إِذْ خَارَ شَتْرِبُهُ خُورًا شَدِيدًا فَهَجَّجَ الْأَسَدُ، وَكَرِهَ أَنْ يُخْبِرَ دِمْنَةَ بِمَا نَالَهُ. وَعَلِمَ دِمْنَةُ أَنَّ ذَلِكَ الصَّوْتُ قَدْ أَدْخَلَ عَلَى الْأَسَدِ رِيئَةً وَهَيْبَةً؛ فَسَأَلَهُ هَلْ رَأَى الْمَلِكَ سَمَاعَ هَذَا الصَّوْتِ؟ قَالَ: لَمْ يَرِنْبِي شَيْءٌ سِوَى ذَلِكَ، وَهُوَ الَّذِي حَبَسَنِي هَذِهِ الْمُدَّةَ فِي مَكَانِي^(٢).

وَقَدْ صَبَحَ عِنْدِي مِنْ طَرِيقِ الْقِيَاسِ أَنَّ جَنَّةَ صَاحِبِ هَذَا الصَّوْتِ الْمُتَنَكِّرِ الَّذِي لَمْ أَسْمَعْهُ قَطُّ عَظِيمَةٌ، لِأَنَّ صَوْتَهُ تَابِعٌ لِبَدَنِهِ. فَإِنْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَلَيْسَ لَنَا مَعَهُ قَرَارٌ وَلَا مُقَامٌ! قَالَ دِمْنَةُ: لَيْسَ الْمَلِكُ بِحَقِيقٍ أَنْ يَدَّعَى مَكَانَهُ لِأَجْلِ صَوْتٍ. فَقَالَتِ الْعُلَمَاءُ: لَيْسَ مِنْ كُلِّ الْأَصْوَاتِ تَجِبُ الْهَيْبَةُ. قَالَ الْأَسَدُ: وَمَا مِثْلُ ذَلِكَ؟

مثل الثعلب والطبل

وهو مثل العظيم المظهر الحقير المخبر

قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّ ثَعْلَبًا أَتَى أَجَمَةً فِيهَا طَبْلٌ مُعَلَّقٌ عَلَى شَجَرَةٍ، وَكُلَّمَا هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى فُضْبَانِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ حَرَّكَتْهَا، فَضَرَبَتِ الطَّبْلَ، فَسَمِعَ لَهُ صَوْتُ عَظِيمٌ بَاهِرٌ؛ فَتَوَجَّهَ الثَّعْلَبُ

(١) أعجب به: أي عجب منه وسر وأعجبه. عاقبة: آخره. لا يتوقع: لا ينتظر. وطنها: داسها. تلدغه: تلسهه. الصندل: خشب طيب الرائحة ولخشبه ألوان مختلفة: حمر وبيض وطفير. وأخضره الأحمر، ثم الأصفر، وأبرده الأبيض.
(٢) مألوفة: ما تعود عليه وألفه واستأنس به. أجيلت: أدير. خار: أحدث صرًا ويسمى خورًا. رية: شكًا وقلقًا. راب الملك: أي أوقفه في الربيب والشك.

نَحْوَهُ لِأَجْلِ مَا سَمِعَ مِنْ عَظِيمِ صَوْتِهِ^(١).

فَلَمَّا أَنَاهُ وَجَدَهُ ضَحْماً فَأَيَّقَنَ فِي نَفْسِهِ بِكَثْرَةِ الشَّحْمِ وَاللَّحْمِ ، فَعَالَجَهُ حَتَّى شَقَّهُ فَلَمَّا رَأَهُ أَجُوفَ لَا شَيْءَ فِيهِ قَالَ : لَا أَذْرِي لَعَلَّ أَفْشَلَ الْأَشْيَاءِ أَجْهَرُهَا صَوْتًا ، وَأَعْظَمُهَا جُنَّةً ! وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ هَذَا الصَّوْتَ الَّذِي رَاعَنَا لَوْ وَصَلْنَا لَوْجَدْنَاهُ أَيْسَرَ مِمَّا فِي أَنْفُسِنَا . فَإِنْ شَاءَ حَمِيكَ بَعَثْنِي وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ حَتَّى آتِيَهُ بَيَانُ هَذَا الصَّوْتِ^(٢).

فَوَافَقَ الْأَسَدَ قَوْلُهُ ، فَأَذِنَ لَهُ فِي الذَّهَابِ نَحْوَ الصَّوْتِ ؛ فَأَنْطَلَقَ دِمْنَةُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ شَتْرَبُهُ . فَلَمَّا فَصَلَ دِمْنَةُ مِنْ عِنْدِ الْأَسَدِ ، فَكَّرَ الْأَسَدُ فِي أَمْرِهِ ، وَنَدِمَ عَلَى إِزْسَالِ دِمْنَةَ حَيْثُ أَرْسَلَهُ ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : مَا أَصَبْتُ فِي اتِّيمَانِي دِمْنَةَ ، وَإِطْلَاعِهِ عَلَى سِرِّي ، وَقَدْ كَانَ يَبَايِي مَطْرُوحًا^(٣) !.

فَإِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يَحْضُرُ بَابَ الْمَلِكِ ، إِذَا كَانَ قَدْ أُطِيلَتْ جَفَوْتُهُ مِنْ غَيْرِ جُزْمٍ كَانَ مِنْهُ ، أَوْ كَانَ مَبْغِيًا عَلَيْهِ عِنْدَ سُلْطَانِهِ ، أَوْ كَانَ عِنْدَهُ مَعْرُوفًا بِالشَّرِّهِ وَالْحِرْصِ ، أَوْ كَانَ قَدْ أَصَابَهُ ضَرٌّ وَضِيقٌ فَلَمْ يُنْعِشْهُ ، أَوْ كَانَ قَدْ أَجْتَرَمَ جُزْمًا فَهُوَ يَخَافُ الْعُقُوبَةَ مِنْهُ ، أَوْ كَانَ يَرْجُو شَيْئًا يَضُرُّ الْمَلِكَ ، وَلَهُ مِنْهُ نَفْعٌ ، أَوْ يَخَافُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَنْفَعُهُ ضُرًّا ، أَوْ كَانَ يَعْذُو الْمَلِكَ سِلْمًا ، وَلَيْسَلِمِهِ حَرْبًا ، أَوْ كَانَ قَدْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا فِي يَدَيْهِ مِنَ السُّلْطَانِ ، أَوْ بَاعَدَهُ ، أَوْ طَرَدَهُ ، فَلَيْسَ السُّلْطَانُ بِحَقِيقٍ أَنْ يَعْجَلَ فِي الْإِسْتِزْسَالِ إِلَى هَؤُلَاءِ ، وَالثَّقَةِ بِهِمْ ، وَالِإِتِّيمَانِ لَهُمْ .

وَإِنَّ دِمْنَةَ دَاهِيَةً أَرِيبَ ، وَقَدْ كَانَ يَبَايِي مَطْرُوحًا مَجْفُوفًا . وَلَعَلَّهُ قَدْ اخْتَمَلَ عَلَيَّ بِذَلِكَ ضِغْنًا ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَحْمِلُهُ عَلَى خِيَانَتِي وَإِعَانَةِ عَدُوِّي وَنَقِيسَتِي عِنْدَهُ ، وَلَعَلَّهُ أَنْ يُصَادِفَ صَاحِبَ الصَّوْتِ أَقْوَى سُلْطَانًا مِنِّي ، فَيَرُغَبَ بِهِ عَنِّي ، وَيَمِيلَ مَعَهُ عَلَيَّ^(٤) .

وَلَقَدْ كَانَ الْوَاجِبُ أَنْ أَهْجُمَ عَلَى صَاحِبِ هَذَا الصَّوْتِ بِنَفْسِي !! وَلَمْ يَزَلِ الْأَسَدُ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِأَمْنَالِ ذَلِكَ ، حَتَّى جَعَلَ يَمْشِي وَيَنْظُرُ إِلَى الطَّرِيقِ الَّتِي سَارَ فِيهَا دِمْنَةُ ، فَلَمْ يَمْشِ غَيْرَ قَلِيلٍ ، حَتَّى بَصُرَ بِدِمْنَةَ مُقْبِلًا نَحْوَهُ ، فَطَابَتْ نَفْسُهُ بِذَلِكَ ، وَرَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ ، وَدَخَلَ دِمْنَةَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ الْأَسَدُ : مَاذَا صَنَعْتَ ؟ وَمَاذَا رَأَيْتَ ؟ قَالَ : رَأَيْتُ ثَوْزًا ، وَهُوَ صَاحِبُ الْخَوَارِ وَالصَّوْتِ الَّذِي

(١) صح : ثبت . المنكر : القبيح المجهول . مقام : إقامة . أجمة : واحدة الأجم ، وهو الشجر الكثيف المتن . باهر : يقال : بهره الأمر : أجهده حتى تتابع نفسه وأدعشه وحيزه .

(٢) أفشل الأشياء : أضعف . أجهرها : أعلاها . راعنا : أزعنا . (٣) فصل : خرج وفارقه .

(٤) جفوته : مقاطعته . وهي ضد المواصلة والمؤانسة . جُزْم : ذنب . مَبْغِيًا عَلَيْهِ : مغتدى عليه مظلوماً . لم ينعشه : لم يجبره بعد فقره . سِلْمًا : مسالماً . حَرْبًا : محاربا . حِيل : اعترض . الانبساط والاستئناس والارتياح والاطمئنان . داهية : ذو دهاء . التاء المربوطة للمبالغة . ضغنا : حقدًا . ونقيصتي : ثلبي وذنبي . فيرغب عني : أي يفضله على .

قَالَ فَمَا قُوَّتُهُ؟^(١).

قَالَ : لَا شَوْكَةَ لَهُ ، وَقَدْ دَنَوْتُ مِنْهُ ، وَحَاوَرْتُهُ مُحَاوَرَةَ الْأَكْفَاءِ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِي شَيْئًا ! قَالَ الْأَسَدُ : لَا يَغْوُتُكَ ذَلِكَ مِنْهُ ، وَلَا يَضْعُرُنَّ عِنْدَكَ أَمْرُهُ ؛ فَإِنَّ الرِّيحَ الشَّدِيدَةَ لَا تَغْبَأُ بِضَعِيفِ الْحَشِيشِ ، لَكِنَّهَا تَحْطُمُ طَوَالَ النَّحْلِ ، وَعَظِيمَ الشَّجَرِ ، وَتَقْلَعُ الدَّوْحَةَ الْعَالِيَةَ مِنْ مَوْضِعِهَا . قَالَ دِمْنَةُ : لَا تَهَابَنَّ أَيُّهَا الْمَلِكُ مِنْهُ شَيْئًا ، وَلَا يَكْبِرَنَّ عَلَيْكَ أَمْرُهُ ! فَأَنَا عَلَى ضُعْفِي آتِيكَ بِهِ ، فَيَكُونُ لَكَ عَبْدًا سَامِعًا مُطِيعًا^(٢).

قَالَ الْأَسَدُ : دُونَكَ وَمَا بَدَا لَكَ ، وَقَدْ تَعَلَّقَ أَمْلُهُ بِهِ . فَأَنْطَلَقَ دِمْنَةُ إِلَى الثَّوْرِ فَقَالَ لَهُ غَيْرَ هَائِبٍ وَلَا مُكْتَرِثٍ : إِنَّ الْأَسَدَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ لِآتِيَهُ بِكَ ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَتَيْتَ إِلَيْهِ أَنْ أُؤَمِّنَكَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ ذَنْبِكَ فِي التَّأَخُّرِ عَنْهُ ، وَتَرْكِكَ لِقَاءَهُ ، وَإِنْ أَنْتَ تَأَخَّرْتَ وَأَحْجَمْتَ ، أَنْ أُعَجِّلَ الرَّجْعَةَ إِلَيْهِ فَأُخْبِرَهُ ، قَالَ لَهُ شَتْرَبَةُ : وَمَنْ هَذَا الْأَسَدُ الَّذِي أَرْسَلَكَ إِلَيَّ ؟ وَأَيْنَ هُوَ ؟ وَمَا حَالُهُ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : هُوَ مَلِكُ السَّبَاعِ ، وَهَذِهِ الْأَرْضُ الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا لَهُ ، وَهُوَ بِمَكَانٍ كَذَا ، وَمَعَهُ جُنْدٌ كَثِيرٌ مِنْ جَنْسِيهِ ؛ فَرُوعِبَ شَتْرَبَةُ مِنْ ذِكْرِ الْأَسَدِ وَالسَّبَاعِ ، وَقَالَ : إِنَّ أَنْتَ جَعَلْتَ لِي الْأَمَانَ عَلَى نَفْسِي أَقْبَلْتُ مَعَكَ إِلَيْهِ^(٣).

فَأَعْطَاهُ دِمْنَةُ مِنَ الْأَمَانِ مَا وَثِقَ بِهِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ وَالثَّوْرُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ ، فَأَحْسَنَ الْأَسَدُ إِلَى الثَّوْرِ وَقَرَّبَهُ وَقَالَ لَهُ :

مَتَى قَدِمْتَ لَهُذِهِ الْبِلَادَ ، وَمَا أَقْدَمَكَهَا ؟ فَقَصَّ شَتْرَبَةُ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ ، فَقَالَ لَهُ الْأَسَدُ : اصْحَبْنِي ، وَالزَّمْنِي فَإِنِّي مُكْرِمُكَ وَمُحْسِنُ إِلَيْكَ ؛ فَدَعَا لَهُ الثَّوْرُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَانْصَرَفَ وَقَدْ أُعْجِبَ بِهِ الْأَسَدُ إِعْجَابًا شَدِيدًا لِمَا ظَهَرَ لَهُ مِنْ عَقْلِهِ وَأَدَبِهِ ! ثُمَّ إِنَّهُ قَرَّبَهُ وَأَكْرَمَهُ وَأَنَسَ بِهِ وَاتَّكَمَنَهُ عَلَى أَسْرَارِهِ وَشَاوَرَهُ فِي أَمْرِهِ وَلَمْ تَرُدَّهُ الْآيَامُ إِلَّا أُعْجِبَا بِهِ ، وَرَغْبَةً فِيهِ ، وَتَقَرُّبًا لَهُ ، حَتَّى صَارَ أَحْصَى أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ مَنَزِلَةً^(٤).

(١) بَضُرِبَ : لَمَحَ .

(٢) لَا شَوْكَةَ لَهُ : بَاسٌ وَشَدَّةٌ . لَا تَغْبَأُ : لَا تَكْتَرِثُ . الْحَشِيشُ : الشَّجَرُ الْيَابِسُ . تَحْطُمُ : تَكْسِرُ . الدَّوْحَةُ : الشَّجَرَةُ الْعَالِيَةُ الْعَالِيَةُ : الَّتِي جَاوَزَتْ الْحَدَّ فِي كِبَرِهَا .

(٣) دُونَكَ : أَفْعَلُ . لِقَاءَهُ : مُقَابَلَتُهُ . أَحْجَمْتَ : كَفَفْتَ عَنْهُ هِيبةً . فُرُوعِبَ : أَيِ خَافَ وَأَصَابَهُ الرُّعْبُ وَالْهَلَعُ وَالْخَوْفُ .

(٤) وَقَرَّبَهُ : قَدَمَهُ فِي خِدْمَتِهِ وَجَعَلَهُ مِنْ خَوَاصِهِ . أَقْدَمَكَهَا : أَيِ جَعَلَكَ تَقْدُمَ إِلَيْهَا وَتَاتِيَهَا . عُجِبًا بِهِ : أَيِ زَهْوًا وَكِبَرًا .

فَلَمَّا رَأَى دِمْنُهُ أَنَّ الثَّوْرَ قَدِ اخْتَصَّ بِالْأَسَدِ دُونَهُ وَدُونَ أَصْحَابِهِ، وَأَنَّهُ قَدْ صَارَ صَاحِبَ رَأْيِهِ وَخَلَوَاتِهِ وَلَهْوِهِ، حَسَدَهُ حَسَدًا عَظِيمًا، وَبَلَغَ مِنْهُ غَيْظُهُ كُلَّ مَبْلَغٍ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى أَخِيهِ كَلِيلَةَ وَقَالَ لَهُ: أَلَا تَعْجَبُ يَا أَخِي مِنْ عَجْزِ رَأْيِي، وَضُعْفِي بِنَفْسِي؟! وَنَظَرِي فِيَمَا يَنْفَعُ الْأَسَدَ، وَأَغْفَلْتُ نَفْعَ نَفْسِي؛ حَتَّى جَلَبْتُ إِلَى الْأَسَدِ ثَوْرًا غَلَبَنِي عَلَى مَنْزِلَتِي! قَالَ كَلِيلَةُ: قَدْ أَصَابَكَ مَا أَصَابَ النَّاسِكَ. قَالَ دِمْنَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟^(١).

مَثَلُ النَّاسِكَ وَاللَّصِّ

قَالَ كَلِيلَةُ: زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكَا أَصَابَ مِنْ بَعْضِ الْمُلُوكِ كُسُوةً فَاخِرَةً، فَبَضَّرَ بِهِ سَارِقٌ، فَطَمَعَ فِي الثِّيَابِ، وَعَمِلَ عَلَى سَرِقَتِهَا، فَأَتَى النَّاسِكَ وَقَالَ لَهُ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَصْحَبَكَ، فَأَتَعَلَّمُ مِنْكَ، وَأَخَذَ عَنْكَ، فَأَذِنَ لَهُ النَّاسِكَ فِي صُحْبَتِهِ، فَصَحِبَهُ مُتَشَبِّهًا بِهِ، وَرَفَقَ لَهُ فِي خِدْمَتِهِ حَتَّى أَمِنَهُ النَّاسِكَ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ، فَرَصَدَهُ حَتَّى إِذَا ظَفِرَ بِهِ، وَأَمَكَّتَهُ الْفُرْصَةُ، أَخَذَ تِلْكَ الثِّيَابَ فَذَهَبَ بِهَا؛ فَلَمَّا فَقَدَ النَّاسِكَ ثِيَابَهُ، عَلِمَ أَنَّ صَاحِبَهُ قَدْ أَخَذَهَا، فَتَوَجَّهَ فِي طَلَبِهِ. فَمَرَّ فِي طَرِيقِهِ بِوَعْلَيْنِ يَتَنَاطَحَانِ، حَتَّى سَالَتْ دِمَاؤُهُمَا. فَجَاءَ ثَغْلَبٌ يَلُغُ فِي تِلْكَ الدَّمَاءِ، وَيَتَحَكَّكُ بِهِمَا وَيُزَاحِمُهُمَا، فَغَضِبَا مِنْهُ، وَأَقْبَلَا عَلَيْهِ بِنِطَاحِهِمَا؛ فَفَقَلَاهُ. فَعَجِبَ النَّاسِكَ مِنْ ذَلِكَ، وَمَضَى حَتَّى دَخَلَ إِحْدَى الْمُدُنِ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهَا قَرَى إِلَّا بَيْتَ امْرَأَةٍ فَتَزَلَّ بِهَا وَاسْتَضَافَهَا^(٢).

وَكَانَتْ لِلْمَرْأَةِ جَارِيَةٌ تُؤَاخِرُهَا، وَكَانَتْ الْجَارِيَةُ قَدْ عَلِقَتْ رَجُلًا تُرِيدُ أَنْ تَتَّخِذَهُ بَعْلًا لَهَا، وَقَدْ أَضَرَ ذَلِكَ بِمَوْلَاتِهَا، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا سَبِيلٌ إِلَى مُدَافَعَتِهِ. فَاخْتَالَتْ لِقَتْلِهِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِي اسْتَضَافَهَا فِيهَا النَّاسِكَ، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ وَافَى فَسَقَّتَهُ مِنَ الْحَمَرَةِ حَتَّى سَكِرَ وَنَامَ؛ فَلَمَّا اسْتَغْرَقَ فِي النَّوْمِ، وَنَامَ مَنْ فِي الْبَيْتِ عَمَدَتْ لِسَمِّ كَانَتْ قَدْ أَعَدَّتْهُ فِي قَصَبَةٍ لِيَتَنَفَّحَهُ فِي أَنْفِ الرَّجُلِ، فَلَمَّا أَرَادَتْ ذَلِكَ بَدَرَتْ مِنْ أَنْفِهِ عَطَسَةٌ فَعَكَسَتْ السَّمَّ إِلَى حَلْقِ الْمَرْأَةِ، فَوَقَعَتْ مَيِّتَةً، وَكُلَّ ذَلِكَ بَعَيْنِ النَّاسِكَ وَسَمِعِهِ^(٣).

(١) اختص: انفراد به. أغفلت: تركت وأهملت. أصاب: نال.

(٢) وعمل على سرقتها: سعى في سرقتها وأعد نفسه. ورق له: عامله باللطف. اطمأن إليه: سكن وأمن له. فرصه: ترقبه. بوعلين: يتسعين من تلبس الجبل مثني وعل. يُلُغ: يشرب بلسانه ويتحكك بهما: يتعرض لشرهما. قَرَى: ضيافة.

(٣) تؤاخرها: تبيحها بالأجرة. علقت رجلا: أحبته. وافى: أتى. عمدت: قصدت. أعدته: هيأته. بدرت: سبقت وأسرعت.

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ لَمْ يُصَدِّقْ أَنْ طَلَعَ الصَّبَاحُ، حَتَّى خَرَجَ يَتَنَغَّى مَنَزْلًا غَيْرَهُ، فَاسْتَضَافَ رَجُلًا
إِسْكَافًا، فَأَتَى بِهِ امْرَأَتَهُ، وَقَالَ لَهَا: انْظُرِي إِلَى هَذَا النَّاسِكِ، وَأَكْرِمِي مَثْوَاهُ، وَقُومِي بِخِدْمَتِهِ، فَقَدْ
دَعَانِي بَعْضُ أَصْدِقَائِي لِلشُّرْبِ عِنْدَهُ، ثُمَّ انْطَلَقَ ذَاهِبًا. وَكَانَ لِلْمَرْأَةِ ابْنَةٌ تُرِيدُ أَنْ تَزُوجَهَا لِرَجُلٍ
لَمْ يَكُنْ زَوْجَهَا يُرِيدُهُ، فَكَانَ الرَّجُلُ يَخْتَلِفُ إِلَى الْبَيْتِ فِي غِيَابِ زَوْجِهَا، وَالْوَسِيطُ بَيْنَهُمَا امْرَأَةٌ
حَبَّامٌ^(١).

فَأَرْسَلَتْ امْرَأَةُ الْإِسْكَافِ إِلَى امْرَأَةِ الْحَبَّامِ تَأْمُرُهَا بِالْمَسِيرِ إِلَيْهَا، وَتُعْرِفُ الرَّجُلَ غِيَابَ
زَوْجِهَا وَقَالَتْ: إِنَّ زَوْجِي قَدْ ذَهَبَ لِيَشْرَبَ عِنْدَ بَعْضِ أَصْدِقَائِهِ، وَإِنْ عَادَ لَا يَعُودُ إِلَّا سَكْرَانًا،
فَقُولِي لَهُ: يُسْرِعِ الْكَزَّةَ. ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ جَاءَ فَقَعَدَ عَلَى الْبَابِ يَنْتَظِرُ الْإِذْنَ، وَوَافَقَ ذَلِكَ مَجِيءَ
الْإِسْكَافِ سَكْرَانًا، فَرَأَى الرَّجُلَ فِي الظُّلْمَةِ، وَأَزَاتَابَ بِهِ فَلَمْ يُكَلِّمَهُ، وَدَخَلَ مُغَضَّبًا، إِلَى امْرَأَتِهِ،
فَأَوْجَعَهَا ضَرْبًا؛ ثُمَّ أَوْثَقَهَا فِي أُسْطُوَانَةٍ فِي الْمَنْزِلِ، وَذَهَبَ فَتَأَمَّ لَا يَعْقِلُ^(٢).

وَجَاءَتِ امْرَأَةُ الْحَبَّامِ تُعَلِّمُهَا أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ أَطَالَ الْجُلُوسَ، فَقَالَتْ لَهَا: انْظُرِي إِلَى مَا أَنَا فِيهِ
بِسَبَبِهِ، فَإِنْ شِئْتَ وَأَحْسَنْتِ إِلَيَّ وَحَلَلْتِنِي وَرَبَطْتِكِ مَكَانِي حَتَّى أَنْطَلِقَ إِلَيْهِ وَأَعْجَلَ الْعُودَةَ،
فَأُجَابَتِهَا امْرَأَةُ الْحَبَّامِ إِلَى ذَلِكَ وَحَلَّتْهَا، وَأَنْطَلَقَتْ إِلَى الرَّجُلِ، وَأَوْثَقَتْ هِيَ نَفْسَهَا مَكَانَهَا.
فَاسْتَيْقَظَ الْإِسْكَافُ قَبْلَ أَنْ تَعُودَ زَوْجَتُهُ فَتَادَاهَا بِاسْمِهَا فَلَمْ تُجِبْهُ امْرَأَةُ الْحَبَّامِ، وَخَافَتْ مِنْ
الْفَضِيحَةِ أَنْ يُنْكَرَ صَوْتُهَا، ثُمَّ دَعَاها ثَانِيَةً فَلَمْ تُجِبْهُ؛ فَاِمْتَلَأَ غَيْظًا وَحَنَقًا، وَقَامَ نَحْوَهَا بِالشَّفْرَةِ
فَجَدَعَ أَنْفَهَا، وَقَالَ: خُذِي هَذَا فَأَتَّحِفِي بِهِ صَدِيقَكَ، وَهُوَ لَا يَشْكُ فِي أَنَّهَا امْرَأَتُهُ؛ ثُمَّ جَاءَتِ
امْرَأَةُ الْإِسْكَافِ، فَرَأَتْ صُنْعَ زَوْجِهَا بِامْرَأَةِ الْحَبَّامِ، فَسَاءَها ذَلِكَ، وَأَكْبَرَتْهُ، وَحَلَّتْ وَثَاقَهَا^(٣).

فَأَنْطَلَقَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا مَجْدُوعَةً الْأَنْفِ، وَكُلُّ ذَلِكَ بَعَيْنِ النَّاسِكِ وَسَمْعِهِ. ثُمَّ إِنَّ امْرَأَةَ
الْإِسْكَافِ جَعَلَتْ تَبْتَهِلُ، وَتَدْعُو عَلَى زَوْجِهَا الَّذِي ظَلَمَهَا وَتَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ زَوْجِي قَدْ
ظَلَمَنِي فَأَعِدْ عَلَيَّ أَنْفِي صَحِيحًا! ثُمَّ رَفَعَتْ صَوْتَهَا، وَنَادَتْ زَوْجَهَا: أَيُّهَا الْفَاجِرُ الظَّالِمُ، قُمْ فَأَنْظُرْ

(١) إسْكَافًا: يصلح الأحذية ويخطها. مَثْوَاهُ: مقامه. يَخْتَلِفُ إِلَى الْبَيْتِ: يأتي بين وقت وآخر. حَبَّامٌ: وهو الذي يقوم بعملية الحجامة
وهي أن يشرط الجلد بمشط ثم يلقى في المحجمة قرطاس ملتهب أو قطن ونحوه لتفريغ الهواء ويضعها مكان الشرط بسرعة،
فينجذب الدم بقوة.

(٢) بالمصير إليها: بالرجوع إليها. الكزة: يجعل المحجي. مغضبا: غضبان. أوثقها: ربطها. أُسْطُوَانَةٌ: عمود.

(٣) ينكر صوتها: يلبس عليه، ويرى أنه ليس هو الصوت الممهود الذي يعرفه من قبل. حَنَقًا: اشتداء الغيظ. الشفرة: السكين.
فجدع أنفها: قطعها. صنّع زوجها: فعله. وأكبرته: رآه أمرا كبيرا وعظم عندها. ووثاقها: رباطها.

كَيْفَ صُنْعِكَ بِي؟! وَصُنْعُ اللَّهِ بِي كَيْفَ رَحِمَنِي، وَرَدَّ أَنْفِي صَحِيحًا كَمَا كَانَ؟! فَقَامَ؛ وَأَوْقَدَ الْمِصْبَاحَ وَنَظَرَ، فَإِذَا أَنْفُ زَوْجَتِهِ صَحِيحٌ^(١).

فَاسْتَعْفَرَ إِلَيْهَا، وَتَابَ عَنْ ذَنْبِهِ، وَاسْتَعْفَرَ إِلَى رَبِّهِ، وَأَمَّا امْرَأَةُ الْحَجَّامِ فَإِنَّهَا لَمَّا وَصَلَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا تَفَكَّرَتْ فِي طَلَبِ الْعُذْرِ عِنْدَ زَوْجِهَا وَأَهْلِهَا فِي جَذَعِ أَنْفِهَا، وَرَفْعِ الْأَلْبَاسِ، فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ السَّحَرِ اسْتَيْقَظَ الْحَجَّامُ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: هَاتِي أَدَوَاتِي كُلَّهَا فَإِنِّي أُرِيدُ الْمُضِيَّ إِلَى بَعْضِ الْأَشْرَافِ، فَأَتَتْهُ بِالْمُوسَى. فَقَالَ لَهَا: هَاتِي الْأَدَوَاتِ جَمِيعَهَا، فَلَمْ تَأْتِهِ إِلَّا بِالْمُوسَى. فَغَضِبَ حِينَ أَطَالَتْ التَّكْرَارَ وَزَمَاهَا بِهِ فَوَلَّوْثُ، وَصَاحَتْ: أَنْفِي أَنْفِي! وَجَلَبَتْ حَتَّى جَاءَ أَهْلُهَا وَأَقْرَبَاؤُهَا، فَرَأَوْهَا عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ، فَأَخَذُوا الْحَجَّامَ فَانْطَلَقُوا بِهِ إِلَى الْقَاضِي^(٢).

فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي: مَا حَمَلَكَ عَلَى جَذَعِ أَنْفِ امْرَأَتِكَ؟ فَلَمْ تَكُنْ لَهُ حُجَّةً يَحْتَجُّ بِهَا! فَأَمَرَ بِهِ الْقَاضِي أَنْ يُقْتَصَّ مِنْهُ، فَلَمَّا قُدِّمَ لِلْقِصَاصِ، وَافَى النَّاسُكَ فَتَقَدَّمَ إِلَى الْقَاضِي وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْحَاكِمُ، لَا يَسْتَبْهَنَنَّ عَلَيْكَ هَذَا الْأَمْرُ؛ فَإِنَّ اللَّصَّ لَيْسَ هُوَ الَّذِي سَرَقَنِي، وَإِنَّ التَّغْلَبَ لَيْسَ الْوَعْلَانِ قَتْلَاهُ، وَإِنَّ الْمَرْأَةَ لَيْسَ السُّمُّ قَتْلَهَا، وَإِنَّ امْرَأَةَ الْحَجَّامِ لَيْسَ زَوْجُهَا جَذَعُ أَنْفِهَا وَإِنَّمَا نَحْنُ فَعَلْنَا ذَلِكَ بِأَنْفُسِنَا. فَسَأَلَهُ الْقَاضِي عَنِ التَّفْسِيرِ فَأَخْبَرَهُ بِالْقِصَّةِ، فَأَمَرَ الْقَاضِي بِإِطْلَاقِ الْحَجَّامِ!^(٣).

قَالَ دِمْنَةُ: قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ وَهُوَ شَبِيهٌ بِأَمْرِي. وَلَعَلِّي مَا ضَرَرَنِي أَحَدٌ سِوَى نَفْسِي وَلَكِنْ مَا الْحِيلَةُ؟ قَالَ كَلِيلَةُ: أَخْبِرْنِي عَنْ رَأْيِكَ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَعْرِمَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ. قَالَ دِمْنَةُ: أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ الْيَوْمَ أَرْجُو أَنْ تَزِدَادَ مَنْزِلَتِي عِنْدَ الْأَسَدِ فَوْقَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ؛ وَلَكِنْ أَلْتَمِسُ أَنْ أَعُودَ إِلَى مَا كَانَتْ حَالِي عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ أُمُورًا ثَلَاثَةً الْعَاقِلُ جَدِيرٌ بِالنَّظَرِ فِيهَا وَالْاِخْتِيَالِ لَهَا بِجُهِدِهِ: مِنْهَا النَّظَرُ فِيمَا مَضَى مِنَ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ، أَنْ يَحْتَرِسَ مِنَ الضَّرِّ الَّذِي أَصَابَهُ فِيمَا سَلَفَ، لِقَلَّا يَعُودُ إِلَى ذَلِكَ الضَّرِّ، وَيَلْتَمِسَ النَّفْعَ الَّذِي مَضَى، وَيَخْتَالِ لِمُعَاوَدَتِهِ. وَمِنْهَا النَّظَرُ فِيمَا هُوَ مُقِيمٌ فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ، وَالِاسْتِثْنَاءِ مِمَّا يَنْفَعُ، وَالْهَرَبُ مِمَّا يَضُرُّ. وَمِنْهَا النَّظَرُ فِي مُسْتَقْبَلِ مَا يَرْجُو مِنَ النَّفْعِ، وَمَا يَخَافُ مِنَ قِبَلِ الضَّرِّ؛ لِيَسْتَتِمَّ مَا يَرْجُو وَيَتَوَقَّى مَا يَخَافُ بِجُهِدِهِ^(٤).

(١) تَبَهَّلُ: تَتَضَرَّعُ إِلَى اللَّهِ.

(٢) أَدَوَاتِي: آلَاتُ صِنَاعَةِ الْحِجَامَةِ؛ وَأَهْمُهَا: الْمُوسَى وَالْكَأْسُ وَالْقَطَنُ وَالْتِقَابُ. وَجَلَبَتْ: صَاحَتْ وَضَجَتْ لِتَجْلِبَ الْأَهْلَ وَمِنْ حَوْلِهَا مِنَ الْجَلْبَةِ وَالصَّيْحَانِ. (٣) مَا حَمَلَكَ؟ مَاذَا دَعَاكَ؟ يُقْتَصُّ مِنْهُ: يَعْاقَبُ. وَافَى: أَتَى.

(٤) أَلْتَمِسُ: أَطْلُبُ. جَدِيرٌ: خَلِيقٌ. الْاِخْتِيَالُ: الْإِثْبَانُ بِالْحِيلَةِ، وَهِيَ الْحَذَرُ وَجُودَةُ النَّظَرِ، وَالْقُدْرَةُ عَلَى دَقَّةِ التَّصَرُّفِ. وَالِاسْتِثْنَاءُ: التَّأَكُّدُ، وَمَعْنَى الْاسْتِثْنَاءِ: أَخَذَ الْوَثِيقَةَ، وَهِيَ مَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ.

وإِنِّي لَمَّا نَظَرْتُ فِي الْأَمْرِ الَّذِي بِهِ أَرْجُو أَنْ تَعُودَ مَنَزِلَتِي، وَمَا غُلِبْتُ عَلَيْهِ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ لَمْ أَجِدْ حِيلَةً وَلَا وَجْهًا إِلَّا الْاِخْتِيَالَ لِأَكِلِ الْعُشْبِ هَذَا حَتَّى أَفْرَقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ، فَإِنَّهُ إِنْ فَارَقَ الْأَسَدَ عَادَتْ لِي مَنَزِلَتِي^(١)، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَكُونُ خَيْرًا لِلْأَسَدِ، فَإِنَّ إِفْرَاطَهُ فِي تَقْرِيبِ الثَّوْرِ خَلِيقٌ أَنْ يَشِينَهُ وَيَضُرَّهُ فِي أَمْرِهِ.

قال كليله: ما أَرَى عَلَى الْأَسَدِ فِي رَأْيِهِ فِي الثَّوْرِ، وَمَكَانِهِ مِنْهُ وَمَنَزِلَتِهِ عِنْدَهُ شَيْئًا وَلَا شَرًّا. قال دمنة: إِنَّمَا يُؤْتَى السُّلْطَانُ، وَيَفْسُدُ أَمْرُهُ مِنْ قِتْلِ سِتَّةِ أَشْيَاءَ: الْجُرْمَانِ، وَالْفِتْنَةِ، وَالْهَوَى، وَالْفُظَاظَةَ، وَالزَّمَانَ، وَالْخُرْقَ. فَأَمَّا الْجُرْمَانُ فَإِنَّ يُحْرَمَ مِنْ صَالِحِي الْأَعْوَانِ وَالنُّصَحَاءِ وَالسَّاسَةِ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالنَّجْدَةِ وَالْأَمَانَةِ، وَأَنْ يَكُونَ مَنْ حَوْلَهُ فَاسِدًا مَا بَعْدَ مَا بَعْدَ مِنْ وَصُولِ أُمُورِ الْمُلْكِ إِلَيْهِ، وَأَنْ يَحْرَمَ هُوَ أَهْلَ النَّصِيحَةِ وَالصَّلَاحِ مِنْ عِنَايَتِهِ وَالتَّيْفَاتِهِ إِلَيْهِمْ. وَأَمَّا الْفِتْنَةُ فَهِيَ تَحَارُبُ رَعِيَّتِهِ وَوُقُوعُ الْخِلَافِ وَالنِّزَاعِ بَيْنَهُمْ^(٢).

وَأَمَّا الْهَوَى فَالْإِغْرَامُ بِالنِّسَاءِ وَالْحَدِيثِ وَاللَّهُوِ وَالشَّرَابِ وَالصَّيْدِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَأَمَّا الْفُظَاظَةُ فَهِيَ إِفْرَاطُ الشَّدَةِ حَتَّى يَجْمَعَ اللِّسَانُ بِالشَّئْمِ وَالْيَدُ بِالْبَطْشِ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهِمَا. وَأَمَّا الزَّمَانُ فَهُوَ مَا يُصِيبُ النَّاسَ مِنَ السِّنِينَ مِنَ الْمَوْتَانِ، وَنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَالْغَزَوَاتِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ^(٣).

وَأَمَّا الْخُرْقُ فَإِعْمَالُ الشَّدَةِ فِي مَوْضِعِ اللَّيْنِ، وَاللَّيْنُ فِي مَوْضِعِ الشَّدَةِ. وَإِنَّ الْأَسَدَ قَدْ أُغْرِمَ بِالثَّوْرِ إِغْرَامًا شَدِيدًا، هُوَ الَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ أَنَّهُ خَلِيقٌ أَنْ يَشِينَهُ وَيَضُرَّهُ فِي أَمْرِهِ. قال كليله: وَكَيْفَ تُطْلِقُ الثَّوْرَ، وَهُوَ أَشَدُّ مِنْكَ وَأَكْرَمُ عَلَى الْأَسَدِ مِنْكَ، وَأَكْثَرُ أَعْوَانًا؟ قال دمنة: لَا تَنْظُرْ إِلَى صِغَرِي وَضَعْفِي؛ فَإِنَّ الْأُمُورَ لَيْسَتْ بِالضَّعِيفِ وَلَا الْقُوَّةَ وَلَا الصَّغِيرَ وَلَا الْكَبِيرَ فِي الْجُنَّةِ، فَوَبَّ صَغِيرٍ ضَعِيفٍ قَدْ بَلَغَ بِحِيلَتِهِ وَدَهَائِهِ وَرَأْيِهِ مَا يَعْجُزُ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَقْوِيَاءِ. أَوْ لَمْ يَبْلُغْكَ أَنَّ غُرَابًا ضَعِيفًا أَحْتَالَ لِأَسْوَدَ حَتَّى قَتَلَهُ^(٤).

قال كليله: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

- (١) أَكَلِ الْعُشْبِ يَرِيدُ بِهِ الثَّوْرَ.
(٢) إِفْرَاطُهُ: مَجَاوِزَتُهُ الْحَدَّ. يُؤْتَى السُّلْطَانُ: أَي يَأْتِيهِ مَا يَكْرَهُ. السَّاسَةُ: جَمْعُ سَائِسٍ مِنْ سِيَاسَةِ الدَّوْلَةِ. وَهُوَ مَنْ يَتَوَلَّى أَمْرَ الرِّعَاةِ وَيُدَبِّرُهَا، وَيَحْسُنُ النَّظَرَ إِلَيْهَا. النَّجْدَةُ: الشَّدَةُ وَالْبَاسُ.
(٣) الْإِغْرَامُ: الْوَلَعُ وَالتَّمَلُّقُ. يَجْمَعُ اللِّسَانُ: يَسْبِقُ إِلَيْهِ. السَّنِي: أَيِ الَّتِي فِيهَا الشَّدَةُ وَالضَّيْقُ. الْمَوْتَانِ: مَوْتُ الْمَوَاشِيِّ. الْغَزَوَاتِ: جَمْعُ غَزْوَةٍ وَالْمَرَادُ الْحُرُوبُ.
(٤) الْأَسْوَدُ: حَبَّةٌ عَظِيمَةٌ.

مثل الخراب والأسود

وهو مثل الضعيف يخلب القويّ بالمشاورة والحيلة !

قال دمنه : زَعَمُوا أَنَّ غُرَابًا كَانَ لَهُ وَكْرٌ فِي شَجَرَةٍ عَلَى جَبَلٍ ، وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جُحْرٌ تُعْبَانِ
أَسْوَدٌ، فَكَانَ الْغُرَابُ إِذَا أَفْرَخَ عَمَدَ الْأَسْوَدَ إِلَى فِرَاحِهِ فَأَكَلَهَا. فَبَلَغَ ذَلِكَ مِنَ الْغُرَابِ؛ فَأَحْزَنَتْهُ،
فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ مِنْ بَنَاتِ آوَى، وَقَالَ لَهُ: أُرِيدُ مُشَاوَرَتَكَ فِي أَمْرٍ قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْهِ، قَالَ:
وَمَا هُوَ؟ قَالَ الْغُرَابُ: قَدْ عَزَمْتُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْأَسْوَدِ إِذَا نَامَ؛ فَأَنْقُرَ عَيْنَيْهِ فَأَقْفَأَهُمَا لَعَلِّي أَسْتَرِيحُ
مِنْهُ! قَالَ ابْنُ آوَى: بِمَنْسِ الْحِيلَةِ الَّتِي احْتَلْتِ، فَالْتِمِسِ أَمْرًا تُصِيبُ فِيهِ بُعَيْتَكَ مِنَ الْأَسْوَدِ مِنْ غَيْرِ
أَنْ تُغَرَّرَ بِنَفْسِكَ وَتُخَاطِرَ بِهَا^(١).

وإِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ مِثْلَكَ مِثْلَ الْغُلْجُومِ الَّذِي أَرَادَ قَتْلَ السَّرْطَانِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ! قَالَ الْغُرَابُ : وَكَيْفَ
كَانَ ذَلِكَ؟ قَالَ ابْنُ آوَى: زَعَمُوا أَنَّ غُلْجُومًا عَشَّشَ فِي أَجْمَةٍ كَثِيرَةِ السَّمَكِ، فَكَانَ يَخْتَلِفُ إِلَى
مَا فِيهَا مِنَ السَّمَكِ، فَيَأْكُلُ مِنْهُ ، فَعَاشَ بِهَا مَا عَاشَ، ثُمَّ هَرِمَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ صَيْدًا فَأَصَابَهُ جُوعٌ
وَجَهْدٌ شَدِيدٌ ، فَجَلَسَ حَزِينًا يَلْتَمِسُ الْحِيلَةَ فِي أَمْرِهِ ، فَمَرَّ بِهِ سَرْطَانٌ فَرَأَى حَالَتَهُ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ
مِنَ الْكَآبَةِ، وَالْحُزَنِ، فَذَنَّا مِنْهُ وَقَالَ لَهُ: مَا لِي أَرَاكَ أَيُّهَا الطَّائِرُ هَكَذَا حَزِينًا كَيْبِنًا؟ قَالَ الْغُلْجُومُ:
وَكَيفَ لَا أَحْزَنُ وَقَدْ كُنْتُ أَعِيشُ مِنْ صَيْدٍ مَا هُنَا مِنَ السَّمَكِ؟!^(٢).

وإِنِّي رَأَيْتُ الْيَوْمَ صَيَّادَيْنِ قَدْ مَرَا بِهَذَا الْمَكَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إِنَّ هُنَا سَمَكًا كَثِيرًا
أَفَلَا نَصِيدُهُ أَوْ لَا؟! فَقَالَ الْآخَرُ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ فِي مَكَانٍ كَذَا سَمَكًا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا السَّمَكِ؛ فَلْتَبَدَأْ
بِذَلِكَ فَإِذَا فَرَعْنَا مِنْهُ جِئْنَا إِلَى هَذَا أَقْفَيْنَاهُ! وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُمَا إِذَا فَرَعَا مَعًا ثُمَّ، انْتَهَيَا إِلَى هَذِهِ
الْأَجْمَةِ فَاصْطَادَا مَا فِيهَا، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَهُوَ هَلَاكِي وَنَفَاذُ مُدَّتِي^(٣)! فَانْطَلَقَ السَّرْطَانُ إِلَى
جَمَاعَةِ السَّمَكِ، فَأَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ. فَأَقْبَلْنَ عَلَى الْغُلْجُومِ فَاسْتَشْرَفْنَهُ وَقُلْنَ لَهُ : إِنَّا أَتَيْنَاكَ لِتُشِيرَ
عَلَيْنَا، فَإِنَّ ذَا الْعَقْلِ لَا يَدَعُ مُشَاوَرَةَ عَدُوِّهِ وَبِقَاوُكَ يَبْقَاؤُنَا. قَالَ الْغُلْجُومُ: أَمَّا مَكَابِرَةُ الصَّيَّادَيْنِ، فَلَا

(١) حجر تُعْبَانِ : مكان حية ضخمة . فبلغ ذلك من الغراب : اشتد الأمر عليه . تغرر بنفسك : تخاطر بها .

(٢) الْغُلْجُومُ : طائر أبيض . يختلف إليها : يتردد . هرم : بلغ أقصى الكبر . سَرْطَانُ : حيوان مائي .

(٣) ثُمَّ : هناك . نفاد مدتي : فَنائي وانتهاء أجلي .

طاقة لي بها، ولا أعلم حيلة إلا المصير إلى غدير قريب من هنا فيه سمك ومياه كثيرة وقصبت؛ فإن استطعتم الانتقال إليه كان فيه صلاحكم وخصبكم. فقلن له : ما يمتن علينا بذلك غيرك^(١).

فجعل العلجوم يحمل في كل يوم سمكتين حتى ينتهي بهما إلى بغض التلال، فيأكلهما. حتى إذا كان ذات يوم جاء لأخذ السمكتين فجاءه السرطان فقال له: إني أيضا قد أشفقت من مكاني هذا واستوحشت منه فاذهب بي إلى ذلك الغدير فقال له : حبا وكرامة واحتملة وطار به حتى إذا دنا من التل الذي كان يأكل السمك فيه، نظر السرطان فرأى عظام السمك مجموعة هناك، فعلم أن العلجوم هو صاحبها، وأنه يريد به مثل ذلك؛ فقال في نفسه: إذا لقي الرجل عدوه في المواطن التي يعلم أنه فيها هالك سواء قاتل أم لم يقاتل كان حقيقا أن يقاتل عن نفسه كرمًا وحفاظًا^(٢)، ولا يمكنه من نفسه حتى يستفرغ ما عنده من الحيلة في قتاله؛ لأنه قد بنى أمره على التل؛ فلعل خلاصه في ذلك القتال والهلاك واقع به كيف كان. فلم يزل يحتال على العلجوم حتى تمكن من عنقه فأهوى بكلبتيه عليها فعصرها فمات! وتخلص السرطان إلى جماعة السمك فأخبرهن بذلك. وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أن بغض الحيلة مهلكة للمحتال. ولكني أدلك على أمر إن أنت قدرت عليه كان فيه هلاك الأسود من غير أن تهلك به نفسك وتكون فيه سلا مئتك^(٣).

قال الغراب : وما ذاك ؟ قال ابن أوى : تنطلق فتبصر في طيرانك لعلك أن تطفر بشيء من حلبي النساء فتخطفه، ولا تزال طائرًا واقعا بحيث لا تقوئ العيون فإذا رأيت الناس قد تبعوك، تأتي جحر الأسود، فتزمي بالحلبي عنده. فإذا رأى الناس ذلك أخذوا حلبيهم، وأراحوك من الأسود. فأنطلق الغراب مُحلقًا في السماء فوجد امرأة من بنات العظماء، على شاطئ نهر تنسِل، وقد وضعت ثيابها وحليها ناحية، فانقض وأخذ طف من حلبيها عقدًا، وطار به فتبعه الناس، ولم يزل طائرًا واقعا بحيث يراه كل أحد حتى انتهى إلى جحر الأسود فألقى العقد عليه،

(١) مكابرة الصيادين : مغالبتهم، ومعاندتهم. فلا طاقة لي بها : لا قدرة لي عليها. غدير : نهر. وخصبكم : رفاة عيشكم. ما يمتن : ما ينعم.

(٢) أشفقت : جفت. حبا وكرامة : الحب الجرة، وكرامة : غطاؤها، قيل : إن أحدهم طلب من آخر حبا. أي جزة فقال له : حبا وكرامة. أي : خذ؛ فذهب مثلا يضرب لمن يطلب شيئا فيع لي شيئين وقيل غير ذلك. حفاظا : محافظة وعزة ودفاعا عن نفسه.

(٣) أهوى : هجم. بكلبتيه : أي ناييه.

وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ. فَلَمَّا أَتَوْا أَخَذُوا الْعَقِدَ وَقَتَلُوا الْأَسَدَ^(١).

وَإِنَّمَا صَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْحِيلَةَ تُجْزِي مَا لَا تُجْزِي الْقُوَّةُ. قَالَ كَلِيلَةُ: إِنَّ الثَّوْرَ لَوْ لَمْ يَجْتَمِعْ مَعَ شِدَّتِهِ رَأْيُهُ لَكَانَ كَمَا تَقُولُ، وَلَكِنْ لَهُ مَعَ شِدَّتِهِ وَقُوَّتِهِ حُسْنُ الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ فَمَاذَا تَسْتَطِيعُ لَهُ؟ قَالَ دَمْنَةُ: إِنَّ الثَّوْرَ لَكَمَا ذَكَرْتَ فِي قُوَّتِهِ، وَرَأْيِهِ، وَلَكِنَّهُ مُقَرَّرٌ لِي بِالْفَضْلِ، وَأَنَا خَلِيقٌ أَنْ أَصْرَعَهُ كَمَا صَرَعْتَ الْأَرْنبَ الْأَسَدَ. قَالَ كَلِيلَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟^(٢).

مثل الأرنب والأسد

وهو مثل الضعيف يغلب بالمشاورة والحيلة القوي

قَالَ دَمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّ أَسَدًا كَانَ فِي أَرْضٍ كَثِيرَةِ الْمِيَاهِ وَالْعُشْبِ، وَكَانَ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ مِنَ الْوُحُوشِ فِي سَعَةِ الْمِيَاهِ وَالْمَرْعَى شَيْءٌ كَثِيرٌ. إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهَا ذَلِكَ لِيَخَوْفُهَا مِنَ الْأَسَدِ؛ فَاجْتَمَعَتْ، وَأَتَتْ إِلَى الْأَسَدِ، فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّكَ لَتُصِيبُ مِنَّا الدَّابَّةَ بَعْدَ الْجَهْدِ وَالتَّعَبِ. وَقَدْ رَأَيْنَا لَكَ رَأْيًا فِيهِ صَلَاحٌ لَكَ، وَأَمْرٌ لَنَا. فَإِنْ أَتَتْ أَمْنَتْنَا، وَلَمْ تُخَفْنَا؛ فَلَكْ عَلَيْنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ دَابَّةٌ نُرْسِلُ بِهَا إِلَيْكَ فِي وَقْتِ غَدَائِكَ. فَرَضِي الْأَسَدُ بِذَلِكَ، وَصَالَحَ الْوَحْشَ عَلَيْهِ، وَوَفَّيْنَاهُ بِهِ. ثُمَّ إِنَّ أَرْنبًا أَصَابَتْهُ الْقُرْعَةُ، وَصَارَتْ غَدَاءَ الْأَسَدِ؛ فَقَالَتْ لِلْوُحُوشِ: إِنْ أَتَيْتُمْ رَفَقَتُنِّي فِيْمَا لَا يَضُرُّكُمْ رَجَوْتُ أَنْ أُرِيحَكُمْ مِنَ الْأَسَدِ^(٣).

فَقَالَتِ الْوُحُوشُ: وَمَا الَّذِي تُكَلِّفِنَا مِنَ الْأُمُورِ؟ قَالَتْ: تَأْمُرُونَ الَّذِي يَنْطَلِقُ بِي إِلَى الْأَسَدِ أَنْ يُمَهِّدَنِي رَيْثِمًا أَبْطِئُ عَلَيْهِ بَعْضَ الْإِبْطَاءِ؛ فَقُلْنَ لَهَا: ذَلِكَ لَكَ. فَانْطَلَقَتِ الْأَرْنبُ مُتَبَاطِئَةً، حَتَّى جَاوَزَتِ الْوَقْتَ الَّذِي كَانَ يَتَعَدَّى فِيهِ الْأَسَدُ! ثُمَّ تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ وَخَذَهَا رُوَيْدًا، وَقَدْ جَاعَ؛ فَغَضِبَ وَقَامَ مِنْ مَكَانِهِ نَحْوَهَا، فَقَالَ لَهَا: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتِ؟ قَالَتْ: أَنَا رَسُولُ الْوُحُوشِ إِلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَنِي وَمَعِيَ أَرْنبٌ لَكَ، فَتَبِعَنِي أَسَدٌ فِي بَعْضِ تِلْكَ الطَّرِيقِ، فَأَخَذَهَا مِنِّي، وَقَالَ: أَنَا أَوْلَى بِهِ مِنْ الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْوَحْشِ^(٤).

(١) فتبصر: أي تطلب أن ترى. واقعا: أي تطير وتقع. من وقع الطائر إذا نزل على شجر أو أرض. محلقا: أي مرتفعا بطيرانه مستديرا كالحلقة. فانقض: سقط بسرعة. عقدا: قلادة توضع في العنق.

(٢) تجزى: تنفى. أصرعه: أهلكه. (٣) القرعة: حيلة وطريقة يتعين بها سهم الإنسان ونصيبه.

(٤) ريثما: أي مقدارا من الزمان ومهلة ما. متباطئة: غير متسعة. رويدا: متأنية.

فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ هَذَا عَدَاءُ الْمَلِكِ أَرْسَلَتْ بِهِ الْوُحُوشَ إِلَيْهِ ، فَلَا تَعْصِبْنَهُ ، فَسَبَّكَ وَشَتَمَكَ ؛ فَأَقْبَلْتُ مُسْرِعَةً لِأُخْبِرَكَ ! فَقَالَ الْأَسَدُ : انْطَلِقِي مَعِيَ فَأَرِنِي مَوْضِعَ هَذَا الْأَسَدِ ؛ فَأَنْطَلَقْتُ الْأَرْنَبُ إِلَى الْجُبِّ فِيهِ مَاءٌ غَامِرٌ صَافٍ ؛ فَأَطْلَعْتُ فِيهِ وَقَالَتْ : هَذَا الْمَكَانُ . فَأَطْلَعَ الْأَسَدُ فَرَأَى ظِلَّهُ ، وَظَلَّ الْأَرْنَبُ فِي الْمَاءِ فَلَمْ يَشْكُ فِي قَوْلِهَا وَوَتَبَ الْأَسَدُ لِيَقَاتِلَهُ فَعَرِقَ فِي الْجُبِّ ! فَأَنْقَلَبَتِ الْأَرْنَبُ إِلَى الْوُحُوشِ ، فَأَعْلَمَتْهُنَّ صَنِيعَهَا بِالْأَسَدِ ^(١) .

قال كليله : إِنْ قَدَرْتَ عَلَى هَلَاكِ الثَّوْرِ بِشَيْءٍ لَيْسَ فِيهِ مَضَرَّةٌ لِلْأَسَدِ فَشَأْنُكَ ، فَإِنَّ الثَّوْرَ قَدْ أَضَرَّ بِي وَبِكَ وَبَعِيرَنَا مِنَ الْجُنْدِ ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا بِهَلَاكِ الْأَسَدِ فَلَا تُقَدِّمِ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ غَدْرٌ مِنِّي وَمِنْكَ . ثُمَّ إِنْ دِمْنَةُ تَرَكَ الدُّخُولَ عَلَى الْأَسَدِ أَيَّامًا كَثِيرَةً ، ثُمَّ أَتَاهُ عَلَى خَلْوَةٍ مِنْهُ ، فَقَالَ لَهُ الْأَسَدُ : مَا حَبَسَكَ عَنِّي مُنْذُ زَمَانٍ لَمْ أَرَكَ ؟ أَلَا لِيُخْبِرَكَ أَنَّ انْقِطَاعَكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : لِيَكُنْ خَيْرًا أَتِيهَا الْمَلِكُ . قَالَ الْأَسَدُ : وَهَلْ حَدَّثَ أَمْرًا ؟ قَالَ دِمْنَةُ : حَدَّثَ مَا لَمْ يَكُنِ الْمَلِكُ يُرِيدُهُ ، وَلَا أَحَدٌ مِنَ جُنْدِهِ . قَالَ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : كَلَامٌ فَطِيعٌ !! قَالَ : أَخْبِرْنِي بِهِ ^(٢) .

قال دمنه : إِنْ كُلَّ كَلَامٍ يَكْرَهُهُ سَامِعُهُ ، لَا يَجْسُرُ عَلَيْهِ قَائِلُهُ ، وَإِنْ كَانَ نَاصِحًا مُشْفِقًا إِلَّا إِذَا كَانَ الْمَقُولُ لَهُ عَاقِلًا ، فَإِنْ اتَّفَقَ ذَلِكَ حَمَلَ الْقَوْلَ عَلَى عَمَلِ الْمَحَبَّةِ ، وَعِلِمَ مَا فِيهِ مِنَ النَّصِيحَةِ ؛ لِأَنَّ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ نَفْعٍ فَهُوَ لَهُ . وَإِنَّكَ أَتِيهَا الْمَلِكُ لَذُو فَضِيلَةٍ ، وَرَأَيْكَ يَذُوكَ عَلَى أَنْ يُوجِعَنِي أَنْ أَقُولَ مَا تَكْرَهُ ، وَإِنِّي وَائِثٌ بِكَ أَنْتَ تَعْرِفُ نُصْجِي وَإِيثَارِي إِيَّاكَ عَلَى نَفْسِي ، وَإِنَّهُ لَيَعْرِضُ لِي أَنْتَ غَيْرُ مُصَدِّقِي فِيمَا أُخْبِرُكَ بِهِ ، وَلَكِنِّي إِذَا تَذَكَّرْتُ وَتَفَكَّرْتُ إِنَّ نَفُوسَنَا مَعَاشِرَ الْوُحُوشِ مُتَعَلِّقَةٌ بِكَ ، لَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ آدَاءِ النَّصِيحَةِ الَّتِي يَلْزِمُنِي ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَسْأَلْنِي أَوْ خِفْتُ أَلَّا تَقْبَلَهُ مِنِّي ؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ : مَنْ كَتَمَ السُّلْطَانَ نَصِيحَتَهُ وَالْأَطْبَاءَ مَرَضَهُ وَالْإِخْوَانَ رَأْيَهُ فَقَدْ خَانَ نَفْسَهُ ^(٣) .

قال الأسد : فَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : حَدَّثَنِي الْأَمِينُ الصَّدُوقُ عِنْدِي أَنَّ شَتْرَبَةَ خَلَا بِرُغُوسِ جُنْدِكَ ؛ وَقَالَ لَهُمْ : إِنِّي قَدْ خَبَرْتُ الْأَسَدَ ، وَبَلَوْتُ رَأْيَهُ وَمَكِيدَتَهُ وَقُوَّتَهُ ، فَاسْتَبَانَ لِي أَنَّ ذَلِكَ يَقُولُ مِنْهُ إِلَى ضَعْفٍ وَعَجْزٍ ، وَسَيَكُونُ لِي وَلَهُ شَأْنٌ مِنَ الشُّثُونِ ^(٤) .

(١) جُب : بئر . غامر : كثير . وثب : قفز . فانقلبت : رجعت . صنيعة : فعلها .

(٢) فشأنك : أي افعل ما تريد . فلا تقدم : أي لا تجترئ .

(٣) لا يجسر : لا يجرؤ . مشفقًا : حريصًا على إصلاحه . وإيثاري إياك : تفضيلي . ليمرض : ليهضر . معاشر الوحوش : جماعة الوحوش . آداء النصيحة : إيصاله .

(٤) خبرت الأسد : امتحنت . بلوت : جربت . ومكيدته : مكره وحيلته . يتول منه : يرجع . شأن : أمر .

فَلَمَّا بَلَغْنِي ذَلِكَ عَلِمْتُ أَنَّ شَتْرَبَةَ حَوَّانَ غَدَّارٍ، وَأَنَّكَ أَكْرَمْتَهُ الْكَرَامَةَ كُلَّهَا، وَجَعَلْتَهُ نَظِيرَ
نَفْسِكَ، فَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ مِثْلُكَ، وَأَنَّكَ مَتَى زُلْتَ عَنْ مَكَانِكَ، كَانَ لَهُ مُلْكُكَ، وَلَا يَدْعُ جُهْدًا إِلَّا
بَلَّغَهُ فِيكَ. وَقَدْ كَانَ يُقَالُ إِذَا عَرَفَ الْمَلِكُ مِنْ أَحَدٍ رَعِيَّتِهِ أَنَّهُ قَدْ سَاوَاهُ فِي الْمَنْزِلَةِ وَالْحَالِ
فَلْيُضَرِّعْهُ، فَإِنْ هُوَ لَمْ يَفْعَلْ بِهِ ذَلِكَ كَانَ هُوَ الْمَضْرُوعُ. وَشَتْرَبَةُ أَعْلَمُ بِالْأُمُورِ وَأَبْلَغُ فِيهَا، وَالْعَاقِلُ
هُوَ الَّذِي يَحْتَالُ لِلْأَمْرِ قَبْلَ تَمَامِهِ وَوُقُوعِهِ؛ فَإِنَّكَ لَا تَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ وَلَا تَسْتَدْرِكُهُ. فَإِنَّهُ يُقَالُ:
الرِّجَالُ ثَلَاثَةٌ: حَازِمٌ، وَأَحْزَمٌ مِنْهُ، وَعَاجِزٌ. فَأَخَذَ الْحَازِمِينَ مَنْ إِذَا نَزَلَ بِهِ الْأَمْرُ لَمْ يَدْهَشْ لَهُ، وَلَمْ
يَذْهَبْ قَلْبُهُ شِعَاعًا، وَلَمْ تَغَيَّ بِهِ حِيلَتُهُ وَمَكِيدَتُهُ الَّتِي يَرْجُو بِهَا الْمَخْرَجَ مِنْهُ^(١).

وَأَحْزَمٌ مِنْ هَذَا الْمِقْدَامِ ذُو الْعُدَّةِ الَّذِي يَعْرِفُ الْإِبْتِلَاءَ قَبْلَ وَقُوعِهِ فَيُعْظِمُهُ إِعْظَامًا، وَيَحْتَالُ لَهُ
حِيلَةً حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ لَزِمَهُ فَيَحْسِمُ الدَّاءَ قَبْلَ أَنْ يُبْتَلَى بِهِ، وَيَدْفَعُ الْأَمْرَ قَبْلَ وَقُوعِهِ. وَأَمَّا الْعَاجِزُ فَهُوَ
فِي تَرَدُّدٍ وَتَمَنٍّ وَتَوَانٍ، حَتَّى يَهْلِكَ. وَمِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ مَثَلُ السَّمَكَاتِ الثَّلَاثِ. قَالَ الْأَسَدُ: وَكَيْفَ
كَانَ ذَلِكَ؟^(٢).

مثل السمكات الثلاث

وهو مثل الحازم الذي يقع في الورطة فينجو بالحيلة، والأحزم الذي لا
يقع فيها، والعاجز الذي يقع فيها فيهلك

قَالَ دِمْنَةُ: زَعَمُوا أَنَّ غَدِيرًا كَانَ فِيهِ ثَلَاثٌ مِنَ السَّمَكِ: كَيْسَةٌ، وَأَكْيَسٌ مِنْهَا، وَعَاجِزَةٌ.
وَكَانَ ذَلِكَ الْغَدِيرُ يَنْجُو مِنَ الْأَرْضِ، لَا يَكَادُ يَقْرُبُهُ أَحَدٌ، وَيَقْرُبُهُ نَهْرٌ جَارٍ، فَاتَّقَى أَنَّهُ اجْتَارَ بِذَلِكَ
النَّهْرِ صَيَّادَانِ، فَأَبْصَرَا الْغَدِيرَ، فَتَوَاعَدَا أَنْ يَرْجِعَا إِلَيْهِ بِشَبَاكِهِمَا، فَيَصِيدَا مَا فِيهِ مِنَ السَّمَكِ؛
فَسَمِعَ السَّمَكَاتُ قَوْلَهُمَا؛ فَأَمَّا أَكْيَسُهُنَّ فَلَمَّا سَمِعَتْ قَوْلَهُمَا ازْتَابَتْ بِهِمَا، وَتَخَوَّفَتْ مِنْهُمَا فَلَمْ
تُعْرَجْ عَلَى شَيْءٍ، حَتَّى خَرَجَتْ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ الْمَاءُ مِنَ النَّهْرِ إِلَى الْغَدِيرِ فَتَجَحَّتْ
بِنَفْسِهَا، وَأَمَّا الْكَيْسَةُ الْأُخْرَى فَإِنَّهَا مَكَثَتْ مَكَانَهَا وَتَهَاوَنَتْ فِي الْأَمْرِ حَتَّى جَاءَ الصَّيَّادَانِ، فَلَمَّا
رَأَتْهُمَا وَعَرَفَتْ مَا يُرِيدَانِ ذَهَبَتْ لِتَخْرُجَ مِنْ حَيْثُ يَدْخُلُ الْمَاءُ، فَإِذَا بِهِمَا قَدْ سَدَّا ذَلِكَ الْمَكَانَ.

(١) جهدا: طاقة واحتياطا. ولا تستدركه: تتلافاه. لم يدهش له: يتحير. شعاعاً: متفرقا. ولم تغني به حيلته: لم تعجز.

(٢) المقدام: الجريء الكثير الإقدام. الابتلاء: المحنة. فيُعْظِمُهُ: أي يعده عظيمًا. فيحسم: يقطع. وتوان: فتور وتقصير.

فَحِينَئِذٍ قَالَتْ: فَرُطْتُ، وَهَذِهِ عَاقِبَةُ التَّفْرِيطِ! فَكَيْفَ الْحِيلَةُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ! وَقَلَمًا تَنْجَحُ حِيلُهُ الْعَجَلَةِ وَالْإِزْهَاقِ (١)

غَيْرَ أَنَّ الْعَاقِلَ لَا يَقْنَطُ مِنْ مَنَافِعِ الرَّأْيِ، وَلَا يَتَأَسُّ عَلَى حَالٍ، وَلَا يَدْعُ الرَّأْيَ وَالْجَهْدَ. ثُمَّ إِنَّهَا تَمَازَوَتْ، فَطَفَّتْ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ مُنْقَلِبَةً عَلَى ظَهْرِهَا تَارَةً وَتَارَةً عَلَى بَطْنِهَا. فَأَخَذَهَا الصَّيَّادَانِ وَظَنَّاها مَيْتَةً فَوَضَعَاها عَلَى الْأَرْضِ، بَيْنَ النَّهْرِ وَالْغَدِيرِ، فَوَثَبَتْ إِلَى النَّهْرِ فَتَحَتْ (٢).

وَأَمَّا الْعَاجِزَةُ فَلَمْ تَزَلْ فِي إِقْبَالٍ وَإِذْبَارٍ حَتَّى صِيدَتْ! قَالَ الْأَسَدُ: قَدْ فَهِمْتُ ذَلِكَ، وَلَا أَظُنُّ النَّوْرَ يَعْشِي، وَلَا يَرْجُو لِي الْغَوَائِلَ. وَكَيْفَ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَلَمْ يَرِ مِنِّي سُوءًا قَطُّ، وَلَمْ أَدْعُ خَيْرًا إِلَّا فَعَلْتُهُ مَعَهُ، وَلَا أُمْنِيَّةَ إِلَّا بَلَّغْتُهُ إِثَّاهَا. قَالَ دُمْنَةُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُ لَمْ يَحْمِلْهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا مَا ذَكَرْتَهُ مِنْ إِكْرَامِكَ لَهُ وَتَبْلِيغِكَ إِثَّاهُ كُلِّ مَنْزِلَةٍ خِلا مَنْزِلَتِكَ، وَإِنَّهُ مُتَطَلِّعٌ إِلَيْهَا. فَإِنَّ اللَّيِّمَ لَا يَزَالُ نَافِعًا نَاصِحًا حَتَّى يُرْفَعَ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ، فَإِذَا بَلَغَهَا اشْرَأَبَتْ نَفْسُهُ إِلَى مَا فَوْقَهَا وَلَا سِيَّمَا أَهْلُ الْخِيَانَةِ وَالْفُجُورِ. فَإِنَّ اللَّيِّمَ الْفَاجِرَ لَا يَخْدُمُ السُّلْطَانَ، وَلَا يَنْصَحُ لَهُ إِلَّا مِنْ فَرْقٍ أَوْ حَاجَةٍ، فَإِذَا اسْتَعْنَى، وَذَهَبَتِ الْهَيْبَةُ، وَالْحَاجَةُ عَادَ إِلَى جَوْهَرِهِ. كَذَنِبَ الْكَلْبُ الَّذِي يُرَبَّطُ لِيَسْتَقِيمَ، فَلَا يَزَالُ مُسْتَوِيًّا مَا دَامَ مَرْبُوطًا فَإِذَا حُلَّ انْحَنَى وَتَعَوَّجَ كَمَا كَانَ (٣).

وَأَعْلَمُ أَيُّهَا الْمَلِكُ، أَنَّهُ مِنْ لَمْ يَقْبَلْ مِنْ نَصَحَائِهِ مَا يَتَّقُلُ عَلَيْهِ مِمَّا يَنْصَحُونَ لَهُ لَمْ يَحْمَدْ غَيْبَ رَأْيِهِ، كَالْمَرِيضِ الَّذِي يَدْعُ مَا يَصِفُ لَهُ الطَّبِيبُ، وَيَعْمِدُ لِمَا تَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ، وَحَقٌّ عَلَى مُوَازِرِ السُّلْطَانِ أَنْ يُبَالِغَ فِي التَّحْضِيضِ لَهُ عَلَى مَا يَرِيدُ بِهِ سُلْطَانُهُ قُوَّةَ وَتَرِيئُهُ وَالْكَفَّ عَمَّا يَضُرُّهُ وَيَبْشِيئُهُ (٤).

وَخَيْرُ الْإِخْوَانِ وَالْأَعْوَانِ أَقْلُهُمْ مُدَاهَنَةً فِي النَّصِيحَةِ، وَخَيْرُ الْأَعْمَالِ أَحْمَدُهَا عَاقِبَةً، وَخَيْرُ النِّسَاءِ الْمُوَافِقَةُ لِبَغْلِهَا، وَخَيْرُ النَّسَاءِ مَا كَانَ عَلَى أَقْوَاهِ الْأَخْيَارِ، وَأَفْضَلُ الْمُلُوكِ مَنْ لَا يُخَالِطُهُ بَطَرٌ وَلَا يَسْتَكْبِرُ عَنْ قَبُولِ النَّصِيحَةِ. وَخَيْرُ الْأَخْلَاقِ أَعْوَنُهَا عَلَى الزُّورِ. وَقَدْ قِيلَ: لَوْ أَنَّ امْرَأَةً تَوَسَّدَ النَّارَ، وَافْتَرَشَ الْحَيَّاتِ، كَانَ أَحَقَّ أَنْ يَهْنَأَ النَّوْمُ مِمَّنْ يُحَسُّ مِنْ صَاحِبِهِ بِعَدَاوَةٍ يَرِيدُهَا،

(١) كَيْسَةُ: عاقلة حسنة التاني. بنجوة: ما ارتفع من الأرض. اجتاز: مر. ارتابت: شكت. لم تعرج: أي لم تقف ولم تعطف، ولم تجل. فرطت: قصرت. الإزهاق: الضيق والمسر.

(٢) لا يقنط: لا يقطع الأمل. تماوتت: أظهرت أنها ميتة. طفت: علت على وجه الماء.

(٣) الغوائل: المهلك التي تغتال الإنسان والحيوان. أمانة: ما يتمناه. لم يحمله: لم يخره. متطلع: رافع بصره ينظر إليها. اشرابت: ارتفعت وتناولت. الفجور: المعاصي. فرق: خوف. جوهره: أصله.

(٤) غيب رايه: عاقبه. موازر السلطان: معاونه. التحضيض: الحث. يشينه: يعيبه.

وَيُطْمِئِنُّ إِلَيْهِ، وَأَعْجَزُ الْمُلُوكِ أَخَذَهُمْ بِالْهُوْنَاءِ وَأَقْلَهُمْ نَظَرًا فِي مُسْتَقْبَلِ الْأُمُورِ، وَأَشْبَهُهُمْ بِالْفِيلِ الْهَائِجِ الَّذِي لَا يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ، فَإِنْ أَحْرَزَتْهُ أَمْرٌ تَهَاوَنَ بِهِ، وَإِنْ أَضَاعَ الْأُمُورَ حَمَلَ ذَلِكَ عَلَى قُرْنَائِهِ^(١).

قال الأسد: لَقَدْ أَعْلَظْتُ فِي الْقَوْلِ وَقَوْلِ النَّاصِحِ مَقْبُولٌ مَحْمُولٌ!! وَإِنْ كَانَ شَرِبُهُ مُعَادِيًا لِي كَمَا تَقُولُ، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَضُرَّنِي، وَلَا أَنْ يُفْتَّ فِي سَاعِدِي، وَكَيْفَ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ آكِلُ عُشْبٍ، وَأَنَا آكِلُ لَحْمٍ؟ وَإِنَّمَا هُوَ لِي طَعَامٌ، وَلَيْسَ عَلَيَّ مِنْهُ مَخَافَةٌ. ثُمَّ لَيْسَ إِلَى الْعَدْرِ بِهِ سَبِيلٌ بَعْدَ الْأَمَانِ الَّذِي جَعَلْتَهُ لَهُ، وَبَعْدَ إِكْرَامِي لَهُ، وَثَنَائِي عَلَيْهِ، وَإِنْ غَيَّرْتُ مَا كَانَ مِنِّي وَبَدَّلْتُهُ. فَقَدْ سَفَهْتُ رَأْيِي، وَجَهَلْتُ نَفْسِي، وَعَدَرْتُ بِذِمَّتِي، وَنَقَضْتُ عَهْدِي^(٢)!

قال دمنة: لَا يُعْرَنُكَ قَوْلُكَ هُوَ لِي طَعَامٌ وَلَيْسَ عَلَيَّ مِنْهُ مَخَافَةٌ؛ فَإِنَّ شَرِبَتِهِ إِنْ لَمْ يَسْتَطِيعَكَ يَنْفُسِهِ، احْتَالَ لَكَ مِنْ قَبْلِ غَيْرِهِ. وَيُقَالُ: إِنْ اسْتَضَافَكَ ضَيْفٌ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُ أَخْلَاقَهُ فَلَا تَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِكَ، وَلَا تَأْمَنُ أَنْ يَصِلَكَ مِنْهُ أَوْ يَسْبِيَهُ مَا أَصَابَ الْقَمَلَةَ مِنَ الْبُرْغُوثِ! قَالَ الْأَسَدُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ^(٣)!

مثل القملة والبرغوث

وهو مثل من يُصيبه الشر بسبب غيره

قال دمنة: زَعَمُوا أَنَّ قَمَلَةً لَزِمَتْ فِرَاشَ رَجُلٍ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ دَهْرًا، فَكَانَتْ تُصِيبُ مِنْ دَمِهِ وَهُوَ نَائِمٌ لَا يَشْعُرُ، وَتَدِبُ دَبِيحًا رَفِيقًا. فَمَكَثَتْ كَذَلِكَ حِينًا حَتَّى اسْتَضَافَهَا لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، بُرْغُوثٌ، فَقَالَتْ لَهُ: بَيْتُ اللَّيْلَةِ عِنْدَنَا فِي دَمٍ طَيِّبٍ، وَفِرَاشٍ لَيِّنٍ! فَأَقَامَ الْبُرْغُوثُ عِنْدَهَا، حَتَّى إِذَا أَوَى الرَّجُلُ إِلَى فِرَاشِهِ وَثَبَ عَلَيْهِ الْبُرْغُوثُ فَلَدَعَهُ لَدَعَةً أَقْبَطَتْهُ وَأَطَارَتْ النَّوْمَ عَنْهُ. فَقَامَ الرَّجُلُ، وَأَمَرَ أَنْ يُفْتَشَّ فِرَاشُهُ، فَنُظِرَ فَلَمْ يَرِ إِلَّا الْقَمَلَةَ، فَأَخَذَتْ فَقَصَّصَتْ، وَقَوَّ الْبُرْغُوثُ!^(٤).

(١) مداهنة: غشا وتدليساً. بطر: طغيان بالنعمة. الورع: التقوى. توشد النار: اتخذها وسادة أي مخدة. افترش الحيات: اتخذها فراشا. آخذهم: أكثرهم أخذًا. الهوناء: الرفق والتأني والمراد بها هنا الفتور. والتواني: استحقره واستهزأ به. قرنائه: جمع قرين وهو العشير.

(٢) يَفْتُ في ساعدي: يضعفني. سفهت رأبي: نسبته إلى السفه. جهلت نفسي: نسبته إلى الجهل. وعدرت بذي: عهدي وحرمتي. نقضت عهدي: أبطلته ولم أحافظ عليه.

(٣) استضافك: طلب منك أن تنزله ضيفا عليك. (٤) رقيقا: لطيفا بحيث لا يشعر بها. قصصت: أي قتلت بالظفر.

وَأَمَّا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ صَاحِبَ الشَّرِّ لَا يَسْلَمُ مِنْ شَرِّهِ أَحَدٌ. وَإِنْ هُوَ ضَعُفَ عَنْ ذَلِكَ جَاءَ الشَّرُّ بِسَبَبِهِ. وَإِنْ كُنْتَ لَا تَخَافُ مِنْ شَرِّبِهِ، فَخَفَ غَيْرُهُ مِنْ جُنْدِكَ الَّذِينَ قَدْ حَرَّشَهُمْ عَلَيْكَ، وَحَمَلَهُمْ عَلَى عِدَاوَتِكَ. فَوَقَعَ فِي نَفْسِ الْأَسَدِ كَلَامٌ دِمْنَةً، فَقَالَ: فَمَا الَّذِي تَرَى إِذَنْ؟ وَبِمَاذَا تُثِيرُ؟ قَالَ دِمْنَةٌ: إِنَّ الضُّرْسَ الْمَأْكُولَ لَا يَزَالُ صَاحِبُهُ مِنْهُ فِي أَلَمٍ وَأَذَى حَتَّى يَقْلَعَهُ، وَالطَّعَامَ الَّذِي قَدْ عَفِنَ فِي الْبَطْنِ الرَّاحَةَ فِي قَذْفِهِ، وَالْعَدُوَّ الْمُخِيفَ دَوَاؤُهُ قَتْلُهُ^(١).

قَالَ الْأَسَدُ: لَقَدْ تَرَكْتَنِي أَكْرَهُ مُجَاوَرَةَ شَرِّبِهِ إِثَّي، وَأَنَا مُرْسِلٌ إِلَيْهِ، وَذَاكَ لَهُ مَا وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ؛ ثُمَّ أَمَرَهُ بِاللَّحَاقِ حَيْثُ أَحَبَّ. فَكَرِهَ دِمْنَةً ذَلِكَ، وَعَلِمَ أَنَّ الْأَسَدَ مَتَى كَلَّمَ شَرِّبَهُ فِي ذَلِكَ، وَسَمِعَ مِنْهُ جَوَابًا، عَرَفَ بِاطِلَ مَا أَتَى بِهِ، وَأُطْلِعَ عَلَى عَذْرِهِ وَكَذِبِهِ، وَلَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ أَمْرُهُ! فَقَالَ لِلْأَسَدِ: أَمَّا إِسْأَلُكَ إِلَى شَرِّبِهِ فَلَا أَرَاهُ لَكَ رَأْيًا وَلَا حَزْمًا؛ فَلْيَنْظُرِ الْمَلِكُ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ لَكَ فِي نَفْسِكَ الْخِيَارُ مَا دَامَ لَا يَعْلَمُ أَنَّ أَمْرَهُ قَدْ وَصَلَ إِلَيْكَ. فَإِنَّهُ مَتَى عَلِمَ ذَلِكَ خِفْتُ أَنَّ يُعَاجِلَ الْمَلِكُ بِالْمُكَابَرَةِ. وَهُوَ إِنْ قَاتَلَكَ قَاتَلَكَ مُسْتَعِدًّا، وَإِنْ فَارَقَكَ فِرَاقًا يَلِيكَ مِنْهُ النُّقْصُ، وَيَلْزَمُكَ مِنْهُ الْعَارُ. مَعَ أَنَّ ذَوِي الرَّأْيِ مِنَ الْمُلُوكِ لَا يُغْلِنُونَ عُقُوبَةَ مَنْ لَمْ يُغْلِنْ ذَنْبَهُ. وَلَكِنْ لِكُلِّ ذَنْبٍ عِنْدَهُمْ عُقُوبَةٌ: فَلِذَنْبِ الْعِلَاقِيَّةِ عُقُوبَةُ الْعِلَاقِيَّةِ، وَلِذَنْبِ السَّرْرِ عُقُوبَةُ السَّرِّ^(٢).

قَالَ الْأَسَدُ: إِنَّ الْمَلِكَ إِذَا عَاقَبَ أَحَدًا عَنْ ظُلْمَةٍ ظَنَّنَا مِنْ غَيْرِ تَيَقُّنٍ لِجُرْمِهِ فَتَنَفَسَهُ عَاقِبَ، وَإِيَّاهَا ظَلَمَ، وَكَانَ نَاقِصَ الْبَصِيرَةِ! قَالَ دِمْنَةً: أَمَّا إِذَا كَانَ هَذَا رَأْيَ الْمَلِكِ فَلَا يَدْخُلُ عَلَيْكَ شَرِّبُهُ إِلَّا وَأَنْتَ مُسْتَعِدٌّ لَهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُصِيبَهُ مِنْكَ غِرَّةٌ أَوْ غَفْلَةٌ؛ فَإِنِّي لَا أَحْسِبُ الْمَلِكَ حِينَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ إِلَّا سَيَعْرِفُ أَنَّهُ قَدْ هَمَّ بِعَظِيمَةٍ^(٣).

وَمِنْ عِلَامَاتِ ذَلِكَ أَنَّكَ تَرَى هَيْئَتَهُ مُتَغَيِّرَةً، وَتَرَى أَوْصَالَهُ تُرْعَدُ، وَتَرَاهُ مُلْتَفِتًا يَمِينًا وَشِمَالًا، وَتَرَاهُ يَصُوبُ قَرْيَتَهُ فَعَلَ الَّذِي هَمَّ بِالنَّطَاحِ وَالْقِتَالِ! قَالَ الْأَسَدُ: سَأَكُونُ مِنْهُ عَلَى حَدَرٍ، وَإِنْ رَأَيْتُ مِنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْتُ عَلِمْتُ أَنَّ مَا فِي أَمْرِهِ شَكٌّ. فَلَمَّا فَرَعَ دِمْنَةً مِنْ تَحْرِيشِ الْأَسَدِ عَلَى الثَّوْرِ وَعَرَفَ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مَا كَانَ يَلْتَمِسُ، وَأَنَّ الْأَسَدَ سَيَتَحَذَّرُ مِنَ الثَّوْرِ، وَيَتَهَيَّأُ لَهُ، أَرَادَ

(١) حَرَّشَهُمْ عَلَيْكَ: أَغْرَاهُمْ بِكَ. فَوَقَعَ فِي نَفْسِ الْأَسَدِ: أَثَرُ فِيهَا. الضُّرْسُ الْمَأْكُولُ: الْمَنْخُورُ.

(٢) بِاللَّحَاقِ: الْإِدْرَاكُ. لَا يَزَالُ لَكَ الْخِيَارُ: أَيُّ أَنَّ الْأَمْرَ مَفُوضٌ إِلَيْكَ وَلَا تَزَالُ خَيْرًا. بِالْمُكَابَرَةِ: بِالْمَعَانِدَةِ. يَلِيكَ: يَلْحَقُكَ.

(٣) ظُلْمَةٌ: تَهْمَةٌ. لَجْرَمِهِ: ذَنْبُهُ. غِفْلَةٌ: غَفْلَةٌ.

أَنْ يَأْتِيَ الثَّوْرَ لِيُغْرِبَهُ بِالْأَسَدِ، وَأَحَبُّ أَنْ يَكُونَ إِثْبَانُهُ مِنْ قِبَلِ الْأَسَدِ مَخَافَةَ أَنْ يَبْلُغَهُ ذَلِكَ فَيَتَأَذَى بِهِ^(١)!

فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، أَلَا أَتَى شَتْرَبَةً؛ فَأَنْظُرْ إِلَى حَالِهِ وَأَمْرِهِ، وَأَسْمَعْ كَلَامَهُ؛ لَعَلِّي أَنْ أَطْلِعَ عَلَى سِرِّهِ، فَأُطْلِعَ الْمَلِكَ عَلَى ذَلِكَ، وَعَلَى مَا يَظْهَرُ لِي مِنْهُ؟ فَأَذِنَ لَهُ الْأَسَدُ فِي ذَلِكَ، فَأَنْطَلَقَ فَدَخَلَ عَلَى شَتْرَبَةَ كَالْكَيْبِ الْحَزِينِ! فَلَمَّا رَأَاهُ الثَّوْرُ رَحَّبَ بِهِ، وَقَالَ: مَا كَانَ سَبَبَ انْقِطَاعِكَ عَنِّي؟ فَإِنِّي لَمْ أَرَكَ مُنْذُ أَيَّامٍ، أَسْلَامَةً هُوَ؟ قَالَ دِمْنَةُ: وَمَتَى كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّلَامَةِ مَنْ لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ؟ وَأَمْرُهُ يَبِيدُ غَيْرَهُ مِمَّنْ لَا يُوثِقُ بِهِ، وَلَا يَنْفَكُ عَلَى خَطَرٍ وَخَوْفٍ، حَتَّى مَا مِنْ سَاعَةٍ تَمُرُّ وَيَأْمَنُ فِيهَا عَلَى نَفْسِهِ^(٢).

قَالَ شَتْرَبَةُ: وَمَا الَّذِي حَدَّثَ؟ قَالَ دِمْنَةُ: حَدَّثَ مَا قُدِّرَ وَهُوَ كَائِنٌ، وَمَنْ ذَا الَّذِي غَالَبَ الْقَدَرَ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي بَلَغَ مِنَ الدُّنْيَا جَسِيمًا مِنَ الْأُمُورِ فَلَمْ يَنْظُرْ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي بَلَغَ مِنْهُ فَلَمْ يَغْتَرْ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي تَبِعَ هَوَاهُ فَلَمْ يَحْزَنْ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي حَادَثَ النِّسَاءَ فَلَمْ يُصَبْ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي طَلَبَ مِنَ اللَّثَامِ فَلَمْ يُحْزَمْ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي خَالَطَ الْأَشْرَارَ فَتَسَلَّمَ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي صَحِبَ السُّلْطَانَ فَدَامَ لَهُ مِنْهُ الْأَمْنُ وَالْإِحْسَانُ؟ وَلَقَدْ صَدَقَ الَّذِي قَالَ: مَثَلُ السُّلَاطِينِ فِي قِلَّةِ وَفَائِهِمْ لِمَنْ صَحِبَهُمْ وَسَخَاءِ أَنْفُسِهِمْ بِمَنْ فَقَدُوا مِنْ قُرَنَائِهِمْ كَمَثَلِ صَاحِبِ الْخَانِ كُلَّمَا فَقَدَ وَاحِدًا جَاءَ آخَرُ. قَالَ شَتْرَبَةُ: إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ كَلَامًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ رَابَكَ مِنَ الْأَسَدِ رَيْبٌ، وَهَالِكٌ مِنْهُ أَمْرٌ. قَالَ دِمْنَةُ: أَجَلٌ لَقَدْ رَأَيْتَنِي مِنْهُ ذَلِكَ، وَلَيْسَ هُوَ فِي أَمْرِ نَفْسِي. قَالَ شَتْرَبَةُ: فَبِمَا نَفْسُ مَنْ رَابَكَ. قَالَ دِمْنَةُ: قَدْ تَعَلَّمُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَتَعْلَمُ حَقَّكَ عَلَيَّ، وَمَا كُنْتُ جَعَلْتُ لَكَ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ أَيَّامَ أَرْسَلَنِي الْأَسَدُ إِلَيْكَ، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ حِفْظِكَ وَإِطْلَاعِكَ عَلَى مَا أَطْلَعْتُ عَلَيْهِ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكَ مِنْهُ. قَالَ شَتْرَبَةُ: وَمَا الَّذِي بَلَغَكَ؟ قَالَ دِمْنَةُ: حَدَّثَنِي الْخَبِيرُ الصَّدُوقُ الَّذِي لَا مِرْيَةَ فِي قَوْلِهِ أَنَّ الْأَسَدَ قَالَ لِيُغَضِّ أَصْحَابَهُ وَجُلَسَائِهِ: قَدْ أَغْجَبَنِي سِمْنُ الثَّوْرِ، وَلَيْسَ لِي إِلَى حَيَاتِهِ حَاجَةٌ، فَأَنَا أَكُلُهُ وَمُطْعِمُ أَصْحَابِي مِنْ لَحْمِهِ، فَلَمَّا بَلَغَنِي هَذَا الْقَوْلُ، وَعَرَفْتُ عَدْرَهُ وَسُوءَ عَهْدِهِ، أَقْبَلْتُ إِلَيْكَ؛ لِأَقْضِي حَقَّكَ، وَتَحْتَالَ أَنْتَ لِأَمْرِكَ! فَلَمَّا سَمِعَ شَتْرَبَةُ كَلَامَ دِمْنَةَ، وَتَذَكَّرَ مَا كَانَ دِمْنَةُ جَعَلَ لَهُ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ، وَفَكَرَفِي أَمْرَ الْأَسَدِ، ظَنَّ أَنَّ دِمْنَةَ قَدْ صَدَقَهُ، وَنَصَحَ لَهُ، وَرَأَى

(١) أوصاله: مفاصله. ترتعد: ترتعد وترتطمش وتهتز. يصبوب قرنيه: يحكمهما نحوك. ليغربه بالأسد: ليجرحه عليه.

(٢) كالكيب: كالمغموم المنكسر الخاطر. رحب به: قال له مرحبا وأحسن استقباله ولقائه.

أَنَّ الْأَمْرَ شَبِيهٌ بِمَا قَالَ دِمْنَةُ^(١).

فَأَهَمَّهُ ذَلِكَ، وَقَالَ: مَا كَانَ لِلْأَسَدِ أَنْ يَغْدِرَ بِي، وَلَمْ آتِ إِلَيْهِ ذَنْبًا، وَلَا إِلَيَّ أَحَدٌ مِنْ جُنْدِهِ مُنْذُ صَحَبْتُهُ، وَلَا أَظُنُّ الْأَسَدَ إِلَّا قَدْ حُمِلَ عَلَيَّ بِالْكَذِبِ، وَشُبِّهَ عَلَيَّ أَمْرِي، فَإِنَّ الْأَسَدَ قَدْ صَحَبَهُ قَوْمٌ سُوءٌ، وَخَرَّبَ مِنْهُمْ الْكَذِبَ، وَأُمُورًا تُصَدَّقُ إِذَا بَلَغَتْهُ عَنْ غَيْرِهِمْ؛ فَإِنَّ صُحْبَةَ الْأَشْرَارِ رُبَّمَا أَوْرَثَتْ صَاحِبَهَا سُوءَ ظَنٍّ بِالْأَخْيَارِ، وَحَمَلَهُ مَا يَخْتَبِرُهُ مِنْهُمْ عَلَى الْخَطَا فِي حَقِّ غَيْرِهِمْ.

مثل البطة وضوء الكوكب

وهو مثل من يقيس الأشياء بمظاهرها فيخطئ الصواب

كَحَطَا الْبُطَّةَ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا رَأَتْ فِي الْمَاءِ ضَوْءَ كَوْكَبٍ، فَظَنَّتْهُ سَمَكَةً فَحَاوَلَتْ أَنْ تَصِيدَهَا^(٢).

فَلَمَّا جَرَبَتْ ذَلِكَ مِرَارًا عَلِمَتْ أَنَّه لَيْسَ بِشَيْءٍ يُصَادُ، فَتَرَكَتْهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْ غَدِ ذَلِكَ الْيَوْمِ سَمَكَةً، فَظَنَّتْ أَنَّهَا مِثْلُ الَّذِي رَأَتْهُ بِالْأَمْسِ، فَتَرَكَتْهَا وَلَمْ تَطْلُبْ صَيْدَهَا. فَإِنَّ كَانَ الْأَسَدَ قَدْ بَلَغَهُ عَنِّي كَذِبٌ، فَصَدَّقَهُ عَلَيَّ، وَسَمِعَهُ فِيَّ فَمَا جَرَى عَلَيَّ غَيْرِي يَجْرِي عَلَيَّ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَبْلُغْهُ شَيْءٌ وَأَرَادَ السُّوءُ بِي مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ أَعْجَبُ الْأُمُورِ. وَقَدْ كَانَ يُقَالُ: إِنَّ مِنَ الْعَجَبِ أَنْ يَطْلُبَ الرَّجُلُ رِضًا صَاحِبِهِ وَلَا يَرْضَى. وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَلْتَمِسَ رِضَاهُ فَيَسْخَطُ. فَإِذَا كَانَتْ الْمَوْجِدَةُ عَنْ عِلَّةٍ، كَانَ الرِّضَى مَوْجُودًا، وَالْعَفْوُ مَأْمُولًا. وَإِذَا كَانَتْ عَنْ غَيْرِ عِلَّةٍ، انْقَطَعَ الرَّجَاءُ؛ لِأَنَّ الْعِلَّةَ إِذَا كَانَتْ الْمَوْجِدَةُ فِي وَرُودِهَا^(٣). كَانَ الرِّضَى مَأْمُولًا فِي صُدُورِهَا. وَقَدْ نَظَرْتُ: فَلَا أَعْلَمُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْأَسَدِ جُرْمًا وَلَا كَبِيرَ ذَنْبٍ، وَلَا صَغِيرَهُ. وَلَعَمْرِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَطَالَ صُحْبَةَ صَاحِبٍ أَنْ يَخْتَرِسَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَلَا أَنْ يَتَحَفَّظَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ كَبِيرَةٌ أَوْ صَغِيرَةٌ يَكْرَهُهَا صَاحِبُهُ. وَلَكِنَّ الرَّجُلَ ذَا الْعَقْلِ وَالْوَفَاءِ إِذَا سَقَطَ عِنْدَهُ صَاحِبُهُ سَقَطَ نَظَرُ فِيهَا، وَعَرَفَ قَدْرَ مَبْلَغِ خَطِيئِهِ عَمْدًا كَانَ أَوْ خَطَا^(٤).

ثُمَّ يَنْظُرُ هَلْ فِي الصَّفْحِ عَنْهُ أَمْرٌ يَخَافُ ضَرْرَهُ وَشَيْئُهُ، فَلَا يُؤَاخِذُ صَاحِبَهُ بِشَيْءٍ يَجِدُ فِيهِ إِلَى

(١) لا مرية في قوله: لا شك. (٢) حُجِلَ عَلَيَّ: أَيِ أَغْرُوهُ لِيُطِشَ بِي. وَشُبِّهَ عَلَيْهِ أَمْرِي. التَّبَسُّ.

(٣) المَوْجِدَةُ: الْمَضْبُوبُ. الْوَرُودُ: بُلُوغُ الْمَاءِ وَالْقَرَبُ مِنْهُ مِنْ غَيْرِ دُخُولٍ. وَقَدْ يَحْصُلُ دُخُولُ فِيهِ، أَمَّا الصَّدُورُ فَهُوَ خِلَافُ الْوَرُودِ.

(٤) وَلَعَمْرِي: أَقْسَمُ بِعَمْرِهِ وَحَيَاتِهِ. يَتَحَفَّظُ: يَحْتَرِسُ. سَقَطَ: أَخْطَأَ. عَمْدًا: قَصْدًا.

الصَّفْحَ عَنْهُ سَبِيلًا. فَإِنْ كَانَ الْأَسَدُ قَدْ اعْتَقَدَ عَلَيَّ ذَنْبًا، فَلَسْتُ أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنِّي خَالَفْتُهُ فِي بَعْضِ رَأْيِهِ بَطْرًا مِنِّي، وَنَصِيحَةً لَهُ، فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَنْزَلَ أَمْرِي عَلَى الْجَرَاءَةِ عَلَيْهِ وَالْمُخَالَفَةِ لَهُ. وَلَا أَحَدٌ لِي فِي هَذَا الْمَحْضَرِ إِثْمًا مَا؛ لِأَنِّي لَمْ أَخَالِفْهُ فِي شَيْءٍ إِلَّا مَا قَدْ نَدَرَ عِنْدَ مُخَالَفَتِي الرُّشْدَ وَالْمَنْفَعَةَ وَالذِّينَ وَلَمْ أَجَاهِزْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى رُؤُوسِ جُنْدِيهِ، وَعِنْدَ أَصْحَابِيهِ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَخْلُو بِهِ، وَأَكْلُمُهُ سِرًّا كَلَامَ الْهَائِبِ الْمُؤَقِّرِ^(١).

وَعَلِمْتُ : أَنَّهُ مِنَ التَّمَسُّ الرُّخْصِ مِنَ الْإِخْوَانِ عِنْدَ الْمُشَاوَرَةِ، وَمِنَ الْأَطْبَاءِ عِنْدَ الْمَرَضِ وَمِنَ الْفُقَهَاءِ عِنْدَ الشُّبْهِهَةِ فَقَدْ أَخْطَأَ مَنَافِعَ الرَّأْيِ وَأَزْدَادَ فِيمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ تَوَرُّطًا وَحَمَلٍ الْوُزْرِ. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ بَعْضِ سَكَرَاتِ السُّلْطَانِ. فَإِنَّ صُحْبَةَ السُّلْطَانِ خَطِرَةٌ، وَإِنْ صُوجِبَ بِالسَّلَامَةِ وَالنِّقَّةِ، وَالْمَوَدَّةِ، وَحُسْنِ الصُّحْبَةِ، فَرُبَّمَا عَثَرَ مُصَاحِبُهُ الْعَثْرَةَ فَلَا يَنْتَعِشُ، وَلَا تُقَالُ عَثْرَتُهُ^(٢).

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا، فَبَعْضُ مَا أُوتِيَتْ مِنَ الْفَضْلِ، قَدْ جُعِلَ لِي فِيهِ الْهَلَاكُ، «وَبَعْضُ الْمَحَاسِنِ آفَةٌ لِصَاحِبِهَا» ؛ فَإِنَّ الشَّجَرَةَ اللَّذِيذَةَ الثَّمَرِ رُبَّمَا كَانَ أَذَاهَا فِي حَمْلِهَا، فَلَوِيتَ أَغْصَانَهَا، وَهَصِرْتَ أَطْرَافَهَا حَتَّى تَتَكَسَّرَ. وَالطَّاوُسُ الَّذِي ذَنْبُهُ أَفْضَلُهُ يُنْسَلُ فَيُؤْلَمُهُ، وَالْفَرَسُ الْمُطَهَّمُ الْجَرِيُّ رُبَّمَا رُكِبَ حَتَّى يَنْقَطِعَ، وَالْبَلْبَلُ الْحَسَنُ الصَّوْتِ يُحْبَسُ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الطَّيْرِ^(٣).

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا وَلَا هَذَا فَهُوَ إِذَنْ مِنْ مَوَاقِعِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ الَّذِي لَا يُدْفَعُ، وَالْقَدَرُ هُوَ الَّذِي يَسْلُبُ الْأَسَدَ قُوَّتَهُ وَشِدَّتَهُ، وَيُدْخِلُهُ الْقَبْرَ، وَهُوَ الَّذِي يَحْمِلُ الرَّجُلَ الضَّعِيفَ عَلَى ظَهْرِ الْفِيلِ الْهَائِجِ، وَهُوَ الَّذِي يُسَلِّطُ عَلَى الْحَيَّةِ ذَاتِ الْحِمَةِ مَنْ يَنْزِعُ حِمَّتَهَا، وَيَلْعَبُ بِهَا، وَهُوَ الَّذِي يُصَيِّرُ الْعَاجِزَ حَازِمًا، وَيَنْبُطُ السَّهْمَ الْمُنْطَلِقَ، وَيُوسِّعُ عَلَى الْمُقْتِرِ، وَيُسْجِعُ الْجَبَانَ، وَيُجَبِّنُ الشُّجَاعَ عِنْدَمَا تَعْتَرِيهِ أَمْقَادِيرُ بِالْعَلَلِ الَّتِي اتَّفَقَتْ لَهَا! قَالَ دِفْنُهُ : إِنَّ إِرَادَةَ الْأَسَدِ بِكَ لَيْسَتْ مِنْ تَحْرِيشِ الْأَشْرَارِ، وَلَا سَكْرَةِ السُّلْطَانِ ، وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ، وَلَكِنَّا الْقُدْرُ وَالْفُجُورُ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ فَاجِرٌ خَوَّانٌ عَدَاوٍ، لَطْعَامِيهِ حَلَاوَةٌ وَآخِرُهُ سُمْ مُمِيتٌ!!^(٤).

(١) فلا يؤاخذ: فلا يلوم ويعاتب. بطرا مني: نشاطا وزهوا. المحضر: مكان: الحضور. إثمًا: ذنبًا. الرشد: الهدى. الهائب: الخائف الذي يهابه ويحمله.

(٢) الرُّخْص: جمع رخصة وهي اليسر والسهولة. تورطًا: دخولا في الورطة وهي الهلاك والشدة، وكل أمر شاق تعسر النجاة منه. عثر: سقط. ينتعش: ينهض. ولا تقال عثرته: أي لا يرفع من سقوطه.

(٣) وهصرت: جذبت وعطفت. ينسل: ينزع. المطهَّم: التام الخلق. الجري: المقدم. كثير الجري.

(٤) الحمة: الإبرة التي تلدغ بها. وينبط: يعوق. المقتر: المتعثر. تعتره: تصيبه. اتفقت لها: حدثت اتفاقا.

قَالَ شَثْرَبَةُ: فَأَرَانِي قَدْ اسْتَلْذَذْتُ الْحَلَاوَةَ إِذْ دُقْتُهَا، وَقَدْ انْتَهَيْتُ إِلَى آخِرِهَا الَّذِي هُوَ الْمَوْتُ، وَلَوْلَا الْحَيُّ مَا كَانَ مُقَامِي عِنْدَ الْأَسَدِ، وَهُوَ آكِلُ لَحْمٍ، وَأَنَا آكِلُ عُشْبٍ، فَأَنَا فِي هَذِهِ الْوَرْطَةِ كَالْتَحْلَةِ الَّتِي تَجْلِسُ عَلَى نَوْرِ النَّيْلُوفَرِ؛ إِذْ تَسْتَلِذُّ رِيحَهُ وَطَعْمَهُ فَتَحْسِبُهَا تِلْكَ اللَّذَّةُ غِنَى الْحَيِّ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تَطِيرَ فِيهِ؛ فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ يَنْضَمُّ عَلَيْهَا، فَتَرْتَبِكُ فِيهِ وَتَمُوتُ^(١)!

وَمَنْ لَمْ يَرَوْضَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْكَفَافِ الَّذِي يُغْنِيهِ، وَطَمَحَتْ عَيْنُهُ إِلَى مَا سِوَى ذَلِكَ، وَلَمْ يَتَخَوَّفْ عَاقِبَتَهُ، كَانَ كَالذُّبَابِ الَّذِي لَا يَرَوْضُ بِالشَّجَرِ وَالرِّيَاحِينَ، وَلَا يُقْنِعُهُ ذَلِكَ حَتَّى يَطْلُبَ الْمَاءَ الَّذِي يَسِيلُ مِنْ أُذُنِ الْفِيلِ، فَيَضْرِبُهُ الْفِيلُ بِأَذَانِهِ فَيَهْلِكُهُ.

وَمَنْ يَتَذَلُّ وَدَّةً وَنَصِيحَتَهُ لِمَنْ لَا يَشْكُرُهُ فَهُوَ كَمَنْ يَتَذَرُّ فِي السِّيَاخِ، وَمَنْ يُشِيرُ عَلَى الْمُعْجَبِ كَمَنْ يُشَاوِرُ الْمَيِّتَ، أَوْ يُسَارُ الْأَصَمَّ.

قَالَ دِمْنَةُ: دَعْ عَنْكَ هَذَا الْكَلَامَ، وَاحْتَلِ لِنَفْسِكَ. قَالَ شَثْرَبَةُ: بِأَيِّ شَيْءٍ أَحْتَالُ لِنَفْسِي، إِذَا أَرَادَ الْأَسَدُ أَكْلِي مَعَ مَا عَرَفْتَنِي مِنْ رَأْيِ الْأَسَدِ، وَسُوءِ أَخْلَاقِهِ^(٢)!

وَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُرِدْ بِي إِلَّا خَيْرًا، ثُمَّ أَرَادَ أَصْحَابَهُ بِمَكْرِهِمْ وَفُجُورِهِمْ هَلَاقِي لَقَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ الْمَكْرَةُ الظُّلْمَةُ عَلَى الْبَرِيِّ الصَّالِحِ كَانُوا خُلُقَاءَ أَنْ يَهْلِكُوهُ، وَإِنْ كَانُوا ضَعْفَاءَ وَهُوَ قَوِيًّا. كَمَا أَهْلَكَ الذُّبُّ وَالْغُرَابُ وَابْنُ آوَى الْجَمَلَ حِينَ اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ بِالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ وَالْخِيَانَةِ. قَالَ دِمْنَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مثل الذئب والخراب وابن آوى مع الجمل والأسد

وهو مثل الضعاف يعينون القوي بحيلهم على قوي، لهم من هلكته منفعة، حتى يهلكه

قَالَ شَثْرَبَةُ: زَعَمُوا أَنَّ أَسَدًا كَانَ فِي أَجْمَةٍ مُجَاوِرَةٍ لَطَرِيقِي مِنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وَكَانَ لَهُ أَصْحَابُ ثَلَاثَةِ: ذُبُّ وَغُرَابٌ وَابْنُ آوَى، وَأَنَّ رُعَاةَ مَرُوءَا بِذَلِكَ الطَّرِيقِ، وَمَعَهُمْ جِمَالٌ، فَتَحَلَّفَ مِنْهَا

(١) فأراني. أرى نفسي. الحين: الأجل. نوز: زهر. النيلوفر: ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة ومتى ساوى سطح الماء أورق وأزهر.

(٢) الكفاف: ما كف وأغنى عن الناس. وطمحت عينه: ارتفعت وتطلعت. . السباخ: ما لم يحرق ولم يعمر، والأرض السبخة لا تحفظ ماء ولا تنبت زرعاً. المعجب: المتكبر. يُسَارُ الأصم: يكلمه بكلام خفي وهو لا يسمع.

جَمَلٌ، فَدَخَلَ تِلْكَ الْأَجْمَةَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْأَسَدِ^(١)!

فَقَالَ لَهُ الْأَسَدُ : مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ قَالَ : مِنْ مَوْضِعٍ كَذَا، قَالَ : فَمَا حَاجَتُكَ ؟ قَالَ : مَا يَأْمُرُنِي بِهِ الْمَلِكُ. قَالَ : تُقِيمُ عِنْدَنَا فِي السَّعَةِ وَالْأَمْنِ وَالْإِخْصَابِ؛ فَأَقَامَ الْأَسَدُ وَالْجَمَلُ مَعَهُ زَمَانًا طَوِيلًا. ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ مَضَى فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ لِيَطْلُبَ الصَّيْدَ؛ فَلَقِيَ فِيلاً عَظِيمًا فَقَاتَلَهُ قِتَالًا شَدِيدًا، وَأَفْلَتَ مِنْهُ مُثْقَلًا مُثَخَّنًا بِالْجِرَاحِ، يَسِيلُ مِنْهُ الدَّمُ، وَقَدْ خَدَشَهُ الْفِيلُ بِأَنْيَابِهِ؛ فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مَكَانِهِ، وَقَعَ لَا يَسْتَطِيعُ حَرَكَاءَ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى طَلَبِ الصَّيْدِ^(٢).

فَلَبِثَ الذُّئْبُ وَالْغُرَابُ وَابْنُ آوَى أَيَّامًا لَا يَجِدُونَ طَعَامًا، لِإِنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ مِنْ فَضَلَاتِ الْأَسَدِ وَطَعَامِهِ؛ فَأَصَابَهُمْ وَأَصَابَهُ جُوعٌ شَدِيدٌ وَهَزَالٌ، وَعَرَفَ الْأَسَدُ مِنْهُمْ ذَلِكَ، فَقَالَ: لَقَدْ جُهِدْتُمْ، وَاحْتَجَجْتُمْ إِلَى مَا تَأْكُلُونَ. فَقَالُوا: لَا تُهْمُنَا أَنْفُسُنَا؛ لَكِنَّا نَرَى الْمَلِكَ عَلَى مَا نَرَاهُ، فَلَيْتَنَا نَجِدُ مَا يَأْكُلُهُ وَيُضْلِحُهُ. قَالَ الْأَسَدُ: مَا أَشْكُ فِي نَصِيحَتِكُمْ، وَلَكِنْ انْتَشِرُوا لَعَلَّكُمْ تُصِيبُونَ صَيْدًا تَأْتُونَنِي بِهِ، فَيُصِيبَنِي وَيُصِيبُكُمْ مِنْهُ رِزْقٌ، فَخَرَجَ الذُّئْبُ وَالْغُرَابُ وَابْنُ آوَى مِنْ عِنْدِ الْأَسَدِ، فَتَنَحَّوْا نَاحِيَةً وَاتَّمَرُوا فِيهَا يَتَنَهَّمُ، وَقَالُوا: مَا لَنَا وَلِهَذَا الْآكِلِ الْعُشْبِ، الَّذِي لَيْسَ شَأْنُهُ مِنْ شَأْنِنَا، وَلَا رَأْيُهُ مِنْ رَأْيِنَا؟ أَلَا نُرِئُ لِلْأَسَدِ فَيَأْكُلُهُ، وَيُطْعِمُنَا مِنْ لَحْمِهِ؟! قَالَ ابْنُ آوَى : هَذَا مِمَّا لَا نَسْتَطِيعُ ذِكْرَهُ لِلْأَسَدِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ آمَنَ الْجَمَلُ، وَجَعَلَ لَهُ مِنْ ذِمَّتِهِ^(٣).

قَالَ الْغُرَابُ : أَنَا أَكْفِيكُمْ أَمْرَ الْأَسَدِ، ثُمَّ انْطَلَقَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ. فَقَالَ لَهُ الْأَسَدُ : هَلْ أَصَبْتَ شَيْئًا؟ قَالَ الْغُرَابُ: إِنَّمَا يُصِيبُ مَنْ يَسْعَى وَيُصِيرُ، وَأَمَّا نَحْنُ فَلَا سَعْيَ لَنَا وَلَا بَصَرَ؛ لِمَا بِنَا مِنَ الْجُوعِ؛ وَلَكِنْ قَدْ وَفَّقْنَا إِلَى أَمْرٍ، وَاجْتَمَعْنَا عَلَيْهِ، إِنَّ وَافَقَنَا الْمَلِكُ فَتَحْنُ لَهُ مُجِيبُونَ. قَالَ الْأَسَدُ: وَمَا ذَاكَ^(٤).

قَالَ الْغُرَابُ : هَذَا الْجَمَلُ آكِلُ الْعُشْبِ الْمُتَمَرِّغُ بَيْنَنَا مِنْ غَيْرِ مَنْفَعَةٍ لَنَا مِنْهُ؛ وَلَا رَدَّ عَائِدَةٍ، وَلَا عَمَلٍ يُعْقِبُ مَصْلَحَةً. فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسَدُ ذَلِكَ غَضِبَ، وَقَالَ: مَا أَخْطَأَ رَأْيُكَ!، وَمَا أَعْجَزَ مَقَالُكَ! وَأَبْعَدَكَ عَنِ الْوَفَاءِ وَالرَّحْمَةِ! وَمَا كُنْتَ حَقِيقًا أَنْ تَجْتَرِيَ عَلَيَّ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ، وَتَسْتَقْبِلَنِي بِهَذَا

(١) المكرة: أعنى المخادعين جمع مكر. خُلفاء: جمع خليف. ويقال: فلان خليف بالشيء أي جدير به وأهل له. فتخلف: تأخر.

(٢) فما حاجتك؟: ما سؤلك؟ وماذا تطلب؟. مثخنًا: مبالغًا بجراحه. خدشه: مزق جلده.

(٣) هزال: ضعف يقبض الشمن. فتتحوا: اعتزلوا إلى ناحية. اتمروا: تشاوروا. نزين: نحسن. آمن: أعطاه الأمن والأمان ضد الخوف. جعل له من ذمته: أعطاه عهدا.

(٤) هل أصبت شيئًا؟: هل وجدت؟.

الخطاب؛ مع ما عِلِمَتْ مِنْ أَنِّي قَدْ أَمَنْتُ الْجَمَلَ وَجَعَلْتُ لَهُ مِنْ ذِمَّتِي. أَوْ لَمْ يَلْعَلْ أَنَّهُ لَمْ يَتَصَدَّقْ مُتَصَدِّقٌ بِصَدَقَةٍ هِيَ أَعْظَمُ أَجْرًا مِمَّنْ أَمَّنَ نَفْسًا خَائِفَةً، وَحَقَّقَ دَمًا مَهْدُورًا؟ وَقَدْ أَمَنْتُهُ، وَلَسْتُ بِغَادِرٍ بِهِ، وَلَا خَافِرٍ لَهُ ذِمَّةً^(١).

قَالَ الْغُرَابُ : إِنِّي لَأَعْرِفُ مَا يَقُولُ الْمَلِكُ، وَلَكِنَّ النَّفْسَ الْوَاحِدَةَ يُفْتَدَى بِهَا أَهْلُ الْبَيْتِ، وَأَهْلُ الْبَيْتِ تُفْتَدَى بِهِمُ الْقَبِيلَةُ، وَالْقَبِيلَةُ يُفْتَدَى بِهَا أَهْلُ الْمِصْرِ، وَأَهْلُ الْمِصْرِ فِدَى الْمَلِكِ. وَقَدْ نَزَلْتُ بِالْمَلِكِ الْحَاجَّةَ، وَأَنَا أَجْعَلُ لَهُ مِنْ ذِمَّتِي مَخْرَجًا، عَلَى أَنْ لَا يَتَكَلَّفَ الْمَلِكُ ذَلِكَ، وَلَا يَلِيَهُ بِنَفْسِهِ، وَلَا يَأْمُرُ بِهِ أَحَدًا. وَلَكِنَّا نَحْتَالُ بِحِيلَةٍ لَنَا وَلَهُ فِيهَا صَلَاحٌ وَظَفَرٌ. فَسَكَتَ الْأَسَدُ عَنْ جَوَابِ الْغُرَابِ عَنْ هَذَا الْخِطَابِ^(٢).

فَلَمَّا عَرَفَ الْغُرَابُ إِقْرَارَ الْأَسَدِ أَتَى صَاحِبِيهِ، فَقَالَ لَهُمَا : قَدْ كَلَّمْتُ الْأَسَدَ فِي أَكْلِهِ الْجَمَلَ، عَلَى أَنْ نَجْتَمِعَ نَحْنُ وَالْجَمَلُ عِنْدَ الْأَسَدِ، فَتَذْكُرَ مَا أَصَابَهُ، وَتَنْتَوِجَعَ لَهُ أَهْتِمَامًا بِأَمْرِهِ، وَحِرْصًا عَلَى صَلَاحِهِ، وَيَعْرِضَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا نَفْسَهُ عَلَيْهِ تَجْمُلًا لِیَأْكُلَهُ فَيَرُدُّ الْآخِرَانِ عَلَيْهِ وَيُسْفِهَانِ رَأْيَهُ، وَيُيَبِّنَانِ الضَّرَرَ فِي أَكْلِهِ. فَإِذَا جَاءَتْ نَوْبَةُ الْجَمَلِ صَوَّبْنَا رَأْيَهُ فَهَلَكَ وَسَلِفْنَا كُلُّنَا وَرَضِيَ الْأَسَدُ عَنَّا، فَفَعَلُوا ذَلِكَ وَتَقَدَّمُوا إِلَى الْأَسَدِ؛ فَقَالَ الْغُرَابُ : قَدْ اخْتَجَجْتُ أَتِيهَا الْمَلِكُ إِلَى مَا يَقُولُكَ، وَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَهَبَ أَنْفُسَنَا لَكَ فَإِنَّا بِكَ نَعِيشُ؛ فَإِذَا هَلَكْتَ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَّا بَقَاءٌ بَعْدَكَ، وَلَا لَنَا فِي الْحَيَاةِ مِنْ خَيْرَةٍ؛ فَلْيَأْكُلْنِي الْمَلِكُ، فَسَدَ طَبْتُ بِذَلِكَ نَفْسًا^(٣)!

فَأَجَابَهُ الذُّبُّ وَابْنُ آوَى : أَنْ اسْكُتْ فَلَا خَيْرَ لِلْمَلِكِ فِي أَكْلِكَ، وَلَيْسَ فِيكَ شَيْعٌ. قَالَ ابْنُ آوَى : لَكِنْ أَنَا أَشْبَعُ الْمَلِكَ، فَلْيَأْكُلْنِي؛ فَقَدْ رَضِيتُ بِذَلِكَ، وَطَبْتُ نَفْسًا. فَرَدَّ عَلَيْهِ الذُّبُّ وَالْغُرَابُ يَقُولُهُمَا : إِنَّكَ لَمُتْنِ قَدِيرٌ ! قَالَ الذُّبُّ : إِنِّي لَسْتُ كَذَلِكَ فَلْيَأْكُلْنِي الْمَلِكُ؛ فَقَدْ سَمَحْتُ بِذَلِكَ، وَطَابَتْ بِهِ نَفْسِي ! فَاعْتَرَضَهُ الْغُرَابُ، وَابْنُ آوَى وَقَالَا : قَدْ قَالَتِ الْأَطِبَّاءُ : مَنْ أَرَادَ قَتْلَ نَفْسِهِ فَلْيَأْكُلْ لَحْمَ ذَنْبٍ^(٤).

فَطَلَّ الْجَمَلُ أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى الْأَكْلِ التَّمَسُّوا لَهُ عُذْرًا كَمَا التَّمَسَّ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ

(١) عائدة : معروف . مصلحة : بمعنى منفعة . تجترئ : تتشجع وتقدم . مهدورًا : مسفوكا بالباطل . خافر له : ناقص .

(٢) وأهل المص : المدينة والصقع . يليه : يتولاه . ظفر : فوز .

(٣) إقرار الأسد : إذعان . تجملاً : تلطفاً في الكلام . يسفهان رأيه : ينسبانه إلى السفاهة . من خيرة : أي لا خير لنا في الحياة من بعدك والخيرة : اسم من قولهم : خار الله لك في هذا الأمر أي جعل لك الخير .

(٤) لميتين : خبيث الرائحة . فاعترضه الغراب : عابه وخطأه .

الْأَعْدَارَ، فَيَسْلَمَ وَيَرْضَى الْأَسَدُ عَنْهُ بِذَلِكَ، وَيَنْجُو مِنَ الْمَهَالِكِ. فَقَالَ: لَكِنْ أَنَا نَبِيٌّ لِلْمَلِكِ شَبَعَ وَرَبِّي وَالْحَمِي طَيْبٌ هَنِيٌّ، وَبَطْنِي نَظِيفٌ، فَلْيَأْكُلْنِي الْمَلِكُ، وَيُطْعِمَ أَصْحَابَهُ، وَخَدَمَهُ، فَقَدْ رَضِيتُ بِذَلِكَ، وَطَابَتْ نَفْسِي بِهِ. فَقَالَ الذُّئْبُ وَابْنُ آوَى وَالْغَرَابُ: لَقَدْ صَدَقَ الْجَمَلُ، وَكَرَّمَ وَقَالَ مَا عَرَفَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ وَثَبُوا عَلَيْهِ فَمَزَقُوهُ.

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَسَدِ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى هَلَاكِي فَإِنِّي لَسْتُ أَقْدِرُ أَنْ أَمْتِنَعَ مِنْهُمْ، وَلَا أَحْتَرِسَ، وَإِنْ كَانَ رَأْيُ الْأَسَدِ فِيَّ عَلَى غَيْرِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الرَّأْيِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُنِي، وَلَا يُغْنِي عَنِّي شَيْئًا^(١).

وَقَدْ يُقَالُ: خَيْرُ السَّلَاطِينِ مَنْ أَشَبَهَ النَّسْرَ وَحَوْلَهُ الْجَيْفُ، لَا مَنْ أَشَبَهَ الْجَيْفَةَ وَحَوْلَهَا النَّسُورُ. وَلَوْ أَنَّ الْأَسَدَ لَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهِ لِي إِلَّا الْخَيْرُ وَالرَّحْمَةُ لَغَيَّرْتُهُ كَثْرَةُ الْأَقَاوِيلِ، فَإِنَّهَا إِذَا كَثُرَتْ لَمْ تَكْفُ دُونَ أَنْ تَذْهَبَ الرَّقَّةُ وَالرَّافَةُ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَاءَ لَيْسَ كَالْقَوْلِ، وَأَنَّ الْحَجَرَ أَشَدَّ مِنَ الْإِنْسَانِ، وَالْمَاءُ إِذَا دَامَ انْحِدَارُهُ عَلَى الْحَجَرِ لَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى يَنْقُبَهُ وَيُؤَثِّرَ فِيهِ! وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي الْإِنْسَانِ^(٢)!

قَالَ دِمْنَةُ: فَمَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ الْآنَ؟ قَالَ سَتَرَبُّهُ: مَا أَرَى إِلَّا الْاجْتِهَادَ وَالْمُجَاهَدَةَ بِالْقِتَالِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِلْمُصْلَى فِي صَلَاتِهِ، وَلَا لِلْمُحْتَسِبِ فِي صَدَقَتِهِ، وَلَا لِلْوَرَعِ فِي وَرَعِهِ مِنَ الْأَجْرِ مَا لِلْمُجَاهِدِ عَنْ نَفْسِهِ، إِذَا كَانَتْ مُجَاهَدَتُهُ عَلَى الْحَقِّ. قَالَ دِمْنَةُ: لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُخَاطِرَ بِنَفْسِهِ وَهُوَ يَسْتَطِيعُ غَيْرَ ذَلِكَ. وَلَكِنَّ ذَا الرَّأْيِ جَاعِلُ الْقِتَالِ آخِرَ الْحِيلِ، وَبَادِي قَبْلَ ذَلِكَ بِمَا اسْتَطَاعَ مِنْ رِفْقٍ وَتَمَحُّلٍ. وَقَدْ قِيلَ: لَا تَحْقِرَنَّ الْعَدُوَّ الضَّعِيفَ الْمُهِينِ، وَلَا سَيِّمًا إِذَا كَانَ ذَا حِيلَةٍ، وَيَقْدِرُ عَلَى الْأَغْوَانِ؛ فَكَيْفَ بِالْأَسَدِ عَلَى جِرَائَتِهِ وَشِدَّتِهِ؟! فَإِنَّ مَنْ أَحْقَرَ عَدُوَّهُ لِضَعْفِهِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ وَكِيلَ الْبَحْرِ مِنَ الطَّيْطَوَى. قَالَ سَتَرَبُّهُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ^(٣)؟

(١) أمتنع منهم: أنجو. (٢) الأقاويل: الأكاذيب المبتدعة. الرقة: الرحمة. (٣) للمحتسب: المتصدق لوجه الله، وتمحَّل: احتبال، المهين: الحقير. أحقر عدوه: احتقره.

مثل الطيطوى ووكيل البحر

وهو مثل المكابر مع ضعفه فيغلب

قال دمنة : زَعَمُوا أَنَّ طَائِرًا مِنْ طُيُورِ الْبَحْرِ يُقَالُ لَهُ : الطَّيْطَوَى كَانَ وَطْنُهُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، وَمَعَهُ زَوْجَةٌ لَهُ . فَلَمَّا جَاءَ أَوَانُ إِفْرَاحِهِمَا قَالَتِ الْأُنْثَى لِلذَّكَرِ : لَوْ التَّمَسْنَا مَكَانًا حَرِيرًا غَيْرَ هَذَا نَفْرِخُ فِيهِ ؛ فَإِنِّي أَخَافُ مِنَ الْبَحْرِ إِذَا مَدَّ الْمَاءُ أَنْ يَذْهَبَ بِفِرَاحِنَا . فَقَالَ لَهَا : مَا أَرَاهُ يَحْمِلُ عَلَيْنَا ، فَإِنَّ وَكَيْلَ الْبَحْرِ يَخَافُنِي أَنْ أَتَقَمَّ مِنْهُ ، فَأَفْرِجِي فِي مَكَانِكَ ؛ فَإِنَّهُ مُوَافِقٌ لَنَا ، وَالْمَاءُ وَالزَّهْرُ مِنَّا قَرِيبٌ ^(١) .

قَالَتْ لَهُ : يَا غَافِلُ ، مَا أَشَدَّ عِنَادَكَ وَتَصَلْبَكَ ! أَمَا تَذْكُرُ وَعِيدَهُ وَتَهْدُدَهُ إِيَّاكَ ؟ أَلَا تَعْرِفُ نَفْسَكَ وَقَدْرَكَ فِي وَعِيدِ مَنْ لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ ؟ فَأَتَى أَنْ يُطِيعَهَا . فَلَمَّا أَكْثُرَتْ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَسْمَعْ قَوْلَهَا ، قَالَتْ لَهُ : إِنَّ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ النَّاصِحِ يُصِيبُهُ مَا أَصَابَ السَّلْحَفَةَ حِينَ لَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ الْبُطَّيْنِ . قَالَ الذَّكَرُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ^(٢) .

مثل السلحفاة والبطتين

وهو مثل من لم يسمع قول الناصح فيهلك

قَالَتِ الْأُنْثَى : زَعَمُوا أَنَّ غَدِيرًا كَانَ عِنْدَهُ عُشْبٌ ، وَكَانَ فِيهِ بَطَّتَانِ ، وَكَانَ فِي الْغَدِيرِ سُلْحَفَاتٌ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْبُطَّتَيْنِ مَوَدَّةٌ وَصَدَاقَةٌ ، فَاتَّفَقَ أَنْ غِيضَ ذَلِكَ الْمَاءُ فَجَاءَتِ الْبُطَّتَانِ لِوَدَاعِ السَّلْحَفَةِ ، وَقَالَتَا : السَّلَامُ عَلَيْكَ فَإِنَّا ذَاهِبَتَانِ عَنْ هَذَا الْمَكَانِ لِأَجْلِ نَقْصَانِ الْمَاءِ عَنْهُ ، فَقَالَتْ : إِنَّمَا يَبِينُ نَقْصَانُ الْمَاءِ عَلَى مِثْلِي الَّتِي كَأَنِّي السَّفِينَةُ لَا أَقْدِرُ عَلَى الْعَيْشِ إِلَّا بِالْمَاءِ . فَأَمَّا أَنْتُمَا فَتَقْدِيرَانِ عَلَى الْعَيْشِ حَيْثُ كُنْتُمَا ، فَاذْهَبَا بِي مَعَكُمْ . قَالَتَا : نَعَمْ . قَالَتْ : كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى حَمْلِي ؟ قَالَتَا : نَأْخُذُ بِطَرْفِي عُوْدٍ وَتَقْبِضِينَ بِفِيكَ عَلَى وَسْطِهِ ، وَنَطِيرُ بِكَ فِي الْجَوْ . وَإِيَّاكَ إِذَا سَمِعَتِ النَّاسَ يَتَكَلَّمُونَ أَنْ تَنْطِقِي ، ثُمَّ أَخَذَتَاهَا فَطَارَتَا بِهَا فِي الْجَوْ فَقَالَ النَّاسُ : عَجَبٌ : سُلْحَفَاتٌ بَيْنَ بَطَّتَيْنِ قَدْ حَمَلَتَاهَا ^(٣) !

(١) حريرًا : حصينا . يحمل علينا : يهجم .

(٢) وعيده : تهديده لي بالشر . والوعد عكس الوعيد فإنه يكون بالخير .

(٣) غيض الماء : نقص . بفيك : بفمك .

فَلَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ قَالَتْ : فَقَا اللَّهُ أَعْيَنَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ . فَلَمَّا فَتَحَتْ فَاها بِالْثُّطِّي وَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ فَمَاتَتْ . قَالَ الذَّكَرُ : قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَاتِكَ ؛ فَلَا تَخَافِي وَكِيلَ الْبَحْرِ . فَلَمَّا مَدَّ الْمَاءُ ، دَنَا وَكِيلَ الْبَحْرِ ، فَذَهَبَ بِفِرَاحِهِمَا . فَقَالَتْ الْأُنْثَى : قَدْ عَرَفْتُ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ أَنَّ هَذَا كَائِنٌ ، وَمَا أَصَابَنَا إِنَّمَا هُوَ بِتَفْرِيطِكَ ! قَالَ الذَّكَرُ : قَدْ قُلْتُ مَا قُلْتُ ، وَأَنَا عَلَى قَوْلِي ، وَسَوْفَ تَرَيْنَ صُنْعِي بِهِ ، وَانْتِقَامِي مِنْهُ . ثُمَّ مَضَى إِلَى جَمَاعَةِ الطَّيْرِ ، فَقَالَ لَهُنَّ : إِنَّكُنَّ أَخَوَاتِي وَثِقَاتِي ؛ فَأَعِنِّي . قُلْنَ : مَاذَا تُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ ؟ قَالَ : تَجْتَمِعْنَ ، وَتَذْهَبْنَ مَعِيَ إِلَى سَائِرِ الطَّيْرِ ، فَتَشْكُو إِلَيْهِنَّ مَا لَقِيتُ مِنْ وَكِيلِ الْبَحْرِ ، وَنَقُولُ لَهُنَّ : إِنَّكُنَّ طَيْرٌ مِثْلُنَا ؛ فَأَعِنَّا ^(١) .

فَقَالَتْ لَهُ جَمَاعَةُ الطَّيْرِ : إِنَّ الْعَنْقَاءَ بِنْتُ الرِّيحِ هِيَ سَيِّدَتُنَا وَمَلِكُنَا ، فَأَذْهَبَ بِنَا إِلَيْهَا حَتَّى نَصِيحَ بِهَا ، فَظَهَرَ لَنَا ، فَتَشْكُو إِلَيْهَا مَا نَالَكُ مِنْ وَكِيلِ الْبَحْرِ ، وَنَسْأَلُهَا أَنْ تَنْتَقِمَ لَنَا مِنْهُ بِقُوَّةِ مُلْكِهَا ! ثُمَّ إِنَّهُنَّ ذَهَبْنَ إِلَيْهَا مَعَ الطَّيِّطَوَى فَاسْتَعَشَّنَهَا ، وَصَحْنَ بِهَا ، فَتَرَاءَتْ لَهُنَّ ، فَأَخْبَرْنَهَا بِقِصَّتِهِنَّ ، وَسَأَلْنَهَا أَنْ تَطِيرَ مَعَهُنَّ إِلَى مُحَارَبَةِ وَكِيلِ الْبَحْرِ . فَأَجَابَتْهُنَّ إِلَى ذَلِكَ ^(٢) .

فَلَمَّا عَلِمَ وَكِيلَ الْبَحْرِ أَنَّ الْعَنْقَاءَ قَدْ قَصَدَتْهُ فِي جَمَاعَةِ الطَّيْرِ ، خَافَ مِنْ مُحَارَبَةِ مَلِكٍ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ ، فَزَدَ فِرَاحَ الطَّيِّطَوَى ، وَصَالَحَهُ ، وَرَجَعَتِ الْعَنْقَاءُ عَنْهُ . وَإِنَّمَا حَدَّثْتُكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْقِتَالَ مَعَ الْأَسَدِ لَا أَرَاهُ لَكَ رَأْيًا . قَالَ شَثْرَبَةُ : فَمَا أَنَا بِمُقَابِلِ الْأَسَدِ ، وَلَا نَاصِبَ لَهُ الْعِدَاوَةَ سِرًّا وَلَا عَلَانِيَةً ، وَلَا مُتَغَيِّرَ لَهُ عَمَّا كُنْتُ عَلَيْهِ ، حَتَّى يَبْدُو لِي مِنْهُ مَا أَتَخَوَّفُ ، فَأُغَالِبُهُ . فَكَّرَهُ دِمْنَةُ قَوْلُهُ ، وَعَلِمَ أَنَّ الْأَسَدَ إِنْ لَمْ يَزَ مِنْ الثَّوْرِ الْعَلَامَاتِ الَّتِي كَانَ ذَكَرُهَا لَهُ ، أَتَهَمُهُ وَأَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ ؛ فَقَالَ لِشَثْرَبَةَ : اذْهَبِي إِلَى الْأَسَدِ فَاسْتَعْرِفِي حِينَ يَنْظُرُ إِلَيْكَ مَا يُرِيدُ مِنْكَ ^(٣) .

قَالَ شَثْرَبَةُ : وَكَيْفَ أَعْرِفُ ذَلِكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : سَتَرَى الْأَسَدَ حِينَ تَدْخُلُ عَلَيْهِ مُقْبِعًا عَلَى ذَنْبِهِ ، رَافِعًا صَدْرَهُ إِلَيْكَ ، مَاذَا بَصَرُهُ نَحْوَكَ ، قَدْ صَرَ أُذُنَيْهِ ، وَفَغَرَ فَاهُ ، وَاسْتَوَى لِلْوُثْبَةِ . قَالَ : إِنْ رَأَيْتُ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ مِنَ الْأَسَدِ ، عَرَفْتُ صِدْقَكَ فِي قَوْلِكَ . ثُمَّ إِنَّ دِمْنَةَ لَمَّا فَرَغَ مِنْ تَحْرِيشِ الْأَسَدِ عَلَى الثَّوْرِ ، وَالثَّوْرَ عَلَى الْأَسَدِ ، تَوَجَّهَ إِلَى كَلِيلَةَ ، فَلَمَّا التَّقَا قَالَ كَلِيلَةُ : إِلَامُ انْتَهَى عَمَلُكَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : قَرِيبٌ مِنَ الْفِرَاحِ عَلَى مَا أَحْبَبْتُ وَتُحِبُّ ^(٤) .

(١) فقًا : قلع . مد الماء : ارتفع إلى البر .

(٢) العنقاء : طائر خيالي كالغول والخل الوفي لا وجود للثلاثة إلا في ذهن . فاستعشها : طلبن إغاثتها أي مساعدتها . فترأت لها : ظهرت .

(٣) لا طاقة له به : لا قدرة له عليه . اتهمه : شك في صدقه .

(٤) مقبعا : جالسا على آليته ناصبا فخذيه كجلوس الكلب . صر أذنيه : نصب . وفغر فاه : فتح . واستوى : استعد . للوثبة : القفزة .

ثُمَّ إِنَّ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ انْطَلَقَا لِيَحْضُرَا قِتَالَ الْأَسَدِ وَالثَّوْرِ، وَيَنْظُرَا مَا يَجْرِي بَيْنَهُمَا وَمَا يَقُولُ إِلَيْهِ أَمْرُهُمَا، وَجَاءَ شَتْرَبُهُ، فَدَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ، فَرَأَهُ مُقْعِيًا كَمَا وَصَفَهُ لَهُ دِمْنَةُ، فَقَالَ: مَا صَاحِبُ السُّلْطَانِ إِلَّا كَصَاحِبِ الْحَيَّةِ الَّتِي فِي صَدْرِهِ، لَا يَدْرِي مَتَى تَهْبِجُ عَلَيْهِ. ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ نَظَرَ إِلَى الثَّوْرِ فَرَأَى الدَّلَالَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا لَهُ دِمْنَةُ؛ فَلَمْ يَشْكُ أَنَّه جَاءَ لِقِتَالِهِ، فَوَائِبُهُ وَنَشَاتُ بَيْنَهُمَا الْحَرْبِ، وَاشْتَدَّ قِتَالُ الثَّوْرِ وَالْأَسَدِ، وَطَالَ، وَسَالَتْ بَيْنَهُمَا الدِّمَاءُ. فَلَمَّا رَأَى كَلِيلَةُ أَنَّ الْأَسَدَ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْقِتَالِ مَا بَلَغَ قَالَ لِدِمْنَةَ: أَيُّهَا الْفَسَلُ، مَا أَنْكَرَ جَهْلَتَكَ، وَأَسَوْأَ عَاقِبَتِكَ فِي تَذْيِيرِكَ^(١)!

قال دمنة : وما ذاك؟ قال كليلَةُ : مجرَحُ الأسد، وهَلَكَ الثَّورُ! وَإِنَّ أَخْرَقَ الْخُوقِ مَنْ حَمَلَ صَاحِبَتَهُ عَلَى سُوءِ الْخُلُقِ، وَالْمُبَارَزَةِ وَالْقِتَالِ، وَهُوَ يَجِدُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ سَبِيلًا. وَإِنَّمَا الرَّجُلُ إِذَا أَمَكَّنَتْهُ الْفُرْصَةُ مِنْ عَدُوِّهِ، يَتْرُكُهُ مَخَافَةَ التَّعَرُّضِ لَهُ بِالْمُجَاهَرَةِ، وَرَجَاءُ أَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ بِدُونِ ذَلِكَ. وَإِنَّ الْعَاقِلَ يُدَبِّرُ الْأَشْيَاءَ، وَيَتَسَهَّلُ قَبْلَ مُبَاشَرَتِهَا، فَمَا رَجَا أَنْ يَتِمَّ لَهُ مِنْهَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ، وَمَا خَافَ أَنْ يَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ مِنْهَا انْخَرَفَ عَنْهُ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، وَإِنِّي لِأَخَافُ عَلَيْكَ عَاقِبَةَ بَغْيِكَ هَذَا؛ فَإِنَّكَ قَدْ أَحْسَنْتَ الْقَوْلَ، وَلَمْ تُحْسِنِ الْعَمَلَ^(٢)!!

أَيْنَ مُعَاهَدَتُكَ إِيَّايَ أَنْتَ لَا تَضُرُّ بِالْأَسَدِ فِي تَذْيِيرِكَ؟ وَقَدْ قِيلَ : لَا خَيْرَ فِي الْقَوْلِ إِلَّا مَعَ الْعَمَلِ، وَلَا فِي الْفَقْهِ إِلَّا مَعَ الْوَرَعِ، وَلَا فِي الصَّدَقَةِ إِلَّا مَعَ النِّيَّةِ، وَلَا فِي الْمَالِ إِلَّا مَعَ الْجُودِ، وَلَا فِي الصَّدْقِ إِلَّا مَعَ الْوَفَاءِ، وَلَا فِي الْحَيَاةِ إِلَّا مَعَ الصَّحَّةِ، وَلَا فِي الْأَمْنِ إِلَّا مَعَ الشَّرُورِ^(٣). وَقَدْ شَرِطْتَ أَمْرًا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا الْعَاقِلُ الرَّفِيقُ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَدَبَ يَذْهَبُ عَنِ الْعَاقِلِ الطَّاشِ، وَيَزِيدُ الْأَحْمَقَ طَيْشًا، كَمَا أَنَّ التَّهَارُ يُزِيدُ كُلَّ ذِي بَصَرٍ نَظْرًا، وَيَزِيدُ الْخُفَّاشَ سُوءَ النَّظَرِ. فَذُو الْعَقْلِ لَا يَتَطَرَّعُ مِنْ مَنَزِلَةِ أَصَابِهَا، وَإِنْ تَعَاطَمَ أَمْرُهُ وَقَدَّرُهُ، وَيَكُونُ عِنْدَ ذَلِكَ كَالْجَبَلِ الَّذِي لَا تُحَرِّكُهُ الرِّيحُ الشَّدِيدَةُ، وَالسَّخِيفُ كَالْعُشْبِ يُحَرِّكُهُ أَذْنَى رِيحٍ. وَقَدْ أَذَكَّرَنِي أَمْرُكَ شَيْئًا سَمِعْتُهُ؛ فَإِنَّهُ يُقَالُ : إِنَّ السُّلْطَانَ إِذَا كَانَ صَالِحًا، وَوُزَرَؤُهُ وَزَرَءُ سُوءَ مَنَعُوا خَيْرُهُ، فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَذْنُو مِنْهُ. وَمَثَلُهُ فِي ذَلِكَ مَثَلُ الْمَاءِ الطَّيِّبِ الَّذِي فِيهِ التَّمَايِخُ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَتَنَاوَلَهُ، وَإِنْ كَانَ إِلَى الْمَاءِ مُحْتَاجًا.

(١) يقول : يرجع . فوائبه : أي هجم كل منهما على الآخر . الله ل : الضعيف الزُّدْل الذي لا مروءة له . ما أنكر : أقيح .

(٢) الخرق : جمع أخرق . وهو الضعيف الرأي . مباشرتها : أي الابتداء بها . يتعذر : أي يصعب ويتعسر . بغيك : ظلمك .

(٣) الورع : التقوى . الرفيق : ضد الأحق .

وَأِنَّمَا الْمَلِكُ وَزِينَتُهُ أَنْ تَكُونَ جُنُودُهُ وَوُزَرَؤُهُ ذَوِي صَلَاحٍ فَيَسُدُّوْنَ أَحْوََالَ النَّاسِ، وَيَنْظُرُونَ فِي صَلَاحِهِمْ، وَأَنْتَ يَا دِمْنَةُ، أَرَدْتَ أَلَّا يَذْنُبُوا مِنَ الْأَسَدِ أَحَدٌ سِوَاكَ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَصِحُّ، وَلَا يَتِمُّ أَبَدًا، وَذَلِكَ لِلْمَثَلِ الْمَضْرُوبِ: «إِنَّ الْبَحْرَ بِأَمْوَاجِهِ، وَالسُّلْطَانَ بِأَصْحَابِهِ»^(١).

وَمِنَ الْحَقِّ الْحَرِصُ عَلَى التِّمَاسِ الْإِخْوَانِ بِغَيْرِ الْوَفَاءِ لَهُمْ، وَالتِّمَاسِ الْآخِرَةَ بِالرِّيَاءِ، وَمَوَدَّةِ النِّسَاءِ بِالْعِلْظَةِ^(٢)، وَنَفْعِ النَّفْسِ بِضَرِّ الْغَيْرِ. وَمَا عِظْتِي وَتَأْدِيبِي إِيَّاكَ إِلَّا كَمَا قَالَ الرَّجُلُ لِلطَّائِرِ: «لَا تَلْتَمِسْ تَقْوِيمَ مَا لَا يَسْتَقِيمُ، وَلَا تَعَالِجْ تَأْدِيبَ مَا لَا يَتَأَدَّبُ». قَالَ دِمْنَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مثل القردة والطائر والرجل

وهو مثل الفضولي الذي يتدخل فيما لا يعنيه ولا يقبل نصحا حتى يهلك

قَالَ كَلِيلَةُ: زَعَمُوا أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْقِرَدَةِ، كَانُوا سَاكِنِينَ فِي جَبَلٍ، فَالْتَمَسُوا فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ ذَاتَ رِيَّاحٍ وَأَمْطَارٍ - نَارًا، فَلَمْ يَجِدُوا، وَرَأَوْا يِرَاعَةً تَطِيرُ كَأَنَّهَا شَرَارَةٌ نَارٍ، فَظَنُّوْهَا نَارًا، وَجَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا فَأَلْقَوْهُ عَلَيْهَا، وَجَعَلُوا يَنْفُخُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَيَتَرَوِّحُونَ بِأَيْدِيهِمْ طَمَعًا فِي أَنْ يُوقِدُوا نَارًا يَصْطَلُونَ بِهَا مِنَ الْبُرْدِ! وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُمْ طَائِرٌ عَلَى شَجَرَةٍ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ رَأَى مَا صَنَعُوا، فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ وَيَقُولُ: لَا تَتَعَبُوا فَإِنَّ الَّذِي رَأَيْتُمُوهُ لَيْسَ بِنَارٍ! فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، عَزَمَ عَلَى الْقُرْبِ مِنْهُمْ لِيُنْهَاهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، فَعَرَفَ مَا عَزَمَ عَلَيْهِ^(٣).

فَقَالَ لَهُ: لَا تَلْتَمِسْ تَقْوِيمَ مَا لَا يَسْتَقِيمُ؛ فَإِنَّ الْحَجَرَ الصُّلْبَ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ لَا تُجْرُبُ عَلَيْهِ السُّيُوفُ، وَالْعُودَ الَّذِي لَا يَنْحَنِي لَا تَعْمَلُ مِنْهُ الْقَوْسُ، فَلَا تَتَعَبْ؛ فَأَيُّ الطَّائِرِ أَنْ يَطِيعَهُ، وَتَقْدَمَ إِلَى الْقِرَدَةِ لِيُعْرِفَهُمْ أَنَّ الْيِرَاعَةَ لَيْسَتْ بِنَارٍ؛ فَتَتَوَلَّاهُ بَعْضُ الْقِرَدَةِ، فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ فَمَاتَ! فَهَذَا مَثَلِي مَعَكَ فِي ذَلِكَ. ثُمَّ قَدْ غَلَبَ عَلَيْكَ الْحِبُّ وَالْفُجُورُ وَهُمَا خَلَّتَا سُوءَ وَالْحِبِّ شَرُّهُمَا عَاقِبَةً! وَلِهَذَا مَثَلٌ^(٤).

قَالَ دِمْنَةُ: وَمَا ذَلِكَ الْمَثَلُ؟

(١) الخفافش: الوطواط.

(٢) بالغلظة: خلاف الرقة.

(٣) يراعة: ذبابة تطير في الليل كأنها نار. يتروحون: يجلبون الريح.

(٤) الخبب: الخبث والخبذاع.

مثل الخبّ والمغفل

وهو مثل يبرز شر الأشياء عاقبة، والتمادي في الطمع نهايته الخسران

قَالَ كَلِيلَةُ: زَعُمُو أَنَّ حَبًّا وَمُغْفَلًا اشْتَرَكَا فِي تِجَارَةٍ وَسَافَرَا، فَبَيْنَمَا هُمَا فِي الطَّرِيقِ، تَخَلَّفَ الْمُغْفَلُ لِبَعْضِ حَاجَتِهِ، فَوَجَدَ كَيْسًا فِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ فَأَخَذَهُ؛ فَأَحْسَسَ بِهِ الْحَبُّ، فَرَجَعَا إِلَى بَلَدِهِمَا، حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ قَعِدَا لِاقْتِسَامِ الْمَالِ. فَقَالَ الْمُغْفَلُ: خُذْ نِصْفَهُ وَأَعْطِنِي نِصْفَهُ، وَكَانَ الْحَبُّ قَدْ قَرَّرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ بِالْأَلْفِ جَمِيعَهَا! فَقَالَ لَهُ: لَا نَقْتَسِمُ؛ فَإِنَّ الشَّرِيكَ وَالْمُفَاوَضَةَ أَقْرَبُ إِلَى الصَّفَاءِ وَالْمُخَالِطَةِ؛ وَلَكِنْ أَخُذْ نَفَقَةً، وَتَأْخُذْ مِثْلَهَا، وَتَذْفِئُ الْبَاقِي فِي أَصْلِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، فَهُوَ مَكَانٌ حَرِيرٌ، وَذَلِكَ أَكْثَمُ لَأَمْرِنَا؛ فَإِذَا احْتَجَجْنَا جِئْنَا أَنَا وَأَنْتَ فَتَأْخُذْ حَاجَتَنَا مِنْهُ، وَلَا يَعْلَمُ بِمَوْضِعِنَا أَحَدٌ^(١).

فَأَخَذَا مِنْهَا يَسِيرًا، وَذَفَنَّا الْبَاقِي فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ، وَدَخَلَ الْبَلَدَ، ثُمَّ إِنَّ الْحَبَّ خَالَفَ الْمُغْفَلَ إِلَى الدَّانِيَرِ، فَأَخَذَهَا وَسَوَّى الْأَرْضَ كَمَا كَانَتْ، وَجَاءَ الْمُغْفَلُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلْحَبِّ: قَدْ احْتَجَجْتُ إِلَى نَفَقَةٍ فَانْطَلِقْ بِنَا نَأْخُذْ حَاجَتَنَا، فَقَامَ الْحَبُّ مَعَهُ، وَذَهَبَا إِلَى الْمَكَانِ، فَحَفَرَا، فَلَمْ يَجِدَا شَيْئًا! فَاقْبَلِ الْحَبُّ عَلَى وَجْهِهِ يَلْطُمُهُ، وَيَقُولُ: لَا تَغْتَرَّ بِصُخْبَةٍ صَاحِبٍ؛ خَلَفْتَنِي إِلَى الدَّانِيَرِ فَأَخَذْتُهَا^(٢)!

فَجَعَلَ الْمُغْفَلُ يَحْلِفُ، وَيَلْعَنُ أَخَذَهَا، وَلَا يَزْدَادُ الْحَبُّ إِلَّا شِدَّةً فِي اللَّطَمِ! وَقَالَ: مَا أَخَذَهَا غَيْرُكَ، وَهَلْ شَعَرَ بِهَا أَحَدٌ سِوَاكَ؟! ثُمَّ طَالَ بَيْنَهُمَا ذَلِكَ فَتَرَفَعَا إِلَى الْقَاضِي، فَاقْتَصَّ قِصَّتَهُمَا فَادَّعَى الْحَبُّ أَنَّ الْمُغْفَلَ أَخَذَهَا، وَجَحَدَ الْمُغْفَلُ؛ فَقَالَ لِلْحَبِّ: أَلَمْ يَكُنْ عَلَى دَعْوَاكَ بَيِّنَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ الشَّجَرَةُ الَّتِي كَانَتْ الدَّانِيَرُ عِنْدَهَا تَشْهَدُ لِي أَنَّ الْمُغْفَلَ قَدْ أَخَذَهَا. وَكَانَ الْحَبُّ قَدْ أَتَى أَبَاهُ فَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَذْهَبَ فَيَتَوَارَى فِي الشَّجَرَةِ بِحَيْثُ إِذَا سُئِلَتْ أَجَابَ.. فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: رُبُّ مُتَحَيِّلٍ أَوْفَعَهُ تَحْيَلُهُ فِي وَرْطَةٍ عَظِيمَةٍ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْخُلَاصِ مِنْهَا^(٣).

فَإِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ مِثْلُكَ مِثْلَ الْمُغْلُجِومِ! قَالَ الْحَبُّ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

(١) حَبًّا: مخادعا خبيثا. ومُغْفَلًا: ساذجاً عبيطاً.

(٢) خالفه إليها: قصدها مخالفاً له دون علمه.

(٣) شَعَرَ: علم. فاقْتَصَّ قِصَّتَهُمَا: طلب أن يقصاها عليه. وجحد: أنكر. فيتوارى: فيختبئ. متحيل: متخذ حيلة. ورطة: شدة ومشكلة.

مَثَلُ الْعُلْجُومِ وَالْحَيَّةِ

وهو مثل من احتال لعدوه بحيلة أهلكه فيها ثم سرى إليه الشر من تلك الحيلة فأهلكه أيضا

قال أبوه: رَعِمُوا أَنْ عُلْجُومًا جَاوَرَ حَيَّةً، فَكَانَ كُلُّمَا أَفْرَحَ جَاءَتْ إِلَى عَشِيهِ، وَأَكَلَتْ فِرَاحَهُ، فَفَزِعَ فِي ذَلِكَ إِلَى السَّرْطَانِ، فَقَالَ لَهُ السَّرْطَانُ: إِنَّ يَقْرُبَكَ جُحْرًا يَسْكُنُهُ ابْنُ عَرِيسٍ، وَهُوَ يَأْكُلُ الْحَيَّاتِ. فَاجْمَعْ سَمَكًا كَثِيرًا، وَفَرِّقْهُ مِنْ جُحْرِ ابْنِ عَرِيسٍ إِلَى جُحْرِ الْحَيَّةِ، فَإِنَّهُ إِذَا بَدَأَ فِي أَكْلِ السَّمَكِ، انْتَهَى إِلَى جُحْرِ الْحَيَّةِ فَأَكَلَهَا، فَفَعَلَ، وَكَانَ كَذَلِكَ، ثُمَّ تَدَرَّجَ ابْنُ عَرِيسٍ مِنْ جُحْرِ الْحَيَّةِ فِي طَلَبِ غَيْرِهَا، حَتَّى بَلَغَ إِلَى جُحْرِ الْعُلْجُومِ، فَأَكَلَهُ أَيْضًا وَفِرَاحَهُ جَمِيعًا^(١)!

وإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ، لِتَعْلَمَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَنْتَبِهْ فِي الْحِيلِ وَيَتَدَبَّرْهَا، وَيَنْظُرَ فِيهَا، أَوْقَعَتْهُ حِيلَتُهُ فِي أَشَدِّ مِمَّا يَحْتَالُ لَهُ. قَالَ الْحَبُّ: قَدْ فَهِمْتُ مَا ذَكَرْتَ، وَلَكِنْ لَا تَخَفْ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ يَسِيرُ حَقِيرًا! وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى طَاوَعَهُ، وَانْطَلَقَ مَعَهُ، فَدَخَلَ جَوْفَ الشَّجَرَةِ. ثُمَّ إِنَّ الْقَاضِيَّ لَمَّا سَمِعَ مِنَ الْحَبِّ حَدِيثَ شَهَادَةِ الشَّجَرَةِ، أَكْبَرَهُ وَانْطَلَقَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَالْحَبُّ وَالْمُعْقَلُ مَعَهُ؛ حَتَّى وَافَى الشَّجَرَةَ، فَسَأَلَهَا عَنِ الْخَبَرِ! فَقَالَ الشَّيْخُ مِنْ جَوْفِهَا: نَعَمْ الْمُعْقَلُ أَخَذَهَا^(٢).

فَلَمَّا سَمِعَ الْقَاضِيَّ ذَلِكَ اشْتَدَّ تَعَجُّبُهُ، وَجَعَلَ يَطُوفُ بِالشَّجَرَةِ، حَتَّى بَانَ لَهُ خَرَقٌ فِيهَا، فَتَأَمَّلَهُ فَلَمْ يَرِ فِيهِ شَيْئًا فَدَعَا بِخَطْبٍ، وَأَمَرَ أَنْ تُحْرَقَ الشَّجَرَةُ، فَأُضْرِمَتْ حَوْلَهَا النَّيرانُ، فَاسْتَعَاثَ أَبُو الْحَبِّ عِنْدَ ذَلِكَ، فَأُخْرِجَ، وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ! فَسَأَلَهُ الْقَاضِي عَنِ الْقِصَّةِ فَأَخْبَرَهُ بِالْخَبَرِ. فَأَوْقَعَ بِالْحَبِّ ضَرْبًا وَبِأَيِّهِ صَفْعًا وَأَرْكَبَهُ مَشْهُورًا، وَغَرَّمَ الْحَبَّ الدَّنَانِيرَ، فَأَخَذَهَا وَأَعْطَاهَا الْمُعْقَلُ! وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْحَبَّ وَالْخَدِيعَةَ زُبْمَا كَانَ صَاحِبُهُمَا هُوَ الْمَغْبُونُ. وَإِنَّكَ يَا دِمْنَةُ جَامِعٍ لِلْحَبِّ وَالْخَدِيعَةِ وَالْفُجُورِ، وَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ ثَمَرَةَ عَمَلِكَ مَعَ أَنْكَ لَمْ تَسْتَ بِنَاجٍ مِنَ الْعُقُوبَةِ؛ لَأَنَّكَ ذُو لَوْنَيْنِ وَلِسَانَيْنِ^(٣).

وإِنَّمَا عُذُوبَةُ مَاءِ الْأَنْهَارِ مَا لَمْ تَبْلُغْ إِلَى الْبَحَارِ، وَصَلَاحُ أَهْلِ الْبَيْتِ مَا لَمْ يَكُنْ يَنْتَهُمُ الْمُفْسِدُ.

(١) فزع إلى السرطان: التجأ إليه. جحراً: وكراً. ابن عرس: دوية أكبر من الفأرة.

(٢) أكبره: كبر في عينه ورأه كبيراً وعظم عنده. وافي الشجرة: وصل إليها، وبلغها، وأتى إليها. يطوف بالشجرة: يدور حولها.

(٣) فأضرم النار: فأشعلت وأوقدت. فاستعاث: طلب النجدة والإغاثة. أشرف على الهلاك: أطلع عليه ورأى الموت بعينه. صفعاً: ضرباً على مؤخرة العنق على القفا. وأركبه مشهوراً: شنع عليه وفضح على ملأ من الناس. وغرّمه الدنانير: ألزمه دفعها.

وَأَنَّهُ لَا شَيْءَ أَشْبَهُ بِكَ مِنَ الْحَيَّةِ ذَاتِ اللِّسَانَيْنِ الَّتِي فِيهَا السُّمُّ، فَإِنَّهُ قَدْ يَجْرِي مِنْ لِسَانِكَ كَسُمِّهَا. وَإِنِّي لَمْ أَزَلْ لِذَلِكَ السُّمِّ مِنْ لِسَانِكَ خَائِفًا، وَلَمَّا يَحُلْ بِكَ مُتَوَقِّعًا، وَالْمُفْسِدُ بَيْنَ الْإِخْوَانِ وَالْأَصْحَابِ كَالْحَيَّةِ الَّتِي يَرِيهَا الرَّجُلُ، وَيُطْعِمُهَا وَيَمْسَحُهَا وَيُكْرِمُهَا، ثُمَّ لَا يَكُونُ لَهُ مِنْهَا غَيْرُ اللَّدْغِ. وَقَدْ يُقَالُ: الزَّمْ ذَا الْعَقْلِ، وَذَا الْكَرَمِ، وَذَا الْأَصْلِ الطَّيِّبِ، وَاسْتَرْسِلْ إِلَيْهِمْ^(١).

وَإِيَّاكَ وَمُفَارَقَتَهُمْ، وَاصْحَبِ الصَّاحِبَ إِذَا كَانَ عَاقِلًا كَرِيمًا، أَوْ عَاقِلًا غَيْرَ كَرِيمٍ، فَالْعَاقِلُ الْكَرِيمُ كَامِلٌ، وَالْعَاقِلُ غَيْرَ الْكَرِيمِ اضْحَبْهُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَحْمُودِ الْخَلِيقَةِ، وَاحْذَرْ مِنْ سُوءِ أَخْلَاقِهِ، وَانْتَفِعْ بِعَقْلِهِ، وَالْكَرِيمُ غَيْرَ الْعَاقِلِ الزَّمُهُ، وَلَا تَدْعُ مُوَاصَلَتَهُ، وَإِنْ كُنْتَ لَا تَحْمَدُ عَقْلَهُ، وَانْتَفِعْ بِكَرَمِهِ وَانْفَعُهُ بِعَقْلِكَ؛ وَالْفِرَارُ كُلُّ الْفِرَارِ مِنَ اللَّئِيمِ الْأَحْمَقِ. وَإِنِّي بِالْفِرَارِ مِنْكَ لَجَدِيدٍ. وَكَيْفَ يَزْجُو إِخْوَانُكَ عِنْدَكَ كَرَمًا، وَوَدًّا وَقَدْ صَنَعْتَ بِمِلْكِكَ الَّذِي أَكْرَمَكَ وَشَرَّفَكَ مَا صَنَعْتَ؟! وَإِنَّ مِثْلَكَ مِثْلُ التَّاجِرِ الَّذِي قَالَ: إِنَّ أَرْضًا تَأْكُلُ جِرْدَانَهَا مِائَةً مِنْ حديدًا، لَيْسَ بِمُسْتَشْكِرٍ لِزُرَّتِيهَا أَنْ تَخْتَطِفَ الْقَيْلَةَ. قَالَ دِمْنَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ^(٢)؟

مَثَلُ التَّاجِرِ وَالْحَدِيدِ

وهو مثل الذي يقابل الكبيرة بمثلها للتخلص من غائلتها

قَالَ كَلِيلَةُ: زِعْمُوا أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضٍ كَذَا تَاجِرٌ، فَأَرَادَ الْخُرُوجَ إِلَى بَعْضِ الْوُجُوهِ لِابْتِغَاءِ الرِّزْقِ؛ وَكَانَ عِنْدَهُ مِائَةٌ مِنْ حديدًا فَأَوْدَعَهَا رَجُلًا مِنْ إِخْوَانِهِ، وَذَهَبَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَدِمَ بَعْدَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ، فَجَاءَ وَالتَّمَسَ الْحَدِيدَ، فَقَالَ لَهُ: قَدْ أَكَلْتُهُ الْجِرْدَانُ. فَقَالَ: قَدْ سَمِعْتُ أَنَّ لَا شَيْءَ أَقْطَعُ مِنْ أَنْيَابِهَا لِلْحَدِيدِ؛ فَفَرَّخَ الرَّجُلُ بِتَصْدِيقِهِ عَلَى مَا قَالَ وَادَّعَى^(٣).

ثُمَّ إِنَّ التَّاجِرَ خَرَجَ فَلقِيَ ابْنًا لِلرَّجُلِ، فَأَخَذَهُ، وَذَهَبَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ؛ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ مِنَ الْعَدِ، فَقَالَ لَهُ: هَلْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مِنْ ابْنِي؟ فَقَالَ لَهُ التَّاجِرُ: إِنِّي لَمَّا خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ بِالْأَمْسِ، رَأَيْتُ بَارِئًا قَدْ اخْتَطَفَ صَبِيًّا صِفَتُهُ كَذَا، وَلَعَلَّهُ ابْنُكَ، فَلَطَمَ الرَّجُلُ رَأْسَهُ، وَقَالَ: يَا قَوْمُ هَلْ سَمِعْتُمْ، أَوْ رَأَيْتُمْ، أَنَّ الْبُرَّةَ تَخْتَطِفُ الصَّبِيَّانِ؟! فَقَالَ: نَعَمْ وَإِنْ أَرْضًا تَأْكُلُ جِرْدَانَهَا مِائَةً مِنْ

(١) متوقعًا: منتظرًا. اللدغ: اللسع. واسترسل إليهم: انبسط واستأنس بهم.

(٢) الخليفة: الطيعة والسجدة. من: المَن رطلان. البراة: جمع باز طائر جارح الصقور ويستخدم في الصيد.

(٣) الوجوه: النواحي. لا ابتغاء: لطلب. في وجهه: عمله وما توجه له. التمس الحديد: طلبه.

حَدِيدًا لَيْسَ يَعْجَبُ أَنْ تَخْتَطِفَ بُرَاتُهَا الْفَيْلَةَ! قَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَنَا أَكَلْتُ حَدِيدَكَ، وَهَذَا ثَمَنُهُ فَارْزُدْ عَلَيَّ ابْنِي^(١)!

وَأِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ مَنْ عَدَرَ بِمِلْكِهِ وَصَاحِبِ نِعْمَاهُ؛ فَلَيْسَ يَعْجَبُ أَنْ يَغْدَرَ بِغَيْرِهِ، وَإِذَا صَاحَبَ أَحَدٌ صَاحِبًا، وَعَدَرَ بِمَنْ سِوَاهُ، فَقَدْ عَلِمَ صَاحِبُهُ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ لِلْمَوَدَّةِ مَوْضِعٌ. فَلَا شَيْءَ أَضْيَعُ مِنْ مَوَدَّةٍ تُنْخَعُ مَنْ لَا وِفَاءَ لَهُ، وَجِبَاءٍ يُصْطَنَعُ عِنْدَ مَنْ لَا شُكْرَ لَهُ، وَأَدَبٍ يُحْمَلُ إِلَى مَنْ لَا يَتَأَدَّبُ بِهِ وَلَا يَسْمَعُهُ، وَسِرٍّ يُسْتَوْدَعُ مَنْ لَا يُحْفَظُهُ، وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْمُرَّةَ لَوْ طَلَيْتَ بِالْعَسَلِ لَمْ يُجِدْهَا ذَلِكَ شَيْئًا، وَإِنَّ صُحْبَةَ الْأَخْيَارِ، تُورِثُ الْخَيْرَ وَصُحْبَةُ الْأَشْرَارِ تُورِثُ الشَّرَّ؛ كَالرَّيْحِ إِذَا مَرَّتْ بِالطَّيِّبِ حَمَلَتْ طَيِّبًا، وَإِذَا مَرَّتْ بِالنَّثَنِ حَمَلَتْ نِثْنًا، وَقَدْ طَالَ وَثَقُلَ كَلَامِي عَلَيْكَ^(٢).

فَانْتَهَى كَلِيمُهُ مِنْ كَلَامِهِ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ، وَقَدْ نَزَعَ الْأَسَدُ مِنَ الثَّوْرِ. ثُمَّ فَكَّرَ فِي قَتْلِهِ بَعْدَ أَنْ قَتَلَهُ وَذَهَبَ عَنْهُ الْعَضْبُ وَقَالَ: لَقَدْ فَجَعَنِي سَثْرَتُهُ بِنَفْسِهِ، وَكَانَ ذَا عَقْلٍ وَرَأْيٍ وَخُلُقٍ كَرِيمٍ، وَلَا أَذْرِي لَعَلُّهُ كَانَ بَرِيئًا أَوْ مَكْدُوبًا عَلَيْهِ. فَحَزَنَ وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، وَتَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَبَصُرَ بِهِ دِمْنُهُ فَتَرَكَ مُحَاوَرَةَ كَلِيمَتِهِ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْأَسَدِ فَقَالَ لَهُ: لِيَهْنِئَكَ الظَّفَرُ^(٣)، إِذْ أَهْلَكَ اللَّهُ أَعْدَاءَكَ فَمَاذَا يُحْزَنُ؟ أَيُّهَا الْمَلِكُ! قَالَ: أَنَا حَزِينٌ عَلَى عَقْلِ سَثْرَتِهِ وَرَأْيِهِ وَأَذْيِهِ! قَالَ لَهُ دِمْنُهُ: لَا تَرْحَمُهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ فَإِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَرْحَمُ مَنْ يَخَافُهُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ الْحَازِمَ رُبَّمَا أَبْغَضَ الرَّجُلَ وَكَرِهَهُ، ثُمَّ قَرَّبَهُ وَأَذْنَاهُ لِمَا لَمْ عِنْدَهُ مِنَ الْغَنَى وَالْكَفَايَةِ، فِعَلِ الرَّجُلُ الْمُتَكَارِهِ عَلَى الدَّوَاءِ الشَّنِيعِ رَجَاءَ مَنْفَعَتِهِ. وَرُبَّمَا أَحَبَّ الرَّجُلَ وَعَزَّ عَلَيْهِ فَأَقْصَاهُ وَأَهْلَكَهُ مَخَافَةَ ضَرَرِهِ، كَالَّذِي تَلْدَغُهُ الْحَيَّةُ فِي إصْبَعِهِ، فَيَقْطَعُهَا وَرَأْيُهَا مَخَافَةَ أَنْ يَسْرِيَ سُمُّهَا إِلَى بَدَنِهِ. فَرَضِيَ الْأَسَدُ بِقَوْلِ دِمْنَتِهِ. ثُمَّ عَلِمَ بَعْدَ ذَلِكَ بِكَذِبِهِ وَفُورِهِ فَقَتَلَهُ سَثْرَتُهُ^(٤).

(١) زاد بها بيان الشيء مجهول.

اه: نعمته. وجباء: عطاء. طليت: لطحنت، ودهنت. لم يجدها: لم ينفعها. التين: الخبيث الرائحة.

ابني وأوجعني. ليهنئك الظفر: هنيئا لك النصر.

ي يضبط أمره ويحكمه ويأخذ فيه بالثقة. الغناء: المنفعة. والكفاة: حالة يكون بها شيء مساويًا لشيء آخر. المتكارة: الشيء ولا يريد. الشنيع: الكريه الطعم. فأقصاه: أبعد.

(١) كذا: كا

(٢) صاحب

(٣) فجعني

(٤) الحازم

الذي

باب

الفحص عن أمر دمنة

قال دَبَشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَبْدَا الْفَيْلَسُوفُ : قَدْ حَدَّثْتَنِي عَنِ الْوَاشِي الْمَاهِرِ الْمُحْتَالِ، كَيْفَ يُفْسِدُ
بِالنَّمِيمَةِ الْمَوَدَّةَ الثَّابِتَةَ بَيْنَ الْمُتَحَابِّينَ، فَحَدَّثَنِي إِنْ رَأَيْتَ بِمَا كَانَ مِنْ حَالِ دِمْنَةَ، وَالْأَمَّ آلَ مَالَهُ
بَعْدَ قَتْلِ شَثْرَبَةَ، وَمَا كَانَ مِنْ مَعَادِيرِهِ عِنْدَ الْأَسَدِ وَأَصْحَابِهِ حِينَ رَاجَعَ الْأَسَدُ رَأْيَهُ فِي الثَّوْرِ،
وَأَدْخَلَ النَّمِيمَةَ عَلَى دِمْنَةَ، وَمَا كَانَتْ حُجَّتُهُ الَّتِي احْتَجَّ بِهَا^(١)!

قال الْفَيْلَسُوفُ : إِنِّي وَجَدْتُ فِي حَدِيثِ دِمْنَةَ أَنَّ الْأَسَدَ حِينَ قَتَلَ شَثْرَبَةَ نَدِمَ عَلَى قَتْلِهِ، وَذَكَرَ
قَدِيمَ صَحْبَتِهِ، وَجَسِيمَ خِدْمَتِهِ، وَأَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ، وَأَخْصَصَهُمْ مَنْزِلَةً لَدَيْهِ، وَأَقْرَبَهُمْ ،
وَأَذْنَاهُمْ إِلَيْهِ، وَكَانَ يُوَصِلُ لَهُ الْمَشُورَةَ دُونَ خَوَاصِهِ. وَكَانَ مِنْ أَخْصِ أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ بَعْدَ الثَّوْرِ
النَّمِيرُ^(٢).

فَاتَّفَقَ أَنَّهُ أَمْسَى النَّمِيرُ ذَاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ الْأَسَدِ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ جَوْفَ اللَّيْلِ يُرِيدُ مَنْزِلَهُ، فَاجْتَازَ
عَلَى مَنْزِلِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الْبَابِ سَمِعَ كَلِيلَةَ يُعَاتِبُ دِمْنَةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ، وَيَلُومُهُ
فِي النَّمِيمَةِ، وَاسْتِعْمَالِهَا مَعَ الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ فِي حَقِّ الْخَاصَّةِ، وَعَرَفَ النَّمِيرُ عَضِيانَ دِمْنَةَ، وَتَرَكَ
الْقَبُولَ مِنْهُ فَوْقَ يَسْتَمْعُ مَا يَجْرَى بَيْنَهُمَا. فَكَانَ فِيهَا قَالَ كَلِيلَةُ لِدِمْنَةَ: لَقَدْ ارْتَكَبْتَ مَرْكَبًا
صَعْبًا، وَدَخَلْتَ مَدْخَلًا ضَيِّقًا، وَجَنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ جَنَايَةً مُوبِقَةً، وَعَاقِبَتُهَا وَخِيمَةً، وَسَوْفَ
يَكُونُ مَصْرَعُكَ شَدِيدًا إِذَا انْكَشَفَ لِلْأَسَدِ أَمْرُكَ، وَأُطْلِعَ عَلَيْهِ، وَعَرَفَ غَدْرَكَ، وَمَحَالَكَ،
وَبَقِيَتْ لَا نَاصِرَ لَكَ؛ فَيَجْتَمِعُ عَلَيْكَ الْهَوَانُ وَالْقَتْلُ مَخَافَةَ شَرِّكَ، وَحَذَرًا مِنْ عَوَائِلِكَ؛ فَلَسْتُ
بِمُنْجِيكَ بَعْدَ الْيَوْمِ خَلِيلًا، وَلَا مَفْشٍ لَكَ سِرًّا؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ قَالُوا : تَبَاعَدَ عَمَّنْ لَا رَغْبَةَ لَكَ
فِيهِ^(٣).

(١) الْوَاشِي: الْكَذَّابُ الَّذِي يَسْمَى بَيْنَ النَّاسِ بِالْفَسَادِ لِيُوقِعَ فِتْنَةً، وَبِسَبِّ قَطِيعَةٍ. بِالنَّمِيمَةِ: فِعْلُ النَّعَامِ الَّذِي يَزِيهِ الْكَلَامَ بِالْكَذِبِ. آلَ
مَالَهُ: رَجَعَ مَرْجَعَهُ. وَمَا كَانَ مِنْ مَعَادِيرِهِ: جَمَعَ مَعْدَارَ وَهُوَ مَا يَحْتَاجُ بِهِ الْإِنْسَانُ لِيَنْفِي عَنْ نَفْسِهِ اللَّوْمَ وَالذَّنْبَ. حُجَّتُهُ: بَرَاهَانُهُ.
احْتَجَّ: اعْتَذَرَ.

(٢) خَوَاصُهُ: الْمُقَرَّبِينَ إِلَيْهِ مِنْ رِجَالِ دَوْلَتِهِ.

(٣) جَوْفَ اللَّيْلِ: وَسَطُهُ. فَاجْتَازَ: فَتَمَرَ. وَالْبُهْتَانُ: الْقَوْلُ عَلَى النَّاسِ مَا لَمْ يَفْعَلُوهُ. مَرْكَبًا صَعْبًا: اقْتَحَمْتَ أَمْرًا مَهْلِكًا. جَنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ
جَنَايَةً: الْجَنَايَةَ الذَّنْبَ. وَجَنَى الْمَذْنِبَ عَلَى نَفْسِهِ: جَرَهُ إِلَيْهَا. مُوبِقَةً: مَهْلِكَةً. وَخِيمَةً: رَدِيئَةً. مَصْرَعُكَ: مَقْتَلُكَ وَهَلَاكُكَ.
وَمَحَالُكَ: طَلَبُكَ الْأَمْرَ بِالْحِيلِ وَالْمَكْرِ. غَوَائِلُكَ: شُرُوكُكَ. مُفْشٍ: كَاشِفٌ.

وَأَنَا جَدِيدٌ بِمُبَاعَدَتِكَ، وَالتَّيْمَاسِ الْخَلَاصِ لِي مِمَّا وَقَعَ فِي نَفْسِ الْأَسَدِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ. فَلَمَّا سَمِعَ الثَّيْرُ هَذَا مِنْ كَلَامِهِمَا قَفَلَ رَاجِعًا، فَدَخَلَ عَلَى أُمِّ الْأَسَدِ فَأَخَذَ عَلَيْهَا الْعَهْودَ وَالْمَوَاقِيقَ أَنَّهَا لَا تَبُوحُ بِمَا يُسِرُّ إِلَيْهَا، فَعَاهَدَتْهُ عَلَى ذَلِكَ فَأَخْبَرَهَا بِمَا سَمِعَ مِنْ كَلَامِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ. فَلَمَّا أَصْبَحَتْ دَخَلَتْ عَلَى الْأَسَدِ، فَوَجَدَتْهُ كَيْبًا حَزِينًا مَهْمُومًا لِمَا وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ قَتْلِ شَثْرَبَةَ^(١).

فَقَالَتْ لَهُ : مَا هَذَا الَّتِي أَخَذَ مِنْكَ، وَغَلَبَ عَلَيْكَ؟ قَالَ: يُحْزِنُنِي قَتْلُ شَثْرَبَةَ؛ إِذَا تَذَكَّرْتُ صُحْبَتَهُ وَمُوَاطَّئَتَهُ مَعِي، وَمَا كُنْتُ أَسْمَعُ مِنْ مُؤَامَرَتِهِ، وَأَسْكُنُ إِلَيْهِ فِي مُشَاوَرَتِهِ، وَأَقْبِلُ مِنْ مُنَاصَحَتِهِ! قَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ: إِنْ كُنْتُ تَرَى أَنَّ لَكَ فِي قَتْلِهِ فَرْجًا، فَلَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَحْزَنَ، وَإِلَّا فَقَلْبُكَ يَشْهَدُ أَنَّ عَمَلَكَ الَّذِي عَمَلْتَهُ لَمْ يَكُنْ صَوَابًا وَلَا عَدْلًا؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ قَالُوا: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ عَدُوَّكَ مِنْ صَدِيقِكَ، فَفَكِّرْ فِي نَفْسِكَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَلْبُكَ لَهُ سَلِيمًا، فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَكَ كَذَلِكَ^(٢).

فَانْظُرِ الْآنَ وَابْحَثْ فِي ذَاتِ نَفْسِكَ، هَلْ تَرَى ضَمِيرَكَ يَشْهَدُ لَكَ أَنَّ الَّذِي فَعَلْتَهُ بِالثَّوْرِ كَانَ عَدْلًا أَمْ ظُلْمًا؟ فَقَالَ الْأَسَدُ: إِنْ صَحَّ مَا تَقُولِينَ، فَإِنِّي لَمْ أَقْتُلِ الثَّوْرَ إِلَّا ظُلْمًا؛ لِأَنِّي قَدْ بَحَثْتُ فِي نَفْسِي كَمَا تَقُولِينَ، فَلَمْ أَجِدْ فِيهَا إِلَّا مَا يَدُلُّ عَلَى بَرَاءَةِ شَثْرَبَةَ، وَقَتْلِهِ ظُلْمًا وَبَغْيًا مَكْذُوبًا عَلَيْهِ مِنْ الْأَسْرَارِ! وَإِنَّ كَثْرَةَ الْبَحْثِ عَنِ الْأُمُورِ تُجِئُ الْحَقَّ، وَتُبْطِلُ الْبَاطِلَ، وَإِنْ حَدِيثُكَ لَيَدُلُّ عَلَى مَكْنُونِ أَمْرِ، أَقْبَلْكَ شَيْءٌ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ^(٣).

فَقَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ: إِنْ أَشَدَّ مَا شَهِدَ أَمْرُؤُ عَلَى نَفْسِهِ، وَهَذَا خَطَأٌ عَظِيمٌ كَيْفَ أَقَدَمْتَ عَلَى قَتْلِ الثَّوْرِ بِلَا عِلْمٍ وَلَا يَقِينٍ؟! وَلَوْلَا مَا قَالَتْ الْعُلَمَاءُ مِنْ إِدَاعَةِ الْأَسْرَارِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْإِثْمِ وَالشَّنَارِ لَذَكَّرْتُ لَكَ، وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا عَلِمْتُ. فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ قَالُوا : إِنَّ أَحْمَدَ النَّاسِ عَاقِبَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَكْتَمُهُمْ لِلْسِّرِّ. قَالَ الْأَسَدُ : إِنَّ أَقْوَالَ الْعُلَمَاءِ لَهَا وَجُوهٌ كَثِيرَةٌ، وَمَعَانٍ مُخْتَلِفَةٌ، فَإِنَّهُمْ قَدْ قَالُوا أَيْضًا: مَنْ أَطْلَعَ عَلَى ذُنُوبِ الْمُذْنِبِينَ، فَكَتَمَ عَنِ السُّلْطَانِ، فَلَمْ يُعَاقِبُوا عَلَى ذُنُوبِهِمْ ، عَوِيبٌ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(٤).

وَإِنَّ الَّذِي أَطْلَعَكَ عَلَى هَذَا السِّرِّ الْعَظِيمِ؛ لَمْ يُطْلَعِكَ عَلَيْهِ إِلَّا لِتُعْلِمَنِي بِهِ، فَأَطْلِعْنِي عَلَى مَا

(١) جديد : أولى وأحق. قفل : رجع. المواقيق : جمع ميثاق بمعنى العهد. لا تبوح : لا تظهر ولا تكشف. كئيبا : مغموماً.

(٢) أخذ منك : أثر فيك. مؤامراته : مشاورته ومعرفة أمره ورأيه. وأسكن إليه : أرتاح. مناصحته : وعظه.

(٣) ذات نفسك : سريرتك، وانظر في داخلك، وفكر فيما تضرعه.

(٤) والشَّنَار : العار، وأقبح العيب.

أَسْرَ إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ، وَأَخْبِرْنِي بِهِ وَلَا تَطْوِيهِ عَنِّي، فَأَخْبَرْتُهُ بِجَمِيعِ مَا أَلْقَاهُ إِلَيْهَا التَّمْرُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخْبِرَهُ بِاسْمِهِ، وَقَالَتْ: إِنِّي لَمْ أَجْهَلْ قَوْلَ الْعُلَمَاءِ فِي تَعْظِيمِ الْعُقُوبَةِ وَتَشْدِيدِهَا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى الرَّجُلِ مِنَ الْعَارِ فِي إِذَاعَةِ الْأَسْرَارِ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِمَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ لَكَ؛ فَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ فَسَادَ عَامَّةِ الْأَشْيَاءِ يَكُونُ مِنْ حَالَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا إِفْشَاءُ السَّرِّ، وَالْأُخْرَى تَرْكُ عُقُوبَةِ مَنْ يَسْتَوْجِبُ الْعُقُوبَةَ، وَلِإِفْشَاءِ السَّرِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُنْفَى عَلَى هَذَا الْخَائِنِ دِمْنَةُ الَّذِي أَدْخَلَ الْفَسَادَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الثَّوْرِ بِمَكْرِهِ وَفُجُورِهِ^(١)!

فَلَوْ كُتِبَ أَمْرُهُ لَنَجَا مِنَ الْعِقَابِ عَلَى فِعْلِهِ، وَلَلْخِيفَ مِنْهُ أَكْبَرُ مِنْ هَذِهِ الْفَعْلَةِ مِنْ عَمَلِهِ، وَقَدْ أَمَرَ الْعُلَمَاءُ بِالْعَفْوِ عَنِ الْجَانِي، وَالصَّفْحِ عَنِ الْمَذْنِبِ، وَلَكِنَّهُمْ قَدْ نَهَوْا عَنِ اغْتِفَارِ الْجُزْمِ الْعَظِيمِ، وَالذَّنْبِ الْكَبِيرِ، فَلَمَّا قَضَتْ أُمُّ الْأَسَدِ هَذَا الْكَلَامَ، صَحَّ عِنْدَ الْأَسَدِ مَا فَعَلَ دِمْنَةُ، فَاسْتَدْعَى أَصْحَابَهُ وَجُنْدَهُ؛ فَأَدْخِلُوا عَلَيْهِ. ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُؤْتَى بِدِمْنَةِ^(٢).

فَلَمَّا حَضَرَ دِمْنَةُ نَكَسَ الْأَسَدُ رَأْسَهُ إِلَى الْأَرْضِ مِيلًا؛ فَالْتَفَتَتْ دِمْنَةُ إِلَى بَعْضِ الْحَاضِرِينَ فَقَالَتْ: مَا الَّذِي حَدَثَ؟ وَعَلَامَ اجْتَمَعْتُمْ؟ وَمَا الَّذِي أَحْزَنَ الْمَلِكَ؟! فَالْتَفَتَتْ أُمُّ الْأَسَدِ إِلَيْهِ، وَقَالَتْ لَهُ: أَحْزَنَ الْمَلِكُ بِقَاوُكَ وَلَوْ طَرَفَةً عَيْنٍ، وَلَنْ يَدْعَكَ بَعْدَ الْيَوْمِ حَيًّا! قَالَ دِمْنَةُ: وَمَا حَدَثَ مِنْ أَمْرِي حَتَّى وَجِبَ بِهِ قَتْلِي؟! قَالَتْ: إِنَّهُ قَدْ بَانَ لِلْمَلِكِ كَذِبُكَ وَفُجُورُكَ وَخَدِيعَتُكَ فِي قَتْلِ الثَّوْرِ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ كَانَ مِنْهُ؛ فَلَسْتُ حَقِيقًا أَنْ تُتْرَكَ بِالْحَيَاةِ طَرَفَةً عَيْنٍ! قَالَ دِمْنَةُ: مَا تَرَكَ الْأَوَّلُ لِلْآخِرِ شَيْعًا؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ: أَشَدُّ النَّاسِ فِي تَوْقِي الشَّرِّ، يُصِيبُهُ الشَّرُّ قَبْلَ الْمُسْتَسْلِمِ لَهُ، فَلَا يَكُونَنَّ الْمَلِكُ وَخَاصَّتُهُ وَجُنُودُهُ الْمَثَلَ السَّوِّءَ^(٣).

وَلَقَدْ صَدَقَ مَنْ قَالَ: كُلُّمَا زَادَ الْإِنْسَانُ فِي الْخَيْرِ اجْتِهَادًا كَانَ الشَّرُّ إِلَيْهِ أَمْرَعًا. وَقَدْ قِيلَ: مَنْ صَحِبَ الْأَسْرَارَ وَهُوَ يَعْلَمُ حَالَهُمْ، كَانَ أَذَاهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَلِذَلِكَ انْقَطَعَتِ النَّسَاكُ بِأَنْفُسِهَا عَنِ الْخَلْقِ، وَاخْتَارَتِ الْوَحْدَةَ عَلَى الْمُخَالَطَةِ، وَحُبَّ الْعَمَلِ لِلَّهِ عَلَى حُبِّ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا، وَمَنْ يَجْزِي بِالْخَيْرِ خَيْرًا، وَبِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا إِلَّا اللَّهَ. وَمَنْ طَلَبَ الْجَزَاءَ عَلَى الْخَيْرِ مِنَ النَّاسِ، كَانَ حَقِيقًا أَنْ يَحْطَى بِالْجُزْمَانِ؛ إِذْ يُحْطَى الصُّوَابُ فِي خُلُوصِ الْعَمَلِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَطَلَبِ الْجَزَاءِ مِنَ النَّاسِ.

(١) ولا تطويه عني: لا تكتبه. ألقاه إليها: أبلغها إياه. بما فيه المصلحة: أي بما يترتب على الفعل، ويبعث على الصلاح. يُنْفَى عليه: يحفظ ويرحم.

(٢) الجاني: المذنب الخاطئ. اغتفار الجُزْمِ: تغطية الذنب والستر عليه. صح: ثبت وتأكد.

(٣) مِيلًا: طائفاً رأسه طويلاً. طرفة عين: مقدار تحريك جفניה. توقي الشر: التحفظ والحذر منه. المستسلم: المنقاد.

وَلَكِنَّ عَاقِبَةَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَاقَبَ بِهِ الْفَجَّارُ، يُصَابُ بِهِ الْأَخْيَارُ^(١).

وهذا الأمرُ شبيهٌ بِشأنِي؛ لِأَنِّي حَمَلَنِي حُبُّ الْمَلِكِ، وَنُصِحَنِي لَهُ، وَإِسْفَاقِي عَلَيْهِ أَنْ أُطْلِعَهُ عَلَى سِرِّ عَدُوِّهِ الْخَائِنِ، وَإِنَّ الْمَلِكَ قَدْ شَاهَدَ مِنْهُ ذَلِكَ عَيْنَانَا، وَظَهَرَتْ لَهُ الْعَلَامَاتُ الَّتِي ذَكَرْتُهَا لَهُ! أَفْهَذَا جَزَائِي مِنْهُ أَنْ أُقْتَلَ؟! فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسَدُ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ دِمْنَةَ أَمَرَ أَنْ يُخْرَجَ مِنْ عِنْدِهِ؛ حَتَّى يَنْظُرَ فِي أَمْرِهِ، لِيَجْتَهِدَ فِي الْفَحْصِ عَنْهُ لِقَلَّا يَعُودُ إِلَى الْعَجَلَةِ وَالنَّدَامَةِ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ سَجَدَ دِمْنَةُ لِلْأَسَدِ شُكْرًا لَهُ، وَدَعَا لَهُ، وَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، لَا تَعْجَلْ فِي قَتْلِي، وَلَا تَسْمَعْ فِي كَلَامِ الْأَشْرَارِ، وَلِيُحَيِّ الْمَلِكُ عَنْ أَمْرِي، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ صِدْقِي^(٢).

وَقَدْ قَالَتِ الْحُكَمَاءُ: إِنَّ النَّارَ أَخْفَيْتُ فِي الْحِجَارَةِ، فَلَا تُسْتَخْرِجُ مِنْهَا إِلَّا بِالْمُعَالَجَةِ وَالْقَدَحِ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ لِنَفْسِي ذَنْبًا فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَلِكِ لَمْ أَقُمْ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَأَنَا أَرْغَبُ إِلَى الْمَلِكِ إِنْ كَانَ فِي شَكٍّ مِنْ أَمْرِي أَنْ يَأْمُرَ بِالنَّظَرِ فِيهِ، وَيَكُونَ مَنْ يَتَوَلَّى ذَلِكَ لَا تَأْخُذْهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، وَإِلَّا فَلَا مَلْجَأَ لِي فِي ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ، وَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ سَرَائِرَ الْعِبَادِ، وَمَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ^(٣).

وَإِنْ أَحَقُّ مَا رَغِبْتُ فِيهِ رَعِيَّةُ الْمَلِكِ هُوَ مَحَاسِنُ الْأَخْلَاقِ، وَمَوَاقِعُ الصُّوَابِ، وَجَمِيلُ السَّيْرِ، وَإِنَّ الْبَاطِلَ قَدْ يَتَلَبَّسُ بِالْحَقِّ حَتَّى يَتَشَابَهَا، وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: مَنْ صَدَّقَ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُصَدَّقَ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْخَازِنَ الَّذِي فَضَّحَ سِرَّهُ بِالْتَّلْبِيسِ عَلَيْهِ. قَالَ الْأَسَدُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مثل الخازن والمصور

وهو مثل أن الباطل يلتبس بالحق حتى يتشابهها، ويلتبسها، وأن الباطل لا يلبث أن يحبط مسعاه، ويفتضح أمره!

قَالَ دِمْنَةُ: زِعْمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ الْمُدُنِ تَاجِرٌ، وَكَانَ لَهُ خَازِنٌ لِيَتَبَّ مَالِهِ، وَأَنَّ الْخَازِنَ أَرَادَ اخْتِلَاسَ شَيْءٍ مِنَ الْمَالِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ؛ لِأَنَّ التَّاجِرَ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْخَازِنُ يَتَّ الْمَالِ أَقْفَلَ عَلَيْهِ الْبَابَ، فَإِذَا أَرَادَ الْخُرُوجَ أَتَى فَفَتَحَ لَهُ وَفَتَّشَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ^(٤).

(١) انقطعت الشاك بأنفسها: انفردت. يخطئ الصواب: يحيد عنه.

(٢) بشأني: بأمرِي وحالي. حملني: دفعني. وإسفاقي عليه: خوفي.

(٣) بالمعالجة والقَدَح: ويكون القَدَح بضرب عود على عود فتظهر النار بفعل الاحتكاك والاصطكاك وكذلك الشأن بضرب قطعة من الفولاذ على حجر، أو بضرب حجرين فتخرج النار من بينهما. أَرغَب إلى الملك: أبتهل وأتضرع. لومة لائم: أي لا يخاف فيه اللوم. وما تكن صدورهم: تخفي.

(٤) السَّير: جمع سيرة. وهي طريقة السلطان التي يحمل عليها رعيته من عدل أو جور. يلبس: يخلط. بالتلبس: بالخلط.

وَكَانَ إِلَى جَنْبِ التَّاجِرِ رَجُلٌ مُصَوِّرٌ مَاهِرٌ وَكَانَ هُوَ لِلْخَازِنِ صَدِيقًا، فَقَالَ لَهُ الْخَازِنُ يَوْمًا : هَلْ لَكَ أَنْ تُوَاطِنَنِي عَلَى الْإِخْتِلَاسِ مِنْ هَذَا الْمَالِ؟ قَالَ : نَعَمْ. قَالَ : وَمَا الْحِيلَةُ، وَلَا سَبِيلٌ لِي إِلَى الْخُرُوجِ إِلَيْكَ، وَلَا سَبِيلَ لَكَ إِلَى الدُّخُولِ إِلَيَّ؟ وَذَكَرَ لَهُ حَالَهُ مَعَ التَّاجِرِ. قَالَ الْمُصَوِّرُ :: أَوْ مَا لَيْبَتْ الْمَالِ نَافِذَةٌ إِلَى الْخَارِجِ تُنَاولُنِي مِنْهَا فِي الظُّلَامِ؟ قَالَ : بَلَى، وَلَكِنْ أَخَشَى أَنْ يَرَانَا أَحَدًا! قَالَ : فَأَنَا أَمُرُ قَرِيْبًا مِنَ النَّافِذَةِ، إِذَا ابْتَدَأَ الظُّلَامُ، فَأَصْفِرُ لَكَ، أَوْ أَوْمِئُ إِلَيْكَ، فَتَرْمِي لِي بِصُرَّةٍ، فَاتَّخُذْهَا، وَلَا يُشْعِرُنَا! فَرَضِي الْخَازِنُ بِذَلِكَ، وَأَعْجَبَهُ، وَأَقَامَا عَلَيْهِ حِينًا^(١).

ثُمَّ إِنَّ الْخَازِنَ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ لِلْمُصَوِّرِ : إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَحْتَالَ بِحِيلَةٍ أَعْلَمَ بِهَا مَجِيْعَكَ مِنْ غَيْرِ صَفْرِ، وَلَا إِيمَاءٍ، وَلَا مَا يُؤْتَابُ بِهِ مِنْ فِعْلِكَ وَفِعْلِي، فَإِنِّي قَدْ تَخَوَّفْتُ أَنْ يُحَسَّ بِنَا أَحَدًا! قَالَ الْمُصَوِّرُ : عِنْدِي مِنَ الْحِيلَةِ مَا سَأَلْتُ؛ إِنْ عِنْدِي مَلَأَةٌ فِيهَا مِنْ تَهَاوِيلِ الصُّوْرِ، وَتَمَائِيلِ الصَّنْعَةِ، فَإِنِّي أَلْبِسُهَا حِينَ مَجِيْعِي، وَأَتَرَاى لَكَ فِيهَا. ثُمَّ إِنَّ الْمُصَوِّرَ لَبَسَ الْمَلَأَةَ، وَتَرَاى لَهُ فَرَمَى لَهُ بِالصُّرَّةِ، فَتَنَاوَلَهَا. وَلَمْ يَزَلَا عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى بَصُرَ بِهِمَا فِي تِلْكَ الْحَالَةِ جَارٌ لِلْمُصَوِّرِ^(٢).

وَكَانَ بَيْتُهُ وَبَيْنَ خَادِمٍ لِلْمُصَوِّرِ صَدَاقَةً، فَطَلَبَ الْمَلَأَةَ مِنْهُ وَقَالَ : أُرِيدُ أَنْ أُرِيَهَا صَدِيقًا لِي لِأَسْرِهِ بِذَلِكَ، وَأَسْرِعَ الْكُرَّةَ بِرَدِّهَا قَبْلَ أَنْ يَغْلَمَ بِذَلِكَ مُوْلَاكَ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا. وَلَمَّا أَتَى اللَّيْلَ أَسْرَعَ فَلَبَسَهَا، وَمَرَّ مِنْ حَيْثُ كَانَ يَمُرُّ الْمُصَوِّرُ، فَلَمَّا رَأَى الْخَازِنُ لَمْ يَشْكُ فِي مَجِيْعِهِ، فَرَمَى لَهُ بِالصُّرَّةِ فَتَنَاوَلَهَا، وَانْطَلَقَ فَرَجَعَ بِالْمَلَأَةِ إِلَى خَادِمِ الْمُصَوِّرِ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ فَوَضَعَهَا مَوْضِعَهَا وَكَانَ الْمُصَوِّرُ عَنْ بَيْتِهِ غَائِبًا، فَلَمَّا عَادَ إِلَى مَنْزِلِهِ لَبَسَ الْمَلَأَةَ عَلَى عَادَتِهِ وَتَرَاى لِلْخَازِنِ، فَعَجِبَ مِنْ رُجُوعِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ مَا يَزِيْمِي لَهُ بِهِ، وَانْصَرَفَ الْمُصَوِّرُ بِلا شَيْءٍ^(٣).

ثُمَّ تَلَاقِيَا بَعْدَ ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ الْمُصَوِّرُ لَمْ تَزِمْ لِي بِالصُّرَّةِ؟ قَالَ : أَوْ لَمْ تَمُرْ قُبَيْلَ مُرُورِكَ وَزَمَيْتُ لَكَ بِهَا. فَرَجَعَ الْمُصَوِّرُ إِلَى مَنْزِلِهِ فَدَعَا خَادِمَهُ وَتَوَعَّدَهُ بِالْقَتْلِ؛ أَوْ يُخْبِرُهُ بِالْحَقِيقَةِ، فَأَخْبَرَهُ بِالْقِصَّةِ فَأَخَذَ الْمَلَأَةَ فَأَحْرَقَهَا! وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ إِرَادَةً أَلَّا يَعْجَلَ الْمَلِكُ فِي أَمْرِي بِشُبْهَةِ. وَلَسْتُ أَقُولُ هَذَا كَرَاهَةً لِلْمَوْتِ؛ فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ كَرِيْهًا، لَا مَنْجَى مِنْهُ وَكُلُّ حَيٍّ هَالِكٌ. وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ قَالُوا: مَنْ اقْتَرَفَ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا، ثُمَّ أَسْلَمَ نَفْسَهُ إِلَى الْقَتْلِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ تَدْعُوهُ إِلَى ذَلِكَ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ، وَأَنْجَاهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ^(٤).

(١) هل لك؟ هل تريد؟ . تواطئني : توافقني . أومئ : أشير .

(٢) مَلَأَةٌ : ثوب يلتف به . تهاويل الصور : زينتها . أتراهى لك : أتصدى لك لتراني .

(٣) لا منجى : لا نجاة لأحد ولا مفر منه . اقترف : ارتكب وفعل .

وَلَوْ كَانَتْ لِي مِائَةُ نَفْسٍ، وَأَعْلَمْتُ أَنَّ هَوَى الْمَلِكِ فِي إِتْلَافِهِمْ طِبْتُ لَهُ بِذَلِكَ نَفْسًا! فَقَالَ بَعْضُ الْجُنْدِ: لَمْ يَنْطِقْ بِهَذَا لِحُبِّهِ الْمَلِكَ، وَلَكِنْ لِخُلَاصِ نَفْسِهِ، وَالتَّيْمَاسِ الْعُذْرَ لَهَا. فَقَالَ لَهُ دِمْنَةُ: وَتِلْكَ! وَهَلْ عَلَيَّ فِي التَّيْمَاسِ الْعُذْرٍ لِنَفْسِي عَيْبٌ؟! وَهَلْ أَحَدٌ أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ؟! وَإِذَا لَمْ يَلْتَمِسْ لَهَا الْعُذْرَ فَمَنْ يَلْتَمِسُهُ^(١)!.

لَقَدْ ظَهَرَ مِنْكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْتَلِكِ كِثْمَانَهُ مِنَ الْحَسَدِ وَالتَّبَغْضَاءِ، وَلَقَدْ عَرَفَ مَنْ سَمِعَ مِنْكَ أَنَّكَ لَا تُحِبُّ لِأَحَدٍ خَيْرًا، وَأَنَّكَ عَدُوٌّ لِنَفْسِكَ فَمَنْ سِوَاهَا بِالْأَوَّلَى، فَمِنْكَ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْبَهَائِمِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْمَلِكِ، وَأَنْ يَكُونَ بِبَابِهِ. فَلَمَّا أَجَابَهُ دِمْنَةُ بِذَلِكَ، خَرَجَ مُكْتَتِبًا حَرْبِنًا مُسْتَحْجِيًا. فَقَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ لِدِمْنَةَ: لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْكَ أَيُّهَا الْمُخْتَالُ فِي قِلَّةِ حَيَائِكَ، وَكَثْرَةِ قَحْتِكَ، وَسُرْعَةِ جَوَابِكَ لِمَنْ كَلَّمَكَ. قَالَ دِمْنَةُ: لِأَنَّكَ تَنْظُرِينَ إِلَيَّ بِعَيْنٍ وَاحِدَةٍ، وَتَسْمَعِينَ مِنِّي بِأُذُنٍ وَاحِدَةٍ، مَعَ أَنْ شِقَاوَةَ جَدِّي قَدْ زَوَتْ عَنِّي كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى لَقَدْ سَعَوْا إِلَى الْمَلِكِ بِالنَّمِيمَةِ عَلَيَّ^(٢). وَإِنِّي أَرَى كُلَّ شَيْءٍ قَدْ تَنَكَّرَ حَتَّى صَارَ النَّاسُ لَا يَنْطِقُونَ بِالْحَقِّ، وَصَارَ مِنْ بَابِ الْمَلِكِ - لَا سِتْخَفَافِهِمْ بِهِ، وَطُولِ كَرَامَتِهِ إِيَّاهُمْ، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ وَالتَّعَمَّةِ - لَا يَذُرُونَ فِي أَيِّ وَقْتٍ يَنْبَغِي لَهُمُ الْكَلَامُ؟ وَلَا مَتَى يَجِبُ عَلَيْهِمُ السُّكُوتُ؟ قَالَتْ: أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا الْخَبِيثِ - مَعَ عِظَمِ ذَنْبِهِ - كَيْفَ يَجْعَلُ نَفْسَهُ بَرِيقًا كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ؟! قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ غَيْرَ أَعْمَالِهِمْ لَيَسُوا عَلَى شَيْءٍ؛ كَالَّذِي يَضَعُ الرَّمَادَ مَوْضِعًا يَنْبَغِي أَنْ يَضَعَ فِيهِ الرَّمْلَ، وَيَسْتَعْمِلُ فِيهِ السَّرَجِينَ^(٣)، وَالرَّجُلُ الَّذِي يَلْبَسُ لِبَاسَ الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةُ الَّتِي تَلْبَسُ لِبَاسَ الرَّجُلِ، وَالضَّيْفُ الَّذِي يَقُولُ: أَنَا رَبُّ الْبَيْتِ، وَالَّذِي يَنْطِقُ بَيْنَ الْجَمَاعَةِ بِمَا لَا يُسْأَلُ عَنْهُ. وَإِنَّمَا الْخَبِيثُ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْأُمُورَ، وَلَا أَحْوَالَ النَّاسِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ الشَّرِّ عَنْ نَفْسِهِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ. قَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ: أَتَنْظُرُ أَيُّهَا الْغَادِرُ هُوَ الَّذِي لَا يَأْمَنُ عَدُوَّهُ مَكْرَهُ، وَإِذَا اسْتَمَعَكَ مِنْ عَدُوِّهِ قَتَلَهُ عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ. قَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ: أَيُّهَا الْغَادِرُ الْكَذُوبُ، أَتَنْظُرُ أَنَّكَ نَاجٍ مِنْ عَاقِبَةِ كَذِبِكَ؟! وَأَنْ مَحَالَكَ هَذَا يَنْفَعَكَ مَعَ عِظَمِ جُزْمِكَ^(٤)!.

قَالَ دِمْنَةُ: الْكَذُوبُ هُوَ الَّذِي يَقُولُ مَا لَمْ يَكُنْ، وَيَأْتِي بِمَا لَمْ يَقُلْ، وَلَمْ يَفْعَلْ، وَأَمَّا أَنَا

(١) إِتْلَافُهُمْ: إِهْلَاكُهُمْ. طِبْتُ بِذَلِكَ نَفْسًا: كُنْتُ رَاضِيًا.

(٢) قَحْتِكَ: وَقَاحَتِكَ وَقِلَّةُ أَذْيِكَ وَتَطَوُّلُكَ. زَوَتْ: نَحَتْ.

(٣) تَنَكَّرَ: تَغَيَّرَ حَالَهُ. السَّرَجِينُ: الزَّيْلُ.

(٤) الْغَادِرُ: الْخَائِنُ النَّاقِضُ الْعَهْدَ. مَحَالَكَ: طَلَبَكَ الْأَمْرَ بِالْحِيلَةِ وَالْمَكْرِ. جُزْمُكَ: ذَنْبُكَ.

فَكَلَامِي حَقٌّ، وَالْمَلِكُ يَعْلَمُ أَنَّي لَوْ كُنْتُ كَاذِبًا، لَمْ يَكُنْ لِي مِجْرَاءٌ أَنْ أَتَكَلَّمَ هَذَا الْكَلَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ قِيلَ: لَيْسَ أَشْجَعُ مِنْ بَرِيءٍ؛ وَلَا أَذْلُقُ لِسَانًا مِنْ ذِي حَقٍّ. قَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ: الْعُلَمَاءُ مِنْكُمْ هُمْ الَّذِينَ يُوضِّحُونَ أَمْرَهُ بِفَضْلِ الْخِطَابِ، ثُمَّ نَهَضَتْ فَخَرَجَتْ، فَدَفَعَ الْأَسَدُ دِمْنَةً إِلَى الْقَاضِي، فَأَمَرَ الْقَاضِي بِخَبْسِهِ، فَأَلْقَى فِي غُنْفِهِ غُلًّا، وَأَنْطَلِقَ بِهِ إِلَى السَّجْنِ^(١).

فَلَمَّا انْتَصَفَ اللَّيْلُ أَخْبَرَ كَلِيلَةُ أَنَّ دِمْنَةً فِي السَّجْنِ، فَأَتَاهَا مُسْتَحْفِيًا؛ فَلَمَّا رَأَتْهُ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ ضَبِيحِ الْقَيْودِ، وَخَرَجَ الْمَكَانَ بَكَى وَقَالَ: مَا وَصَلْتَ إِلَيَّ مَا وَصَلْتَ إِلَيْهِ إِلَّا لِاسْتِعْمَالِكَ الْخَدِيعَةَ وَالْمَكْرَ، وَإِضْرَابِكَ عَنِ الْعِظَةِ، وَالتَّضْحِيقِ؛ وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ فِيمَا مَضَى مِنْ إِثَارِكَ، وَالتَّضْيِيقِ لَكَ، وَالْمُسَارَعَةِ إِلَيْكَ فِي خُلُوصِ الرَّغْبَةِ فَيْكَ. فَإِنَّهُ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ، وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ مَجَالٌ، وَلَوْ كُنْتُ قَصَّرْتُ فِي عِظَتِكَ حِينَ كُنْتُ فِي عَافِيَةٍ، لَكُنْتُ الْيَوْمَ سَرِيكَكَ فِي ذَلِكَ. غَيْرَ أَنَّ الْعُجْبَ دَخَلَ مِنْكَ مَذْخَلًا، فَهَرَّ رَأْيُكَ وَغَلَبَ عَلَى عَقْلِكَ^(٢). وَكُنْتُ أَضْرِبُ لَكَ الْأَمْثَالَ كَثِيرًا، وَأَذْكُرُكَ قَوْلَ الْعُلَمَاءِ؛ وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: إِنَّ الْمُحْتََالَ يَمُوتُ قَبْلَ أَجَلِهِ. قَالَ دِمْنَةُ: قَدْ عَرَفْتُ صِدْقَ مَقَالِكَ، وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: لَا تَجْزَعْ^(٣) مِنَ الْعَذَابِ إِذَا وَقَفْتَ مِنْكَ عَلَى خَطِيئَةٍ، وَلَا أَنْ تُعَذَّبَ فِي الدُّنْيَا بِجُزْمِكَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُعَذَّبَ فِي الْآخِرَةِ بِجَهَنَّمَ مَعَ الْإِثْمِ. قَالَ كَلِيلَةُ: قَدْ فَهِمْتُ كَلَامَكَ؛ وَلَكِنْ ذَنْبُكَ عَظِيمٌ، وَعِقَابُ الْأَسَدِ شَدِيدٌ أَلِيمٌ. وَكَانَ يَقْرُبُهُمَا فِي السَّجْنِ فَهَذَا مُعْتَقَلٌ يَسْمَعُ كَلَامَهُمَا، وَلَا يَرِيَانِهِ، فَعَرَفَ مُعَاتِبَةَ كَلِيلَةَ لِدِمْنَةٍ عَلَى سُوءِ فِعْلِهِ، وَمَا كَانَ مِنْهُ، وَأَنَّ دِمْنَةَ مُقَرَّرٌ بِسُوءِ عَمَلِهِ، وَعَظِيمِ ذَنْبِهِ، فَحَفِظَ الْمُحَاوَرَةَ بَيْنَهُمَا وَكَتَمَهَا لِيَشْهَدَ بِهَا إِنْ سُئِلَ عَنْهَا. ثُمَّ إِنَّ كَلِيلَةَ انْصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَدَخَلَتْ أُمُّ الْأَسَدِ حِينَ أَصْبَحَتْ عَلَى الْأَسَدِ؛ فَقَالَتْ لَهُ: يَا سَيِّدَ الْوُحُوشِ، حُوشِيَتْ أَنْ تُنْسَى مَا قُلْتَ بِالْأَمْسِ؛ وَأَنْكَ أَمَرْتُ بِهِ لِيُوقَّتِهِ؛ وَأَرْضِيَتْ بِهِ رَبُّ الْعِبَادِ. وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَوَانَى فِي الْجِدِّ لِلتَّقْوَى؛ بَلْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُدَافِعَ عَنْ ذَنْبِ الْإِثْمِ! فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسَدُ كَلَامَ أُمِّهِ، أَمَرَ أَنْ يُحْضَرَ النَّيْمُ، وَهُوَ صَاحِبُ الْقَضَاءِ، فَلَمَّا حَضَرَ قَالَ لَهُ، وَلِلْجَوَاسِ الْعَادِلِ، اجْلِسَا فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ، وَنَادِيَا فِي الْجُنْدِ: صَغِيرِهِمْ، وَكَبِيرِهِمْ أَنْ يَخْضُرُوا، وَيَنْظُرُوا فِي حَالِ دِمْنَةِ، وَيَتَحَثُّوا عَنْ شَأْنِهِ، وَيَفْحَصُوا عَنْ ذَنْبِهِ، وَيُثْبِتُوا قَوْلَهُ وَعُدْرَهُ فِي

(١) جِزَاءٌ: شِجَاعَةٌ. أَذْلُقُ اللِّسَانَ: أَخَذْتُ. بِفَضْلِ الْخِطَابِ: بِالفصل بين الحق والباطل. غُلٌّ: طَوْقٌ.

(٢) وَخَرَجَ الْمَكَانَ: ضَيْقُهُ. وَإِضْرَابُكَ: إِعْرَاضُكَ. إِثَارُكَ: تَحْذِيرُكَ مِنْ عَاقِبَةِ الْأَمْرِ قَبْلَ حُلُولِهِ. مَجَالٌ: طَرِيقٌ. الْعُجْبُ: الزُّهْرُ وَالْكَبَرُ وَالْخِيَلَاءُ.

(٣) أَضْرَبْتُ لَكَ الْأَمْثَالَ: أَقُولُ وَأَصِفُ. أَجَلُهُ: وَقْتُهُ الْمَعِينُ. لَا تَجْزَعْ: لَا تَفْقِدِ الصَّبْرَ.

كُتِبَ الْقَضَاءُ، وَارْفَعَا إِلَيَّ ذَلِكَ يَوْمًا فَيَوْمًا^(١).

فَلَمَّا سَمِعَ النِّمْرُ ذَلِكَ، وَالْجَوَّاسُ الْعَادِلُ، وَكَانَ هَذَا الْجَوَّاسُ عَمَّ الْأَسَدَ، قَالَا: سَمْعًا وَطَاعَةً لِمَا أَمَرَ الْمَلِكُ، وَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ؛ فَعَمِلَا بِمُقْتَضَى مَا أَمَرَهُمَا بِهِ، حَتَّى إِذَا مَضَى مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي جَلَسُوا فِيهِ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ، أَمَرَ الْقَاضِي أَنْ يُؤْتَى بِدِمْنَةٍ، فَأَتَتْ بِهِ، فَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالْجَمَاعَةُ حُضُورًا، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَكَانَ نَادَى سَيِّدُ الْجَمْعِ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَيُّهَا الْجَمْعُ، إِنَّكُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَيِّدَ السُّبَاعِ، لَمْ يَزَلْ مُنْذُ قَتْلِ شَتْرَبَةَ خَائِرِ النَّفْسِ، كَثِيرَ الْهَمِّ، وَالْحُزَنِ، يَرَى أَنَّهُ قَدْ قَتَلَ شَتْرَبَةَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ، وَأَنَّهُ أَخَذَهُ بِكَذِبِ دِمْنَةٍ وَنَمِيمَتِهِ^(٢).

وَهَذَا الْقَاضِي قَدْ أَمَرَ أَنْ يَجْلِسَ مَجْلِسَ الْقَضَاءِ، وَيَتَحَتَّ عَنْ شَأْنِ دِمْنَةٍ، فَمَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ شَيْئًا فِي أَمْرِ دِمْنَةٍ مِنْ خَيْرٍ، أَوْ شَرٍّ، فَلْيَقُلْ ذَلِكَ، وَلْيَتَكَلَّمْ بِهِ عَلَى رُءُوسِ الْجَمْعِ وَالْأَشْهَادِ، لِيَكُونَ الْقَضَاءُ فِي أَمْرِهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ؛ فَإِذَا اسْتَوْجَبَ الْقَتْلَ فَالْتَّيَّبْتُ فِي أَمْرِهِ أَوَّلَى، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الْهَوَى وَمُتَابَعَةُ الْأَصْحَابِ عَلَى الْبَاطِلِ ذُلٌّ^(٣).

فَعِنْدَهَا قَالَ الْقَاضِي: أَيُّهَا الْجَمْعُ، اسْمَعُوا قَوْلَ سَيِّدِكُمْ، وَلَا تَكْتُمُوا مَا عَرَفْتُمْ مِنْ أَمْرِهِ، وَاعْتَبِرُوا فِي تَجَنُّبِ الشَّرِّ عَلَيْهِ ثَلَاثَ خِصَالٍ: أَمَّا إِحْدَاهُنَّ وَهِيَ أَهْمُهُنَّ فَأَلَّا تَزْدَرُوا فِعْلَهُ، وَلَا تَعْدُوهُ يَسِيرًا، فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْخَطَايَا قَتْلَ الْبَرِيِّ الَّذِي لَا ذَنْبَ لَهُ بِالْكَذِبِ وَالنَّمِيمَةِ؛ وَمَنْ عَلِمَ مِنْ أَمْرِ هَذَا الْكَذَّابِ الَّذِي اتَّهَمَ الْبَرِيَّ بِكَذِبِهِ وَنَمِيمَتِهِ شَيْئًا، فَسَتَرَ عَلَيْهِ فَهُوَ شَرِيكُهُ فِي الْإِثْمِ وَالْعُقُوبَةِ. وَالثَّانِيَةُ أَنَّهُ إِذَا اعْتَرَفَ الْمُذْنِبُ بِذَنْبِهِ، كَانَ أَسْلَمَ لَهُ، وَالْآخَرَى بِالْمَلِكِ وَجُنْدِهِ أَنْ يَغْفُوا عَنْهُ، وَيَصْفَحُوا. وَالثَّلَاثَةُ تَرْكُ مُرَاعَاةِ أَهْلِ الذَّمِّ وَالْفُجُورِ، وَقَطْعُ أَسْبَابِ مُوَاصَلَتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ عَنِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ^(٤).

فَمَنْ عَلِمَ مِنْ أَمْرِ هَذَا الْمُخْتَالِ شَيْئًا، فَلْيَتَكَلَّمْ بِهِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ مِنْ حَضَرَ، لِيَكُونَ ذَلِكَ حُجَّةً عَلَيْهِ؛ وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهُ مِنْ كَتَمِ شَهَادَةِ مَيِّتِ الْجَنِّمِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ فَلْيَقُلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا عَلِمَ. فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ الْجَمْعُ كَلَامَهُ، أَمْسَكُوا عَنِ الْقَوْلِ. فَقَالَ دِمْنَةُ: مَا

(١) حوشيت: نزلت وجنبك الله ذلك. بتواني: يقصر ولم بهتم. وللجواس: الأسد مبالغة من «جاس» إذا طلب الشيء باستقصاء. يُبْتَوَى: يدنوا.

(٢) خائِر النفس: منقبضًا مضطربًا مرتبكًا.

(٣) والأشهاد: الشهود. القضاء: الحكم. التَّيَّبْتُ: التَّانَى. الهوى: ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع.

(٤) فلا تزدروا: فلا تحقروا. يسيرا: قليلا. والآخرة: والأولى.

يُكَلِّمُ تَكَلَّمُوا بِمَا عَلِمْتُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ لِكُلِّ كَلِمَةٍ جَوَابًا. وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : مَنْ يَشْهَدُ بِمَا لَمْ
ر، وَيَقُلْ مَا لَا يَعْلَمُ، يُصِيبُهُ مَا أَصَابَ الطَّبِيبَ الَّذِي قَالَ لِمَا لَا يَعْلَمُهُ : إِنِّي أَعْلَمُهُ^(١).
قَالَتِ الْجَمَاعَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مثل ابنة الملك والمتطبب

وهو مثل من يدعي علم ما لا يعلم ، ويعمل به ، فتعود العاقبة عليه !

قال دمنة : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ الْمُدُنِ طَبِيبٌ لَهُ رِفْقٌ وَعِلْمٌ، وَكَانَ ذَا فِطْنَةٍ فِيمَا يَجْرِي
عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْمُعَالَجَاتِ، فَكَبِرَ ذَلِكَ الطَّبِيبُ، وَضَعُفَ بَصَرُهُ! وَكَانَ لِمَلِكٍ تِلْكَ الْمَدِينَةُ ابْنَةٌ قَدْ
زَوَّجَهَا لِابْنِ أَخٍ لَهُ؛ فَعَرَضَ لَهَا مَا يَغْرِضُ لِلْحَوَامِلِ مِنَ الْأَوْجَاعِ، فَجِيءَ بِهَذَا الطَّبِيبِ. فَلَمَّا حَضَرَ
سَأَلَ الْجَارِيَةَ عَنْ وَجْعِهَا، وَمَا تَجِدُ، فَأَخْبَرَتْهُ؛ فَعَرَفَ دَاءَهَا وَدَوَاءَهَا، وَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أَبْصِرُ
لَجَمَعْتُ الْأَخْلَاطَ عَلَى مَعْرِفَتِي بِأَجْناسِهَا، وَلَا أَتَّقِي فِي ذَلِكَ بِأَحَدٍ غَيْرِي^(٢).

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ رَجُلٌ جَاهِلٌ، فَلَبَّغَهُ الْخَبَرُ، فَأَتَاهُمْ وَادَّعَى عِلْمَ الطَّبِّ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ خَبِيرٌ
بِمَعْرِفَةِ أَخْلَاطِ الْأَدْوِيَةِ وَالْعَقَاقِيرِ، عَارِفٌ بِطِبَائِعِ الْأَدْوِيَةِ الْمُرَكَّبَةِ، وَالْمُفْرَدَةِ؛ فَلَمَّا دَخَلَ الْجَاهِلُ
الْخِزَانَةَ، وَغَرَضَتْ عَلَيْهِ الْأَدْوِيَةُ وَلَا يَذَرِي مَا هِيَ، وَلَا لَهُ بِهَا مَعْرِفَةٌ أَخَذَ فِي جُمْلَةٍ مَا أَخَذَ مِنْهَا
صُرَّةً فِيهَا سُمٌّ قَاتِلٌ لَوْفَتِهِ، وَدَافَهُ بِالْأَدْوِيَةِ، وَلَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، وَلَا مَعْرِفَةَ عِنْدَهُ بِجَنْسِهِ! فَلَمَّا تَمَّتْ
أَخْلَاطُ الْأَدْوِيَةِ سَقَى الْجَارِيَةَ مِنْهُ، فَمَاتَتْ لَوْفَتِهَا^(٣).

فَلَمَّا عَرَفَ الْمَلِكُ ذَلِكَ دَعَا بِالْجَاهِلِ، فَسَفَّاهُ مِنْ ذَلِكَ الدَّوَاءِ، فَمَاتَ مِنْ سَاعَتِهِ! وَإِنَّمَا
صَرَبْتُ لَكُمْ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمُوا مَا يَدْخُلُ عَلَى الْقَائِلِ وَالْعَامِلِ مِنَ الدَّلِيلِ بِالشُّبْهِةِ فِي الْخُرُوجِ
عَنِ الْحَدِّ. فَمَنْ خَرَجَ مِنْكُمْ عَنْ حَدِّهِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ ذَلِكَ الْجَاهِلَ وَنَفْسُهُ الْمَلُومَةُ. وَقَدْ قَالَتِ
الْعُلَمَاءُ؛ رُبَّمَا جُرِّيَ الْمُتَكَلِّمُ بِقَوْلِهِ. وَالْكَلَامُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَانْظُرُوا لِأَنْفُسِكُمْ. فَتَكَلَّمْ سَيِّدُ الْخَتَاوِيرِ
لِإِدْلَالِهِ وَتَبِيهِهِ بِمَنْزِلَتِهِ عِنْدَ الْأَسَدِ؛ فَقَالَ : يَا أَهْلَ الشَّرَفِ مِنَ الْعُلَمَاءِ، اسْمَعُوا مَقَالَتِي، وَغُوا
بِأَخْلَامِكُمْ كَلَامِي؛ فَالْعُلَمَاءُ قَالُوا فِي شَأْنِ الصَّالِحِينَ: إِنَّهُمْ يُعْرَفُونَ بِسِمَاهُمْ^(٤).

(١) حُجَّةٌ : بَرَهَانٌ وَدَلِيلٌ. أَمْسَكُوا : سَكَنُوا.

(٢) رِفْقٌ : لَطْفٌ. الْأَخْلَاطُ : الْأَدْوِيَةُ الْمُرَكَّبَةُ مِنْ أَجْزَاءٍ. (٣) الْعَقَاقِيرُ : مَا يَتَدَاوَى بِهِ مِنَ النَّبَاتَاتِ. دَافَهُ : خَلَطَهُ.

(٤) الشُّبْهَةُ : مَا بَيْنَ الْخَطَأِ وَالصَّوَابِ. تَبِيَهُ : غُبِجَهُ. بِأَخْلَامِكُمْ : بِعُقُولِكُمْ. بِسِمَاهُمْ : بِبَيِّنَاتِهِمْ.

وَأَنْتُمْ مَعَاشِرَ ذَوِي الْأَقْتِدَارِ يَخْشُرُ صُنْعَ اللَّهِ لَكُمْ، وَتَمَامَ نِعْمَتِهِ عَلَيْكُمْ تَعْرِفُونَ الصَّالِحِينَ بِسِيمَاهُمْ، وَصُورِهِمْ، وَتَخْبِرُونَ الشَّيْءَ الْكَبِيرَ بِالشَّيْءِ الصَّغِيرِ. وَهُنَا أَشْيَاءٌ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ عَلَى هَذَا الْحَبِيثِ دِمْنَةً، وَتُخْبِرُ عَنْ شَرِّهِ، فَاطْلُبُوهَا عَلَى ظَاهِرِ جِسْمِهِ لِيَسْتَنَيْقُوا وَتَسْكُنُوا إِلَى ذَلِكَ. قَالَ الْقَاضِي لِسَيِّدِ الْخَنَازِيرِ: قَدْ عَلِمْتُ، وَعَلِمَ الْجَمَاعَةُ الْحَاضِرُونَ، أَنَّكَ عَارِفٌ بِمَا فِي الصُّورِ مِنْ عِلَامَاتِ الشُّوءِ؛ فَفَسِّرْ لَنَا مَا تَقُولُ، وَأَطْلِعْنَا عَلَى مَا تَرَى فِي صُورَةِ هَذَا الْحَبِيثِ^(١)!

فَأَخَذَ سَيِّدُ الْخَنَازِيرِ يَذُمُّ دِمْنَةً وَقَالَ: إِنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ كَتَبُوا، وَأَخْبَرُوا أَنَّهُ مَنْ كَانَتْ عَيْنُهُ الْيُسْرَى، أَصْغَرَ مِنْ عَيْنِهِ الْيُمْنَى، وَهِيَ لَا تَزَالُ تَخْتَلِجُ، وَكَانَ أَنْفُهُ مَائِلًا إِلَى جَنْبِهِ الْأَيْمَنِ، فَهُوَ حَبِيثٌ جَامِعٌ لِلْحَبِّ وَالْفُجُورِ. فَلَمَّا سَمِعَ دِمْنَةَ ذَلِكَ قَالَ: مِنْ هُنَا تَقْيِسُونَ الْكَلَامَ وَتَتَرَكُونَ الْعِلْمَ، فَاسْمَعُوا مِنِّي مَا أَقُولُهُ لَكُمْ، وَتَذَبُّرُوا بِعُقُوبِكُمْ، فَقَدْ وَعَيْتُمْ مَا قَالَ هَذَا^(٢).

فَإِنْ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ مَا فِي جِسْمِي مِنْ هَذِهِ الْعِلَامَاتِ هُوَ الدَّلِيلُ عَلَى صِدْقِ مَا رُمِيتُ بِهِ، فَإِنِّي إِذَنْ أَكُونُ قَدْ وَسِمتُ بِسِمَاتٍ وَعِلَامَاتٍ اضْطَرَّتْنِي إِلَى الْإِثْمِ، فَعَمِلْتُ بِهَا مَا عَمِلْتُ، فَفِي ذَلِكَ بَرَاءَةٌ لِي، وَغُذِرَ مِمَّا عَمِلْتُهُ. ثُمَّ التَفَّتْ إِلَى سَيِّدِ الْخَنَازِيرِ وَقَالَ: فَقَدْ بَانَ لِمَنْ حَضَرَ قَلَّةَ عَقْلِكَ، وَمَا مَثَلُكَ فِي ذَلِكَ إِلَّا مَثَلُ رَجُلٍ قَالَ لِامْرَأَتِهِ: انْظُرِي إِلَى عُزْرِكَ، وَبَعْدَ ذَلِكَ انْظُرِي إِلَى عُزْرِ غَيْرِكَ قِيلَ لَهُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ^(٣)؟

مثل الخراف وامراتيه

قال دمنه: زَعَمُوا أَنَّ مَدِينَةَ آغَارَ عَلَيْهَا الْعَدُوُّ؛ فَقَتَلَ وَسَبَى وَغَنِمَ وَأَنْطَلَقَ إِلَى بِلَادِهِ! فَاتَّفَقَ أَنَّهُ كَانَ مَعَ جُنْدِيٍّ مِمَّا وَقَعَ فِي قِسْمَتِهِ رَجُلٌ خَرَّاثٌ، وَمَعَهُ امْرَأَتَانِ لَهُ، وَكَانَ هَذَا الْجُنْدِيُّ يُسِيءُ إِلَيْهِمْ فِي الطَّعَامِ وَاللِّبَاسِ، فَذَهَبَ الْخَرَّاثُ ذَاتَ يَوْمٍ وَمَعَهُ امْرَأَتَاهُ يَحْتَطِبُونَ لِلْجُنْدِيِّ وَهُمُ غُرَاةٌ، فَأَصَابَتْ إِحْدَى الْمَرْأَتَيْنِ فِي طَرِيقِهَا خِرْقَةً بَالِيَةً؛ فَاسْتَتَرَتْ بِهَا. ثُمَّ قَالَتْ لِزَوْجِهَا: أَلَا تَنْظُرُ إِلَى هَذِهِ الْقَبِيحَةِ، كَيْفَ لَا تَسْتَحْيِي وَتَسْتَبِيرُ؟! قَالَ لَهَا زَوْجُهَا: لَوْ بَدَأْتَ بِالنَّظَرِ إِلَى نَفْسِكَ، وَأَنَّ جِسْمَكَ كُلَّهُ عَارٍ، لَمَا عَيَّرْتَ صَاحِبَتَكَ بِمَا هُوَ بَعِيْنُهُ فِيكَ! وَشَأْنُكَ عَجَبٌ، أَيُّهَا الْقَذِرُ ذُو الْعِلَامَاتِ الْفَاضِحَةِ الْقَبِيحَةِ، ثُمَّ الْعَجَبُ مِنْ جُرْأَتِكَ عَلَى طَعَامِ الْمَلِكِ، وَقِيَامِكَ بَيْنَ يَدَيْهِ مَعَ مَا بِجِسْمِكَ مِنَ الْقَذَرِ وَالْقُبْحِ، وَمَعَ مَا تَعْرِفُهُ أَنْتَ وَيَعْرِفُهُ غَيْرُكَ مِنْ عُيُوبِ نَفْسِكَ^(٤)!!

(١) وتسكنوا إلى ذلك: تراحوا وتطمنوا. (٢) تختلج: تضطرب.

(٣) وبينت: علمت. سى: أسر. خراث: يحرق الأرض ويشقها بالمحراث. (٤) يحتطبون: يجمعون خطباً.

أَفْتَكَلَّمُ فِي النَّقِيِّ الْجِسْمِ الَّذِي لَا غَيْبَ فِيهِ؟ وَلَسْتُ أَنَا وَحْدِي أَطْلُعُ عَلَى عَيْبِكَ، لَكِنَّ جَمِيعَ مَنْ حَضَرَ قَدْ عَرَفَ ذَلِكَ، وَقَدْ كَانَ يَحْجِزُنِي عَنْ إِظْهَارِهِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الصَّدَاقَةِ. فَأَمَّا إِذْ قَدْ كَذَّبْتَ عَلَيَّ وَبَهْتَنِي فِي وَجْهِي، وَقُمْتَ بِعَدَاوَتِي، فَقُلْتُ مَا قُلْتَ فِي بَعْضِ عِلْمٍ، وَعَلَى رُءُوسِ الْحَاضِرِينَ، فَإِنِّي أَقْتَصِرُ عَلَى إِظْهَارِ مَا أَعْرِفُ مِنْ عُيُوبِكَ، وَتَعْرِفُهُ الْجَمَاعَةُ، وَحَقٌّ عَلَى مَنْ عَرَفَكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ أَنْ يَمْنَعَ الْمَلِكُ مِنْ اسْتِعْمَالِهِ إِيَّاكَ عَلَى طَعَامِهِ^(١).

فَلَوْ كُفِّتَ أَنْ تَعْمَلَ الزَّرَاعَةَ، لَكُنْتُ جَدِيرًا بِالْخِذْلَانِ فِيهَا! فَالْآخَرَى بِكَ أَلَّا تَدْنُو إِلَى عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَأَلَّا تَكُونَ دَبَّاعًا، وَلَا حَجَامًا لِعَامِّي، فَضْلًا عَنْ خَاصِّ خِدْمَةِ الْمَلِكِ!! قَالَ سَيِّدُ الْخَنَازِيرِ: أَوَّلِي تَقُولُ هَذِهِ الْمَقَالَةَ وَتَلْقَانِي بِهَذَا الْمَلَقَى؟ قَالَ دِمْنَةُ: نَعَمْ وَحَقًّا. قُلْتُ فَيْكَ، وَإِيَّاكَ أَغْنِي، أَيُّهَا الْأَعْرَجُ الْمَكْسُورُ الَّذِي فِي وَرِكَهِ النَّاسُورُ، الْأَفْدَعُ الرَّجُلِ، الْمُنْفُوحُ الْبُطْنِ، الْأَفْلَجُ الشَّفَتَيْنِ، السَّيِّئُ الْمُنْظَرِ وَالْمَخْبِرِ! فَلَمَّا قَالَ دِمْنَةُ ذَلِكَ، تَغَيَّرَ وَجْهُ سَيِّدِ الْخَنَازِيرِ، وَاسْتَعْبَرَ، وَاسْتَحَى، وَتَلَجَّلَجَ لِسَانُهُ، وَاسْتَكَانَ، وَفَتَرَ نَشَاطَهُ^(٢).

فَقَالَ دِمْنَةُ حِينَ رَأَى انْكَسَارَهُ وَبُكَاءَهُ: إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَطُولَ بُكَاءُكَ إِذَا أَطْلَعَ الْمَلِكُ عَلَى قَذَرِكَ وَعُيُوبِكَ، فَعَزَلَكَ عَنْ طَعَامِهِ، وَحَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ خِدْمَتِهِ، وَأَبْعَدَكَ عَنْ حَضْرَتِهِ، ثُمَّ إِنَّ شَعْهَرًا كَانَ الْأَسَدُ قَدْ جَرَّبَهُ، فَوَجَدَ فِيهِ أَمَانَةً وَصِدْقًا، فَزَيَّنَهُ فِي خِدْمَتِهِ. أَمَرَهُ أَنْ يَحْفَظَ مَا يَجْرِي بَيْنَهُمْ وَيُطْلِعَهُ عَلَيْهِ، فَقَامَ الشَّعْهَرُ فَدَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فَحَدَّثَهُ بِالْحَدِيثِ كُلِّهِ عَلَى جَلِيلَتِهِ^(٣).

فَأَمَرَ الْأَسَدُ بِغَزْلِ سَيِّدِ الْخَنَازِيرِ عَنْ عَمَلِهِ، وَأَمَرَ أَلَّا يَدْخُلَ عَلَيْهِ، وَلَا يَرَى وَجْهَهُ. وَأَمَرَ بِدِمْنَةِ أَنْ يُرَدَّ إِلَى السَّجْنِ، وَقَدْ مَضَى مِنَ النَّهَارِ أَكْثَرُهُ؛ وَجَمِيعُ مَا جَرَى، وَقَالُوا، وَقَالَ، كُتِبَ وَخُتِمَ عَلَيْهِ بِخَاتَمِ الثَّيْرِ، وَرَجَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى مَنْزِلِهِ. ثُمَّ إِنَّ شَعْهَرًا يُقَالُ لَهُ: رَزُورُهُ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كَلِيلَةِ إِخَاءٍ وَمَوَدَّةٍ، وَكَانَ عِنْدَ الْأَسَدِ وَجِيهًا، وَعَلَيْهِ كَرِيمًا. وَاتَّفَقَ أَنَّ كَلِيلَةَ أَخَذَهُ الْوَجْدَ إِشْفَاقًا مِنْ أَنْ يَلْتَطِخَ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ أَخِيهِ، وَحَذَرًا عَلَيْهِ فَمَرَضَ وَمَاتَ. فَانْطَلَقَ هَذَا الشَّعْهَرُ إِلَى دِمْنَةَ، فَأَخْبَرَهُ بِمَوْتِ كَلِيلَةَ، فَبَكَى وَحَزِنَ، وَقَالَ: مَا أَصْنَعُ بِالدُّنْيَا بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْأَخِ الصَّفِيِّ؟! وَاحْرَ قَلْبَاهُ! إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا ابْتُلِيَ بِبَلِيَّةٍ أَتَاهُ الشَّرُّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَاسْتَنْفَقَ الْهَمُّ وَالْحُزْنُ مِنْ كُلِّ

(١) وبهتني: قلت عني ما ليس في.

(٢) بالخذلان: الخيبة. الناسور: هو عرق به فساد كلما برئ عاد ففسد. الأفدع: معوج الرسغ من اليد أو الرجل. الأفلج: المشقوق.

المخبر: خلاف المظهر أي قبيح الظاهر والباطن. واستعبر: جرت عبرته. واستكان: ذل.

(٣) وحال بينك وبين خدمته: اعترض. شعهرًا: أي ابن أوى. على جليلة: كما هو دون تزيف أو تحريف.

وَلَكِنْ أَحْمَدُ اللَّهِ تَعَالَى إِذْ لَمْ يَمُتْ كَلِيلُهُ حَتَّى أَبْقَى لِي مِنْ ذَوِي قَرَاتِي أَخًا مِثْلَكَ؛ فَإِنِّي قَدْ وَثِقْتُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِحْسَانِهِ إِلَيَّ فِيمَا رَأَيْتُ مِنْ اهْتِمَامِكَ بِي، وَمُرَاعَاةِكَ لِي، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ رَجَائِي وَرُكْنِي فِيمَا أَنَا فِيهِ، فَأُرِيدُ مِنْ إِنْعَامِكَ أَنْ تَنْطَلِقَ إِلَى مَكَانٍ كَذَا؛ فَتَنْظُرَ إِلَيَّ مَا جَمَعْتُهُ أَنَا وَأَخِي بِحَبْلَتِنَا وَسَعِينَا وَمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَتَأْتِيَنِي بِهِ^(٢).

فَفَعَلَ الشَّعْهَرُ مَا أَمَرَهُ بِهِ دِمْنَةُ. فَلَمَّا وَضَعَ الْمَالَ بَيْنَ يَدَيْهِ، أَعْطَاهُ سَطْرَهُ، وَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ عَلَى الدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ عَلَى الْأَسَدِ أَقْدَرُ مِنْ غَيْرِكَ، فَتَقَرَّغْ لِسَانِي، وَاصْرِفْ اهْتِمَامَكَ إِلَيَّ، وَاسْمَعْ مَا أَذْكَرُ بِهِ عِنْدَ الْأَسَدِ، إِذَا رُفِعَ إِلَيْهِ مَا يَجْرِي بَيْنِي وَبَيْنَ الْخُصُومِ، وَمَا يَتَدَوَّنُ مِنْ أُمِّ الْأَسَدِ فِي حَقِّي، وَمَا تَرَى مِنْ مُتَابَعَةِ الْأَسَدِ لَهَا، وَمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهَا فِي أَمْرِي، وَاحْفَظْ ذَلِكَ كُلَّهُ. فَأَخَذَ الشَّعْهَرُ مَا أَعْطَاهُ دِمْنَةُ، وَانْصَرَفَ عَنْهُ عَلَى هَذَا الْعَهْدِ، فَانْطَلَقَ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَوَضَعَ الْمَالَ فِيهِ^(٣).

ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ بَكَرَ مِنَ الْعَدِ، فَجَلَسَ حَتَّى إِذَا مَضَى مِنَ النَّهَارِ سَاعَتَانِ، اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ فِي الدُّخُولِ؛ فَأَذِنَ لَهُمْ؛ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ، وَوَضَعُوا الْكِتَابَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَمَّا عَرَفَ قَوْلَهُمْ، وَقَوْلَ دِمْنَةَ، دَعَا بِأُمِّهِ فَقَرَأَ عَلَيْهَا ذَلِكَ، فَلَمَّا سَمِعَتْ مَا فِي الْكِتَابِ نَادَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا: إِنَّ أَنَا أَغْلَظْتُ فِي الْقَوْلِ؛ فَلَا تَلْمَنِي؛ فَإِنَّكَ لَسْتَ تَعْرِفُ ضَرْكَ مِنْ نَفْعِكَ! أَلَيْسَ هَذَا مِمَّا كُنْتُ أَنُهَاكَ عَنْ سَمَاعِهِ؟ لِأَنَّهُ كَلَامُ هَذَا الْمُجْرِمِ الْمُسِيءِ إِلَيْنَا الْغَادِرِ بِذِمَّتِنَا؟ ثُمَّ إِنَّهَا خَرَجَتْ مُغْضَبَةً، وَذَلِكَ بَعَيْنِ الشَّعْهَرِ الَّذِي آخَاهُ دِمْنَةُ وَبَسْمَعِهِ، فَخَرَجَ فِي إِثْرِهَا مُسْرِعًا؛ حَتَّى أَتَى دِمْنَةَ فَحَدَّثَهُ بِالْحَدِيثِ^(٤).

فَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَهُ إِذْ جَاءَ فَبَجَّ الْأَسَدُ فَانْطَلَقَ بِدِمْنَةَ إِلَى الْمَجْمَعِ عِنْدَ الْقَاضِي، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيِ الْقَاضِي اسْتَفْتَحَ سَيِّدُ الْمَجْلِسِ فَقَالَ: يَا دِمْنَةُ، قَدْ أَتْبَأْنِي عَنْ خَبْرِكَ الْأَمِينُ الصَّادِقُ، وَلَيْسَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَفْحَصَ عَنْ شَأْنِكَ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الدُّنْيَا سَبَبًا إِلَى الْآخِرَةِ، وَمِصْدَاقًا لَهَا؛ لِأَنَّهَا دَارُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ الدَّالِّينَ عَلَى الْخَيْرِ، الْهَادِينَ إِلَى الْجَنَّةِ، الدَّاعِينَ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى^(٥).

(١) إخاء: صداقة. الوجد: الحزن: إشفاقًا: خوفًا. فهاج به مرضه: تحرك واشتد. الصفي: الصادق الإخاء. واخز قلباه!: كلمة تقال عند التوجع والشكوى. واكتنفه: أحاط به.

(٢) ذوى قرابتي: أقاربي. مراعاتك: ملاحظتك. ركني: سندي وعمدتي. (٣) شطره: نصفه. لسانني: لأمرني. يبدو: يظهر.

(٤) أغلظت في القول: خشنت وعنف. إثرها: وراءها.

(٥) فجع الأسد: رسول السلطان القادم على رجليه. سببا: طريقًا. مصداقا: شاهدًا صادقًا.

وَقَدْ ثَبَتَ شَأْنُكَ عِنْدَنَا، وَأَخْبَرْنَا عَنْكَ مَنْ وَثِقْنَا بِقَوْلِهِ: إِلَّا أَنْ سَيِّدَنَا أَمَرَنَا بِالْعُودِ إِلَى أَمْرِكَ، وَالْفَحْصِ عَنْ شَأْنِكَ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ ظَاهِرًا بَيْنَنَا. قَالَ دِمْنَةُ: أَرَأَيْتَ الْقَاضِي لَمْ تَتَعَوَّدَ الْعَدْلَ فِي الْقَضَاءِ، وَلَيْسَ فِي عَدْلِ الْمُلُوكِ دَفْعُ الْمَظْلُومِينَ، وَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ إِلَى قَاضٍ غَيْرِ عَادِلٍ، بَلِ الْمُخَاصِمَةُ لَهُمْ وَالذُّوْدُ عَنْ حُقُوقِهِمْ. فَكَيْفَ تَرَى أَنْ أَقْتَلَ، وَلَمْ أُخَاصِمْ؟! وَتُعَجِّلَ ذَلِكَ مُوَافَقَةَ لِهَوَاكَ، وَلَمْ تَمْضِ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ^(١). وَلَكِنْ صَدَقَ الَّذِي قَالَ: إِنَّ الَّذِي تَعَوَّدَ عَمَلَ الْبِرِّ هَيِّنَ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَإِنْ أَضْرَّ بِهِ. قَالَ الْقَاضِي: إِنَّا نَجِدُ فِي كُتُبِ الْأَوَّلِينَ: أَنَّ الْقَاضِي الْعَدْلَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْرِفَ عَمَلَ الْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ، لِيَجَازِيَ الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ؛ فَإِذَا ذَهَبَ إِلَى هَذَا زِدَادَ الْمُحْسِنُونَ حِرْصًا عَلَى الْإِحْسَانِ، وَالْمُسِيئُونَ اجْتِنَابًا لِلذُّنُوبِ. وَالرَّأْيُ إِلَيْكَ يَا دِمْنَةُ، أَنْ تَنْظُرَ الَّذِي وَقَعَتْ فِيهِ، وَتَعْتَزِفَ بِذَنْبِكَ، وَتَقَرِّبَهِ وَتَتُوبَ، فَلَأَنْ يُعَاقَبَ الْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا، خَيْرٌ مِنْ عِقَابِ الْآخِرَةِ. فَأَجَابَهُ دِمْنَةُ: إِنَّ صَالِحِي الْقَضَاةِ لَا يَقْطَعُونَ بِالظَّنِّ، وَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ، لَا فِي الْخَاصَّةِ وَلَا فِي الْعَامَّةِ، لِيَعْلَمِيَهُمْ أَنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا^(٢).

وَأَنْتُمْ إِنْ ظَنَنْتُمْ أَنِّي مُجْرِمٌ فِيمَا فَعَلْتُ، فَإِنِّي أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْكُمْ؛ وَعِلْمِي بِنَفْسِي يَقِينٌ لَا شَكَّ فِيهِ، وَعِلْمُكُمْ بِي غَايَةُ الشَّكِّ؛ وَإِنَّمَا قُبِخَ أَمْرِي عِنْدَكُمْ أَنِّي سَعَيْتُ بِغَيْرِي، فَمَا عُذْرِي عِنْدَكُمْ إِذَا سَعَيْتُ بِنَفْسِي كَاذِبًا عَلَيْهِا، فَأَسْلَفْتُهَا إِلَى الْقَتْلِ وَالْعَطَبِ، عَلَى مَعْرِفَةٍ مِنِّي بِبِرَائَتِي وَسَلَامَتِي مِمَّا قُرِفَتْ بِهِ؟ وَنَفْسِي أَعْظَمُ الْأَنْفُسِ عَلَيَّ حُرْمَةً^(٣)، وَأَوْجِبُهَا حَقًّا. فَلَوْ فَعَلْتُ هَذَا بِأَقْصَاكُمْ وَأَذْنَاكُمْ، لَمَا وَسَعَتْنِي فِي دِينِي، وَلَا حَسَنٌ بِي فِي مُرُوءَتِي، وَلَا حَقٌّ لِي أَنْ أَفْعَلَهُ فَكَيْفَ أَفْعَلُهُ بِنَفْسِي؟ فَكَفَفَ أَثِمَهَا الْقَاضِي عَنْ هَذِهِ الْمَقَالَةِ: فَإِنَّهَا إِنْ كَانَتْ نَصِيحَةً فَقَدْ أَخْطَأَتْ مَوْضِعَهَا؛ وَإِنْ كَانَتْ خَدِيعَةً فَإِنَّ أَقْبَحَ الْخِدَاعِ مَا كَانَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ؛ مَعَ أَنَّ الْخِدَاعَ وَالْمَكْرَ لَيْسَا مِنْ أَعْمَالِ صَالِحِي الْقَضَاةِ، وَلَا ثِقَاتِ الْوُلَاةِ. وَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَكَ مِمَّا يَتَّخِذُهُ الْجُهَالُ وَالْأَشْرَارُ شُئًا يَقْتَدُونَ بِهَا؛ لِأَنَّ أُمُورَ الْقَضَاةِ يَأْخُذُ بِصَوَابِهَا أَهْلُ الصَّوَابِ، وَيَحْطِئُهَا أَهْلُ الْخَطَا وَالْبَاطِلِ وَالْقَلِيلُ الْوَرَعِ، وَأَنَا خَائِفٌ عَلَيْكَ أَثِمَهَا الْقَاضِي مِنْ مَقَالَتِكَ هَذِهِ أَعْظَمَ الرِّزَايَا وَالْبَلَايَا. وَلَيْسَ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْمُصِيبَةِ أَنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِ الْمَلِكِ وَالْجُنْدِ وَالْعَامَّةِ فَاضِلًا فِي رَأْيِكَ، مُقْبِعًا فِي عَقْلِكَ، مَرْضِيًا

(١) ثبت شأنك: أمرك. والذود: الدفاع والمحاماة. أخاصم: أجادل.

(٢) والرأي إليك: مفوض إليك. لا يقطعون: أي لا يحكمون حكما قاطعا. لا يغني: ينقص.

(٣) سعت بغيري: أي بلغت الحديث عنه على وجه الإفساد. والعطب: الهلاك. قُرِفَتْ به: عبت وانهت. جُرْمَةً: عهداً ورعاية.

فِي حُكْمِكَ وَعَفَافِكَ وَفَضْلِكَ! وَإِنَّمَا الْبَلَاءُ كَيْفَ أَنْشِيتَ ذَلِكَ فِي أَمْرِي؟! أَوْ مَا بَلَغَكَ عَنِ
الْعُلَمَاءِ أَنَّهُمْ قَالُوا: مَنِ ادَّعَى عِلْمَ مَا لَا يَعْلَمُ ، وَشَهِدَ عَلَى الْغَيْبِ ، أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْبَازِيَارَ^(١)
الْقَاضِي زَوْجَةَ مَوْلَاهُ^(٢) . قَالَ الْقَاضِي : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

مثل البازيار وزوجة المرزبان

وهو مثل من عمل الحيلة ولم ينظر فيها إلى بعيد؛ فلم تتجح ، وعادت
عليه !

قال دمنه : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ الْمُدُنِ رَجُلٌ مِنَ الْمَرَازِبَةِ^(٣) مَذْكُورٌ ، وَكَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ
ذَاتُ جَمَالٍ وَعَفَافٍ . وَكَانَ لِلرَّجُلِ بَازِيَارٌ مَاهِرٌ ، خَبِيرٌ بِعِلَاجِ الْبُزَاةِ وَسِيَاسَتِهَا ، وَكَانَ هَذَا الْبَازِيَارُ
عِنْدَ هَذَا الرَّجُلِ بِمَكَانٍ خَلِيلٍ ؛ بِحَيْثُ أَدْخَلَهُ دَارَهُ وَأَجْلَسَهُ مَعَ حُرْمِهِ . فَاتَّفَقَ أَنْ وَقَعَتْ كَلِمَةً مِنَ
الْبَازِيَارِ لِرِزْوَجَةِ مَوْلَاهُ ، فَتَسَخَّطَ لِذَلِكَ ، وَنَفَرَتْ ؛ فَغَضِبَ وَعَمِلَ عَلَى أَنْ يَكِيدَهَا بِمَكِيدَةٍ !
فَخَرَجَ يَوْمًا إِلَى الصَّيْدِ عَلَى عَادَتِهِ ؛ فَأَصَابَ فَرْخِي بَيْغَاءَ ، فَأَخَذَهُمَا ، وَجَاءَ بِهِمَا إِلَى مَنْزِلِهِ ،
وَرَبَّاهُمَا ؛ فَلَمَّا كَبُرَ ، فَرَّقَ بَيْنَهُمَا وَجَعَلَهُمَا فِي قَفَصَيْنِ وَعَلَّمَ أَحَدَهُمَا أَنْ يَقُولَ : رَأَيْتُ رِيَّةً فِي
مَوْلَاتِي ، وَعَلَّمَ الْآخَرَ أَنْ يَقُولَ : أَمَّا أَنَا فَلَا أَقُولُ شَيْئًا ! ثُمَّ أَدْبَهُمَا عَلَى ذَلِكَ ، حَتَّى اتَّقَنَاهُ ، وَحَذَقَاهُ
فِي سِتَّةِ أَشْهُرٍ^(٤) .

فَلَمَّا بَلَغَ الَّذِي أَرَادَ مِنْهُمَا ، حَمَلَهُمَا إِلَى أَسْتَاذِهِ فَلَمَّا رَأَاهُمَا أَعْجَبَاهُ ، وَنَطَقَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَطْرَبَاهُ ،
إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ مَا يَقُولَانِ ؛ لِأَنَّ الْبَازِيَارَ كَانَ قَدْ عَلَّمَهُمَا بِلُغَةِ الْبَلُخِيِّينَ . وَإِنَّ الْمَرْزُبَانَ أَعْجَبَ
بِالِاخْتِطَاطِ عَلَيْهِمَا ، وَالِاخْتِطَاطِ بِهِمَا ، فَفَعَلَتِ الْمَرْأَةُ ذَلِكَ . فَاتَّفَقَ أَنَّهُ بَعْدَ مُدَّةٍ قَدِيمٍ عَلَى الرَّجُلِ قَوْمٌ
مِنْ عُظَمَاءِ بَلُخَ ، فَتَأَنَّقَ لَهُمْ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَجَمَعَ مِنْ أَصْنَافِ الْفَوَاكِهِ وَالتَّحْفِ شَيْئًا
كَثِيرًا^(٥) .

وَحَضَرَ الْقَوْمَ ، فَلَمَّا فَرَّغُوا مِنَ الطَّعَامِ ، وَشَرَعُوا فِي الْحَدِيثِ ، أَشَارَ الْمَرْزُبَانُ إِلَى الْبَازِيَارِ أَنْ
يَأْتِيَ بِالْبَيْغَاءَيْنِ ؛ فَأَحْضَرَهُمَا . فَلَمَّا وَضَعَتَا بَيْنَ يَدَيْهِ صَاحَتَا بِمَا كَانَتَا عُلْمَتَاهُ ، فَعَرَفَ أُولَئِكَ

(٢) القاذف زوجة مولاة : الراميا برية وفاحشة .

(٤) خليل : صديق . وعمل على : سعى في . رية : شكاً وتهمة .

(١) البازيار : مربى البازي .

(٣) المرازبة : جمع مرزبان وهو رئيس القُرس .

(٥) فتأنق لهم : أي عمله بإتقان وبذل جهداً في تجميله .

الْعُلَمَاءُ مَا قَالَتْ، فَتَنَظَرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَنَكَسُوا رُءُوسَهُمْ حَيَاءً وَخَجَلًا، وَجَعَلَ يَغْمِزُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَقَالَ الرَّجُلُ: مَا أَعْلَمُ مَا تَقُولَانِ، وَلَكِنِّي يُعْجِبُنِي ذَلِكَ مِنْهُمَا^(١).

وَسَأَلَهُمْ عَمَّا تَقُولَانِ، فَاِمْتَنَعُوا أَنْ يَقُولُوا مَا قَالَتْ، فَأَلَحَّ عَلَيْهِمْ، وَأَكْثَرَ السُّؤَالَ عَمَّا قَالَتْ. فَقَالُوا إِنَّمَا تَقُولَانِ: كَذَا وَكَذَا، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِنَا أَنْ نَأْكُلَ مِنْ يَيْتٍ يُعْمَلُ فِيهِ الْفُجُورُ! فَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ، سَأَلَهُمُ الرَّجُلُ أَنْ يُكَلِّمُوهُمَا بِلِسَانِ الْبَلَخِيَّةِ بِغَيْرِ مَا نَطَقْنَا بِهِ؛ فَفَعَلُوا ذَلِكَ فَلَمْ يَجِدُوهُمَا تَعْرِفَانِ غَيْرَ مَا تَكَلَّمْنَا بِهِ؛ وَبَانَ لَهُمْ وَلِلْجَمَاعَةِ حَصَانَةُ الْمَرْأَةِ، وَبَرَاءَتُهَا مِمَّا رُمِيَتْ بِهِ، وَوَضَحَ كَذِبُ الْبَارِيَارِ. فَأَمَرَ بِالْبَارِيَارِ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ، وَكَانَ عَلَى يَدِهِ بَازٍ أَشْهَبُ^(٢)، فَصَاحَتْ بِهِ الْمَرْأَةُ مِنْ دَاخِلِ الْبَيْتِ: أَيُّهَا الْعَدُوُّ لِنَفْسِي، أَنْتَ رَأَيْتَنِي عَلَى مَا ذَكَرْتَ، وَعَلِمْتَ بِهِ الْبَيْغَاءُ؟ قَالَ: نَعَمْ أَنَا رَأَيْتُكَ عَلَى مِثْلِ مَا تَقُولَانِ! فَوَتَبَ الْبَارِي إِلَى وَجْهِهِ، فَقَفَا عَيْنُهُ بِمَخَالِيهِ! فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: بِحَقِّ أَصَابَكَ هَذَا؛ إِنَّهُ لَجَزَاءٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِشَهَادَتِكَ بِمَا لَمْ تَرَهُ عَيْنُكَ! وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ أَيُّهَا الْقَاضِي لِتَزِدَادَ عِلْمًا بِوُخَامَةِ عَاقِبَةِ الشَّهَادَةِ بِالْكَذِبِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. فَلَمَّا سَمِعَ الْقَاضِي ذَلِكَ مِنْ لَفْظِ دِمْنَةٍ نَهَضَ فَرَفَعَهُ إِلَى الْأَسَدِ عَلَى وَجْهِهِ، فَتَنَظَرُ فِيهِ الْأَسَدُ فَدَعَا أُمَّهُ فَعَرَضَهُ عَلَيْهَا فَقَالَتْ حِينَ تَدَبَّرْتُ كَلَامَ دِمْنَةٍ: لَقَدْ صَارَ اهْتِمَامِي بِمَا أَتَخَوَّفُ مِنْ احْتِيَالِ دِمْنَةٍ لَكَ بِمَكْرِهِ وَدَهَائِهِ، حَتَّى يَقْتُلَكَ أَوْ يُفْسِدَ عَلَيْكَ أَمْرَكَ، أَعْظَمَ مِنْ اهْتِمَامِي بِمَا سَلَفَ مِنْ ذَنْبِهِ إِلَيْكَ فِي الْغُشِّ وَالسَّعَايَةِ، حَتَّى قَتَلْتَ صَدِيقَكَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ^(٣).

فَوَقَعَ قَوْلُهَا فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ لَهَا: أَخْبِرْنِي عَنِ الَّذِي أَخْبَرَكِ عَنْ دِمْنَةٍ بِمَا أَخْبَرَكِ فَيَكُونَ حُجَّةً لِي فِي قَتْلِي دِمْنَةٍ. فَقَالَتْ: لَا أَكْرَهُ إِفْشَاءَ سِرٍّ مِنْ اسْتَكْتَمْنِيهِ، فَلَا يَهْتِنِي سُرُورِي بِقَتْلِ دِمْنَةٍ إِذَا تَذَكَّرْتُ أَنَّي اسْتَظْهَرْتُ عَلَيْهِ بِرُكُوبٍ مَا نَهَتْ عَنْهُ الْعُلَمَاءُ مِنْ كَشْفِ السِّرِّ، وَلَكِنِّي أَطَالِبُ الَّذِي اسْتَوْدَعْنِيهِ، أَنْ يُجِلَّنِي مِنْ ذِكْرِهِ وَيَقُومَ هُوَ بِعِلْمِهِ، وَمَا سَمِعَ مِنْهُ^(٤).

ثُمَّ انْصَرَفَتْ وَأَرْسَلَتْ إِلَى التَّيْرِ وَذَكَرَتْ لَهُ مَا يَحِقُّ عَلَيْهِ مِنَ التَّرْيِينِ لِلْأَسَدِ، وَحُسْنِ مُعَاوَنَتِهِ عَلَى الْحَقِّ، وَإِخْرَاجِ نَفْسِهِ مِنَ الشَّهَادَةِ الَّتِي لَا يَكْتُمُهَا مِثْلُهُ مَعَ مَا يَحِقُّ عَلَيْهِ مِنْ نَصْرِ الْمُظْلُومِينَ

(١) وشرعوا: بدءوا وخاضوا. ونكسوا رءوسهم: خفضوها.

(٢) الفجور: الذنوب والمعاصي. حصانة المرأة: عفاف. أشهب: أبيض في سواد.

(٣) بوخامة: برداءة. على وجهه: أي على حكمه بدون مبالاة.

(٤) فوقع قولها في نفسه: أثر فيها. استكتمني: طلب مني أن أكتمه. فلا يهتني سروري: لا أهتم به. استظهرت: استعنت. بركوب: ارتكاب. يجلني: يخرجني، ويجعلني في حل من ذكرى إياه. أي يجلب إياه.

وَتَثْبِيَتْ حُجَّةَ الْحَقِّ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ. فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ قَالَتْ : مَنْ كَتَمَ حُجَّةً مَيِّتٌ أَخْطَأَ حُجَّتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. فَلَمْ تَزَلْ بِهِ حَتَّى قَامَ فَدَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فَشَهِدَ عِنْدَهُ بِمَا سَمِعَ مِنْ إِقْرَارِ دِمْنَةٍ. فَلَمَّا شَهِدَ التَّمْرِ بِذَلِكَ، أَرْسَلَ الْفَهْدُ الْمَسْجُورَ الَّذِي سَمِعَ إِقْرَارَ دِمْنَةٍ، وَحَفِظَهُ إِلَى الْأَسَدِ^(١).
فَقَالَ : إِنَّ عِنْدِي شَهَادَةً ، فَأَخْرَجُوهُ، فَشَهِدَ بِمَا سَمِعَ مِنْ إِقْرَارِهِ فَقَالَ لَهُمَا الْأَسَدُ : مَا مَنَعَكُمَا أَنْ تَقُومَا بِشَهَادَتِكُمَا وَقَدْ عَلِمْتُمَا أَمْرَنَا، وَاهْتِمَامَنَا بِالْفَحْصِ عَنْ أَمْرِ دِمْنَةٍ. فَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا : قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ شَهَادَةَ الْوَاحِدِ لَا تُوجِبُ شَيْئًا ، فَكَرِهْتُ التَّعَرُّضَ لِغَيْرِ مَا يَمْضِي بِهِ الْحُكْمُ، حَتَّى إِذَا شَهِدَ أَحَدُنَا قَامَ الْآخَرُ، فَقَبِلَ الْأَسَدُ قَوْلَهُمَا، وَأَمَرَ بِدِمْنَةٍ أَنْ يُقْتَلَ، وَيُصْلَبَ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ، وَنَادَى الْمُنَادِي هَذَا جَزَاءُ مَنْ يَسْعَى بَيْنَ الْمُلُوكِ وَبَيْنَ أَجْنَادِهِمْ وَبِطَانَتِهِمْ بِالْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ!.

فَمَنْ نَظَرَ فِي هَذَا ؛ فَلْيَعْلَمْ : أَنَّ مَنْ أَرَادَ مَنَفَعَةَ نَفْسِهِ بِضَرِّ غَيْرِهِ بِالْخِلَابَةِ وَالْمَكْرِ فَإِنَّهُ سَيُجْزَى عَلَى خِلَابَتِهِ وَمَكْرِهِ^(٢)!.

بَابُ الْحِمَاةِ الْمُطَوَّقَةِ

وهو مثل إخوان الصفاء وتعاونهم ، وبدء تواصلهم ونجاتهم من الشدائد بتعاونهم

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ: قَدْ سَمِعْتُ مَثَلَ الْمُتَحَايَيْنِ كَيْفَ قَطَعَ بَيْنَهُمَا الْكَذُوبُ، وَإِلَى مَاذَا صَارَ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، فَحَدَّثَنِي - إِنَّ رَأَيْتَ - عَنْ إِخْوَانِ الصِّفَاءِ كَيْفَ يَتَنَدَّى تَوَاصُلُهُمْ، وَيَسْتَمْتِعُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ؟ قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَعْدِلُ بِالْإِخْوَانِ شَيْئًا؛ فَإِلَّا إِخْوَانُ هُمْ الْأَعْوَانُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ، وَالْمُؤَاسُونَ عِنْدَ مَا يَتُوبُ مِنَ الْمَكْرُوهِ. وَمِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ: مَثَلُ الْحِمَاةِ الْمُطَوَّقَةِ وَالْجُرَذِ وَالظَّبْيِ وَالْغُرَابِ. قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ^(٣)؟

(١) وأخطأ حجة: أي: فاته الصواب فيها.

(٢) أخطأ حجة: أي: فاته الصواب فيها. (٣) صار: انتهى. المؤاسون: المعينون. ينوب: ينزل ويصيب.

قَالَ يَبْدَا : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ سَكَوَنَدَجِينَ، عِنْدَ مَدِينَةِ دَاهَرٍ، مَكَانٌ كَثِيرُ الصَّيْدِ، يَنْتَابُهُ الصَّيَّادُونَ^(١)؛ وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ شَجَرَةٌ كَثِيرَةُ الْأَغْصَانِ، مُتَفَتَّةُ الْوَرَقِ، فِيهَا وَكْرٌ غُرَابٍ. فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ سَاقِطٌ فِي وَكْرِهِ، إِذْ بَصُرَ بِصَيَّادٍ قَبِيحِ الْمَنْظَرِ سَيِّئِ الْخُلُقِ، وَفُتِحَ مَنْظَرُهُ بِدُلٍّ عَلَى شَوْءٍ مَخْبَرِهِ، عَلَى عَاتِقِهِ شَبَكَةٌ، وَفِي يَدِهِ عَصَا، مُقْبِلًا نَحْوَ الشَّجَرَةِ، فَذَعِرَ مِنْهُ الْغُرَابُ؛ وَقَالَ: لَقَدْ سَاقَ هَذَا الرَّجُلَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ: إِمَّا حَيْثِي، وَإِمَّا حَيْثُ غَيْرِي، فَلَا تَبْتَئَنَّ مَكَانِي حَتَّى أَنْظُرَ مَاذَا يَصْنَعُ. ثُمَّ إِنَّ الصَّيَّادَ نَصَبَ شَبَكَتَهُ، وَنَثَرَ عَلَيْهَا الْحَبَّ، وَكَمَنَ قَرِيبًا مِنْهَا، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى مَرَّتْ بِهِ حَمَامَةٌ يُقَالُ لَهَا: الْمُطَوَّقَةُ، وَكَانَتْ سَيِّدَةُ الْحَمَامِ، وَمَعَهَا حَمَامٌ كَثِيرٌ؛ فَعَمِيَّتْ هِيَ وَصَاحِبَاتُهَا عَنِ الشَّرِكِ، فَوَقَعْنَ عَلَى الْحَبِّ يَلْتَقِطُنَّهُ، فَعَلِقْنَ فِي الشَّبَكَةِ كُلُّهُنَّ، وَأَقْبَلَ الصَّيَّادُ فَرِحًا مَسْرُورًا^(٢).

فَجَعَلَتْ كُلُّ حَمَامَةٍ تَتَلَجَّلَجُ فِي حَبَائِلِهَا، وَتَلْتَمِسُ الْخَلَاصَ لِنَفْسِهَا، قَالَتِ الْمُطَوَّقَةُ: لَا تَخَاذِلْنَ فِي الْمُعَالَجَةِ، وَلَا تَكُنْ نَفْسٌ إِحْدَاكُنَّ أَهَمَّ إِلَيْهَا مِنْ نَفْسِ صَاحِبَتَيْهَا؛ وَلَكِنْ نَتَعَاوَنَ جَمِيعُنَا، وَنَطِيرُ كَطَائِرٍ وَاحِدٍ، فَيَنْجُو بَعْضُنَا بِبَعْضٍ؛ فَجَمَعْنَ أَنْفُسَهُنَّ، وَوَتَّيْنَ وَتَبَةً وَاحِدَةً، فَفَلَعْنَ الشَّبَكَةَ جَمِيعُهُنَّ بِتَعَاوُنِهِنَّ، وَعَلَوْنَ بِهَا فِي الْجَوِّ، وَلَمْ يَقْطَعْ الصَّيَّادُ رَجَاءَهُ مِنْهُنَّ، وَظَنَّ أَنَّهُنَّ لَا يُجَاوِزْنَ إِلَّا قَرِيبًا حَتَّى يَقْعْنَ^(٣).

فَقَالَ الْغُرَابُ : لَا تَبْتَعْهُنَّ، وَأَنْظُرْ مَا يَكُونُ مِنْهُنَّ، فَالْتَفَتَتِ الْمُطَوَّقَةُ، فَرَأَتْ الصَّيَّادَ يَتْبَعُهُنَّ، فَقَالَتْ لِلْحَمَامِ: هَذَا الصَّيَّادُ جَادٌّ فِي طَلَبِكُنَّ، فَإِنْ نَحْنُ أَخَذْنَا فِي الْفَضَاءِ، لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، وَلَمْ يَزَلْ يَتَّبِعُنَا، وَإِنْ نَحْنُ تَوَجَّهْنَا إِلَى الْعُمَرَانِ خَفِيَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، وَانْصَرَفَ. وَبِمَكَانٍ كَذَا جُرَذٌ هُوَ لِي أَخٌ؛ فَلَوْ انْتَهَيْنَا إِلَيْهِ قَطَعَ عَنَّا هَذَا الشَّرِكَ، فَفَعَلْنَ ذَلِكَ، وَأَيَسَ الصَّيَّادُ مِنْهُنَّ وَانْصَرَفَ، وَتَبِعَهُنَّ الْغُرَابُ لِيَنْظُرَ إِلَيْهِنَّ، لَعَلَّهُ يَتَعَلَّمُ مِنْهُنَّ حِيلَةً تَكُونُ لَهُ غُدَّةٌ عِنْدَ الْحَاجَةِ^(٤).

فَلَمَّا انْتَهَبَتِ الْحَمَامَةُ الْمُطَوَّقَةُ إِلَى الْجُرَذِ، أَمَرَتِ الْحَمَامُ أَنْ يَقْعْنَ، فَوَقَعْنَ؛ وَكَانَ لِلْجُرَذِ مِثْلُ جُحْرِ أَعْدَّهَا لِلْمَخَافِ؛ فَدَادَتْهُ الْمُطَوَّقَةُ بِاسْمِهِ، وَكَانَ اسْمُهُ زَيْرُكَ، فَأَجَابَهَا الْجُرَذُ مِنْ جُحْرِهِ:

(١) ينتابه: يتردد عليه.

(٢) مخبره: تجربته واختباره. عاتقه: ما بين الكتف والعتق. ذاعر: خاف. حَيْثِي: هلاكي. وكمن: استخفى. فلم يلبث: فلم يقم. فوقمن: نزلن.

(٣) حباثلها: أشراكها. لا تخاذلن: لا تتركن التعاون.

(٤) جادٌ: مجتهد في سيرة. في الفضاء: ما اتسع من الأرض. العمران: اسم لما أقيم من بنيان وأيس: قطع الأمل. غدة: غدة الشيء ما أعدته أي حياته لحوادث الدهر.

مَنْ أَنْتَ؟ قَالَتْ : أَنَا خَلِيلَتُكَ الْمُطَوَّقَةُ. فَأَقْبَلَ إِلَيْهَا الْجُرْدُ يَسْعَى، فَقَالَ لَهَا: مَا أَوْقَعَكَ فِي هَذِهِ الْوُرْطَةِ؟ قَالَتْ لَهُ: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ مُقَدَّرٌ عَلَى مَنْ تَصِيبُهُ الْمَقَادِيرُ، وَهِيَ الَّتِي أَوْقَعْتَنِي فِي هَذِهِ الْوُرْطَةِ، فَقَدْ لَا يَمْتَنِعُ مِنَ الْقَدَرِ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي وَأَعْظَمُ أَمْرًا، وَقَدْ تَنَكَّسْتُ الشَّمْسُ، وَتَنَحَّسْتُ الْقَمَرَ، إِذَا قُضِيَ ذَلِكَ عَلَيْهِمَا^(١).

ثُمَّ إِنَّ الْجُرْدَ أَخَذَ فِي قَرْضِ الْعِقْدِ الَّذِي فِيهِ الْمُطَوَّقَةُ، فَقَالَتْ لَهُ الْمُطَوَّقَةُ: أَبْدَأْ بِقَطْعِ عُقْدِ سَائِرِ الْحَمَامِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أَقْبِلْ عَلَى عِقْدِي، فَأَعَادَتْ عَلَيْهِ ذَلِكَ مِرَارًا وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى قَوْلِهَا؛ فَلَمَّا أَكْثَرَتْ عَلَيْهِ الْقَوْلَ، وَكَرَّرَتْ، قَالَ لَهَا: لَقَدْ كَرَّرْتَ الْقَوْلَ عَلَيَّ كَأَنَّكَ لَيْسَ لَكَ فِي نَفْسِكَ حَاجَةٌ، وَلَا لَكَ عَلَيْهَا شَفَقَةٌ، وَلَا تَرَعِينَ لَهَا حَقًّا! قَالَتْ: إِنِّي أَخَافُ إِنْ أَنْتَ بَدَأْتَ بِقَطْعِ عِقْدِي أَنْ تَمَلَّ وَتَكْسَلَ عَنْ قَطْعِ مَا بَقِيَ، وَعَزَفْتُ أَنْكَ إِنْ بَدَأْتَ بِهِنَّ قَبْلِي، وَكُنْتُ أَنَا الْأَخِيرَةَ لَمْ تَرْضَ وَإِنْ أَذَرَكَ الْفُتُورَ أَنْ أَبْقَى فِي الشَّرِّكَ، قَالَ الْجُرْدُ: هَذَا مِمَّا يَزِيدُ الرَّغْبَةَ فِيكَ، وَالْمَوَدَّةَ لَكَ^(٢).

ثُمَّ إِنَّ الْجُرْدَ أَخَذَ فِي قَرْضِ الشَّبَكَةِ حَتَّى فَرَّغَ مِنْهَا، فَاَنْطَلَقَتِ الْمُطَوَّقَةُ وَحَمَامُهَا مَعَهَا، فَلَمَّا رَأَى الْغُرَابُ صُنْعَ الْجُرْدِ رَغِبَ فِي مُصَادَقَتِهِ؛ فَجَاءَ وَنَادَاهُ بِاسْمِهِ، فَأَخْرَجَ الْجُرْدُ رَأْسَهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَاجَتُكَ؟ قَالَ: إِنِّي أُرِيدُ مُصَادَقَتَكَ، قَالَ الْجُرْدُ: لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ تَوَاضُلٌ؛ وَإِنَّمَا الْعَاقِلُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَلْتَمِسَ مَا يَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَيَتْرَكَ التِّمَاسَ مَا لَيْسَ لَهُ إِلَيْهِ سَبِيلٌ؛ كَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُجْرِيَ الشُّفْنَ فِي الْبَرِّ، وَالْعَجَلَ فِي الْبَحْرِ، فَإِنْ أَنْتَ إِلَّا أَكَلْ، وَأَنَا طَعَامُ لَكَ^(٣). قَالَ الْغُرَابُ: إِنْ أَكَلِي إِيَّاكَ، وَإِنْ كُنْتُ لِي طَعَامًا، مِمَّا لَا يُبْنِي عَنِّي شَيْئًا. وَإِنَّ مَوَدَّتَكَ آتَتْ لِي مِمَّا ذَكَرْتَ، وَلَسْتُ بِحَقِيقِي إِذَا جِئْتُ أَطْلُبُ مَوَدَّتَكَ أَنْ تَرُدَّنِي خَائِبًا؛ فَإِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لِي مِنْكَ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ مَا رَغَبْتَنِي فِيكَ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَلْتَمِسُ إِظْهَارَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَخْفَى فَضْلُهُ، وَإِنْ هُوَ أَخْفَاهُ كَالْمِسْكِ الَّذِي يُكْتَمُّ، ثُمَّ لَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ مِنَ النَّشْرِ الطَّيِّبِ وَالْأَرَجِ الْفَائِحِ^(٤).

قَالَ الْجُرْدُ: إِنَّ أَشَدَّ الْعَدَاوَةِ عَدَاوَةُ الْجَوْهَرِ: وَهِيَ عَدَاوَتَانِ: مِنْهَا مَا هُوَ مُتَكَافِئٌ كَعَدَاوَةِ الْفِيلِ وَالْأَسَدِ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا قَتَلَ الْأَسَدَ الْفِيلَ أَوْ الْفِيلَ الْأَسَدَ. وَمِنْهَا مَا قُوَّتُهُ مِنْ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَلَى الْآخَرِ،

(١) على من تصيبه المقادير: جمع مقدور وهو الأمر المحتوم.

(٢) قرض: قطع. العقد: جبل الشَّرِّ. سائر: باقي. ولا ترعين: ولا تحفظين.

(٣) تواصل: أي علاقة. والعجل: جمع عجلة. وهي آلة يجرها الثور محمولا عليها الأثقال. فَإِنْ أَنْتَ إِلَّا أَكَلْ: فما أنت. وإن حرف نفي بمعنى ما.

(٤) لا يبغي عني شيئا: لا يبغي عني. أنس: اسم تفضيل من الأنس وهو ضد الوحشة. النشر: الريح. والأرج: ذكاء الرائحة.

كَأَلْتِي بَيْنِي وَبَيْنَ السَّنُورِ، وَبَيْنِي وَبَيْنَكَ؛ فَإِنَّ الْعَدَاوَةَ الَّتِي بَيْنَنَا لَيْسَتْ تَضُرُّكَ، وَإِنَّمَا ضَرُّهَا عَلَيَّ؛ فَإِنَّ الْمَاءَ لَوْ أُطِيلَ إِسْحَاخُهُ لَمْ يَمْنَعَهُ ذَلِكَ مِنْ إِطْفَائِهِ النَّارَ إِذَا صُبَّ عَلَيْهَا. وَإِنَّمَا مُصَاحِبُ الْعَدُوِّ وَمُصَالِحُهُ كَصَاحِبِ الْحَيَّةِ، يَحْمِلُهَا فِي كُمِّهِ، وَالْعَاقِلُ لَا يَسْتَأْنِسُ إِلَى الْعَدُوِّ الْأَرِيبِ^(١).

قَالَ الْغُرَابُ: قَدْ فَهِمْتُ مَا تَقُولُ، وَأَنْتَ خَلِيقٌ أَنْ تَأْخُذَ بِفَضْلِ خَلِيقَتِكَ، وَتَعْرِفَ صِدْقَ مَقَالِي، وَلَا تَصْغَبَ عَلَيَّ الْأَمْرَ بِقَوْلِكَ: لَيْسَ إِلَيَّ التَّوَاصُلُ بَيْنَنَا سَبِيلٌ؛ فَإِنَّ الْعُقْلَاءَ الْكِرَامَ لَا يَسْتَعُونَ عَلَى مَعْرُوفٍ جَزَاءً، وَالْمَوَدَّةُ بَيْنَ الصَّالِحِينَ سَرِيعٌ اتِّصَالُهَا، بَطِيءٌ انْقِطَاعُهَا، وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ الْكُوزِ الذَّهَبِ بَطِيءُ الْإِنْكَسَارِ، سَرِيعُ الْإِعَادَةِ هَيْئُ الْإِصْلَاحِ، إِنْ أَصَابَهُ ثَلَمٌ أَوْ كَسْرٌ؛ وَالْمَوَدَّةُ بَيْنَ الْأَشْرَارِ سَرِيعٌ انْقِطَاعُهَا، بَطِيءُ اتِّصَالُهَا، وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ الْكُوزِ الْفَخَّارِ، سَرِيعُ الْإِنْكَسَارِ، يَنْكَسِرُ مِنْ أَذْنَى شَيْءٍ وَلَا وَضَلَ لَهُ أَبَدًا. وَالْكَرِيمُ يَوَدُّ الْكَرِيمَ، وَاللَّيِّمُ لَا يَوَدُّ أَحَدًا، إِلَّا عَنْ رَغْبَةٍ أَوْ رَهْبَةٍ^(٢).

وَأَنَا إِلَى وَدِّكَ وَمَعْرُوفِكَ مُحْتَاجٌ؛ لِأَنَّكَ كَرِيمٌ، وَأَنَا مُلَازِمٌ لِبَابِكَ غَيْرُ ذَائِقٍ طَعَامًا حَتَّى تُؤَاجِئَنِي. وَاعْلَمْ أَنِّي لَوْ كُنْتُ أَشَاءُ ضَرْكَكَ لَفَعَلْتُ حِينَ كُنْتُ مُحَلِّقًا فَوْقَ رَأْسِكَ، عِنْدَ مَا كُنْتُ تَقْطَعُ حَبَائِلَ الْحَمَامِ. قَالَ الْجُرَذُ قَدْ قِيلَتْ إِحْيَاكَ، فَإِنِّي لَمْ أَرُدُّ أَحَدًا عَنْ حَاجَةِ قَطْ، وَإِنَّمَا بَلَوْتُكَ بِمَا بَلَوْتُكَ بِهِ إِرَادَةَ التَّوَقُّعِ لِنَفْسِي، فَإِنْ أَنْتَ عَدَرْتَ بِي لَمْ تَقُلْ إِنِّي وَجَدْتُ الْجُرَذَ ضَعِيفَ الرَّأْيِ، سَرِيعَ الْإِنْجِدَاعِ! ثُمَّ خَرَجَ مِنْ جُحْرِهِ، فَوَقَفَ عِنْدَ الْبَابِ، فَقَالَ لَهُ الْغُرَابُ: مَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيَّ وَالِاسْتِئْثَانِ مِنِّي؟ أَوْ فِي نَفْسِكَ بَعْدُ مِنِّي رِيبةٌ^(٣)؟

قَالَ الْجُرَذُ: إِنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا يَتَعَاطَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَمْرَيْنِ وَيَتَوَاصِلُونَ عَلَيْهِمَا وَهُمَا: ذَاتُ النَّفْسِ، وَذَاتُ الْيَدِ. فَالْمُتَبَادِلُونَ ذَاتَ النَّفْسِ هُمُ الْأَصْفِيَاءُ، وَأَمَّا الْمُتَبَادِلُونَ ذَاتَ الْيَدِ، فَهُمْ الْمُتَعَارِفُونَ الَّذِينَ يَلْتَمِسُ بَعْضُهُمُ الْإِنْتِفَاعَ بِبَعْضٍ، وَمَنْ كَانَ يَصْنَعُ الْمَعْرُوفَ لِبَعْضِ مَنَافِعِ الدُّنْيَا، فَإِنَّمَا مِثْلُهُ فِيمَا يَبْذُلُ وَيُعْطِي كَمِثْلِ الصَّيَّادِ، وَالْقَائِيهِ الْحَبِّ لِلطَّيْرِ، لَا يُرِيدُ بِذَلِكَ نَفْعَ الطَّيْرِ وَإِنَّمَا يُرِيدُ نَفْعَ نَفْسِهِ؛ فَتَعَاطِي ذَاتِ النَّفْسِ أَفْضَلُ مِنْ تَعَاطِي ذَاتِ الْيَدِ^(٤).

وَإِنِّي وَائِثٌ مِنْكَ بِذَاتِ نَفْسِكَ، وَمَنْحَتُكَ مِنْ نَفْسِي مِثْلُ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَمْنَعُنِي مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيْكَ سُوءُ ظَنِّي بِكَ؛ وَلَكِنْ قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ لَكَ أَصْحَابًا جَوْهَرُهُمْ كَجَوْهَرِكَ، وَلَيْسَ رَأْيُهُمْ فِيَّ

(١) الجوهر: الأصل. متكافئ: متماثل. السنور: الهر. الأريب: الذكي.

(٢) خلق: أهل. تأخذ: تعمل. خليقتك: طبيعتك. لا يستغنون: لا يطلبون. ثلم: كسر لحرفه. رهبة: خوف.

(٣) تواخيني: نصبرني لك أخا أو صديقًا. بلوتك: امتحنتك. التوق: التثبت والتحفظ والاحتياط. ريبة: شك.

(٤) ذات النفس: السريرة المضمرة. ذات اليد: ما ملكته اليد. الأصفياء: الأحياء الصادقون.

كَرَأَيْكَ. قَالَ الْغُرَابُ: إِنَّ مِنْ عَلَامَةِ الصَّدِيقِ، أَنْ يَكُونَ لِصَدِيقِهِ صَدِيقًا، وَلَعَدُوَّ صَدِيقِهِ عَدُوًّا؛ وَلَيْسَ لِي بِصَاحِبٍ وَلَا صَدِيقٍ مَنْ لَا يَكُونُ لَكَ مُحِبًّا؛ وَإِنَّهُ يَهُونُ عَلَيَّ قَطِيعَةٌ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ مِنْ جَوْهَرِي؛ فَإِنْ زَارَعَ الرِّيحَانِ إِذَا رَأَى بَيْنَهُ غُشْبًا يُفْسِدُهُ قَلْعُهُ، وَرَمَى بِهِ؛ ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ خَرَجَ إِلَى الْغُرَابِ فَتَصَافَحَا، وَتَصَافَيَا، وَأَنَسَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ^(١).

حَتَّى إِذَا مَضَتْ لَهُمْ أَيَّامٌ قَالَ الْغُرَابُ لِلْجُرَذِ: إِنَّ جُحْرَكَ قَرِيبٌ مِنْ طَرِيقِ النَّاسِ؛ وَأَخَافُ أَنْ يَزِمِيكَ بَعْضُ الصُّبَّانِ بِحَجَرٍ، وَلِي مَكَانٌ فِي غُرْلَةٍ، وَلِي فِيهِ صَدِيقٌ مِنَ السَّلَاحِفِ، وَهُوَ مُخَصَّبٌ مِنَ السَّمَكِ، وَنَحْنُ وَاجِدُونَ هُنَاكَ مَا نَأْكُلُ؛ فَأَرِيدُ أَنْ أَنْطَلِقَ بِكَ إِلَى هُنَاكَ لِنَعِيشَ آمِنِينَ! قَالَ الْجُرَذُ: وَإِنِّي أَيْضًا كَارِهٌ لِمَكَانِي هَذَا، وَلِي أَخْبَارٌ وَقِصَصٌ، سَأَقْصُصُهَا عَلَيْكَ، إِذَا انْتَهَيْنَا حَيْثُ تُرِيدُ، فَأَفْعَلُ مَا تَشَاءُ^(٢). فَأَخَذَ الْغُرَابُ بِذَنْبِ الْجُرَذِ، وَطَارَ بِهِ حَتَّى بَلَغَ حَيْثُ أَرَادَ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْعَيْنِ الَّتِي فِيهَا السَّلَحْفَاءُ، بَصُرَتْ السَّلَحْفَاءُ بِالْغُرَابِ، وَمَعَهُ جُرَذٌ قَدْ عَرِثَ مِنْهُ، وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُهَا، فَتَنَادَاهَا، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ، وَسَأَلَتْهُ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ فَأَخْبَرَهَا بِقِصَّتِهِ، حِينَ تَبَعَ الْحَمَامَ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْجُرَذِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهَا! فَلَمَّا سَمِعَتْ السَّلَحْفَاءُ شَأْنَ الْجُرَذِ، عَجِبَتْ مِنْ عَقْلِهِ وَوَفَائِهِ، وَرَحِبَتْ بِهِ، وَقَالَتْ لَهُ: مَا سَأَلَكَ إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ؟ قَالَ الْغُرَابُ لِلْجُرَذِ: أَقْصِصْ عَلَيَّ الْأَخْبَارَ الَّتِي قُلْتَ: إِنَّكَ تُحَدِّثُنِي بِهَا، فَأَخْبِرْنِي بِهَا مَعَ جَوَابِ مَا سَأَلْتَ السَّلَحْفَاءُ فَإِنَّهَا عِنْدَكَ بِمَنْزِلَتِي، فَبَدَأَ الْجُرَذُ^(٣).

وَقَالَ: كَانَ مَنْزِلِي أَوَّلَ أَمْرِي بِمَدِينَةِ مَارُوتَ، فِي بَيْتِ رَجُلٍ نَاسِكٍ، وَكَانَ خَالِيًا مِنَ الْأَهْلِ وَالْعِيَالِ، وَكَانَ يُؤْتِي فِي كُلِّ يَوْمٍ بِجُودَةٍ مِنَ الطَّعَامِ؛ فَيَأْكُلُ مِنْهَا حَاجَتَهُ، وَيُعَلِّقُ الْبَاقِي. وَكُنْتُ أَرْضُدُ النَّاسِكَ، حَتَّى يَخْرُجَ، وَأَتِبُ إِلَى الْجُودَةِ، فَلَا أَدْعُ فِيهَا طَعَامًا إِلَّا أَكَلْتُهُ، وَرَمَيْتُ مِنْهُ إِلَى الْجُرُودَانِ. فَجَهِدَ النَّاسِكُ مِرَارًا أَنْ يُعَلِّقَ الْجُودَةَ فِي مَكَانٍ لَا أَنَالُهُ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ! حَتَّى نَزَلَ بِهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ ضَيْفٌ؛ فَأَكَلَا جَمِيعًا، ثُمَّ أَخَذَا فِي الْحَدِيثِ، فَقَالَ النَّاسِكُ لِلضَّيْفِ مِنْ أَيِّ أَرْضٍ أَقْبَلْتَ؟ وَأَيْنَ تُرِيدُ الْآنَ؟ وَكَانَ الرَّجُلُ قَدْ جَابَ الْأَفَاقَ، وَرَأَى عَجَائِبَ، فَأَنْشَأَ يُحَدِّثُ النَّاسِكَ عَمَّا وَطِئَ مِنَ الْبِلَادِ، وَرَأَى مِنَ الْعَجَائِبِ، وَجَعَلَ النَّاسِكُ خِلَالَ هَذَا يُصَفِّقُ بِيَدَيْهِ، لِيُنْفِّرَنِي عَنِ

(١) ومنحك: أعطيتك. قطيعة: مقاطعة. تصافحا: سلم كل منهما على الآخر، وتماثقا: وتصادفا: فتحا صفحة جديدة للمودة.

(٢) في عزلة: أي في ناحية منفردة. (٣) فلذعرت: فخافت. ورحبت به: قالت له: مرحباً.

الْجَوْنَةُ؛ فَغَضِبَ الضَّيْفُ وَقَالَ^(١):

أَنَا أُحَدِّثُكَ ، وَأَنْتَ تَهْزَأُ بِحَدِيثِي ، فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ سَأَلْتَنِي؟ فَأَعْتَذَرَ إِلَيْهِ النَّاسِكُ وَقَالَ :
إِنَّمَا أَصْفَقُ بِيَدِي لِأَنْفَرٍ جُرْذَا قَدْ تَحَيَّرْتُ فِي أَمْرِهِ ، وَلَسْتُ أَضْعُ فِي الْبَيْتِ شَيْئًا إِلَّا أَكَلَهُ! فَقَالَ :
جُرْذٌ وَاحِدٌ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَمْ جُرْذَانٌ كَثِيرَةٌ؟! فَقَالَ النَّاسِكُ : جُرْذَانُ الْبَيْتِ كَثِيرَةٌ ، لَكِنَّ فِيهَا جُرْذًا
وَاحِدًا هُوَ الَّذِي غَلَبَنِي فَمَا اسْتَطِيعَ لَهُ حِيلَةٌ^(٢).

قَالَ الضَّيْفُ : لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي قَوْلَ الَّذِي قَالَ : لِأَمْرِ مَّا بَاعَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ سِمْسِمًا مَقْشُورًا بِغَيْرِ
مَقْشُورٍ!! قَالَ النَّاسِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مثل المرأة والسَّمْسِمِ

قَالَ الضَّيْفُ نَزَلْتُ مَرَّةً عَلَى رَجُلٍ بِمَكَانٍ كَذَا ، فَتَعَشَّيْنَا ثُمَّ قَرَشَ لِي ، وَانْقَلَبَ عَلَى فِرَاشِهِ ،
فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ لِامْرَأَتِهِ ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَدْعُو غَدًا رَهْطًا لِيَأْكُلُوا عِنْدَنَا؛ فَاصْنَعِي لَهُمْ
طَعَامًا! فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: كَيْفَ تَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعَامِكَ؛ وَلَيْسَ فِي بَيْتِكَ فَضْلٌ عَنْ عِيَالِكَ، وَأَنْتَ
رَجُلٌ لَا تُبْقِي شَيْئًا، وَلَا تَذْخِرُهُ؟! قَالَ الرَّجُلُ : لَا تَذْذِيبِي عَلَى شَيْءٍ أَطْعَمْتَنَاهُ ، وَأَنْفَقْتَنَاهُ ، فَإِنَّ
الْجُمْعَ وَالْإِدْخَارَ رُبَّمَا كَانَتْ عَاقِبَتُهُ كَعَاقِبَةِ الذُّنُوبِ. قَالَتِ الْمَرْأَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ^(٣)!.

مثل الذئب ووتر القوس

قَالَ الرَّجُلُ : زَعَمُوا أَنَّهُ خَرَجَ ذِغَاتٌ يَوْمَ رَجُلٍ قَانِصٌ ، وَمَعَهُ قَوْسُهُ وَنُشَابُهُ، فَلَمْ يُجَاوِزْ غَيْرَ
بَعِيدٍ، حَتَّى رَمَى ظَبْيًا، فَحَمَلَهُ ، وَرَجَعَ طَالِيًا مَنَزْلَهُ، فَأَعْتَزَّضَهُ خِنْزِيرٌ بَرِّيٌّ ، فَرَمَاهُ بِنُشَابَةٍ نَفَذَتْ
فِيهِ، فَأَذْرَكَ الْخِنْزِيرُ وَضَرْبَهُ بِأَنْيَابِهِ ضَرْبَةً أَطَارَتْ مِنْ يَدِهِ الْقَوْسَ، وَوَقَعَا مَيِّتَيْنِ! فَآتَى عَلَيْهِم
ذُئْبٌ، فَقَالَ: هَذَا الرَّجُلُ وَالظَّبْيُ وَالْخِنْزِيرُ يَكْفِينِي أَكْلُهُمْ مُدَّةً^(٤).

وَلَكِنْ أَبْدَأُ بِهَذَا الْوَتْرِ، فَأَكُلُهُ فَيَكُونُ قُوَّةً يَوْمِي، وَأَذْخِرُ الْبَاقِيَّ إِلَى غَدٍ، فَمَا وَرَاءَهُ. فَعَالَجَ

(١) بجونة: سلة صغيرة مغطاة بالجلد. أرصد: أرقب. وأنب: أفرز. فجهد: أنعب وتحمل المشقة. جاب: قطع. الآفاق: النواحي والجهات كما يفعل السائح. فأنشأ: شرع.

(٢) ما حملك؟ : ماذا دعاك. لأنفر: لأبعد. (٣) رهطًا: جماعة من ثلاثة إلى عشرة. فضل: زيادة. تدخره: تحتفظ به لوقت الحاجة.

(٤) قانص: صياد. نُشَابَةٌ: النشاب، واحده نُشَابَةٌ. ظبياً: غزالاً. الوتر: مجرى السهم من القوس.

الْوَرَّ حَتَّى قَطَعَهُ، فَلَمَّا انْقَطَعَ طَارَتْ سَيِّئَةُ الْقَوْسِ، فَضَرَبَتْ حَلْقَهُ فَمَاتَ! وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمِي أَنَّ: الْجَمْعَ وَالْإِدْخَارَ وَخَيْمَ الْعَاقِبَةِ. فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: نِعْمًا قُلْتُ، وَعِنْدَنَا مِنَ الْأَرْزِ وَالسَّمْسِمِ مَا يَكْفِي سِتَّةَ نَفَرٍ، أَوْ أَكْثَرَ، فَأَنَا غَادِيَةٌ عَلَى صُنْعِ الطَّعَامِ؛ فَادْعُ مَنْ أَحْبَبْتَ. وَأَخَذَتِ الْمَرْأَةُ - حِينَ أَصْبَحَتْ - سِمْسِمًا وَقَشَرَتْهُ وَبَسَطَتْهُ فِي الشَّمْسِ، لِيَجِفَّ وَقَالَتْ لِعُلَامٍ لَهُمْ: اطْرُدْ عَنْهُ الطَّيْرَ وَالْكِلَابَ، وَتَفَرَّغَتِ الْمَرْأَةُ لِصُنْعِهَا، وَتَغَافَلَ الْعُلَامُ عَنِ السَّمْسِمِ، فَجَاءَ كُلُّبٌ فَعَاثَ فِيهِ، فَاسْتَقْدَرَتْهُ الْمَرْأَةُ؛ وَكَرِهَتْ أَنْ تَصْنَعَ مِنْهُ طَعَامًا^(١).

فَذَهَبَتْ بِهِ إِلَى السُّوقِ فَأَخَذَتْ بِهِ مُقَابِضَةً سِمْسِمًا غَيْرَ مَقْشُورٍ مِثْلًا بِمِثْلٍ، وَأَنَا واقِفٌ فِي السُّوقِ! فَقَالَ رَجُلٌ: لِأَمْرٍ مَا بَاعْتُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ سِمْسِمًا مَقْشُورًا بِغَيْرِ مَقْشُورٍ!! وَكَذَلِكَ قَوْلِي فِي هَذَا الْجُرْدِ الَّذِي ذَكَرْتُ إِنَّهُ عَلَى غَيْرِ عِلَّةٍ مَا يَقْدِرُ عَلَى مَا شَكُوتُ مِنْهُ، فَالْتَمِسْ لِي فَاسًّا لَعَلِّي أَخْتَفِرَ جُحْرَهُ فَأُطْلَعَ عَلَى بَعْضِ شَأْنِهِ^(٢).

فَاسْتَعَارَ النَّاسِكُ مِنْ بَعْضِ جِيرَانِهِ فَاسًّا فَآتَى بِهَا الضَّيْفَ، وَأَنَا جَبِينِيذٌ فِي جُحْرِ غَيْرِ جُحْرِي أَسْمَعُ كَلَامَهُمَا، وَفِي جُحْرِي كَيْسٌ فِيهِ مِئَةُ دِينَارٍ لَا أَذْرِي مَنْ وَضَعَهَا! فَاحْتَفَرَ الضَّيْفَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الدَّنَانِيرِ، فَأَخَذَهَا، وَقَالَ لِلنَّاسِكِ: مَا كَانَ هَذَا الْجُرْدُ يَقْوَى عَلَى الْوُثُوبِ حَيْثُ كَانَ يَتَّبِ إِلَّا بِهَذِهِ الدَّنَانِيرِ؛ فَإِنَّ الْمَالَ جُعِلَ قُوَّةً وَزِيَادَةً فِي الرَّأْيِ وَالْتِمَاسِ؛ وَسَتَرَى بَعْدَ هَذَا أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْوُثُوبِ حَيْثُ كَانَ يَتَّبِ. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ اجْتَمَعَتِ الْجُرْدَانُ الَّتِي كَانَتْ مَعِي، فَقَالَتْ: قَدْ أَصَابَنَا الْجُوعُ، وَأَنْتَ رَجَاؤُنَا، فَانْطَلِقْ وَمَعِيَ الْجُرْدَانُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كُنْتُ أَتَّبِ مِنْهُ، إِلَى الْجُودَةِ، فَحَاوَلْتُ ذَلِكَ مِرَارًا، فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ^(٣)؛ فَاسْتَبَانَ لِلْجُرْدَانِ نَقْصُ حَالِي، فَسَمِعَتْهُنَّ يَقُلْنَ: انْصَرِفْنَ عَنْهُ، وَلَا تَطْمَعْنَ فِيْمَا عِنْدَهُ؛ فَإِنَّا نَرَى لَهُ حَالًا لَا نَحْسِبُهُ إِلَّا قَدْ اخْتَنَجَ مَعَهَا إِلَى مَنْ يَعُولُهُ! فَتَرَكْنِي، وَلَحِقْنَ بِأَعْدَائِي، وَجَفَوْنِي، وَأَخَذْنَ فِي غَيْبَتِي عِنْدَ مَنْ يُعَادِينِي، وَيَحْسُدُنِي، وَأَصْبَحْنَ كَأَنَّهُنَّ لَمْ يَعْرِفْنِي، وَكَأَنِّي لَمْ أَكُنْ عَلَيْهِنَّ رَئِيسًا قَطُّ^(٤). فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا الْإِنْخَوَانُ، وَلَا الْأَغْوَانُ، وَلَا الْأَصْدِقَاءُ إِلَّا بِالْمَالِ؛ وَوَجَدْتُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا قَعَدَ بِهِ الْعُدْمَ عَمَّا يُرِيدُهُ، كَالْمَاءِ الَّذِي يَبْقَى فِي الْأَوْدِيَةِ مِنْ مَطَرِ الشِّتَاءِ، لَا يَمُرُّ إِلَى نَهْرٍ، وَلَا

(١) سبيئة القوس: طرفه. نفر: نفر من الثلاثة إلى العشرة من الناس. غادية: مبكرة. بسطته: نشرته. فعاث فيه، فأفسده بلعابه أو بوله.

(٢) مقابضة: مبادلة. (٣) الوثوب: القفز. أصابنا الجوع: أدركنا وحل بنا.

(٤) يعوله: يتفق عليه ويتولى أمره. جفونني: هجرنتني. وأخذن في غيبتني: عبنني وقمن بذي في غيابي.

يَجْرِي إِلَى مَكَانٍ إِلَى أَنْ يَفْسُدَ وَيَنْشَفَ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِهِ! وَوَجَدْتُ مَنْ لَا إِخْوَانَ لَهُ، لَا أَهْلَ لَهُ وَمَنْ لَا وَلَدَ لَهُ، لَا ذِكْرَ لَهُ، وَمَنْ لَا مَالَ لَهُ، لَا عَقْلَ لَهُ، وَلَا دُنْيَا وَلَا آخِرَةَ لَهُ؛ لِأَنَّ مَنْ نَزَلَ بِهِ الْفَقْرُ لَا يَجِدُ بُدًّا مِنْ تَوَكُّلِ الْحَيَاءِ، وَمَنْ ذَهَبَ حَيَاؤُهُ ذَهَبَ سُورُهُ، وَمَنْ ذَهَبَ سُورُهُ مَقَّتْ نَفْسُهُ، وَمَنْ مَقَّتْ نَفْسُهُ كَثُرَ حُزْنُهُ، وَمَنْ كَثُرَ حُزْنُهُ قَلَّ عَقْلُهُ، وَازْتَبَكَ فِي أَمْرِهِ، وَمَنْ قَلَّ عَقْلُهُ كَانَ أَكْثَرَ قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ عَلَيْهِ لَا لَهُ؛ وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَأَخْرِ بِهِ أَنْ يَكُونَ أَنْكَدَ النَّاسِ حَظًّا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ^(١).

ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا افْتَقَرَ قِطْعَةَ أَقَارِبِهِ وَإِخْوَانِهِ وَأَهْلٍ وَدُوٍّ، وَمَقْتُوهُ وَرَفُضُوهُ وَأَهَانُوهُ، وَاضْطَرَّهُ ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَلْتَمِسَ مِنَ الرِّزْقِ مَا يُعْزِرُ فِيهِ بِنَفْسِهِ، وَيُفْسِدُ فِيهِ آخِرَتَهُ؛ فَيَحْسُرُ الدَّارَيْنِ جَمِيعًا. وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الثَّابِتَةَ فِي السَّبَاخِ، الْمَأْكُولَةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، كَحَالِ الْفَقِيرِ الْمُحْتَاجِ إِلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ. وَوَجَدْتُ الْفَقْرَ رَأْسَ كُلِّ بَلَاءٍ، وَجَالِيًا إِلَى صَاحِبِهِ كُلِّ مَقَبٍ وَمَعْدِنِ النَّيْمَةِ^(٢). وَوَجَدْتُ الرَّجُلَ إِذَا افْتَقَرَ أَتَّهَمَهُ مَنْ كَانَ لَهُ مُؤْتِمِنًا، وَأَسَاءَ بِهِ الظَّنُّ مَنْ كَانَ يَظُنُّ بِهِ حَسَنًا؛ فَإِنْ أَذْنَبَ غَيْرُهُ كَانَ هُوَ لِلتَّهْمَةِ مَوْضِعًا. وَلَيْسَ مِنْ خَلَةٍ هِيَ لِلْعَنِيِّ مَدْخٌ إِلَّا وَهِيَ لِلْفَقِيرِ ذَمٌّ. فَإِنْ كَانَ شُجَاعًا قِيلَ: أَهْوَجُ، وَإِنْ كَانَ جَوَادًا سُمِّيَ مُبَدَّرًا، وَإِنْ كَانَ خَلِيمًا سُمِّيَ ضَعِيفًا، وَإِنْ كَانَ وَقُورًا سُمِّيَ بَلِيدًا، وَإِنْ كَانَ صَمُوتًا سُمِّيَ عَيْيًّا، وَإِنْ كَانَ لَيْسًا سُمِّيَ مِهْدَارًا؛ فَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنَ الْحَاجَةِ الَّتِي تُخْرِجُ صَاحِبَهَا إِلَى الْمَسْأَلَةِ، وَلَا سِيَّمَا مَسْأَلَةَ الْأَشْخَاءِ وَاللَّئِمِّ. فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَوْ كُفِّلَ أَنْ يُدْخَلَ يَدُهُ فِي قِمِّ الْأَفْقَى فَيُخْرِجَ مِنْهُ شَيْئًا فَيَتَلَعَّهُ كَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ، وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ مَسْأَلَةِ الْبَخِيلِ اللَّئِيمِ^(٣).

حَتَّى لَقَدْ جَاءَ فِي قَدِيمِ الْأَقَاوِيلِ: أَنَّ مَنْ ابْتُلِيَ بِمَرَضٍ فِي جَسَدِهِ، لَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ مِنَ الْحَاجَةِ وَالْفَقْرِ. وَقَدْ كُنْتُ رَأَيْتُ الضَّيْفَ حِينَ أَخَذَ الدَّنَانِيرَ، فَقَاسَمَهَا النَّاسِكَ جَعَلَ النَّاسِكَ نَصِيبَهُ فِي خَرِيطَةٍ عِنْدَ رَأْسِهِ لَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ، فَطَمِعْتُ أَنْ أُصِيبَ مِنْهَا شَيْئًا فَأَرَدْتُهُ إِلَى جُحْرِي، وَرَجَوْتُ أَنْ يَزِيدَ ذَلِكَ فِي قُوَّتِي، أَوْ يُرَاجِعَنِي بِسَبَبِهِ بَعْضُ أَصْدِقَائِي^(٤).

فَانْطَلَقْتُ إِلَى النَّاسِكَ وَهُوَ نَائِمٌ، حَتَّى انْتَهَيْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَوَجَدْتُ الضَّيْفَ يَقْظَانًا، وَيَبْدُهُ قَضِيبٌ؛ فَضَرَبْتَنِي عَلَى رَأْسِي ضَرْبَةً مُوجِعَةً؛ فَاثْلَبْتُ رَاجِعًا إِلَى جُحْرِي. فَلَمَّا سَكَرَ عَنِّي الْأَلَمُ، هَيَّجَنِي الْحِرْصُ وَالشَّرُّ؛ فَخَرَجْتُ طَمَعًا كَطَمْعِي الْأَوَّلِ. وَإِذَا الضَّيْفُ يَرِضْدُنِي، فَضَرَبْتَنِي

(١) العُذْمُ: الفقر. مَقَّتْ نَفْسُهُ: كرهها أشد الكراهية والبغض. وعمله عليه: عاندا عليه. فأخر به: ما أحرأه أن يكون أنكد الناس.

(٢) قِطْعَةُ أَقَارِبِهِ: محجروه وأبعدوه. ما يفرغ بنفسه: يعرضها للهلكة. فِي السَّبَاخِ: الأرض غير الصالحة للزراعة.

(٣) جَوَادًا: كريمًا. صَمُوتًا: كثير الصمت. عَيْيًّا: بليدًا عاجزًا. لَسْنَا: فصيح اللسان. مِهْدَارًا: كثير الكلام فيما يعني وما لا يعني.

(٤) خَرِيطَةٌ: وعاء من جلد حَقِيَّةٍ صَغِيرَةٍ. جَنَّ اللَّيْلُ: أظلم.

بِالْقَضِيبِ ضَرْبَةً أَسَالَتْ مِنِّْي الدَّمَّ، فَتَحَامَلْتُ عَلَى نَفْسِي، وَتَقَلَّبْتُ ظَهْرًا اسْطَلَّ إِلَى جُحْرِي، فَخَرَزْتُ مَعْشِيًا عَلَيَّ، فَأَصَابَنِي مِنَ الْوَجَعِ مَا بَغَضَ إِلَيَّ الْمَالُ، حَتَّى لَا أَسْمَعَ بِذِكْرِهِ، إِلَّا تُدَاخِلُنِي مِنْ ذِكْرِ الْمَالِ رِعْدَةٌ وَهَيْبَةٌ^(١).

ثُمَّ تَذَكَّرْتُ، فَوَجَدْتُ الْبَلَاءَ فِي الدُّنْيَا إِنَّمَا يَسُوْقُهُ الْحِرْصُ وَالشَّرُّ؛ لِأَنَّهُمَا لَا يَزَالَانِ يُدْخِلَانِ صَاحِبَهُمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، وَالْأَشْيَاءُ لَا تَنْقُذُ وَلَا تَنْتَهِي؛ وَلَا يَزَالُ صَاحِبُ الدُّنْيَا فِي بَلِيَّةٍ وَتَعَبٍ وَنَصَبٍ! وَوَجَدْتُ رُكُوبَ الْأَهْوَالِ، وَتَجَسُّمَ الْأَسْفَارِ الْبَعِيدَةِ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ بَسْطِ الْيَدِ إِلَى السَّخِيِّ بِالْمَالِ، فَكَيْفَ بِالسَّخِيحِ بِهِ، وَلَمْ أَرَ كَالرُّضَى شَيْئًا. وَوَجَدْتُ الْعُلَمَاءَ قَدْ قَالُوا: لَا عَقْلَ كَالْتَّذِيرِ، وَلَا وَرَعَ كَكَفِّ الْأَذَى، وَلَا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَلَا غِنَى كَالرُّضَى^(٢). وَأَحَقُّ مَا صَبَّرَ الْإِنْسَانُ عَلَى الشَّيْءِ نَفْسُهُ، وَأَفْضَلُ الْبِرِّ الرَّحْمَةُ، وَرَأْسُ الْمَوَدَّةِ الْإِسْتِرْسَالُ، وَرَأْسُ الْعَقْلِ مَعْرِفَةُ مَا يَكُونُ مِمَّا لَا يَكُونُ. وَقَالُوا: الْحَرَسُ خَيْرٌ مِنَ اللِّسَانِ الْكَذُوبِ، وَالضَّرُّ وَالْفَقْرُ خَيْرٌ مِنَ النِّعْمَةِ وَالسَّعَةِ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ. فَصَارَ أَمْرِي إِلَيَّ أَنْ رَضِيتُ، وَقَبِعْتُ وَانْتَقَلْتُ مِنْ يَتِّ النَّاسِكِ إِلَى الْبَرِيَّةِ. وَكَانَ لِي صَدِيقٌ مِنَ الْحَمَامِ فَمِيقَتْ إِلَيَّ بِصَدَاقَتِهِ صَدَاقَةَ الْغُرَابِ. وَالتَّقَتْ إِلَيَّ السُّلْحَفَةُ فَقَالَتْ: ثُمَّ ذَكَرَ لِي الْغُرَابُ مَا يَتَنَكَّرُ بَيْنَهُ مِنَ الْمَوَدَّةِ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُرِيدُ إِيْتَانِكَ؛ فَأَحْبَبْتُ أَنْ آتِيكَ مَعَهُ، وَكَرِهْتُ الْوَحْدَةَ؛ فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ مِنْ سُرُورِ الدُّنْيَا يَغْدُلُ صُحْبَةَ الْإِخْوَانِ، وَلَا غَمٌّ فِيهَا يَغْدُلُ الْبُعْدَ عَنْهُمْ^(٣).

وَجَرَّبْتُ فَعَلِمْتُ: أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُلْتَمِسِ مِنَ الدُّنْيَا غَيْرَ الْكَفَافِ الَّذِي يَدْفَعُ بِهِ الْأَذَى عَنْ نَفْسِهِ، وَهُوَ يَسِيرُ مِنَ الْمُطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ، إِذَا أَعِينَ بِصِحَّةٍ وَسَعَةٍ. وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا وَهَبَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا، لَمْ يَكُنْ يَنْتَفِعُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْقَلِيلِ الَّذِي يَدْفَعُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ الْحَاجَةَ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَلَيْسَ لَهُ مِنْهُ إِلَّا مَا لِيغْيِرَهُ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ حَسَبُ^(٤).

فَلَمَّا فَرَّغَ الْجُرْدُ مِنْ كَلَامِهِ، أَجَابَتْهُ السُّلْحَفَةُ بِكَلَامٍ رَقِيقٍ، وَقَالَتْ: قَدْ سَمِعْتُ كَلَامَكَ، وَمَا أَحْسَنَ مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ! إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُكَ تَذْكُرُ بَقَايَا أُمُورٍ هِيَ فِي نَفْسِكَ، مِنْ حَيْثُ قَلَّةُ مَالِكَ، وَشَوْءُ حَالِكَ، وَاعْتَزِلَكَ عَنْ مَوْطِنِكَ، فَاطْرَحَ ذَلِكَ عَنْ قَلْبِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ حُسْنَ الْكَلَامِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِحُسْنِ

(١) يقظان: غير نائم. قضيب: عود من خشب أو حديد. تحاملت على نفسي: تحملت وحاولت القيام بما لا تطيقه. فخرزت: سقطت. رعدة: اضطراب.

(٢) لا تنفذ: لا تفنى. ونصب: كذ وجد. وتَجَسَّم: تكلف. السخي: الكريم. الشحيح: البخيل الحريص.

(٣) الاسترسال: حسن الثقة بالصديق والاستئناس به. (٤) الملتمس: الطالب. الكفاف: مقدار الحاجة. حسب: فقط.

الْعَمَلِ، وَأَنَّ الْغَرِيضَ الَّذِي قَدْ عَلِمَ دَوَاءَ مَرَضِهِ إِنْ لَمْ يَتَدَاوِ بِهِ لَمْ يُغْنِ عِلْمُهُ بِهِ شَيْئًا، وَلَمْ يَجِدْ لِدَائِهِ رَاحَةً وَلَا خِفَةً، فَاسْتَعْمِلَ رَأْيَكَ، وَلَا تَحْزَنْ لِقَلَّةِ الْمَالِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ ذَا الْمُرُوءَةِ قَدْ يُكْرَمُ عَلَى غَيْرِ مَالٍ، كَالْأَسَدِ الَّذِي يُهَابُ وَإِنْ كَانَ رَابِضًا، وَالْغَنِيُّ الَّذِي لَا مُرُوءَةَ لَهُ يُهَانُ وَإِنْ كَانَ كَثِيرَ الْمَالِ، كَالْكَلْبِ لَا يُحْفَلُ بِهِ وَإِنْ طُوقَ وَخُلِخِلَ بِالذَّهَبِ^(١).

فَلَا تَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ غُرْبَتُكَ؛ فَإِنَّ الْعَاقِلَ لَا غُرْبَةَ لَهُ، كَالْأَسَدِ الَّذِي لَا يَتَّقِلُ إِلَّا مَعَهُ قُوَّتُهُ. فَلْتَحْسِنِ تَعَهُدَكَ لِنَفْسِكَ؛ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ، جَاءَكَ الْخَيْرُ يَطْلُبُكَ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ كَمَا يَطْلُبُ الْمَاءُ اثْنَادَارَهُ. وَإِنَّمَا يُجْعَلُ الْفَضْلُ لِلْحَازِمِ الْبَصِيرِ، وَأَمَّا الْكَسْلَانُ الْمُتَرَدِّدُ، فَإِنَّ الْفَضْلَ لَا يَصْحَبُهُ. وَقَدْ قِيلَ فِي أَشْيَاءَ لَيْسَ لَهَا ثَبَاتٌ وَلَا بَقَاءٌ: ظِلُّ الْعِمَامَةِ فِي الصَّيْفِ. وَخَلَّةُ الْأَشْرَارِ؛ وَعِشْقِي النِّسَاءِ، وَالنَّبَأُ الْكَاذِبُ، وَالْمَالُ الْكَثِيرُ^(٢).

فَالْعَاقِلُ لَا يَحْزَنْ لِقَلَّتِهِ، وَلَكِنَّ مَالَهُ عَقْلُهُ، وَمَا قَدَّمَ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، فَهُوَ وَائِقٌ أَنَّهُ لَا يُسَلَبُ مَا عَمِلَ، وَلَا يُؤَاخَذُ بِشَيْءٍ لَمْ يَعْمَلْهُ، وَهُوَ خَلِيقٌ أَلَّا يَغْفَلَ عَنْ أَمْرِ آخِرَتِهِ، فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا يَأْتِي إِلَّا بَغْتَةً، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ أَجَلٌ مَعْلُومٌ، وَأَنْتَ عَنْ مَوْعِظَتِي غَنِيٌّ بِمَا عِنْدَكَ مِنَ الْعِلْمِ، وَلَكِنْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْضِيَ مِنْ حَقِّكَ؛ فَأَنْتَ أَخُونَا وَمَا قَبِلْنَا مِنْذُولَ لَكَ.

فَلَمَّا سَمِعَ الْغُرَابُ كَلَامَ السُّلْحَفَةِ لِلْجُرَذِ، وَمَرَدَدُهَا عَلَيْهِ، وَالطَّافِهَا إِثَّاهُ فَرِحَ بِذَلِكَ وَقَالَ: لَقَدْ سَرَرْتَنِي، وَأَنْعَمْتَ عَلَيَّ، وَأَنْتَ جَدِيرَةٌ أَنْ تَشْرِي نَفْسَكَ بِمِثْلِ مَا سَرَرْتَنِي! وَإِنْ أَوْلَى أَهْلِ الدُّنْيَا بِشِدَّةِ الشُّرُورِ مَنْ لَا يَزَالُ رُبْعُهُ مِنْ إِخْوَانِهِ وَأَصْدِقَائِهِ مِنَ الصَّالِحِينَ مَعْمُورًا، وَلَا يَزَالُ عِنْدَهُ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ يَشْرَهُمْ وَيَشْرُونَهُ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ أُمُورِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ بِالْمِرْصَادِ^(٣).

فَإِنَّ حُسْنَ الشَّنَاءِ لَا يَزَالُ صَاحِبُهُ فِي عَاقِبَتِهِ حَيْثُمَا تَوَجَّهَ؛ فَإِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا عَثَرَ لَا يُقِيلُ عَثْرَتَهُ وَيَأْخُذُ بِيَدِهِ إِلَّا الْكَرَامُ، كَالْفِيلِ إِذَا وَجَلَ لَا تُخْرِجُهُ إِلَّا الْفَيْلَةُ! فَبَيْنَمَا الْغُرَابُ فِي كَلَامِهِ وَالثَّلَاثَةُ مُسْتَأْنِشُونَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، إِذْ أَقْبَلَ بِحَوْضِهِمْ ظَنَبِي يَسْمَعِي مَدْعُورًا، فَذَعِرَتْ مِنْهُ السُّلْحَفَةُ، فَغَاصَتْ فِي الْمَاءِ، وَدَخَلَ الْجُرَذُ بَعْضَ الْأَحْجَارِ، وَطَارَ الْغُرَابُ، فَوَقَعَ عَلَى شَجَرَةٍ، وَانْتَهَى الظَّنَبِيُّ إِلَى الْمَاءِ، فَشَرِبَ مِنْهُ يَسِيرًا، ثُمَّ وَقَفَ خَائِفًا يَلْتَفِتُ يَمِينًا وَشِمَالًا^(٤).

(١) رقيق: ذنب لطيف. رابضاً: قاعداً. لا يحفل به: لا يهتم ولا يتألي.

(٢) لا يتقلب: لا يرجع. تعهدك لنفسك: إقبالك عليها وتفقدك. اثناده: انحطاطه من علو إلى أسفل. الحازم البصير: العاقل الفطين. العمامة: السحابة. خلّة: صدقة. والنبا: الخبر.

(٣) وما قبلنا: وما عندنا. والطافها: إكرامها وبرها. ربه: منزلة: بالمرصاد: أي بالطريق والمكان. والمراد أنه يكون مراقبا لهم.

(٤) لا يقبل عثرته: أي لا يأخذ بيده إذا سقط ولا يرفعه. وجل: وقع في الوحل. مدعوراً: خائفاً. يسيراً: قليلاً.

ثُمَّ إِنَّ الْغُرَابَ حَلَّقَ فِي السَّمَاءِ لِيَنْظُرَ هَلْ لِلظُّبِيِّ طَالِبٌ؟ فَتَنَظَّرَ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، فَتَادَى الْجُرَذُ وَالسَّلْحَفَاةَ، فَخَرَجَا فَقَالَتِ السَّلْحَفَاةُ لِلظُّبِيِّ، حِينَ رَأَتْهُ يَنْظُرُ إِلَى الْمَاءِ وَلَا يَقْرُبُهُ: اشْرَبْ إِنْ كَانَ بِكَ عَطَشٌ، وَلَا تَخَفْ؛ فَإِنَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْكَ! فَدَنَا الظُّبِيُّ، فَرَحَّبَتْ بِهِ السَّلْحَفَاةُ، وَحَيْثُهَا وَقَالَتْ لَهُ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ بِهِذِهِ الصَّحَارَى رَايَعًا، فَلَمْ تَزَلِ الْأَسَاوِرَةُ تَطْرُدُنِي مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، حَتَّى رَأَيْتُ الْيَوْمَ سُبْحًا؛ فَخِفْتُ أَنْ يَكُونَ قَانِصًا! قَالَتْ: لَا تَخَفْ؛ فَإِنَّا لَمْ نَرِ هُنَا قَانِصًا قَطُّ، وَنَحْنُ فِي هَذَا الْمَكَانِ مُجْتَمِعُونَ نَتَحَدَّثُ، وَنَتَأَنَسُ، وَنَحْنُ نَبْذُلُ لَكَ وَدْنَا وَمَكَانَنَا، وَالْمَاءُ وَالْمَرْعَى كَثِيرٌ عِنْدَنَا، فَارْعَبْ فِي صُحْبَتِنَا^(١). فَأَقَامَ الظُّبِيُّ مَعَهُمْ، وَكَانَ لَهُمْ عَرِيشٌ، يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَيَتَذَكَّرُونَ الْأَحَادِيثَ وَالْأَخْبَارَ، فَبَيْنَمَا الْغُرَابُ وَالْجُرَذُ وَالسَّلْحَفَاةُ ذَاتَ يَوْمٍ فِي الْعَرِيشِ إِذْ غَابَ الظُّبِيُّ، فَتَوَقَّعُوهُ سَاعَةً فَلَمْ يَأْتِ. فَلَمَّا أَطْبَأَ أَشْفَقُوا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَهُ عَنَتٌ، فَقَالَ الْجُرَذُ وَالسَّلْحَفَاةُ لِلْغُرَابِ: انْظُرْ هَلْ تَرَى مِمَّا يَلِينَا شَيْئًا^(٢)؟

فَحَلَّقَ الْغُرَابُ فِي السَّمَاءِ فَتَنَظَّرَ فَإِذَا الظُّبِيُّ فِي الْحَبَائِلِ مُقْتَنَصًا، فَاَنْقَضَ مُسْرِعًا، فَأَخْبَرَهُمَا بِذَلِكَ، فَقَالَتِ السَّلْحَفَاةُ وَالْغُرَابُ لِلْجُرَذِ: هَذَا أَمْرٌ لَا يُرْجَى فِيهِ غَيْرُكَ فَأَغِثْ أَخَاكَ، فَسَعَى الْجُرَذُ مُسْرِعًا، فَأَتَى الظُّبِيَّ، فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ وَقَعْتَ فِي هَذِهِ الْوَرُطَةِ وَأَنْتَ مِنَ الْأَكْيَاسِ؟ قَالَ الظُّبِيُّ: مَا يُغْنِي حَذَرَ مَنْ قَدَرٍ، وَلَا يُجْعِدِي الْكَيْسُ مَعَ الْمَقَادِيرِ شَيْئًا^(٣)!

فَبَيْنَمَا هُمَا فِي الْحَدِيثِ إِذْ وَافَقَهُمَا السَّلْحَفَاةُ فَقَالَ لَهَا الظُّبِيُّ: مَا أَصَبَتْ بِمَجِئِكَ إِلَيْنَا؛ فَإِنَّ الْقَانِصَ لَوْ انْتَهَى إِلَيْنَا، وَقَدْ قَطَعَ الْجُرَذُ الْحَبَائِلَ سَبَقْتُهُ عَدُوًّا. وَلِلْجُرَذِ أَجْحَارٌ كَثِيرَةٌ، وَالْغُرَابُ يَطِيرُ، وَأَنْتَ ثَقِيلٌ لَا سَعْيَ لَكَ وَلَا حَرَكَةَ، وَأَخَافُ عَلَيْكَ الْقَانِصَ! قَالَتْ: لَا عَيْشَ بَعْدَ فِرَاقِ الْأَحِبَّةِ! وَإِذَا فَارَقَ الْأَلِيفُ أَلِيفَهُ فَقَدْ سَلَبَ فُؤَادَهُ، وَحَرَّمَ سُورُهُ، وَعُشِّي بَصْرُهُ. فَلَمْ يَنْتَهُ كَلَامُهُمَا حَتَّى وَافَى الْقَانِصَ، وَوَفَّقَ ذَلِكَ فَرَاغَ الْجُرَذِ مِنْ قَطْعِ الشَّرِكِ؛ فَتَجَا الظُّبِيُّ بِنَفْسِهِ، وَطَارَ الْغُرَابُ مُحَلِّقًا، وَدَخَلَ الْجُرَذُ بَعْضَ الْأَجْحَارِ، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ السَّلْحَفَاةِ، وَدَنَا الصَّيَّادُ فَوَجَدَ حَبَائِلَهُ مُقَطَّعَةً، فَتَنَظَّرَ يَمِينًا وَشِمَالًا فَلَمْ يَجِدْ غَيْرَ السَّلْحَفَاةِ تَدِبُّ، فَأَخَذَهَا وَرَبَطَهَا، فَلَمْ يَلْبِثِ الْغُرَابُ وَالْجُرَذُ وَالظُّبِيُّ أَنْ اجْتَمَعُوا^(٤)، فَتَنَظَّرُوا الْقَانِصَ قَدْ رَبَطَ السَّلْحَفَاةَ فَاشْتَدَّ حُزْنُهُمْ، وَقَالَ الْجُرَذُ: مَا

(١) راتعاً: أكلًا وشاربًا ما شئت في خصب وسعة. الأساوره: جمع أسوار: وهو من يجرد الرمي بالسهم. شبعا: شخصاً.

(٢) عريش: مكان يستظل به. عنَت: مشقه وأصابه مكروه. مما يلينا: أي فيما حولنا. مقتنصاً: مصطاداً. فأنقض: وقع بسرعة. فأغث: فأعن.

(٣) فاعن: الورطة: شدة. الأكياس: جمع كيس. وهو الظريف الفطن. ما يغني: ما يمنع. قدر: قضاء الله. يجدي: ينفع.

(٤) القانص: الصياد. عدواً: ركضاً. وافي: أتى. فلم يلبث: فلم يطل.

أَرَانَا نُجَاوِزُ عَقَبَةً مِنَ الْبَلَاءِ إِلَّا صِرْنَا إِلَى أَشَدِّ مِنْهَا! وَلَقَدْ صَدَقَ الَّذِي قَالَ: لَا يَزَالُ الْإِنْسَانُ مُسْتَمِرًّا فِي إِقْبَالِهِ مَا لَمْ يَعْثُرْ، فَإِذَا عَثَرَ لَجَّ بِهِ الْعِثَارُ، وَإِنْ مَشَى فِي جَدِّ الْأَرْضِ، وَحَذَرِي عَلَى السَّلْحَفَةِ خَيْرُ الْأَصْدِقَاءِ الَّتِي خَلَّتْهَا لَيْسَتْ لِلْمُجَازَاةِ وَلَا لِاتِّمَاسِ مُكَافَأَةٍ، وَلَكِنَّهَا خَلَّةُ الْكَرَمِ وَالشَّرَفِ. خَلَّةٌ هِيَ أَفْضَلُ مِنَ خَلَّةِ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ. خَلَّةٌ لَا يُزِيلُهَا إِلَّا الْمَوْتُ. وَيَنْجِي لِهَذَا الْجَسَدِ الْمَوْكِلُ بِهِ الْبَلَاءُ الَّذِي لَا يَزَالُ فِي تَصَرُّفٍ، وَتَقَلُّبٍ وَلَا يَدُومُ لَهُ شَيْءٌ، وَلَا يَلْبَثُ مَعَهُ أَمْرٌ، كَمَا لَا يَدُومُ لِلطَّالِعِ مِنَ الثُّجُومِ طُلُوعٌ، وَلَا لِلْآفِلِ مِنْهَا أَفُولٌ، لَكِنْ لَا يَزَالُ الطَّالِعُ مِنْهَا آفِلًا، وَالْآفِلُ طَالِعًا^(١).

وَكَمَا تَكُونُ آلامُ الْكُلُومِ، وَأَنْتِقَاضُ الْجِرَاحَاتِ، كَذَلِكَ حَالِي أَنَا الَّذِي ذَكَّرَنِي هَذَا الْبَلَاءُ سَابِقَ أَحْوَالِي، كَالْجُرْحِ الْمُنْدَمِلِ تُصِيبُهُ الضَّرْبَةُ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ أَلَمَانِ: أَلَمُ الضَّرْبَةِ وَأَلَمُ الْجُرْحِ. وَأَخْلِقَ بِمَنْ فَقَدَ إِخْوَانَهُ بَعْدَ اجْتِمَاعِهِ بِهِمْ أَلَا يَزَالُ مُنْقَصِمَ الظَّهِيرِ خَرِينَ النَّفْسِ^(٢)!

فَقَالَ الظُّبِّيُّ وَالْعَرَابُ لِلْجُرْدِ: إِنَّ حَذَرَنَا وَحَذَرَكَ وَكَلَامَكَ - وَإِنْ كَانَ بَلِغًا - لَا تُغْنِي عَنِ السَّلْحَفَةِ شَيْئًا. وَإِنَّهُ كَمَا يُقَالُ: إِنَّمَا النَّاسُ عِنْدَ الْبَلَاءِ، وَذُو الْأَمَانَةِ عِنْدَ الْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ، وَالْأَهْلُ وَالْوَلَدُ عِنْدَ الْفَاقَةِ، وَالْإِخْوَانُ عِنْدَ النَّوَائِبِ! قَالَ الْجُرْدُ: أَرَى مِنَ الْحِيلَةِ أَنْ تَذْهَبَ أَهْيَا الظُّبِّيُّ، فَتَقَعَ بِمَنْظَرٍ مِنَ الْقَانِصِ، كَأَنَّكَ جَرِيحٌ، وَيَقَعَ الْعَرَابُ عَلَيْكَ كَأَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْكَ. وَأَسْعَى أَنَا فَأَكُونُ قَرِيبًا مِنَ الْقَانِصِ، مُرَاقِبًا لَهُ لَعَلَّهُ يَزُومِي مَا مَعَهُ مِنَ الْآلَةِ، وَيَدْعُ السَّلْحَفَةَ، وَيَقْصِدُكَ طَامِعًا فَيْكَ، رَاجِيًا تَحْصِيلَكَ، فَإِذَا ذَنَا مِنْكَ فَفَرَّ عَنْهُ رُوَيْدًا بِحَيْثُ لَا يَنْقَطِعُ طَمَعُهُ فَيْكَ، وَأَمَكْنَهُ مِنْ أَخْذِكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، حَتَّى يُبْعِدَ عَنَّا، وَانْجِ مِنْهُ هَذَا النَّحْوُ مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَلَّا يَنْصَرِفَ إِلَّا وَقَدْ قَطَعْتَ الْحَبَائِلَ عَنِ السَّلْحَفَةِ، وَأَنْجُو بِهَا^(٣).

فَفَعَلَ الظُّبِّيُّ وَالْعَرَابُ مَا أَمَرَهُمَا بِهِ الْجُرْدُ، وَتَبَعَهُمَا الْقَانِصُ، فَاسْتَطَرَدَ لَهُ الظُّبِّيُّ حَتَّى أَبْعَدَهُ عَنِ الْجُرْدِ وَالسَّلْحَفَةِ، وَالْجُرْدُ مُقْبِلٌ عَلَى قَطْعِ الْحَبَائِلِ، حَتَّى قَطَعَهَا وَنَجَا بِالسَّلْحَفَةِ، وَعَادَ الْقَانِصُ مَجْهُودًا لَا غِيَا فَوَجَدَ حَبَائِلَهُ مُقْطَعَةً، فَفَكَّرَ فِي أَمْرِهِ مَعَ الظُّبِّيِّ، فَظَنَّ أَنَّهُ خُوِلَطَ فِي عَقْلِهِ^(٤).

(١) ما أَرَانَا: ما أَرَى أَنفُسَنَا. عَقَبَةٌ: شِدَّةٌ. وَالْعَقَبَةُ: الْمَرْقَى الصَّعْبُ فِي الْجَبَلِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّنَا لَا نَكَادُ نَتَخَلَّصُ مِنْ شِدَّةٍ إِلَّا وَنَفَعُ فِي أَشَدِّ مِنْهَا. مَا لَمْ يَعْثُرْ: مَا لَمْ يَزَلْ يَسْقُطُ. لَجَّ بِهِ: تِمَادَى. جَدُّ الْأَرْضِ: الْأَرْضُ الْغَلِيظَةُ الْمُسْتَوِيَّةُ. وَفِي الْمَثَلِ: مَنْ سَلَكَ الْجَدَّ أَمِنَ الْعِثَارَ. خَلَّتْهَا: مَصَادَقَهَا وَإِخَاؤَهَا. الْآفِلُ: الْغَارِبُ.

(٢) الْكُلُومُ: جَمْعُ كُلِّ وَهُوَ الْجُرْحُ. انْتِقَاضُ: انْتِكَاسُ. مُنْقَصِمٌ: مُنْكَسِرٌ.

(٣) النَوَائِبُ: الْمَصَائِبُ. بِمَنْظَرٍ مِنَ الْقَانِصِ: أَيِ بِحَيْثُ يَنْظُرُكَ. أَمَكْنَهُ مِنْ أَخْذِهِ: أَيِ سَهْلَهُ عَلَيْهِ. انْجِ: اقْصِدْ.

(٤) فَاسْتَطَرَدَ لَهُ: أَيِ أَظْهَرَ لَهُ الْإِنْهَازَ مُكِيدَةً. لَا غِيَا: تَعَبًا جَدًّا. خُوِلَطَ فِي عَقْلِهِ: اضْطُرِبَ وَاخْتَلَّ.

وَفَكَّرَ فِي أَمْرِ الظُّبْيِ وَالْغُرَابِ الَّذِي كَانَ كَأَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْهُ، وَتَقْرِضُ حَبَائِلَهُ، فَاسْتَوْحَشَ مِنَ الْأَرْضِ وَقَالَ: هَذِهِ أَرْضُ جِنٍّ أَوْ سَحَرَةٍ! فَرَجَعَ مُوَلِّيًا لَا يَلْتَمِسُ شَيْئًا، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، وَاجْتَمَعَ الْغُرَابُ وَالظُّبْيُ وَالْجُرَذُ وَلَسْلَخُهَا إِلَى عَرِيشِهِمْ سَالِمِينَ آمِنِينَ كَأَحْسَنِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ^(١).
فَإِذَا كَانَ هَذَا الْخَلْقُ مَعَ صَعْرِهِ وَضَعْفِهِ، قَدْ قَدَرَ عَلَى التَّخْلُصِ مِنْ مَرَابِطِ الْهَلَكَةِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى بِمَوَدَّتِهِ، وَخُلُوصِهَا، وَثَبَاتِ قَلْبِهِ عَلَيْهَا، وَاسْتِمْتَاعِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ؛ فَإِلْنَسَانُ الَّذِي قَدْ أُعْطِيَ الْعَقْلَ وَالْفَهْمَ، وَالْأَلْهَمَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَمُنِخَ التَّمْيِيزِ وَالْمَعْرِفَةِ، أَوْلَى وَأُخْرَى بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّعَاوُضِ^(٢)!
فَهَذَا مَثَلُ إِخْوَانِ الصَّفَاءِ وَاتِّلَافِهِمْ فِي الصُّحْبَةِ.

بَابُ

الْبُومِ وَالْغُرَابِ

وهو مثل لما ينبغي ألا يغتر بأهل العداوة، وإن هم أظهروا توددًا وتملقًا!

قَالَ دَبْسَلِيمُ الْمَلِكُ لِيُنْبِئَا الْفَيْلَسُوفَ: قَدْ سَمِعْتُ مَثَلُ إِخْوَانِ الصَّفَاءِ وَتَعَاوُنَهُمْ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلُ الْعَدُوِّ الَّذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يُغْتَرَّ بِهِ، وَإِنْ أَظْهَرَ تَضَرُّعًا وَمَلَقًا، وَأَخْبَرَنِي عَنِ الْعَدُوِّ هَلْ يَصِيرُ صَدِيقًا؟ وَهَلْ يُوثِقُ مِنْ أَمْرِه بِشَيْءٍ؟ وَكَيْفَ الْعَدَاوَةُ؟ وَمَا ضَرَرُهَا؟ وَكَيْفَ يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَصْنَعَ إِذَا طَلَبَ عَدُوَّهُ مُصَالَحَتَهُ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ: مَنْ اغْتَرَّ بِالْعَدُوِّ الَّذِي لَمْ يَزَلْ عَدُوًّا، أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْبُومَ مِنَ الْغُرَابِ!. قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ^(٣)؟

(١) يأكل منه: أي من الظبي. (٢) استمتاع: انتفاع. والتعاوض: التعاون.

(٣) الصفاء: الإخلاص والمودة. اضرب لي: قل أو اخك. وملقًا: توددًا وتلطفًا.

مثل أهل العداوة

وما ينبغي من عدم الاعتزاز بهم مهما أظهروا من تودد وتملق !

قَالَ يَبْدَبَا : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الدُّوحِ، فِيهَا وَكُرُ أَلْفِ غُرَابٍ، وَعَلَيْهِنَّ وَالٍ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ ! وَكَانَ عِنْدَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ كَهْفٌ فِيهِ أَلْفُ بُوْمَةٍ، وَعَلَيْهِنَّ وَالٍ مِنْهُنَّ ! فَخَرَجَ مَلِكُ الْبُومِ لِيَعْضَ عَدَوَاتِهِ وَرَوْحَاتِهِ، وَفِي نَفْسِهِ الْعَدَاوَةُ لِمَلِكِ الْغُرَابِ وَفِي نَفْسِ الْغُرَابِ وَمَلِكِهَا مِثْلُ ذَلِكَ لِلْبُومِ؛ فَأَغَارَ مَلِكُ الْبُومِ فِي أَصْحَابِهِ عَلَى الْغُرَابِ فِي أَوْكَارِهَا؛ فَقَتَلَ وَسَبَى مِنْهَا خَلْقًا كَثِيرًا ! وَكَانَتِ الْغَارَةُ لَيْلًا. فَلَمَّا أَصْبَحَتِ الْغُرَابُ، اجْتَمَعَتْ إِلَى مَلِكِهَا فَقُلْنَ لَهُ: قَدْ عَلِمْتَ مَا لَقِينَا اللَّيْلَةَ مِنْ مَلِكِ الْبُومِ، وَمَا مِنَّا إِلَّا مِنْ أَصْبَحَ قَتِيلًا، أَوْ جَرِيحًا، أَوْ مَكْشُورَ الْجَنَاحِ، أَوْ مَنْتُوفَ الرَّيشِ، أَوْ مَقْطُوعَ الذَّنَبِ^(١) !

وَأَشَدُّ مَا أَصَابَنَا ضُرًّا جُرْأَتُهُنَّ عَلَيْنَا، وَعِلْمُهُنَّ بِمَكَانِنَا وَهُنَّ عَائِدَاتُ إِلَيْنَا، غَيْرُ مُنْقَطِعَاتٍ عَنَّا، لِيَعْلِمَهُنَّ بِمَكَانِنَا؛ فَإِنَّمَا نَحْنُ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ، فَاَنْظُرْ لَنَا وَلِتَنْفِسِكَ. وَكَانَ فِي الْغُرَابِ خَمْسَةٌ مُعْتَرَفٌ لَهُنَّ بِحُسْنِ الرَّأْيِ، يُسْنَدُ إِلَيْهِنَّ فِي الْأُمُورِ، وَتُلْقَى إِلَيْهِنَّ مَقَالِيدُ الْأَحْوَالِ. وَكَانَ الْمَلِكُ كَثِيرًا مَا يُشَاوِرُهُنَّ فِي الْأُمُورِ، وَيَأْخُذُ آرَاءَهُنَّ فِي الْحَوَادِثِ وَالنَّوَازِلِ، فَقَالَ الْمَلِكُ لِلْأُولَى مِنَ الْخَمْسَةِ: مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ؟ قَالَ: رَأَيْتُ قَدْ سَبَقْتُنَا إِلَيْهِ الْعُلَمَاءُ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَيْسَ لِلْعَدُوِّ الْحَقِيقِ الَّذِي لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ إِلَّا الْهَرَبُ مِنْهُ^(٢).

قَالَ الْمَلِكُ لِلثَّانِي: مَا رَأَيْكَ أَنْتَ فِي هَذَا الْأَمْرِ؟ قَالَ مَا رَأَى هَذَا مِنَ الْهَرَبِ. قَالَ الْمَلِكُ: لَا أَرَى لَكُمْ ذَلِكَ زَأْيًا: أَنْ تَزْهَلَ عَنِ أَوْطَانِنَا، وَتُخْلِيَهَا لِعَدُوِّنَا مِنْ أَوَّلِ نَكْبَةٍ أَصَابَتْهَا مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لَنَا ذَلِكَ، فَتَكُونُ بِهِ لَهُمْ عَوْنًا عَلَيْنَا، وَلَكِنْ نَجْمَعُ أَمْرَنَا، وَنَسْتَعِدُّ لِعَدُوِّنَا، وَنُذَكِّي نَارَ الْحَرْبِ فِيهَا يَبِينُنَا وَتَبِينَ عَدُوَّنَا، وَنَحْتَرِسُ مِنَ الْغُرَّةِ^(٣) إِذَا أَقْبَلَ إِلَيْنَا؛ فَتَلْقَاهُ مُسْتَعِدَّيْنِ، وَتُقَاتِلُهُ قِتَالًا غَيْرَ مُرَاجِعِينَ فِيهِ، وَلَا حَامِيَيْنِ مِنْهُ، وَتُلْقَى أَطْرَافُنَا أَطْرَافَ الْعَدُوِّ، وَتَنْحَرِزُ بِحُصُونِنَا، وَنُدَافِعُ عَدُوَّنَا بِالْأَنَاقَةِ مَرَّةً،

(١) الدُّوحُ: جمع دَوْخَةٍ: وهي الشجرة العظيمة. كهف: بيت مقفول في الجبل واسع. غدواته: سفراته صباحا وروحاته: سفراته مساء. سَبَى: أسر.

(٢) عائِدَات: مرثدات. يسند إليهن في الأمور: يعتمد عليهن. مقاليد: مفاتيح. النوازل: المصائب الشداد. الحَقِيقُ: الشديد الغيظ.

(٣) ونذكي نار الحرب: نوقدها ونوججها ونزيد بها اشتعالا. الغُرَّة: الغفلة.

وَبِالْجِلَادِ أُخْرَى، حَيْثُ نُصِيبُ فُرُوسَنَا وَبُعَيْتَنَا، وَقَدْ ثَنَيْنَا عَدُوَّنَا عَنَّا. ثُمَّ قَالَ الْمَلِكُ لِلثَّالِثِ: مَا رَأَيْتُكَ أَنْتَ؟ قَالَ: لَا أَرَى مَا قَالَا رَأَيَا، وَلَكِنْ نَبْتُ الْعُيُونِ، وَنَبَعْتُ الْجَوَاسِيسَ، وَنُرْسِلُ الطَّلَائِعَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَدُوَّنَا، فَتَعْلَمُ: هَلْ يُرِيدُ صَلَاحُنَا، أَمْ يُرِيدُ حَرْبَنَا، أَمْ يُرِيدُ الْفِدْيَةَ؟ فَإِنْ رَأَيْنَا أَمْرَهُ أَمَرَ طَامِعٍ فِي مَالٍ لَمْ نَكْرِهِ الصُّلْحَ عَلَى خَرَاجٍ نُؤَدِّيهِ إِلَيْهِ فِي كُلِّ سَنَةٍ نَدْفَعُ بِهِ عَنْ أَنْفُسِنَا، وَنَطْمَعُ فِي أَوْطَانِنَا؛ فَإِنْ مِنْ آرَاءِ الْمُلُوكِ إِذَا اشْتَدَّتْ شَوْكَةُ عَدُوِّهِمْ، فَخَافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَبِلَادِهِمْ أَنْ يَجْعَلُوا الْأَمْوَالَ جُنَّةَ الْبِلَادِ وَالْمَلِكِ وَالرَّعِيَّةِ^(١).

قَالَ الْمَلِكُ لِلرَّابِعِ: فَمَا رَأَيْتُكَ فِي هَذَا الصُّلْحِ؟ قَالَ لَا أَرَاهُ رَأْيَا بَلْ أَنْ تَفَارِقَ أَوْطَانَنَا، وَتَضَيَّرَ عَلَى الْغُرْبَةِ، وَشِدَّةِ الْمَعِيشَةِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ نُضِيعَ أَحْسَابَنَا، وَنَخْضَعَ لِلْعَدُوِّ الَّذِي نَحْنُ أَشْرَفُ مِنْهُ. مَعَ أَنَّ الْيَوْمَ لَوْ عَرَضْنَا ذَلِكَ عَلَيْهِمْ لَمَا رَضِينَ مِنَّا إِلَّا بِالشُّطْطِ^(٢).

وَيُقَالُ فِي الْأَمْثَالِ: قَارِبَ عَدُوِّكَ بَعْضَ الْمُقَارَبَةِ، لِتَنَالَ حَاجَتَكَ، وَلَا تُقَارِبُهُ كُلَّ الْمُقَارَبَةِ فَيَجْتَرِي عَلَيْكَ، وَيُضْعَفُ جُنْدُكَ وَتَدِلَّ نَفْسُكَ! وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ الْحَشْبَةِ الْمَنْصُوبَةِ فِي الشَّمْسِ، إِذَا أَمَلَتْهَا قَلِيلًا زَادَ ظِلُّهَا وَإِذَا جَاوَزَتْ بِهَا الْحَدَّ فِي إِمَالَتِهَا نَقَصَ الظِّلُّ. وَلَيْسَ عَدُوَّنَا رَاضِيًا مِنَّا بِالْذُّونِ فِي الْمُقَارَبَةِ، فَالْزَّائِي لَنَا وَلَكَ الْمُحَارَبَةُ. قَالَ الْمَلِكُ لِلْخَامِسِ: مَا تَقُولُ أَنْتَ؟ وَمَاذَا تَرَى: الْقِتَالَ، أَمْ الصُّلْحَ، أَمْ الْجَلَاءَ عَنِ الْوَطَنِ؟ قَالَ: أَمَّا الْقِتَالُ، فَلَا سَبِيلَ لِلْمَرءِ إِلَى قِتَالٍ مَنْ لَا يَقْوَى عَلَيْهِ^(٣).

وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ نَفْسَهُ وَعَدُوَّهُ، وَقَاتَلَ مَنْ لَا يَقْوَى عَلَيْهِ، حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى حَتْفِهَا، مَعَ أَنَّ الْعَاقِلَ لَا يَسْتَصْغِرُ عَدُوًّا، فَإِنَّ مَنْ اسْتَصْغَرَ عَدُوَّهُ اغْتَرَّ بِهِ، وَمَنْ اغْتَرَّ بِعَدُوِّهِ لَمْ يَسْلَمْ مِنْهُ! وَأَنَا لِلْيَوْمِ شَدِيدُ الْهَيْبَةِ، وَإِنْ أَضْرَبْتَ عَنْ قِتَالِنَا، وَقَدْ كُنْتُ أَهَابُهَا قَبْلَ ذَلِكَ. فَإِنَّ الْحَازِمَ لَا يَأْمُرُ عَدُوَّهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ. فَإِنْ كَانَ بَعِيدًا لَمْ يَأْمَنْ سَطَوَتُهُ، وَإِنْ كَانَ مُكْتَبًا لَمْ يَأْمَنْ وَثْبَتُهُ، وَإِنْ كَانَ وَحِيدًا لَمْ يَأْمَنْ مَكْرَهُ. وَأَحْزَمُ الْأَقْوَامِ وَأَكْيَسُهُمْ مَنْ كَرِهَ الْقِتَالَ لِأَجْلِ النَّفَقَةِ فِيهِ؛ فَإِنْ مَا دُونَ الْقِتَالِ النَّفَقَةُ فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ^(٤).

(١) ولا حامين منه: غير آتفين، ولا يداخلنا عار بذلك. ونحترز: نحفظ. بالأنانة: الرفق والانتظار. بالجلاد: بالضرب بالسيف. ثينا عدونا: ردنا. نبث العيون: نوزع المراقبين هنا وهناك. الطلائع: جماعات من الجيش ترسل لتستطلع أحوال العدو وتكون في مقدمة الجيش لتطلع على العدو. الفدية: المال يؤخذ عوضاً عما يفدي. اشتدت شوكة عدوهم: قدرته. جنة: وقاية وستره.

(٢) أحسابنا: مفاخرنا. الشطط: مجاوزة الحد. (٣) فيجترى: فيشجع ويتقوى. بالدون: بالأقل.

(٤) حنفها: هلاكها. أضربن عن قتالنا: أغرضن عنه. مكثيا: قريبا. وثبته: هجمته وانقضاضه. وأكيسهم: أعلهم.

وَالْقِتَالُ النَّفَقَةُ فِيهِ مِنَ الْأَنْفُسِ وَالْأَبْدَانِ، وَرُبَّمَا اكْتَفَى عَنْهُ بِالنَّفَقَةِ الْبَسِيرَةِ وَالْكَلامِ اللَّيِّنِ، فَلَا يَكُونَنَّ الْقِتَالُ لِلْبُومِ مِنْ رَأْيِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ؛ فَإِنَّ مَنْ قَاتَلَ مَنْ لَا يَقْوَى عَلَيْهِ فَقَدْ عَزَرَ بِنَفْسِهِ. فَإِذَا كَانَ الْمَلِكُ مُحْصِنًا لِلْأَسْرَارِ، مُتَخَيِّرًا لِلْوُزَرَاءِ، مَهِيئًا فِي أَغْيُنِ النَّاسِ، بَعِيدًا مِنْ أَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِ، كَانَ خَلِيقًا لَا يُسَلَبُ صَحِيحَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْخَيْرِ. وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ كَذَلِكَ، وَالْمَلِكُ يَزْدَادُ بِرَأْيِ وَزَرَائِهِ بَصِيرَةً، كَمَا يَزِيدُ الْبَحْرُ بِمُجَاوِرِهِ مِنَ الْأَنْهَارِ. وَقَدْ اسْتَشَرْتَنِي فِي أَمْرِ جَوَابِكَ مِنِّي عَنْهُ: فِي بَعْضِهِ عَلَيَّ، وَقَدْ أَجَبْتُكَ بِهِ وَفِي بَعْضِهِ سِرِّي^(١).

وَاللَّأْسِرَارِ مَنَازِلُ: مِنْهَا مَا يَدْخُلُ فِيهِ الرَّهْطُ، وَمِنْهَا مَا يُسْتَعَانُ فِيهِ بِالْقَوْمِ، وَمِنْهَا مَا يَدْخُلُ فِيهِ الرُّجُلَانِ. وَلَسْتُ أَرَى لِهَذَا السِّرِّ عَلَى قَدَرِ مَنْزِلَتِهِ أَنْ يُشَارَكَ فِيهِ إِلَّا أَرْبَعُ أَذَانٍ، وَلِسَانَانِ. فَتَهَضُّ الْمَلِكُ مِنْ سَاعَتِهِ، وَخَلَا بِهِ فَاسْتَشَارَهُ فَكَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَهُ عَنْهُ الْمَلِكُ أَنَّهُ قَالَ: هَلْ تَعْلَمُ ابْتِدَاءَ الْعَدَاوَةِ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبُومِ؟ قَالَ: نَعَمْ كَلِمَةً تَكَلَّمُ بِهَا غُرَابٌ. قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قَالَ الْغُرَابُ: زِعْمُوا أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْكِرَاكِيِّ لَمْ يَكُنْ لَهَا مَلِكٌ، فَأَجْمَعَتْ أَمْرَهَا عَلَى أَنْ تُمْلِكَ عَلَيَّ عَلَيْهَا مَلِكَ الْبُومِ^(٢)؛ فَبَيْنَمَا هِيَ فِي مَجْمَعِهَا إِذْ وَقَعَ لَهَا غُرَابٌ. فَقَالَتْ: لَوْ جَاءَنَا هَذَا الْغُرَابُ لَأَسْتَشَرْنَاهُ فِي أَمْرِنَا، فَلَمْ يَلْبَسْ دُونَ أَنْ جَاءَهُنَّ الْغُرَابُ فَاسْتَشَرْنَهُ؛ فَقَالَ: لَوْ أَنَّ الطَّيْرَ بَادَتْ مِنَ الْأَقَالِيمِ، وَفُقِدَ الطَّائِفُ وَالْبَطُّ وَالنَّعَامُ وَالْحِمَامُ مِنَ الْعَالَمِ، لَمَا اضْطُرَرْتُ إِلَى أَنْ تُمْلِكَنَّ عَلَيَّ الْبُومَ الَّتِي هِيَ أَقْبَحُ الطَّيْرِ مَنْظَرًا وَأَسْوَأُهَا خَلْقًا، وَأَقْلَبُهَا عَقْلًا، وَأَشَدُّهَا غَضَبًا، وَأَبْعَدُهَا مِنْ كُلِّ رَحْمَةٍ، مَعَ عَمَاهَا وَمَا بَهَا مِنَ الْعُشَا فِي النَّهَارِ، وَتَنْتِ رَائِحَتِهَا حَتَّى لَا يُطِيقَ طَائِرٌ أَنْ يَتَقَرَّبَ مِنْهَا! وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ، وَأَقْبَحُ أُمُورِهَا سَفَهُهَا وَسُوءُ أَخْلَاقِهَا^(٣).

إِلَّا أَنْ تَرَيْنَ أَنْ تُمْلِكْنَهَا، وَتَكُنَّ أَنْتِ تُدَبِّرِينَ الْأُمُورَ دُونَهَا بِرَأْيِكُنَّ وَعُقُولِكُنَّ؛ فَإِنَّ وَزَرَءَ الْمَلِكِ إِذَا كَانُوا صَالِحِينَ، وَكَانَ يُطِيعُهُمْ فِي آرَائِهِمْ، لَمْ يَضُرَّ فِي مُلْكِهِ كَوْنُهُ جَاهِلًا، وَاسْتِقَامَ أَمْرُهُ. كَمَا فَعَلَتِ الْأَرْزُبُ الَّتِي رَعِمَتْ أَنَّ الْقَمَرَ مَلِكُهَا، وَعَمِلَتْ بِرَأْيِهَا! قَالَتِ الطَّيْرُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

(١) غَزَرَ بِنَفْسِهِ: عَرَضَهَا لِلْهَلَاكِ. مُخَصِّنًا: كَاتِمًا. مُتَخَيِّرًا: مُتَقَبِّلًا. مَا أُوتِيَ: مَا أُعْطِيَ.

(٢) الرَّهْطُ: قَوْمُ الرَّجُلِ وَقَبِيلَتُهُ. وَخَلَا بِهِ: انْفَرَدَ. الْكِرَاكِيُّ: جَمْعُ كَرْكِي وَهُوَ طَائِرٌ يَقْرُبُ مِنَ الْوُزَرِ.

(٣) بَادَتْ: هَلَكَتْ وَفَنِيَتْ وَانْقَطَعَتْ. الْعُشَا: ضَعْفُ الْبَصَرِ. سَفَهُهَا: طَيْشُهَا وَخَفَتُهَا.

مثل الأرنب وملك الفيلة

وهو مثل الضعيف يحتال على القوى للنجاة من شره دون الإضرار به

قال الغراب : زَعَمُوا أَنَّ أَرْضًا مِنْ أَرْضِي الْفِيلَةِ، تَتَابَعَتْ عَلَيْهَا السُّنُونَ وَأَجْدَبَتْ، وَقَلَّ مَاؤُهَا، وَغَارَتْ عُيُونُهَا، وَذَوَى نَبْثُهَا، وَيَسَّ شَجَرُهَا؛ فَأَصَابَ الْفِيلَةَ عَطَشٌ شَدِيدٌ^(١)؛ فَشَكَّوْنَ ذَلِكَ إِلَى مَلِكِهِنَّ، فَأَرْسَلَ الْمَلِكُ رُسُلَهُ وَرُؤَادَهُ فِي طَلَبِ الْمَاءِ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ بَعْضُ الرُّسُلِ، فَقَالَ لَهُ: إِنِّي قَدْ وَجَدْتُ بِمَكَانٍ كَذَا عَيْنًا يُقَالُ لَهَا: عَيْنُ الْقَمَرِ، كَثِيرَةُ الْمَاءِ؛ فَتَوَجَّهَ مَلِكُ الْفِيلَةِ بِأَصْحَابِهِ إِلَى تِلْكَ الْعَيْنِ، لِيَشْرَبَ مِنْهَا هُوَ وَفِيلَتُهُ، وَكَانَتِ الْعَيْنُ فِي أَرْضٍ لِلْأَرَانِبِ، فَوُطِنَ الْأَرَانِبُ فِي أَجْحَارِهِمْ فَأَهْلَكَنَ مِنْهُمْ كَثِيرًا! فَاجْتَمَعَتِ الْأَرَانِبُ إِلَى مَلِكِهَا فَقُلْنَ لَهُ: قَدْ عَلِمْتَ مَا أَصَابَنَا مِنَ الْفِيلَةِ!. فَقَالَ: لِيُحْضِرْ مِنْكُمْ كُلُّ ذِي رَأْيٍ رَأْيَهُ^(٢). فَتَقَدَّمَتْ أَرْنَبٌ مِنَ الْأَرَانِبِ يُقَالُ لَهَا: فَيُزَوِّرُ وَكَانَ الْمَلِكُ يَعْرِفُهَا بِحُسْنِ الرَّأْيِ وَالْأَدَبِ. فَقَالَتْ: إِنْ رَأَى الْمَلِكُ أَنَّ يَتَعَثَّنِي إِلَى الْفِيلَةِ، وَيُرْسِلَ مَعِيَ أَمِينًا لِيَسْمَعَ وَيَرَى مَا أَقُولُ؛ وَيَرْفَعَهُ إِلَى الْمَلِكِ. فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ: أَنْتِ أَمِينَةٌ، وَنَرَضَى بِقَوْلِكَ، فَأَنْطَلِقِي إِلَى الْفِيلَةِ، وَبَلِّغِي عَنِّي مَا تُرِيدِينَ. وَاعْلَمِي أَنَّ الرُّسُولَ يَرَاهُ وَعَقْلُهُ، وَلِينُهُ وَفَضْلُهُ، يُخْبِرُ عَنْ عَقْلِ الْمُرْسِلِ. فَعَلَيْكَ بِاللَّيْنِ وَالرَّفْقِ، وَالْحِلْمِ وَالتَّائِي، فَإِنَّ الرُّسُولَ هُوَ الَّذِي يُلِينُ الصُّدُورَ إِذَا رَفَقَ، وَيُخَشِّشُ الصُّدُورَ إِذَا خَرَقَ. ثُمَّ إِنَّ الْأَرْنَبَ انْطَلَقَتْ فِي لَيْلَةٍ قَمَرَاءَ^(٣)، حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى الْفِيلَةِ، وَكَرِهَتْ أَنْ تَدْنُو مِنْهُمْ مَخَافَةَ أَنْ يَطَّأْنَهَا بِأَرْجُلِهِمْ، فَيَقْتُلْنَهَا، وَإِنْ كُنَّ غَيْرَ مُتَعَمِّدَاتٍ. فَأَشْرَفَتْ عَلَى الْجَبَلِ، وَنَادَتْ مَلِكَ الْفِيلَةِ، وَقَالَتْ لَهُ: إِنَّ الْقَمَرَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ؛ وَالرُّسُولُ غَيْرُ مَلُومٍ فِيمَا يُبْلَغُ، وَإِنْ أَعْلَظَ فِي الْقَوْلِ. قَالَ مَلِكُ الْفِيلَةِ: فَمَا الرِّسَالَةُ؟ قَالَتْ: يَقُولُ لَكَ: إِنَّهُ مَنْ عَرَفَ فَضْلَ قُوَّتِهِ عَلَى الضُّعَفَاءِ، فَاغْتَرَّ فِي ذَلِكَ بِالْأَقْوِيَاءِ قِيَاسًا لَهُمْ عَلَى الضُّعَفَاءِ، كَانَتْ قُوَّتُهُ وَبَالًا عَلَيْهِ. وَأَنْتِ قَدْ عَرَفْتَ فَضْلَ قُوَّتِكَ عَلَى الدَّوَابِّ، فَعَرَّكَ ذَلِكَ؛ فَعَمَدْتَ إِلَى الْعَيْنِ الَّتِي تُسَمَّى بِاسْمِي، فَشَرِبْتَ مِنْهَا، وَرَفَقْتَهَا. فَأَرْسَلَنِي إِلَيْكَ: فَأُنْذِرُكَ أَلَّا تَعُودَ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ^(٤).

(١) تَابَعَتْ عَلَيْهَا السُّنُونَ: جَمَعَ سَنَةً وَهِيَ الْجَذْبُ وَالْجَفَافُ. وَأَجْدَبَتْ: أَمْخَلَتْ. وَذَوَى نَبْثُهَا: جَفَّ وَذَبِلَ.

(٢) وَرُؤَادُهُ: جَمَعَ رَاثِدٌ وَهُوَ الرَّجُلُ الَّذِي يَرْسِلُهُ الْقَوْمُ لِيُخَبِّرَهُمْ لِمَا كَانَ يَنْزِلُونَ فِيهِ وَفِيهِ الْمَاءُ وَالْمَرْعى. فَوُطِنَ الْأَرَانِبُ: دُسِّنَ عَلَيْهَا.

(٣) رَفَقَ: لَانَ وَلَطَفَ. خَرَقَ: حَقَقَ وَجَهَلَ. قَمَرَاءَ: مَقْمَرَةً.

(٤) مُتَعَمِّدَاتٍ: قَاصِدَاتٍ. فَأَشْرَفَتْ: أَطْلَتْ. وَبَالًا عَلَيْهِ: شِدَّةً وَوُخَامَةً. فَعَمَدَتْ: قَصَصَتْ. وَرَفَقْتَهَا: وَكَلَدْتَهَا.

وَأَنَّهُ إِنْ فَعَلْتَ يُعْشَى عَلَى بَصْرِكَ، وَيُتْلَفُ نَفْسُكَ! وَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنْ رِسَالَتِي فَهَلِّمْ إِلَى الْعَيْنِ مِنْ سَاعَتِكَ، فَإِنِّي مُوَفِّيكَ بِهَا! فَعَجِبَ مَلِكُ الْفِيلَةِ مِنْ قَوْلِ الْأَرْنَبِ، فَاَنْطَلَقَ إِلَى الْعَيْنِ مَعَ فَيَزُورُ الرَّسُولَ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا رَأَى ضَوْءَ الْقَمَرِ فِيهَا، فَقَالَتْ لَهُ فَيَزُورُ الرَّسُولَ: خُذْ بِخُرُطُومِكَ مِنَ الْمَاءِ فَاغْسِلْ بِهِ وَجْهَكَ، وَاسْجُدْ لِلْقَمَرِ. فَأَدْخَلَ الْفِيلُ خُرُطُومَهُ فِي الْمَاءِ فَتَحَرَّكَ فَخِيلَ إِلَى الْفِيلِ أَنَّ الْقَمَرَ ارْتَعَدَ^(١)! فَقَالَ: مَا شَأْنُ الْقَمَرِ ارْتَعَدَ؟ أَتَرَاهُ غَضِبَ مِنْ إِدْخَالِي خُرُطُومِي فِي الْمَاءِ؟ قَالَتْ فَيَزُورُ الْأَرْنَبَ: نَعَمْ. فَسَجَدَ الْفِيلُ لِلْقَمَرِ مَرَّةً أُخْرَى، وَتَابَ إِلَيْهِ مِمَّا صَنَعَ، وَشَرَطَ أَنْ لَا يَعُودَ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ هُوَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ فِئَلِهِ! قَالَ الْغُرَابُ: وَمَعَ مَا ذَكَرْتُ مِنْ أَمْرِ الْيَوْمِ فَإِنَّ فِيهَا الْحَبَّ وَالْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ، وَشَرَّ الْمُلُوكِ الْمُخَادِعُ! وَمَنْ ابْتُلِيَ بِسُلْطَانٍ مُخَادِعٍ، وَخَدَمَهُ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْأَرْنَبَ وَالصُّفْرَدَ حِينَ احْتَكَمَا إِلَى السَّنُورِ. قَالَتِ الْكَرَاكِي: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ^(٢)؟

مثل الصفرد والأرنب

وهو مثل الخبيث المتظاهر بالتقوى والصلاح حتى استرسل إليه من رآه على ذلك فبطش به

قَالَ الْغُرَابُ: كَانَ لِي جَارٌ مِنَ الصُّفَارَةِ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ وَكْرِي؛ وَكَانَ يُكْثِرُ مُوَاصَلَتِي. ثُمَّ فَقَدْتُهُ فَلَمْ أَعْلَمْ أَيْنَ غَابَ؛ وَطَالَتْ غَيْبَتُهُ عَنِّي فَجَاءَتْ أَرْنَبٌ إِلَى مَكَانِ الصُّفْرَدِ فَسَكَتَتْهُ، فَكَرِهَتْ أَنْ أُخَاصِمَ الْأَرْنَبَ، فَلَبِثْتُ فِيهِ زَمَانًا. ثُمَّ إِنَّ الصُّفْرَدَ عَادَ بَعْدَ زَمَانٍ، فَأَتَى مَنْزِلَهُ فَوَجَدَ فِيهِ الْأَرْنَبَ؛ فَقَالَ لَهَا: هَذَا الْمَكَانُ لِي، فَاَنْتَقِلِي مِنْهُ. قَالَتِ الْأَرْنَبُ: الْمَسْكُنُ لِي، وَتَحَتَ يَدَيَّ وَأَنْتَ مُدَّعٍ لَهُ. فَإِنْ كَانَ لَكَ حَقٌّ فَاسْتَعِدِّي عَلَيَّ. قَالَ الصُّفْرَدُ: الْقَاضِي مَنَا قَرِيبٌ، فَهَلِّمِي بِنَا إِلَيْهِ. قَالَتِ الْأَرْنَبُ: وَمَنِ الْقَاضِي^(٣)؟ قَالَ الصُّفْرَدُ: إِنَّ يَسَاجِلَ الْبَحْرِ سِنُورًا مُتَعَبِّدًا، يَصُومُ النَّهَارَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ، وَلَا يُؤْذِي دَائِبَةً، وَلَا يُهْرِيقُ دَمًا! عَيْشُهُ مِنَ الْحَشِيشِ، وَمِمَّا يَقْدُفُهُ إِلَيْهِ الْبَحْرُ. فَإِنْ أَحْبَبْتَ، تَحَاكَمْنَا إِلَيْهِ، وَرَضِينَا بِهِ. قَالَتِ الْأَرْنَبُ: مَا أَرْضَانِي بِهِ إِذَا كَانَ كَمَا وَصَفْتَ! فَاَنْطَلَقَا إِلَيْهِ، فَتَبِعَتْهُمَا لِأَنْظَرُ إِلَى حُكُومَةِ الصَّوَامِ الْقَوَامِ. ثُمَّ إِنَّهُمَا ذَهَبَا إِلَيْهِ، فَلَمَّا بَصُرَ

(١) يغشى: يغطي. ويتلف نفسك: يهلكها. موافيك: ملائكتك. فخيّل إليه: توهم.

(٢) وتاب إليه: رجع عن المعصية وندم على ذنبه. الحب: الخبث والخداع. الصفرد: طائر يضرب به المثل في الجبن. السنور: الهر.

(٣) فلبثت فيه زمانا: أقامت. فاستعدي علي: استعجن.

السُّنُورِ بِالْأَرْزَبِ وَالصَّفَرِ مُقْبِلَيْنِ نَحْوَهُ، انْتَصَبَ قَائِمًا يُصَلِّي، وَأَظْهَرَ الْحُشُوعَ وَالتَّشَنُّكَ؛ فَعَجَبَا لِمَا رَأَيَا مِنْ حَالِهِ، وَدَنُوا مِنْهُ هَائِبَيْنِ لَهُ، وَسَلَّمَا عَلَيْهِ، وَسَلَّاهُ أَنْ يَقْضِيَ بَيْنَهُمَا؛ فَأَمَرَهُمَا أَنْ يَقْضَا عَلَيْهِ الْقِصَّةَ فَفَعَلَا، فَقَالَ لَهُمَا: قَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ، وَثَقُلَتْ أَذُنَايَ فَادْنُوا مِنِّي، فَأَسْمِعَانِي مَا تَقُولَانِ، فَدَنُوا مِنْهُ، وَأَعَادَا عَلَيْهِ الْقِصَّةَ وَسَلَّاهُ الْحُكْمَ^(١). فَقَالَ: قَدْ فَهِمْتُ مَا قُلْتُمَا، وَأَنَا مُبْتَدِئُكُمَا بِالنَّصِيحَةِ قَبْلَ الْحُكْمِ؛ فَإِنَّا آمُرُكُمَا بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَلَّا تَطْلُبَا إِلَّا الْحَقَّ؛ فَإِنَّ طَالِبَ الْحَقِّ هُوَ الَّذِي يُفْلِحُ، وَإِنْ قُضِيَ عَلَيْهِ؛ وَطَالِبُ الْبَاطِلِ مَخْصُومٌ وَإِنْ قُضِيَ لَهُ. وَلَيْسَ لِصَاحِبِ الدُّنْيَا مِنْ دُنْيَاهُ شَيْءٌ، لَا مَالٌ وَلَا صَدِيقٌ سِوَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ يُقَدِّمُهُ؛ فَذُو الْعَقْلِ حَقِيقٌ أَنْ يَكُونَ سَعْيُهُ فِي طَلَبِ مَا يَبْقَى وَيَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْهِ عَدًّا؛ وَأَنْ يَمُتَّ بِسَعْيِهِ مَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا^(٢)؛ فَإِنَّ مَنَزِلَةَ الْمَالِ عِنْدَ الْعَاقِلِ بِمَنَزِلَةِ الْمَدَرِ، وَمَنَزِلَةُ النَّاسِ عِنْدَهُ فِيمَا يُحِبُّ لَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَيَكْرَهُ مِنَ الشَّرِّ بِمَنَزِلَةِ نَفْسِهِ. ثُمَّ إِنَّ السُّنُورَ لَمْ يَزَلْ يَقْصُصْ عَلَيْهِمَا مِنْ جَنَسِ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ حَتَّى أُنْسَا إِلَيْهِ، وَأَقْبَلَا عَلَيْهِ، وَدَنُوا مِنْهُ، فَوَثَبَ عَلَيْهِمَا فَفَقَتَلَهُمَا. قَالَ الْغُرَابُ: ثُمَّ إِنَّ الْيَوْمَ تَجَمَّعَ - مَعَ مَا وَصَفْتُ لَكُنَّ مِنَ الشُّؤْمِ - سَائِرُ الْغُيُوبِ فَلَا يَكُونَنَّ تَمْلِيكَ الْيَوْمِ مِنْ رَأْيِكُنَّ. فَلَمَّا سَمِعَ الْكِرَاكِيُّ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْغُرَابِ أَضْرَبَنَّ عَنْ تَمْلِيكَ الْيَوْمِ^(٣). وَكَانَ هُنَاكَ يَوْمٌ حَاضِرٌ قَدْ سَمِعَ مَا قَالُوا، فَقَالَ لِلْغُرَابِ: لَقَدْ وَتَرْتَنِي أَعْظَمَ الثَّرَةِ وَلَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَلَفَ مِنِّي إِلَيْكَ سُوءٌ أَوْجِبَ هَذَا! وَبَعْدُ: فَأَعْلَمْتُ أَنَّ الْفَأْسَ يُقَطِّعُ بِهَا الشَّجَرَ فَيَعُودُ يَنْبُتُ، وَالسَّيْفَ يَقْطَعُ اللَّحْمَ ثُمَّ يَرْجِعُ فَيَنْدَمِلُ، وَاللِّسَانَ لَا يَنْدَمِلُ جُرْحُهُ، وَلَا تُؤَسَّى مَقَاطِعُهُ، وَالنَّضْلُ مِنَ السَّهْمِ يَغِيْبُ فِي اللَّحْمِ، ثُمَّ يُنْزَعُ فَيَخْرُجُ! وَأَشْبَاهُ النَّضْلِ مِنَ الْكَلَامِ إِذَا وَصَلَتْ إِلَى الْقَلْبِ لَمْ تُنْزَعْ وَلَمْ تُسْتَخْرَجْ، وَلِكُلِّ حَرِيقٍ مُطْفِئٌ: فَلْيَنَارِ الْمَاءِ، وَلِلْسَمِّ الدَّوَاءُ، وَلِلْحَزَنِ الصَّبْرُ، وَلِلْعِشْقِ الْفُرْقَةُ. وَنَارَ الْحَقْدِ لَا تَخْبُو أَبَدًا! وَقَدْ عَرَسْتُمْ مَعَاشِرَ الْغُرَبَانِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ شَجَرَ الْحَقْدِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ^(٤).

فَلَمَّا قَضَى الْيَوْمُ مَقَالَتَهُ، وَلَّى مُغَضِّبًا، فَأَخْبَرَ مَلِكَ الْيَوْمِ بِمَا جَرَى، وَبِكُلِّ مَا كَانَ مِنْ قَوْلِ الْغُرَابِ. ثُمَّ إِنَّ الْغُرَابَ نَدِمَ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ خَرِقْتُ فِي قَوْلِي الَّذِي جَلَبْتُ بِهِ

(١) ولا يهريق: ولا يريق. يقذفه: يطرحه. القوام: الذي يقوم الليل متعبدا. ويريد السُّنُور. هائِبين له: معظمين إياه. ثقلت أذناي: أي ضعف سمعي.

(٢) يُفْلِحُ: يفوز عليه وينجح في سعيه. مخْصُوم: مغلوب في الخصومة. غدا: يقصد يوم القيامة. يمُتُّ: ييغض بغضا شديدا.

(٣) المدر: الطين اليابس. ودنوا منه: قربا. من الشُّؤْم: ضد البركة.

(٤) وترتنى: أصبتي بمكرهه والثرة: مصدر وتر مثل: وعد يعد عدة. يندمل: يلتئم. تُؤَسَّى: تُدَاوَى. النضل: حديد السهم ونحوه.

الْعَدَاوَةُ وَالْبُعْضَاءُ عَلَى نَفْسِي وَقَوْمِي، وَلَيْتَنِي لَمْ أُخِيرَ الْكَرَاكِي بِهَذِهِ الْحَالِ، وَلَمْ أُعْلِمْهَا بِهَذَا الْأَمْرِ! وَلَعَلَّ أَكْثَرَ الطَّيْرِ قَدْ رَأَى أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُ، وَعَلِمَ أَضْعَافَ مَا عَلِمْتُ، فَمَنَعَهَا مِنَ الْكَلَامِ بِمِثْلِ مَا تَكَلَّمْتُ اتِّقَاءً مَا لَمْ أَتَّقِ، وَالنَّظْرُ فِيمَا لَمْ أَنْظُرْ فِيهِ مِنْ حِذَارِ الْعَوَاقِبِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الْكَلَامُ أَفْطَحَ كَلَامَ يَلْقَى مِنْهُ سَامِعُهُ وَقَائِلُهُ الْمَكْرُوءَ مِمَّا يُورِثُ الْحَقْدَ وَالضُّغَيْنَةَ؛ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ تُسَمَّى أَشْبَاهُ هَذَا الْكَلَامِ، وَلَكِنْ سِهَامًا^(١). وَإِنَّ الْكَلَامَ الرَّدِيءَ هُوَ الَّذِي يَزِيهِ صَاحِبُهُ فِي الْحَقْدِ وَالْعَدَاوَةِ. وَالْعَاقِلُ - وَإِنْ كَانَ وَائِقًا بِقُوَّتِهِ وَفَضْلِهِ - لَا يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَجْلُبَ الْعَدَاوَةَ عَلَى نَفْسِهِ اتِّكَالًا عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الرَّأْيِ وَالْقُوَّةِ. كَمَا أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ التَّوْبَاقُ، لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْرَبَ الشُّمَّ اتِّكَالًا عَلَى مَا عِنْدَهُ. وَصَاحِبُ الْعَمَلِ، وَإِنْ قَصَرَ بِهِ الْقَوْلُ فِي مُسْتَقْبَلِ الْأَمْرِ كَانَ فَضْلُهُ يَبِينُ وَاضِحًا فِي الْعَاقِبَةِ وَالِاخْتِيَارِ. وَصَاحِبُ حُسْنِ الْقَوْلِ، وَإِنْ أَعْجَبَ النَّاسَ مِنْهُ حُسْنُ صِفَتِهِ لِلْأُمُورِ لَمْ تُحْمَدْ مَغْيَةُ أَمْرِهِ^(٢).

وَأَنَا صَاحِبُ الْقَوْلِ الَّذِي لَا عَاقِبَةَ لَهُ مَحْمُودَةً! أَوْ لَيْسَ مِنْ سَفْهِي اجْتِرَائِي عَلَى التَّكَلُّمِ فِي الْأَمْرِ لَمْ أَسْتَشِيرْ فِيهِ أَحَدًا، وَلَمْ أُعْمَلْ فِيهِ رَأْيًا! وَمَنْ لَمْ يَسْتَشِيرِ النَّصَحَاءَ وَالْأَوْلِيَاءَ، وَعَمِلَ بِرَأْيِهِ مِنْ غَيْرِ تَكَرُّرِ النَّظَرِ وَالرَّوْيَةِ لَمْ يَغْتَبِطْ بِمَوَاقِعِ رَأْيِهِ. فَمَا كَانَ أَغْنَانِي عَمَّا كَسَبْتُ يَوْمِي هَذَا، وَمَا وَقَعْتُ فِيهِ مِنَ الْهَمِّ! وَعَاتَبَ الْغُرَابُ نَفْسَهُ بِهَذَا الْكَلَامِ وَأَشْبَاهِهِ، وَذَهَبَ. هَذَا مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ مِنْ ائْتِدَاءِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْيَوْمِ^(٣).

وَأَمَّا الْقِتَالُ فَقَدْ عَلِمْتُ رَأْيِي فِيهِ، وَكَرَاهَتِي لَهُ؛ وَلَكِنْ عِنْدِي مِنَ الرَّأْيِ وَالْحِيلَةِ غَيْرُ الْقِتَالِ مَا يَكُونُ فِيهِ الْفَرْجُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فَإِنَّهُ رَبُّ قَوْمٍ قَدْ اخْتَالُوا بِأَرَائِهِمْ حَتَّى ظَفِرُوا بِمَا أَرَادُوا. وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ الْجَمَاعَةِ الَّذِينَ ظَفِرُوا بِالنَّاسِكِ، وَأَخَذُوا عَرِيضَهُ. قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

(١) يترع: يُفْلَح. لا تخبر: لا تطفأ. خُرِفَتْ: أصبت بالخرق فأصبحت أحرق لا أحسن التصرف مثل هذا يقال له: أخرق. اتقاء: خوف. أفطح: أشنع. الضغينة: الكراهية.

(٢) الترياق: دواء يشفي السموم. مغبة أمره: عاقبته.

(٣) سفهي: حقني وطيشي. والأولياء: الأصدقاء. الزوية: التفكير في الأمور. لم يغبط: لم يسعد.

مثل الجماعة والناسك وعريضة

وهو مثل المحتالين على الغر الناسك حتى ظفروا به

قَالَ الْغُرَابُ : زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكًا اشْتَرَى عَرِيضًا ضَخْمًا لِيَجْعَلَهُ قُرْبَانًا ، فَأَنْطَلَقَ بِهِ يَقُودُهُ ، فَبَصُرَ بِهِ قَوْمٌ مِنَ الْمَكْرَةِ ، فَاتَّخَمَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوهُ مِنَ النَّاسِكِ ، فَعَرَضَ لَهُ أَحَدُهُمْ فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا النَّاسِكُ ، مَا هَذَا الْكَلْبُ الَّذِي مَعَكَ ^(١) ؟ ثُمَّ عَرَضَ لَهُ الْآخَرُ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ : مَا هَذَا نَاسِكًا ؛ لِأَنَّ النَّاسِكَ لَا يَقُودُ كَلْبًا ! فَلَمْ يَزَالُوا مَعَ النَّاسِكِ عَلَى هَذَا وَمِثْلِهِ حَتَّى لَمْ يَشْكُ أَنَّ الَّذِي يَقُودُهُ كَلْبٌ ، وَأَنَّ الَّذِي بَاعَهُ إِيَّاهُ سَحَرَ عَيْنَيْهِ ! فَأُطْلِقَهُ مِنْ يَدِهِ ، فَأَخَذَهُ الْجَمَاعَةُ الْمُحْتَالُونَ وَمَضُوا بِهِ . وَإِنَّمَا صَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلُ : لِمَا أَرْجُو أَنْ نُصِيبَ مِنْ حَاجَتِنَا بِالرُّفْقِ وَالْحِيلَةِ . وَإِنِّي أُرِيدُ مِنَ الْمَلِكِ أَنْ يَنْفَرَنِي عَلَى رُغُوسِ الْأَشْهَادِ ، وَيَنْتِفِ رِيثِي وَذَنَبِي ، ثُمَّ يَطْرَحَنِي فِي أَصْلِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، وَيَزَوِّجَ الْمَلِكُ وَجُودَهُ إِلَيَّ مَكَانَ كَذَا ؛ فَإِنِّي أَرْجُو أَنِّي أَصِيرُ وَأُطْلِعُ عَلَى أَحْوَالِهِمْ وَمَوَاضِعِ تَحْصِينِهِمْ وَأَبْوَابِهِمْ ؛ فَأُخَادِعُهُمْ ، وَأَتِي إِلَيْكُمْ لِنَهْجَمَ عَلَيْهِمْ ، وَنَنَالَ مِنْهُ غَرَضَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ^(٢) . قَالَ الْمَلِكُ : أَتَطِيبُ نَفْسَكَ لِذَلِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ وَكَيْفَ لَا تَطِيبُ نَفْسِي لِذَلِكَ ، وَفِيهِ أَعْظَمُ الرَّاحَاتِ لِلْمَلِكِ وَجُودِهِ ؟ فَفَعَلَ الْمَلِكُ بِالْغُرَابِ مَا ذَكَرَ ، ثُمَّ ارْتَحَلَ عَنْهُ . فَجَعَلَ الْغُرَابُ يَكُنْ ، وَيَهْمِسُ حَتَّى سَمِعَتْهُ الْبُومُ ، وَرَأَتْهُ يَكُنْ ؛ فَأَخْبَرَتْ مَلِكَهُنَّ بِذَلِكَ ، فَقَصَدَ نَحْوَهُ لِيَسْأَلَهُ عَنِ الْغُرَابِ ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ أَمَرَ بَوْمًا أَنْ يَسْأَلَهُ ، فَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ^(٣) ؟ وَأَيْنَ الْغُرَابُ ؟ فَقَالَ : أَمَّا اسْمِي فَقُلَانٌ ، وَأَمَّا مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ ؛ فَإِنِّي أَحْسَبُكَ تَرَى أَنَّ حَالِي حَالُ مَنْ لَا يَعْلَمُ الْأَسْرَارَ . فَقِيلَ لِلْمَلِكِ الْبُومُ : هَذَا الْغُرَابُ وَزِيرُ مَلِكِ الْغُرَابِ ، وَصَاحِبُ رَأْيِهِ ، فَسْأَلْهُ بِأَيِّ ذَنْبٍ صُنِعَ بِهِ مَا صُنِعَ ؟ ! فَسُئِلَ الْغُرَابُ عَنْ أَمْرِهِ : فَقَالَ : إِنَّ مَلِكَنَا اسْتَشَارَ جَمَاعَتَنَا فَيَكُنْ ، وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ بِمَحْضَرٍ مِنَ الْأَمْرِ ؛ فَقَالَ : أَيُّهَا الْغُرَابُ ، مَا تَرَوْنَ فِي ذَلِكَ ؟ فَقُلْتُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، لَا طَاقَةَ لَنَا بِقِتَالِ الْبُومِ ؛ لِأَنَّهُنَّ أَشَدُّ بَطْشًا ، وَأَخَذَ قَلْبًا مِنَّا ^(٤) . وَلَكِنْ أَرَى أَنَّ نَلْتَمِسَ الصَّلَاحَ ، ثُمَّ نَبْذُلَ الْفِدْيَةَ فِي ذَلِكَ ، فَإِنْ قَبِلَتِ الْبُومُ ذَلِكَ مِنَّا ،

(١) الفرج : نهاية الحزن ، والراحة من الكرب . العريضة : ما أتى عليه ستة من المعز ، وتناول التبت بعرض شديقه . قرباناً : ما يتقرب به الإنسان إلى ربه . فاتتَمَرُوا : تشاوروا .

(٢) نُصِيبُ : نَنَالَ . يَنْفَرُنِي : يَعِينُنِي وَيُضَرِّبُنِي .

(٣) يَهْمِسُ : يَتَكَلَّمُ بِصَوْتٍ خَفِيٍّ .

(٤) بِمَحْضَرٍ مِنَ الْأَمْرِ : أَيِّ حَاضِرًا لَهُ . بَطْشًا : بِأَسَا وَفَتَاكَ .

وَالْأَهْرَبَانِ فِي الْبِلَادِ! وَإِذَا كَانَ الْقِتَالُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْيَوْمِ كَانَ خَيْرًا لَّهُنَّ وَشَرًّا لَنَا! فَالْصُّلْحُ أَفْضَلُ مِنَ الْخُصُومَةِ؛ وَأَمَرْتُهُنَّ بِالرُّجُوعِ عَنِ الْحَرْبِ، وَضَرَبْتُ لَّهُنَّ الْأَمْثَالَ فِي ذَلِكَ، وَقُلْتُ لَّهُنَّ: إِنَّ الْعَدُوَّ الشَّدِيدَ لَا يُرَدُّ بِأَسْهُ مِثْلُ الْخُصُوعِ لَهُ. أَلَا تَرَيْنَ إِلَى الْحَشِيشِ، كَيْفَ يَسْلَمُ مِنْ عَاصِفِ الرِّيحِ لِيْنِهِ، وَمَقِيلِهِ مَعَهَا حَيْثُ مَالَتْ، وَالشَّجَرُ الْعَاتِي يُكْسِرُ بِهَا وَيُحْطَمُ، فَعَصَيْتَنِي فِي ذَلِكَ، وَزَعَمْنَ أَنَّهُنَّ يُرَدْنَ الْقِتَالَ، وَاتَّهَمْنَنِي فِيمَا قُلْتُ، وَقُلْنَ: إِنَّكَ قَدْ مَالَأْتَ الْيَوْمَ عَلَيْنَا، وَرَدَدَنْ قَوْلِي وَنَصِيحَتِي، وَعَذَّبْنِي بِهَذَا الْعَذَابِ، وَتَرَكْنِي الْمَلِكُ وَجُنُودُهُ، وَارْتَحَلَ، وَلَا عِلْمَ لِي بِهِنَّ بَعْدَ ذَلِكَ^(١).

فَلَمَّا سَمِعَ مَلِكُ الْيَوْمِ مَقَالَ الْغُرَابِ، قَالَ لِبَعْضِ وُزَرَائِهِ: مَا تَقُولُ فِي الْغُرَابِ؟ وَمَا تَرَى فِيهِ؟ قَالَ: مَا أَرَى إِلَّا الْمُعَاجَلَةَ لَهُ بِالْقَتْلِ، فَإِنَّ هَذَا أَفْضَلُ عَدَدِ الْغُرَابِ، وَفِي قَتْلِهِ لَنَا رَاحَةً مِنْ مَكْرِهِ. وَفَقَدُهُ عَلَى الْغُرَابِ شَدِيدٌ. فَإِذَا قُبِلَ ثُلُ مُلْكُهُمْ وَتَقَوَّضَ، وَمَا أَرَاهُ إِلَّا فَتْحًا قَدْ أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَيْكَ. وَيُقَالُ: مَنْ ظَفِرَ بِالسَّاعَةِ الَّتِي فِيهَا يَنْجَحُ الْعَمَلُ، ثُمَّ لَا يُعَالِجُهُ بِالَّذِي يَنْبَغِي لَهُ، فَلَيْسَ بِحَكِيمٍ؛ فَإِنَّ الْأُمُورَ مَرْهُونَةٌ بِأَوْقَاتِهَا^(٢). وَمَنْ طَلَبَ الْأَمْرَ الْجَسِيمَ فَأَمْكَنَهُ ذَلِكَ، فَأَغْفَلَهُ، فَاتَهُ الْأَمْرُ وَهُوَ خَلِيقٌ أَنْ لَا تَعُودَ الْفُرْصَةُ ثَانِيَةً. وَمَنْ وَجَدَ عَدُوَّهُ ضَعِيفًا، وَلَمْ يُنْجِزْ قَتْلَهُ، نَدِمَ إِذَا اسْتَقْوَى، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ!! قَالَ الْمَلِكُ لَوْزِيرٍ آخَرَ: مَا تَرَى أَنْتَ فِي هَذَا الْغُرَابِ؟ قَالَ: أَرَى أَلَّا تَقْتُلَهُ لِأَنَّهُ قَدْ لَقِيَ مِنْ أَصْحَابِهِ مَا تَرَاهُ، فَهُوَ خَلِيقٌ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا لَكَ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ وَمُعِينًا لَكَ عَلَى مَا فِيهِ هَلَاكُهُمْ، وَإِنَّ الْعَدُوَّ الدَّلِيلَ الَّذِي لَا نَاصِرَ لَهُ أَهْلٌ لِأَنْ يُؤْمَنَ، وَلَا سِيِّمًا الْمُسْتَجِيرَ الْخَائِفَ. وَالْعَدُوُّ إِذَا صَدَرَتْ مِنْهُ الْمُنْفَعَةُ وَلَوْ كَانَ غَيْرَ مُتَعَمِّدٍ لَهَا، أَهْلٌ لِأَنْ يُضَفَّحَ عَنْهُ بِسَبِّهَا؛ كَالتَّاجِرِ الَّذِي عَطَفَ عَلَى سَارِقٍ لِعَطْفِ امْرَأَتِهِ عَلَيْهِ بِسَبِّهِ. قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ^(٣)؟

مثل التاجر والسارق

قَالَ الْوَزِيرُ: زِعْمُوا أَنَّهُ كَانَ تَاجِرٌ كَثِيرُ الْمَالِ وَالْمَتَاعِ، وَكَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ جَمَالٍ لَمْ تَكُنْ تَمِيلُ إِلَيْهِ. وَأَنَّ سَارِقًا تَسَوَّرَ بَيْتَ التَّاجِرِ، فَدَخَلَ فَوَجَدَهُ نَائِمًا، وَوَجَدَ امْرَأَتَهُ مُسْتَقِظَةً، فَذَعِرَتْ

(١) نلتبس: نطلب. نبذل. نعطي. العاتي: المرتفع القاسي. مالت اليوم: ساعدتهم وعاونتهم ووقفت معهم.

(٢) عُدَد: ما يعدونه ويعتمدون عليه. ثُل: هُدم. وتقوض: انهدم ونقض. فتحا: نصراً.

(٣) فأغفله: تركه إهمالاً. يُنْجِز: يُعْجِل. عوارتهم: نقط الضعف فيهم ومواضع الخلل منهم. يُؤْمَن: يُعطى الأمان على نفسه وماله. المستجير: من يطلب المعونة. مُتَعَمِّد: قاصد. أهل: مُسْتَجِر.

مِنَ السَّارِقِ، وَوُثِّبَتْ إِلَى التَّاجِرِ، فَالْتَزَمَتْهُ وَاعْتَنَقَتْهُ، وَقَدْ كَانَ يُوَدُّهُ لَوْ دَنَتْ مِنْهُ يَوْمًا مَا، فَاسْتَيْقَظَ التَّاجِرُ بِالْتِزَامِهَا إِلَيْهَا، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ لِي هَذِهِ النِّعْمَةُ؟ ثُمَّ بَصُرَ بِالسَّارِقِ، فَقَالَ: أَيُّهَا السَّارِقُ، أَنْتَ فِي حِلٍّ مِمَّا أَخَذْتَ مِنْ مَالِي وَمَتَاعِي، وَلَكَ الْفَضْلُ بِمَا عَطَفْتُ قَلْبَ زَوْجَتِي عَلَى مُعَانَفَتِي^(١)! قَالَ مَلِكُ الْيَوْمِ: لِيُوزَرَ آخَرُ مِنْ وَزَرَاتِهِ: مَا تَقُولُ فِي أَمْرِ الْغُرَابِ؟ قَالَ: أَرَى أَنْ تَسْتَبْقِيَهُ، وَتُحْسِنَ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ خَلِيقٌ أَنْ يَنْصَحَكَ. وَالْعَاقِلُ يَرَى مُعَادَاةَ بَعْضِ أَعْدَائِهِ بَعْضًا ظَفَرًا حَسَنًا، وَيَرَى اسْتِغَالَ بَعْضِ أَعْدَائِهِ بِبَعْضِ خَلَاصًا لِنَفْسِهِ مِنْهُمْ، وَنَجَاةَ كَنَجَاةِ النَّاسِكِ مِنَ اللَّصِّ وَالشَّيْطَانِ حِينَ اخْتَلَفَا عَلَيْهِ. قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ^(٢)؟

مثل الناسك واللص والشيطان

قَالَ الْوَزِيرُ زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكًا أَصَابَ مِنْ رَجُلٍ بَقَرَةً حَلُوبَةً، فَأَنْطَلَقَ بِهَا يَقُودُهَا إِلَى مَنْزِلِهِ، فَعَرَضَ لَهُ لَيْسَ أَرَادَ سَرِقَتَهَا، وَتَبِعَهُ شَيْطَانٌ يُرِيدُ اخْتِطَافَهُ، وَقَدْ نَزَّيَا لَهُ بِرِيٍّ إِنْسَانٍ، فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلَّصِّ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا اللَّصُّ؛ أُرِيدُ أَنْ أَسْرِقَ هَذِهِ الْبَقَرَةَ مِنَ النَّاسِكِ إِذَا نَامَ. فَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا الشَّيْطَانُ أُرِيدُ اخْتِطَافَهُ إِذَا نَامَ، وَأَذْهَبَ بِهِ. فَأَنْتَهَيَا عَلَى هَذَا إِلَى الْمَنْزِلِ، فَدَخَلَ النَّاسِكُ مَنْزِلَهُ، وَدَخَلَ خَلْفَهُ، وَأَدْخَلَ الْبَقَرَةَ فَرَبَطَهَا فِي زَاوِيَةِ الْمَنْزِلِ، وَتَعَشَّى وَنَامَ. فَأَقْبَلَ اللَّصُّ وَالشَّيْطَانُ يَأْتِمِرَانِ فِيهِ، وَاخْتَلَفَا عَلَى مَنْ يَبْدَأُ بِشُغْلِهِ أَوَّلًا^(٣)؟ فَقَالَ الشَّيْطَانُ: إِنْ أَنْتَ بَدَأْتَ بِأَخْذِ الْبَقَرَةِ، رُبَّمَا اسْتَيْقَظَ، وَصَاحَ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ؛ فَلَا أَقْدِرُ عَلَى أَخْذِهِ، فَانْتَظِرْنِي رَيْثَمَا أَخْذُهُ وَشَأْنُكَ وَمَا تُرِيدُ. فَاسْتَفَقَ اللَّصُّ إِنْ بَدَأَ الشَّيْطَانُ بِاخْتِطَافِهِ، أَنْ يَسْتَيْقِظَ فَلَا يَقْدِرُ عَلَى أَخْذِ الْبَقَرَةِ. فَقَالَ: لَا بَلْ أَنْظِرْنِي أَنْتَ حَتَّى أَخْذَ الْبَقَرَةَ، وَشَأْنُكَ وَمَا تُرِيدُ. قَالَ الشَّيْطَانُ: رُوَيْدَا حَتَّى يَسْتَعْرِقَ النَّاسُ فِي النَّوْمِ، فَتُظْفَرَ بِهِمَا جَمِيعًا. فَلَمْ يَزَالَا فِي الْمُجَادَلَةِ هَكَذَا حَتَّى نَادَى اللَّصُّ: أَيُّهَا النَّاسِكُ، انْتَبِهْ؛ فَهَذَا الشَّيْطَانُ يُرِيدُ اخْتِطَافَكَ^(٤).

وَنَادَى الشَّيْطَانُ: أَيُّهَا النَّاسِكُ، انْتَبِهْ؛ فَهَذَا اللَّصُّ يُرِيدُ أَنْ يَسْرِقَ بَقَرَتَكَ! فَانْتَبَهَ النَّاسِكُ، وَجِيرَانُهُ بِأَصْوَاتِهِمَا، وَهَرَبَ الْحَبِيشَانِ. فَقَالَ الْوَزِيرُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَشَارَ بِقَتْلِ الْغُرَابِ: أَظُنُّ أَنَّ

(١) تَسَوَّرَ بَيْتَهُ: صَعَدَ عَلَى حَائِطِهِ. فَذَعَرَتْ: خَافَتْ. فَالْتَزَمَتْهُ: اعْتَنَقَتْهُ وَاحْتَضَنَتْهُ. أَنْتَ فِي حِلٍّ مِمَّا أَخَذْتَ: أَيُّ مَا أَخَذْتَ حَلَالًا لَكَ.

(٢) تَسْتَبْقِيَهُ: تَعْفُو عَنْهُ وَلَا تَقْتُلْهُ. (٣) نَزَّيَا: ظَهَرَ بَهِيئَةً. بِأَتِمْرَانٍ: بِتَشَاوَرَانٍ.

(٤) رَيْثَمَا: أَيُّ مَقْدَارٍ مَدَّةَ أَخْذِهِ. فَاسْتَفَقَ: خَافَ. أَنْظِرْنِي: أَمْهَلْنِي. رُوَيْدَا: مَهَلًا. يَسْتَعْرِقُ: يَسْتَقِلُّ.

الْغُرَابَ قَدْ خَدَعَكُنَّ، وَوَقَعَ كَلَامُهُ فِي نَفْسِ الْغَبِيِّ مِنْكُنَّ مَوْقَعَهُ، فَتَرَدَّنَ أَنْ تَضَعْنَ الرَّأْيَ غَيْرَ مَوْضِعِهِ. فَمَهْلًا مَهْلًا أَتَيْهَا الْمَلِكُ، عَنْ هَذَا الرَّأْيِ، وَلَا تَكُونَنَّ لِمَا تَسْمَعُ أَشَدَّ تَصَدِيقًا مِنْكَ لِمَا تَرَى، كَالرَّجُلِ الَّذِي كَذَبَ بِمَا رَأَى، وَصَدَّقَ بِمَا سَمِعَ، وَانْخَدَعَ بِالْمُحَالِ! قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ^(١).

مثل الرجل واللصوص

قَالَ الْوَزِيرُ: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ رَجُلٌ نَائِمًا وَحَدَهُ إِحْدَى اللَّيَالِي فِي بَيْتِهِ، وَإِذَا لُصُوصٌ قَدْ دَخَلُوا عَلَيْهِ الْبَيْتَ، وَأَخَذُوا فِي جَمْعِ مَا فِيهِ مِنَ الْمَتَاعِ، حَتَّى أَفْضُوا إِلَى حَيْثُ هُوَ نَائِمٌ؛ فَانْتَبَهَ عَلَيْهِمْ، وَخَافَ أَنْ يَقُومَ إِلَيْهِمْ جِدَارٌ أَنْ يَبْطِشُوا بِهِ. وَكَانَ لِلْحُجْرَةِ الَّتِي هُوَ فِيهَا بَابٌ آخَرٌ إِلَى الطَّرِيقِ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: الرَّأْيُ أَنْ لَا أُشْعِرَهُمْ بِانْتِبَاهِي، وَلَا أَدْعُرَهُمْ حَتَّى يَفْرَعُوا مِنِّي يُرِيدُونَ أَخْذَهُ وَيُخْرِجُوهُ إِلَى حَيْثُ يُرِيدُونَ احْتِمَالَهُ، فَأَخْرُجُ مِنَ الْبَابِ الْآخَرِ، وَأَدْعُو الْجِيرَانَ فَتَفْجَأَهُمْ، وَنُوقِعَ بِهِمْ^(٢).

فَلَبَّثَ عَلَى فِرَاشِهِ مُتَنَاقِماً حَتَّى فَرَعَ اللَّصُوصُ مِمَّا أَرَادُوا جَمْعَهُ، وَخَرَجُوا يُرِيدُونَ حَمْلَهُ، فَهَمَّ الرَّجُلُ بِالْقِيَامِ، فَشَعَرُوا بِحَرَكَةٍ مِنْهُ، فَهَمَسَ إِلَيْهِمْ رَأْسُهُمْ، أَنْ يَقُوا وَلَا تَرْتَاغُوا، وَتَعَالَوْا نَحْتَلْ لَهُ بِحِيلَةٍ نَحْدَعُهُ بِهَا، وَلَا يَذْهَبَ تَعَبُنَا ضَيَاعًا! وَأَنَا الْآنَ رَافِعٌ صَوْتِي، وَمُخَاطِبُكُمْ بِشَيْءٍ، فَصَوُّوْا فِيهِ رَأْيِي، وَأَجِيبُونِي إِلَيْهِ. قَالُوا: نَعَمْ. فَرَفَعَ اللَّصُّ صَوْتَهُ، بِحَيْثُ يَسْمَعُ الرَّجُلُ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِنِّي أَرَى هَذِهِ الْأَحْمَالَ ثَقِيلَةً شَاقَّةً، وَمَا أَرَى قِيَمَتَهَا تَفِي بِحَمْلِهَا، وَالْمُخَاطَرَةُ فِيهَا! وَقَدْ ظَهَرَ لِي أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ سَيُؤْخِرُ الْحَالَ، وَقَدْ أَخَذْتَنِي عَلَيْهِ الشَّفَقَةُ وَالرَّأْفَةُ، وَرَاجَعْتُ رَأْيِي فِيهِ، فَرَأَيْتُ أَنْ نَدْعَ لَهُ مَتَاعَهُ، فَإِنَّهُ يُخَسِّبُ عَلَيْنَا سِرْقَةً، وَمَا هُوَ بِشَيْءٍ يَسْتَحِقُّ الْعَنَاءَ، وَلَا لَنَا فِيهِ كَبِيرُ فَائِدَةٍ^(٣).

وَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ مِنْ بَعْضِ مَشَاهِيرِ اللَّصُوصِ يَقُولُ: مَنْ عَفَّ عَنْ مَتَاعٍ فَقِيرٍ فَلَمْ يَسْرِقْهُ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ غَفَرَ لَهُ ذَلِكَ سِرْقَةً مِئَةَ غَنِيٍّ. وَإِنَّ أَوَّلَى السَّرِقَةِ، وَأَحْلَاهَا سِرْقَةُ الْأَغْنِيَاءِ وَلَا سِوَمَا ذَوِي الْبُحْلِ وَالْحِرْصِ مِنْهُمْ الَّذِينَ مَا يُثْبِتُهُمْ وَخَرَائِثُهُمْ إِلَّا مَدَافِنُ لِأَمْوَالٍ حَبَسُوهَا، فَلَا انْتَفَعُوا بِهَا، وَلَا

(١) ووقع كلامه في نفس الغبي: أثر.

(٢) أفضوا إليه: وصلوا. يبطشوا به: يفتكوا به يأخذوه بالعنف والسطوة. فنفجهم: فنهجم عليهم بغتة. ونوقع بهم: نبالغ في قتلهم.

(٣) متناوماً: متظاهراً بالنوم. فهمس إليهم: أي كلمهم بصوت خفي. لا ترتاعوا: "لا تخافوا، شاقة: صعبة.

تَرْكُوهَا لِلنَّاسِ! فَهَلُمَّ بِنَا إِلَى أَحَدِ هَؤُلَاءِ، وَدَعُوا هَذَا الْخَطَامَ الَّذِي لَا خَيْرَ فِيهِ، وَاعْتَنِمُوا أَجْرَ هَذَا الرَّجُلِ الْمُسْكِينِ! فَقَالُوا كُلُّهُمْ: صَدَقْتَ وَأَحْسَنْتَ، وَتَطَاهَرُوا أَنَّهُمْ يَفْكُونَ الْأَحْمَالَ، وَخَرَجُوا وَكَمَنُوا يَنْتَظِرُونَ نَوْمَ الرَّجُلِ^(١). وَإِنَّ الرَّجُلَ لَمَّا سَمِعَ كَلَامَهُمْ وَثِقَ بِهِ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ، وَاعْتَقَدَ أَنَّهُمْ خَرَجُوا، فَسَكَنَ وَنَامَ! وَلَبِثَ اللَّصُوصُ، حَتَّى أَيقَنُوا أَنَّهُ قَدْ نَامَ! فَسَارُوا إِلَى الْأَحْمَالِ، فَاحْتَمَلُوهَا وَفَارَوا بِهَا! وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ إِرَادَةً أَنْ لَا تَكُونَ كَذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي كَذَبَ بِمَا رَأَى، وَصَدَّقَ بِمَا سَمِعَ. فَلَمَّ يَلْتَفِتِ الْمَلِكُ إِلَى قَوْلِهِ، وَأَمَرَ بِالْغُرَابِ أَنْ يُحْمَلَ إِلَى مَنَازِلِ الْبُومِ، وَيُكْرَمَ وَيُسْتَوْصَى بِهِ خَيْرًا^(٢)! ثُمَّ إِنَّ الْغُرَابَ قَالَ لِلْمَلِكِ يَوْمًا، وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْبُومِ، وَفِيهِنَّ الْوَزِيرُ الَّذِي أَسَارَ يَقْتُلُهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَدْ عَلِمْتُ مَا جَرَى عَلَيَّ مِنَ الْغُرَابِ، وَإِنَّهُ لَا يَشْتَرِيخَ قَلْبِي دُونَ الْأَخِيذِ بِثَأْرِي مِنْهُمْ، وَإِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي ذَلِكَ، فَإِذَا بِي لَا أَقْدِرُ عَلَى مَا رُمْتُ؛ لِأَنِّي غُرَابٌ! وَقَدْ رَوَى عَنِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُمْ قَالُوا: مَنْ طَابَتْ نَفْسُهُ بِأَنْ يُحْرِقَهَا، فَقَدْ قَرَّبَ إِلَهُ أَعْظَمَ الْقُرْبَانِ، لَا يَدْعُو عِنْدَ ذَلِكَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا اسْتَجِيبَ لَهُ. فَإِنَّ رَأَى الْمَلِكُ أَنْ يَأْمُرَنِي، فَأُحْرِقَ نَفْسِي، وَأَدْعُو رَبِّي أَنْ يُحَوِّلَنِي بَوْمًا؛ فَأَكُونَ أَشَدَّ عَدَاوَةً لِلْغُرَابِ، وَأَقْوَى بَأْسًا عَلَيْهِنَّ، لَعَلِّي أَنْتَقِمَ مِنْهُنَّ^(٣). فَقَالَ الْوَزِيرُ الَّذِي أَسَارَ يَقْتُلُهُ: مَا أَشْبَهَكَ فِي خَيْرٍ مَا تُظْهِرُ، وَشَرٍّ مَا تُضْمِرُ، بِالْخَمْرَةِ الطَّيِّبَةِ الطَّعْمِ، وَالرَّيْحِ الْمُتَنَفِّعِ فِيهَا الشَّمُّ. أَرَأَيْتَ لَوْ أَحْرَقْنَا جِسْمَكَ بِالنَّارِ أَنْ جَوْهَرَكَ وَطَبْعَكَ مُتَغَيَّرٌ؟ أَوْ لَيْسَتْ أَخْلَاقُكَ تَدُورُ مَعَكَ حَيْثُ دُرْتَ، وَتَصِيرُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَصْلِكَ، وَطِينَتِكَ؟ كَالْفَارَةِ الَّتِي خُيِّرَتْ فِي الْأَزْوَاجِ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالرَّيْحِ، وَالسَّحَابِ وَالْجَبَلِ، فَلَمَّ تَزَلَّ تَخَيَّرَهُمْ حَتَّى رَجَعَتْ إِلَى أَصْلِهَا، وَتَزَوَّجَتْ الْجُرَذَ. قِيلَ لَهُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ^(٤)؟

مثل الناسك والفارة

قَالَ: رَعِمُوا أَنَّهُ كَانَ نَاسِكٌ مُسْتَجَابُ الدَّعْوَةِ، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسٌ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، إِذْ مَرَّتْ بِهِ جِدَاةٌ فِي رِجْلَيْهَا دِرْصُ فَارَةٍ، فَوَقَعَتْ مِنْهَا عِنْدَ النَّاسِكِ، وَأَذَرَ كَتَّهُ لَهَا رَحْمَةً فَأَخَذَهَا

(١) غَفَّ عنه: لم يطمع فيه وكف عنه وتركه له. حبسوها: كنزوها ولم يستمروها فيما يعود بالنفع على المجتمع. الخطام: الشيء الخسيس الذي لا خير فيه. واعتنموا: اكسبوا.

(٢) ولَبِثَ اللصوص: أقاموا وانتظروا. فثاروا: نهضوا ووثبوا.

(٣) ما رمت: ما قصدت.

(٤) تضمر: تخفي. المتنفع: المخبوء والموجود. وطينتك: خلقتك وجبلتك. خيَّرت: فوّض إليها وأخذ رأيها. تخييرهم: تختار منهم وتنتقي.

وَلَهَا فِي وَرْقَةٍ، وَذَهَبَ بِهَا إِلَى مَنْزِلِهِ. ثُمَّ خَافَ أَنْ تَشُقَّ عَلَى أَهْلِهَا تَرْبِيتُهَا، فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يُحَوِّلَهَا جَارِيَةً، فَتَحَوَّلَتْ جَارِيَةً حَسَنَاءً، فَأَنْطَلَقَ بِهَا إِلَى امْرَأَتِهِ فَقَالَ لَهَا: هَذِهِ ابْنَتِي، فَاصْنَعِي مَعَهَا صَنِيعَكَ بَوْلَدِي، فَلَمَّا كَبُرَتْ قَالَ لَهَا النَّاسِكُ: يَا بَنِيَّةُ، اخْتَارِي مَنْ أَحْبَبْتَ حَتَّى أَرْوِّجَكَ إِثَاءً^(١). فَقَالَتْ: أَمَّا إِذَا خَيَّرْتَنِي فَإِنِّي اخْتَارُ زَوْجًا يَكُونُ أَقْوَى الْأَشْيَاءِ، فَقَالَ النَّاسِكُ: لَعَلَّكَ تُرِيدِينَ الشَّمْسَ! ثُمَّ أَنْطَلَقَ إِلَى الشَّمْسِ فَقَالَ: أَيُّهَا الْخَلْقُ الْعَظِيمُ، لِي جَارِيَةٌ وَقَدْ طَلَبْتُ زَوْجًا يَكُونُ أَقْوَى الْأَشْيَاءِ؛ فَهَلْ أَنْتَ مُتَرَوِّحُهَا؟ فَقَالَتِ الشَّمْسُ: أَنَا أَذْلكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي؛ السَّحَابُ الَّذِي يُعْطِينِي، وَيَرُدُّ جِزْمَ شُعَاعِي، وَيَكْسِفُ أَشِعَّةَ أَنْوَارِي! فَذَهَبَ النَّاسِكُ إِلَى السَّحَابِ، فَقَالَ لَهُ مَا قَالَ لِلشَّمْسِ. فَقَالَ السَّحَابُ: وَأَنَا أَذْلكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي، فَاذْهَبْ إِلَى الرِّيحِ الَّتِي تُقِيلُ بِي وَتَذِيرُ، وَتَذْهَبُ بِي شَرْقًا وَغَرْبًا؛ فَجَاءَ النَّاسِكُ إِلَى الرِّيحِ، فَقَالَ لَهَا كَقَوْلِهِ لِلْسَّحَابِ^(٢). فَقَالَتْ: وَأَنَا أَذْلكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي، وَهُوَ الْجَبَلُ الَّذِي لَا أَقْدِرُ عَلَى تَخْرِيكِهِ. فَمَضَى إِلَى الْجَبَلِ فَقَالَ لَهُ الْقَوْلُ؛ فَأَجَابَهُ الْجَبَلُ، وَقَالَ لَهُ: أَنَا أَذْلكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي: الْجُرْدُ لَا أَسْتَطِيعُ الْإِمْتِنَاعَ مِنْهُ إِذَا خَرَقَنِي، وَاتَّخَذَنِي مَسْكَنًا. فَأَنْطَلَقَ النَّاسِكُ إِلَى الْجُرْدِ فَقَالَ لَهُ: هَلْ أَنْتَ مُتَرَوِّحُ هَذِهِ الْجَارِيَةِ؟ فَقَالَ: وَكَيْفَ أَنْزَوِّجُهَا وَمَسْكَنِي ضَيِّقٌ؟! وَإِنَّمَا يَتَزَوَّجُ الْجُرْدُ الْفَارَةَ. فَدَعَا النَّاسِكُ رَبَّهُ أَنْ يُحَوِّلَهَا فَارَةً كَمَا كَانَتْ، وَذَلِكَ بِرَضَى الْجَارِيَةِ! فَأَعَادَهَا اللَّهُ إِلَى عُنْصَرِهَا الْأَوَّلِ^(٣) فَانْطَلَقَتْ مَعَ الْجُرْدِ. فَهَذَا مَثَلُكَ أَيُّهَا الْمُخَادِعُ. فَلَمَّا يَلْتَفِتْ مَلِكُ الْبُومِ إِلَى ذَلِكَ الْقَوْلِ، وَرَفَقَ بِالْغُرَابِ وَلَمْ يَزِدْ لَهُ إِلَّا إِكْرَامًا. حَتَّى إِذَا طَابَ عَيْشُهُ، وَنَبَتْ رِيشُهُ، وَأَطْلَعَ عَلَى مَا أَرَادَ أَنْ يَطْلُعَ عَلَيْهِ رَاغٍ رَوْعَةً؛ فَاتَى أَصْحَابَهُ بِمَا رَأَى وَسَمِعَ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ فَرَعْتُ مِمَّا كُنْتُ أُرِيدُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَسْمَعَ وَتُطِيعَ. قَالَ لَهُ: أَنَا وَالْجُنْدُ تَحْتَ أَمْرِكَ، فَاحْتَكِمْ كَيْفَ شِئْتَ. قَالَ الْغُرَابُ: إِنَّ الْبُومَ يَمَكَّانِ كَذَا فِي جَبَلٍ كَثِيرِ الْحَطَبِ، وَفِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ قَطِيعٌ مِنَ الْعَنَمِ مَعَ رَجُلٍ رَاغٍ، وَنَحْنُ مُصِيبُونَ هُنَاكَ نَارًا وَتُلْقِيهَا فِي أَثْقَابِ الْبُومِ، وَنَقْذِفُ عَلَيْهَا مِنْ يَابِسِ الْحَطَبِ، وَنَتَزَوَّجُ عَلَيْهَا ضَرْبًا بِأَجْنِحَتِنَا، حَتَّى تَضْطَرَّ النَّارُ فِي الْحَطَبِ، فَمَنْ خَرَجَ مِنْهُنَّ اخْتَرَقَ، وَمَنْ لَمْ يَخْرُجْ مَاتَ بِالْدُخَانِ مَوْضِعُهُ^(٤). فَفَعَلَ الْغُرَابَانُ ذَلِكَ، فَأَهْلَكَنِ الْبُومَ قَاطِبَةً وَرَجَعْنَ إِلَى مَنَازِلِهِنَّ سَالِمَاتٍ آمِنَاتٍ.

(١) حداة: طائر يصطاد الجردان والكتاكيت. يشبه الصقر. الذرؤ: ولد الفارة. تشق: تصعب.

(٢) جرم: جسد. ثقيل وتدبر بي: تأني وتولى.

(٣) عنصرها الأول: أصلها.

(٤) راغ روعة: مال بحيلة مكرًا وخديعة. فاحتكم: اطلب منا ما تريد. في أثقاب: جمع ثقب وهو الخرق النافذ.

ثُمَّ إِنَّ مَلِكَ الْغُرَبَانِ، قَالَ لِذَلِكَ الْغُرَابِ: كَيْفَ صَبَرْتَ عَلَى صُحْبَةِ الْبُومِ، وَلَا صَبْرَ لِلْأَخْيَارِ عَلَى صُحْبَةِ الْأَشْرَارِ؟ قَالَ الْغُرَابُ: إِنَّ مَا قُلْتَهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ لَكَذَلِكَ، فَإِنَّهُ يُقَالُ لَذُعُ النَّارِ أَيْسَرُ عَلَى الْمَرْءِ مِنْ صُحْبَةِ الْأَشْرَارِ وَالْإِقَامَةِ مَعَهُمْ^(١).

وَلَكِنَّ الْعَاقِلَ إِذَا أَتَاهُ الْأَمْرُ الْقَاطِعُ الْعَظِيمُ، الَّذِي يَخَافُ مِنْ عَدَمِ تَحْمِلِهِ الْجَائِحَةُ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ، لَمْ يَجْزَعْ مِنْ شِدَّةِ الصَّبْرِ عَلَيْهِ لِمَا يَرْجُو مِنْ أَنْ يُعْقِبَهُ صَبْرُهُ حُسْنَ الْعَاقِبَةِ، وَكَثِيرَ الْخَيْرِ، فَلَمْ يَجِدْ لِذَلِكَ أَلَمًا، وَلَمْ تَكْرَهُ نَفْسُهُ الْخُضُوعَ لِمَنْ هُوَ دُونَهُ حَتَّى يَتَلَعَّ حَاجَتَهُ فَيُعْتَبِطَ بِخَاتِمَةِ أَمْرِهِ، وَعَاقِبَةِ صَبْرِهِ. فَقَالَ الْمَلِكُ: أَخْبِرْنِي عَنْ عُقُولِ الْبُومِ^(٢).

قَالَ الْغُرَابُ: لَمْ أَجِدْ عَاقِلًا إِلَّا الَّذِي كَانَ يَحْتَنُّهُ عَلَى قَتْلِي، وَكَانَ حَرَضَهُنَّ عَلَى ذَلِكَ مِرَازًا، فَكُنَّ أَضْعَفَ شَيْءٍ رَأْيًا، فَلَمْ يَنْظُرْنَ فِي أَمْرِي، وَيَذْكُرْنَ أَنِّي قَدْ كُنْتُ ذَا مَنْزِلَةٍ فِي الْغُرَبَانِ، وَأَنِّي أَعَدُّ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ، وَلَمْ يَتَخَوَّفَنَّ مَكْرِي وَحِيلَتِي وَلَا قِبَلَنَ مِنَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ، وَلَا أَخْفَيْنَ دُونِي أَسْرَارَهُنَّ. وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يُحَصِّنَ أُمُورَهُ مِنْ أَهْلِ النَّمِيمَةِ، وَلَا يُطْلِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ عَلَى مَوَاضِعِ سِرِّهِ. وَقَدْ قِيلَ: يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَتَحَفَّظَ مِنْ عَدُوِّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي الْمَاءِ الَّذِي يَشْرَبُهُ، وَيَتَسَلَّلَ بِهِ، وَالْفِرَاشَ الَّذِي يَنَامُ عَلَيْهِ، وَالْحُلَّةَ الَّتِي يَلْبَسُهَا، وَالذَّائِبَةَ الَّتِي يَرْكَبُهَا، وَلَا يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا الثَّقَّةَ الْأَمِينَ السَّالِمَ الْبَاطِنَ وَالظَّاهِرَ، وَيَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى حَذَرٍ مِنْهُ؛ لِأَنَّ عَدُوَّهُ لَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ إِلَّا مِنْ جِهَةٍ ثِقَاتِهِ، فَرُبَّمَا كَانَ أَحَدُهُمْ لِعَدُوِّهِ صَدِيقًا؛ فَيَصِلُ الْعَدُوُّ إِلَى مُرَادِهِ مِنْهُ^(٣).

فَقَالَ الْمَلِكُ: مَا أَهْلَكَ الْبُومَ فِي نَفْسِي إِلَّا الْبَغْيُ، وَضَعَفَ رَأْيِي الْمَلِكِ، وَمُوَافَقَتُهُ وُزَرَاءِ الشُّوءِ. فَقَالَ الْغُرَابُ: صَدَقْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ: إِنَّهُ فَلَمَّا ظَفِرَ أَحَدٌ بِغْيِي وَلَمْ يَطْعَ، وَقَلَّمَا حَرَصَ الرَّجُلُ عَلَى النِّسَاءِ وَلَمْ يَفْتَضِخْ، وَقَلَّ مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الطَّعَامِ وَلَمْ يَمْرُضْ، وَقَلَّ مَنْ وَثِقَ بِوُزَرَائِهِ الشُّوءِ، وَسَلِمَ مِنْ أَنْ يَقَعَ فِي الْمَهَالِكِ، وَكَانَ يُقَالُ: لَا يَطْمَعَنَّ ذُو الْكِبَرِ فِي حُسْنِ الشَّاءِ، وَلَا الْخَبْثُ فِي حُسْنِ الصَّدِيقِ، وَلَا السَّيِّئُ الْأَدَابِ فِي الشَّرَفِ، وَلَا الشَّجِيحُ فِي الْبِرِّ، وَلَا الْخَرِيصُ فِي قِلَّةِ الذُّنُوبِ، وَلَا الْمَلِكُ الْمُخْتَالُ الْمُتَهَاوِنُ بِالْأُمُورِ، الضَّعِيفُ الْوُزَرَاءِ فِي ثَبَاتِ مُلْكِهِ، وَصَلَحَ رَعِيَّتِهِ^(٤)، قَالَ

(١) قاطبة: جميعا. للأخيار: جمع خير وهو الصالح غير الشرير.

(٢) الجائحة: الشدة العظيمة، والآفة الخطيرة التي تجتاح الناس وتهلكهم وتستأصلهم.

(٣) تتحفظ: تتحرس. ثقاته: جمع ثقة. من يثق بهم ويطمئن إليهم. (٤) في نفسي: في رأيي. المختال: المتكبر. رعيته: شعبه.

الْمَلِكُ : لَقَدْ احْتَمَلْتُ مَشَقَّةً شَدِيدَةً فِي تَصْنُوعِكَ لِلْيَوْمِ، وَتَضَرُّعِكَ إِلَيْهِمْ. قَالَ الْغُرَابُ : إِنَّهُ مِنْ احْتِمَالِ مَشَقَّةٍ يَوْجُو نَفْعَهَا، وَنَحَى عَنْ نَفْسِهِ الْأَنْفَةَ وَالْحَمِيَّةَ، وَوَطَّنَهَا عَلَى الصَّبْرِ، حِمْدَ غَبِّ رَأْيِهِ. كَمَا صَبَرَ الْأَسْوَدُ عَلَى حَمْلِ مَلِكِ الضَّفَادِعِ عَلَى ظَهْرِهِ، وَشَبَعَ بِذَلِكَ وَعَاشَ. قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟^(١)

مَثَلُ الْأَسْوَدِ وَمَلِكِ الضَّفَادِعِ

قَالَ الْغُرَابُ : زَعَمُوا أَنَّ أَسْوَدَ مِنَ الْحَيَّاتِ كَبِيرَ، وَضَعْفَ بَصَرُهُ، وَذَهَبَتْ قُوَّتُهُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ صَيْدًا، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى طَعَامٍ. وَأَنَّهُ انْسَابَ يَلْتَمِسُ شَيْئًا يَعْيشُ بِهِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى عَيْنِ كَثِيرَةِ الضَّفَادِعِ قَدْ كَانَ يَأْتِيهَا قَبْلَ ذَلِكَ، فَيَصِيبُ مِنْ ضَفَادِعِهَا رِزْقَهُ، فَرَمَى نَفْسَهُ قَرِيبًا مِنْهُمْ مُظْهِرًا لِلْكَأَبِ وَالْحُزَنِ. فَقَالَ لَهُ أَحَدُهَا : مَالِي أَرَاكَ أَيُّهَا الْأَسْوَدُ كَهَيْئَتَا حَزِينًا؟ قَالَ : وَمَنْ أُخْرَى يَطُولُ الْحُزْنَ مِنِّي؟! وَإِنَّمَا كَانَ أَكْثَرُ مَعِيشَتِي مِمَّا كُنْتُ أُصِيبُ مِنَ الضَّفَادِعِ، فَابْتُلِيتُ بِبَلَاءٍ حُرِّمَتْ عَلَيَّ الضَّفَادِعُ مِنْ أَجْلِهِ حَتَّى إِنِّي إِذَا التَّقَيْتُ بِبَعْضِهَا لَا أَقْدِرُ عَلَى إِمْسَاكِهِ^(٢). فَأَنْطَلَقَ الضَّفَادِعُ إِلَى مَلِكِ الضَّفَادِعِ، فَبَشَّرَهُ بِمَا سَمِعَ مِنَ الْأَسْوَدِ. فَأَتَى مَلِكُ الضَّفَادِعِ إِلَى الْأَسْوَدِ فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ كَانَ أَمْرُكَ؟ قَالَ : سَعَيْتُ مُنْذُ أَيَّامٍ فِي طَلَبِ ضَفْدِعٍ، وَذَلِكَ عِنْدَ الْمَسَاءِ، فَاضْطَرَرْتُ إِلَى بَيْتِ نَاسِكٍ، وَدَخَلْتُ فِي أَثَرِهِ فِي الظُّلْمَةِ، وَفِي الْبَيْتِ ابْنٌ لِلنَّاسِكِ، فَأَصَبْتُ إِصْبَعَهُ، فَظَنَنْتُ أَنَّهَا الضَّفْدِعُ، فَلَدَعْتُهُ فَمَاتَ^(٣)! فَخَرَجْتُ هَارِبًا، فَتَبِعَنِي النَّاسِكُ فِي أَثَرِي، وَدَعَا عَلَيَّ وَلَعَنَنِي وَقَالَ : كَمَا قَتَلْتَ ابْنِي الْبَرِيءَ ظُلْمًا وَتَعَدِّيًّا، أَذْغُو عَلَيْكَ أَنْ تَذِلَّ وَتَصِيرَ مَرْكَبًا لِمَلِكِ الضَّفَادِعِ، فَلَا تَسْتَطِيعُ أَخْذَهَا، وَلَا أَكُلُ شَيْءٍ مِنْهَا إِلَّا مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَيْكَ مَلِكُهَا! فَأَتَيْتُ إِلَيْكَ لِتَرْكَبَنِي مُقِرًّا بِذَلِكَ رَاضِيًا بِهِ؛ فَرَغِبَ مَلِكُ الضَّفَادِعِ فِي رُكُوبِ الْأَسْوَدِ، وَظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ فَخْرٌ لَهُ، وَشَرَفٌ وَرِفْعَةٌ، فَزَكَّيَهُ وَاسْتَطَابَ ذَلِكَ؛ فَقَالَ لَهُ الْأَسْوَدُ : قَدْ عَلِمْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنِّي مَحْرُومٌ، فَاجْعَلْ لِي رِزْقًا أَعِيشُ بِهِ. قَالَ مَلِكُ الضَّفَادِعِ : لَعَمْرِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْ رِزْقٍ يَقُومُ بِكَ إِذَا كُنْتَ مَرْكَبِي، فَأَمَرَ لَهُ بِضَفْدِعَيْنِ يُؤْخَذَانِ فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَيُدْفَعَانِ إِلَيْهِ، فَعَاشَ بِذَلِكَ وَلَمْ يَضُرَّهُ خُضُوعُهُ لِلْعَدُوِّ الذَّلِيلِ،

(١) في تصنعك : إظهارك عن نفسك ما ليس فيك. ونحى : أبعد. الأنفة : عزة النفس. ووطنها على الصبر : مهدها لتقبله وأقرها عليه. غب : عاقبة. الأسود : الحية العظيمة وفيها سواد.

(٢) انساب : تحرك وسعى. أخرى : أولى. (٣) طلب ضفدع : اصطاده. فاضطرته : فالتجته.

بَلِ انْتَفَعْ بِذَلِكَ وَصَارَ لَهُ رِزْقًا وَمَعِيشَةً^(١).

وَكَذَلِكَ كَانَ صَبِيرِي عَلَى مَا صَبَرْتُ عَلَيْهِ التَّمَسُّا لِهَذَا التَّفْعِ الْعَظِيمِ، الَّذِي اجْتَمَعَ لَنَا فِيهِ الْأَمْنُ وَالظَّفَرُ، وَهَلَاكُ الْعَدُوِّ وَالرَّاحَةُ مِنْهُ. وَوَجَدْتُ صَرْعَةَ اللَّيْنِ وَالرَّفْقِ أَسْرَعَ وَأَشَدَّ اسْتِصْصَالًا لِلْعَدُوِّ مِنْ صَرْعَةِ الْمُكَابَرَةِ وَالْعِنَادِ؛ فَإِنَّ النَّارَ لَا تَزِيدُ بِحَدِّتِهَا وَحَرَّهَا إِذَا أَصَابَتْ الشَّجَرَةَ، عَلَى أَنْ تُحْرِقَ مَا فَوْقَ الْأَرْضِ مِنْهَا! وَالْمَاءُ يَلِينُهُ وَيَزِيدُهُ يَسْتَأْصِلُ مَا تَحْتَ الْأَرْضِ مِنْهَا^(٢).

وَيُقَالُ: أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ لَا يُسْتَقَلُّ قَلِيلُهَا: النَّارُ، وَالْمَرَضُ وَالْعَدُوُّ، وَالذَّيْنُ. قَالَ الْغُرَابُ: وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ رَأْيِ الْمَلِكِ وَأَذْيِهِ وَسَعَادَةِ جَدِّهِ. وَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: إِذَا طَلَبَ اثْنَانِ أَمْرًا ظَفَرِيَهُ مِنْهُمَا أَفْضَلُهُمَا مُرُوءَةً. فَإِنْ اعْتَدَلَا فِي الْمُرُوءَةِ، فَاسْتَدُّهُمَا عَزْمًا. فَإِنْ اسْتَوَيَا فِي الْعَزْمِ، فَاسْتَدُّهُمَا جَدًّا. وَكَانَ يُقَالُ: مَنْ حَارَبَ الْمَلِكَ الْحَازِمَ الْأَرِيبَ الْمُتَضَرِّعَ الَّذِي لَا تُبْطِرُهُ السَّرَّاءُ وَلَا تُدْهِشُهُ الصَّرَّاءُ، كَانَ هُوَ دَاعِي الْحَتْفِ إِلَى نَفْسِهِ، وَلَا سِيَّمًا إِذَا كَانَ مِثْلَكَ أَتَيْهَا الْمَلِكُ الْعَالِمُ بِفُرُوضِ الْأَعْمَالِ وَمَوَاضِعِ الشَّدَّةِ وَاللَّيْنِ، وَالْعُظْبِ وَالرَّضْيِ، وَالْمُعَاجَلَةِ وَالْأَنَاءِ، النَّاطِرُ فِي أَمْرِ يَوْمِهِ وَعَدِيهِ وَعَوَاقِبِ أَعْمَالِهِ^(٣). قَالَ الْمَلِكُ لِلْغُرَابِ: بَلِ بَرَأَيْكَ وَعَقْلِكَ وَنَصِيحَتِكَ وَيُمْنِ طَالِعِكَ كَانَ ذَلِكَ. فَإِنَّ رَأْيَ الرَّجُلِ الْعَاقِلِ الْوَاحِدِ الْحَازِمِ أُبْلَغَ فِي هَلَاكِ الْعَدُوِّ مِنَ الْجُنُودِ الْكَثِيرَةِ، مِنْ ذَوِي النَّأْسِ وَالتَّجْدَةِ وَالْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ. وَإِنَّ مِنْ عَجِيبِ أَمْرِكَ عِنْدِي طُولَ لُبَّتِكَ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْيَوْمِ، تَسْمَعُ الْكَلَامَ الْغَلِيظَ، ثُمَّ لَمْ تَسْقُطْ بَيْنَهُنَّ بِكَلِمَةٍ^(٤). قَالَ الْغُرَابُ: لَمْ أَزَلْ مَتَمَسِّكًا بِأَذْيِكَ أَتَيْهَا الْمَلِكُ: أَصْحَبُ الْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ بِالرَّفْقِ وَاللَّيْنِ وَالْمُبَالَغَةِ وَالْمُؤَانَاةِ. قَالَ الْمَلِكُ: أَصْبَحْتُ وَقَدْ وَجَدْتُكَ صَاحِبَ الْعَمَلِ، وَوَجَدْتُ عَفْرَكَ مِنَ الْوُزَرَاءِ أَصْحَابِ أَقَاوِيلَ لَيْسَ لَهَا عَاقِبَةٌ حَمِيدَةٌ. فَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِكَ مِنْهُ عَظِيمَةً، لَمْ نَكُنْ قَبْلَهَا نَجِدُ لَذَّةَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَلَا النَّوْمِ وَلَا الْقَرَارِ. وَكَانَ يُقَالُ: لَا يَجِدُ الْمَرِيضُ لَذَّةَ الطَّعَامِ وَالنَّوْمِ حَتَّى يَبْرَأَ، وَلَا الرَّجُلُ الشَّرَّ الَّذِي قَدْ أَلَحَّ عَلَيْهِ عَدُوُّهُ وَهُوَ يَخَافُهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً حَتَّى يَسْتَرِيحَ مِنْهُ قَلْبُهُ، وَمَنْ وَضَعَ الْحِمْلَ الثَّقِيلَ عَنْ يَدَيْهِ أَرَّاحَ نَفْسَهُ، وَمَنْ أَمِنَ عَدُوَّهُ تَلَجَّ صَدْرُهُ^(٥). قَالَ الْغُرَابُ: أَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي أَهْلَكَ عَدُوَّكَ، أَنْ يُمَتِّعَكَ بِسُلْطَانِكَ، وَأَنْ يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ صَلَاحَ رَعِيَّتِكَ، وَيُشْرِكَهُمْ فِي قُرَّةِ الْعَيْنِ بِمُلْكِكَ، فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي

(١) لعمري: وحياني. (٢) التماساً: طلباً. صرعة اللين: إهلاكه وتأثيره. استصصالاً: قطعاً كاملاً من أصله وجذره.

(٣) من رأي الملك: أي من رأيك أنت. جد: خطه. اعتدلا: تناسبا وتساويا. الأريب: الحاذق بكل عمل. الحنف: الهلاك. والأناة: التأني والتحمل.

(٤) ويمن طالعك: بركة وسعادة أيامك. بين ظهراني اليوم: في وسطه. (٥) والمؤاناة: الملاينة والموافقة. تلج صدره: اطمأن.

مَلِكِهِ قُرَّةُ عُيُونٍ رَعِيَّتِهِ، فَمَثَلُهُ مَثَلُ زَنْمَةِ الْعَنْزِ الَّتِي يَمُصُّهَا الْجَدْيُ، وَهُوَ يَحْسِبُهَا حَلْمَةً الضَّرْعِ؛ فَلَا يُصَادِفُ فِيهَا خَيْرًا^(١). قَالَ الْمَلِكُ: أَيُّهَا الْوَزِيرُ الصَّالِحُ، كَيْفَ كَانَتْ سِيرَةُ الْيَوْمِ وَمَلِكُهَا فِي حُرُوبِهَا، وَفِيمَا كَانَتْ فِيهِ مِنْ أُمُورِهَا؟ قَالَ الْغُرَابُ: كَانَتْ سِيرَتُهُ سِيرَةً بَطَرٍ وَأَشْرٍ وَخَيْلَاءٍ وَعَجْزٍ وَفَقْرٍ مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الصُّفَاتِ الذَّمِيمَةِ! وَكُلُّ أَصْحَابِهِ وَوُزَرَائِهِ شَبِيهٌ بِهِ إِلَّا الْوَزِيرَ الَّذِي كَانَ يُشِيرُ عَلَيْهِ بِقَتْلِي؛ فَإِنَّهُ كَانَ حَكِيمًا أَرِينَا فَيَلْسُو فَا حَازِمًا، فَلَمَّا يُرَى مِثْلُهُ فِي غُلُوِّ الْهَيْمَةِ، وَكَمَالِ الْعَقْلِ، وَجُودَةِ الرَّأْيِ. قَالَ الْمَلِكُ: وَأَيُّ خَصْلَةٍ كَانَتْ أَدَلَّ عَلَى عَقْلِهِ؟ قَالَ: خِلَتَانِ: إِحْدَاهُمَا رَأْيُهُ فِي قَتْلِي، وَالْأُخْرَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَكْتُمُ صَاحِبَتَهُ نَصِيحَتَهُ وَإِنْ اسْتَقَلَّهَا. وَلَمْ يَكُنْ كَلَامُهُ كَلَامَ غُنْفٍ وَقَسْوَةٍ، وَلَكِنَّهُ كَلَامَ رَفِيقٍ وَلِينٍ؛ حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا أَخْبَرَهُ بِبَعْضِ عُيُوبِهِ، وَلَا يُصَرِّحُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ بَلْ يَضْرِبُ لَهُ الْأَمْثَالَ، وَيُحَدِّثُهُ بِعَيْبِ غَيْرِهِ، فَيَعْرِفُ عَيْبَهُ، فَلَا يَجِدُ مَلِكُهُ إِلَى الْغَضَبِ عَلَيْهِ سَبِيلًا^(٢). وَكَانَ مِمَّا سَمِعْتُهُ يَقُولُ لِمَلِكِهِ أَنَّهُ قَالَ: لَا يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَغْفُلَ عَنْ أَمْرِهِ؛ فَإِنَّهُ أَمْرٌ جَسِيمٌ لَا يَظْفَرُ بِهِ مِنَ النَّاسِ إِلَّا قَلِيلٌ، وَلَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْحَزْمِ. فَإِنَّ الْمُلْكَ عَزِيزٌ فَمَنْ ظَفَرَ بِهِ فَلْيُحْسِنِ حِفْظَهُ وَتَحْصِيئَهُ. فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ: إِنَّهُ فِي قَلَّةِ بَقَائِهِ بِمَنْزِلَةِ قَلَّةِ بَقَاءِ الظِّلِّ عَنْ وَرَقِ النَّبْلُوفِ وَهُوَ فِي خِفَّةِ زَوَالِهِ وَسُرْعَةِ إِقْبَالِهِ وَإِذْبَارِهِ كَالرَّيْحِ، وَفِي قَلَّةِ ثَبَاتِهِ كَاللَّيْسِبِ مَعَ اللَّثَامِ وَفِي سُرْعَةِ اضْمِحْلَالِهِ كَحَبَابِ الْمَاءِ مِنْ وَقَعِ الْمَطَرِ^(٣).

فَهَذَا مَثَلُ أَهْلِ الْعَدَاوَةِ الَّذِينَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُغْتَرَّ بِهِمْ وَإِنْ هُمْ أَظْهَرُوا تَوَدُّدًا وَتَضَرُّعًا.

بَابُ

الْقِرْدِ وَالْغَيْلَمِ

قَالَ دِبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفِيلَسُوفِ: قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ، فَأَضْرِبْ لِي مَثَلَ الرَّجُلِ الَّذِي يَطْلُبُ الْحَاجَةَ؛ فَإِذَا ظَفَرَ بِهَا أَضَاعَهَا^(٤)!

قَالَ الْفِيلَسُوفُ: إِنَّ طَلَبَ الْحَاجَةِ أَهْوَنُ مِنَ الْإِحْتِفَازِ بِهَا، وَمَنْ ظَفَرَ بِالْحَاجَةِ ثُمَّ لَمْ يُحْسِنِ الْقِيَامَ بِهَا أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْغَيْلَمَ. قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

(١) أَنْ يَمْتَعِكُ بِسُلْطَانِكَ: دَعَاءُ بِطُولِ الْبَقَاءِ. فِي قُرَّةِ الْعَيْنِ: السُّرُورُ. زَنْمَةٌ: قِطْعَةٌ لَحْمٍ تَتَدَلَّى مِنْ عُنُقِ الْعَنْزِ. حَلْمَةُ الضَّرْعِ: لَذَاتُ الظَّلْفِ كَالثَدِيِّ لِلْمَرْأَةِ وَالْجُلْفُ لِلنَّاقَةِ.

(٢) أَشْرٌ: بِمَعْنَى بَطَرٍ. خَيْلَاءٌ: تَكْبَرٌ وَعُجْبٌ.

(٣) حَبَابِ الْمَاءِ: «فَقَاقِيعُ» تَظْهَرُ عَلَى شَكْلِ كُرَاتٍ تَعْلُوهُ مَمْتَلَنَةٌ هَوَاءً.

(٤) الْغَيْلَمُ: ذَكَرُ السَّلْحَفَةِ.

قال يبدا : زَعَمُوا أَنَّ قِرْدًا كَانَ مَلِكَ الْقِرْدَةِ ، يُقَالُ لَهُ : مَاهِرٌ وَكَانَ قَدْ كَبِرَ وَهَرِمَ ، فَوَثَبَ عَلَيْهِ قِرْدٌ شَابٌّ مِنْ بَيْتِ الْمَمْلَكَةِ ، فَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ وَأَخَذَ مَكَانَهُ ، فَخَرَجَ هَارِبًا عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى السَّاحِلِ ، فَوَجَدَ شَجَرَةً مِنْ شَجَرِ التَّيْنِ ؛ فَارْتَقَى إِلَيْهَا وَجَعَلَهَا مُقَامَهُ^(١) . فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ يَأْكُلُ مِنْ ذَلِكَ التَّيْنِ ؛ إِذْ سَقَطَتْ مِنْ يَدِهِ تَيْنَةٌ فِي الْمَاءِ ، فَسَمِعَ لَهَا صَوْتًا وَإِنْقَاعًا ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ وَيَزِيْمِي فِي الْمَاءِ ، فَأَطْرَبَهُ ذَلِكَ ، فَأَكْثَرَ مِنْ تَطْرِيحِ التَّيْنِ فِي الْمَاءِ . وَثُمَّ غِيلِمٌ كُلَّمَا وَقَعَتْ تَيْنَةٌ أَكَلَهَا ، فَلَمَّا كَثُرَ ذَلِكَ ظَنَّ أَنَّ الْقِرْدَ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَجْلِهِ ، فَرَغِبَ فِي مُصَادَقَتِهِ وَأَنَسَ إِلَيْهِ ، وَكَلَّمَهُ ، وَأَلْفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ . وَطَالَتْ غَيْبَةُ الْغِيلِمِ عَنْ زَوْجَتِهِ ؛ فَجَزِعَتْ عَلَيْهِ ، وَشَكَّتْ ذَلِكَ إِلَى جَارِيَةٍ لَهَا ، وَقَالَتْ : قَدْ خِفْتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ سُوءٌ فَأَغْتَالَهُ^(٢) ! فَقَالَتْ لَهَا : إِنَّ زَوْجَكَ فِي السَّاحِلِ ، قَدْ أَلْفَ قِرْدًا ، وَالْفُهُ الْقِرْدُ ، فَهُوَ مُؤَاكِلُهُ وَمُشَارِبُهُ ، وَهُوَ الَّذِي قَطَعَهُ عَنْكَ ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَكَ حَتَّى تَحْتَالِيَ لِهَلَاكِ الْقِرْدِ ، قَالَتْ : وَكَيْفَ أَصْنَعُ ؟ قَالَتْ جَارَتُهَا : إِذَا وَصَلَ إِلَيْكَ ، فَمَتَارِضِي ، فَإِذَا سَأَلَكَ عَنْ حَالِكَ ، فَقُولِي : إِنَّ الْأَطِبَّاءَ وَصَفُوا لِي قَلْبَ قِرْدٍ ، ثُمَّ إِنَّ الْغِيلِمَ انْطَلَقَ بَعْدَ مُدَّةٍ إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَوَجَدَ زَوْجَتَهُ سَيِّئَةَ الْحَالِ مَهْمُومَةً ، فَقَالَ لَهَا : مَا لِي أَرَاكِ هَكَذَا ؟ فَأَجَابَتْهُ جَارَتُهَا ، وَقَالَتْ : إِنَّ زَوْجَتَكَ مَرِيضَةٌ مَشْكِينَةٌ ؛ وَقَدْ وَصَفَ لَهَا الْأَطِبَّاءُ قَلْبَ قِرْدٍ ، وَلَيْسَ لَهَا دَوَاءٌ سِوَاهُ^(٣) . قَالَ الْغِيلِمُ : هَذَا أَمْرٌ عَسِيرٌ ؛ مِنْ أَيْنَ لَنَا قَلْبَ قِرْدٍ ؟ وَنَحْنُ فِي الْمَاءِ ، وَبَقِيَ مُتَحَيِّرًا ؛ ثُمَّ قَالَ فِي نَفْسِهِ : مَا لِي قُدْرَةٌ عَلَى ذَلِكَ ، إِلَّا أَنْ أَغْدِرَ بِخَلِيلِي وَصَاحِبِي ، وَإِثْمُهُ عِنْدِي شَدِيدٌ ، وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ هَلَاكُ زَوْجَتِي ؛ لِأَنَّ الزَّوْجَةَ الصَّالِحَةَ لَا يَغْدِلُهَا شَيْءٌ ؛ لِأَنَّهَا عَوْنٌ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ! . ثُمَّ عَادَ إِلَى السَّاحِلِ حَزِينًا كَثِيرًا مُفَكِّرًا فِي نَفْسِهِ ، كَيْفَ يَصْنَعُ^(٤) ؟ فَقَالَ لَهُ الْقِرْدُ : يَا أَخِي ، مَا حَبَسَكَ عَنِّي ؟ قَالَ لَهُ الْغِيلِمُ : مَا حَبَسَنِي عَنْكَ إِلَّا خِبَائِي ، فَلَمْ أَعْرِفْ كَيْفَ أَكْأِفُكَ عَلَى إِحْسَانِكَ إِلَيَّ ؟ ! وَأُرِيدُ أَنْ تُتِمَّ إِحْسَانَكَ إِلَيَّ بِزِيَارَتِكَ لِي فِي مَنْزِلِي ، فَإِنِّي سَاكِنٌ فِي جَزِيرَةٍ طَيِّبَةِ الْفَاكِهَةِ ؛ فَارْكَبْ ظَهْرِي ، لَأُسَبِّحَ بِكَ ؛ فَإِنْ أَفْضَلَ مَا يَلْتَمِسُهُ الْمَرْءُ مِنْ أَجْلَائِهِ أَنْ يَغْسُوا مَنْزِلَهُ ، وَيَنَالُوا مِنْ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ ، وَيَعْرِفَهُمْ أَهْلُهُ وَلَوْلَدُهُ وَجِيرَانُهُ . وَأَنْتَ لَمْ تَطَأْ مَنْزِلِي ، وَلَمْ تَذُقْ لِي طَعَامًا وَلَا شَرَابًا ، وَذَلِكَ مَنَقَصَةٌ وَعَارٌ عَلَيَّ ! قَالَ لَهُ الْقِرْدُ : وَمَا يُرِيدُ الْمَرْءُ مِنْ خَلِيلِهِ إِلَّا أَنْ يَبْذُلَ لَهُ وُدَّهُ ، وَيُضْفِي لَهُ قَلْبَهُ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَفُضُولٌ^(٥) . قَالَ الْغِيلِمُ : نَعَمْ . غَيْرَ أَنَّ الْاجْتِمَاعَ عَلَى

(١) وأخذ مكانه : استولى على مملكته وتولى بدلا منه . ارتقى إليها : صعد . مُقَامُهُ : محل إقامته .

(٢) وإيقاعاً : نعمة جميلة . وثم غيلم : وهناك . ألف : صادق واطمان إليه . فجزعت : خافت .

(٣) مؤاكله ومشابهه : أكل وشارب معه . (٤) وإثمه : ذنبه . أي ذنب هذا الغدر وجزاؤه . لا يغدله : لا يساويه .

(٥) ما حبسك ؟ : ما منعك ؟ . يغسوا منزله : يزوروه ويحلوا ضيوفا عليه وينزلوا به . منقصة : أمر ينقص من قدره . فضول : زيادة بلا

فائدة .

الطعام والشراب آكد للمودة والأنس؛ لأننا نرى الدواب إذا اغتلفت معا ألف بعضها بعضا. وكان يقال: لا ينبغي للعاقل أن يلج على إخوانه في المسألة فإن العجل إذا أكثر مص صرع أمه نطحته؛ فرغب القرد في الذهاب معه فقال: حبا وكرامة، ونزل فركب ظهر الغيلم، فسبح به حتى تجاوز قليلا عرض له فبيع ما أضمر في نفسه من الغدر، فنكس رأسه ووقف، وقال في نفسه: كيف أعذر بحليلي لكلمة قالتها امرأة من الجاهلات؟! وما أذري لعل جارتني قد خدعتني وكذبت بما روت^(١) عن الأطباء! فإن الذهب يجرب بالنار، والرجال بالأخذ والعطاء، والدواب بالحمل والجري، ولا يقدر أحد أن يجرب مكر النساء الشريرات، ولا يقدر على كيدهن وكثرة حيلهن!! فقال له القرد: ما لي أراك مهتما؟! قال الغيلم: إنما همي لأنني ذكرت أن زوجتي شديدة المرض؛ وذلك يمنعني من كثير مما أريد أن أبلغه من كرامتك وملاطفتك. قال القرد: إن الذي أعرف من حرصك على كرامتي يكفيك مئونة التكلف. قال الغيلم: أجل. ومضى بالقرد ساعة، ثم توقف به ثانية^(٢) فسأه ظن القرد، وقال في نفسه ما احتباس الغيلم وإبطاؤه إلا لأمر، ولست أمانة أن يكون قلبه قد تغير لي، وحال عن مودتي، فأراد يبي سوءا؛ فإنه لا شيء أخف وأسرع تقلبا من القلب! وقد يقال: ينبغي للعاقل أن لا يغفل عن التماس ما في نفس أهله وولديه وإخوانه وصديقه عند كل أمر، وفي كل لحظة وكلمة، وعند القيام والقعود، وعلى كل حال. فإن ذلك كله يشهد على ما في القلوب^(٣). وقد قالت العلماء: إذا دخل قلب الصديق من صديقه رية؛ فليأخذ بالحزم في التحفظ منه، وليتفقد ذلك في لخطاياه وحالاته؛ فإن كان ما يظن حقا ظفيرا بالسلامة، وإن كان باطلا ظفيرا بالحزم، ولم يضره ذلك. ثم قال للغيلم: ما يحسبك؟ ومالي أراك مهتما كأنك تحدث نفسك مرة أخرى؟! قال: يهمني أنك تأتي منزلي، فلا تجد أمري، كما أحب، لأن زوجتي مريضة. قال القرد: لا تغتم؛ فإن الغم لا يغني عنك شيئا. ولكن التمس ما يصلح زوجتك من الأدوية والأغذية؛ فإنه يقال: ليندل ذوو المال ما لهم في أربعة مواضع: في الصدقة، وفي وقت الحاجة، وعلى البين، وعلى الأزواج، ولا سيما إذا كن صالحات^(٤). قال الغيلم: صدقت! وقد قالت الأطباء: إنه لا دواء لها إلا قلب قرد؛ فقال القرد في نفسه: وأسوء تاء! لقد أدركني الحرص والشره على كبر سني؛

(١) أكد للمودة: يعمل على تأكيدها وتقويتها وتوثيقها. اغتلفت: طعمت الملعف هو أكل الدواب. الضرع: للبقر كالثدي للمرأة. روت: نقلت.

(٢) أبلغه: أي أصل إليه. مئونة التكلف: ثقل وشدة. أجل: نعم.

(٣) وحال عن مودتي: تحول وانقلب.

(٤) رية: شك. الحزم: ضبط الأمر والأخذ فيه بالثقة. لا تغتم: لا تحزن. لا يغني عنك: لا ينفك.

حَتَّى وَقَعْتُ فِي شَرِّ وَرْطَةٍ! وَلَقَدْ صَدَقَ الَّذِي قَالَ : يَعْيشُ الْقَانِعُ الرَّاضِي مُسْتَرِيحًا مُطْمَئِنًّا، وَدُو
الْحِرْصِ وَالشَّرِّهَ يَعْيشُ مَا عَاشَ فِي تَعَبٍ وَنَصَبٍ. وَإِنِّي قَدْ اخْتَجْتُ الْآنَ إِلَى عَقْلِي فِي التَّمَاسِ
الْمُخْرَجِ مِمَّا وَقَعْتُ فِيهِ^(١). ثُمَّ قَالَ لِلْغَيْلِمِ : وَمَا مَنَعَكَ - أَصْلَحَكَ اللَّهُ - أَنْ تُغْلِمَنِي عِنْدَ مَنْزِلِي
حَتَّى كُنْتُ أَحْمِلُ قَلْبِي مَعِي؛ فَإِنَّ هَذِهِ سَنَةٌ فِينَا مَعَاشِرَ الْقِرْدَةِ إِذَا خَرَجَ أَحَدُنَا لِرِيَاةِ صَدِيقٍ لَهُ
خَلَفَ قَلْبُهُ عِنْدَ أَهْلِهِ، أَوْ فِي مَوْضِعِهِ، لِيَنْتَظِرَ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى حُرْمِ الْمَزُورِ، وَلَيْسَ قُلُوبُنَا مَعَنَا. قَالَ
الْغَيْلِمُ : وَأَيْنَ قَلْبُكَ الْآنَ؟ قَالَ : خَلَفْتُهُ فِي الشَّجَرَةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَارْجِعْ بِي إِلَى الشَّجَرَةِ حَتَّى آتِيكَ
بِهِ. فَفَرِحَ الْغَيْلِمُ بِذَلِكَ، وَقَالَ : لَقَدْ وَافَقْتَنِي صَاحِبِي بِدُونِ أَنْ أُغْدِرَ بِهِ. ثُمَّ رَجَعَ بِالْقِرْدِ إِلَى مَكَانِهِ،
فَلَمَّا قَارَبَ السَّاحِلَ، وَتَبَّ عَنْ ظَهْرِهِ، فَارْتَقَى الشَّجَرَةَ. فَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَى الْغَيْلِمِ نَادَاهُ : يَا خَلِيلِي،
أَحْمِلْ قَلْبَكَ وَانْزِلْ فَقَدْ حَبَسْتَنِي. فَقَالَ الْقِرْدُ : هَيْهَاتَ^(٢)! أَتَنْظُرُنِي أَنِّي كَالْحِمَارِ الَّذِي زَعَمَ ابْنُ
أَوْى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ وَلَا أُذُنَانِ؟ قَالَ الْغَيْلِمُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

مثل ابن آوى والأسد والحمار

قال القرد : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ أَسَدٌ فِي أَجْمَةٍ، وَكَانَ مَعَهُ ابْنُ أَوْى يَأْكُلُ مِنْ فَضْلَاتِ طَعَامِهِ،
فَأَصَابَ الْأَسَدَ جَرَبٌ، وَضَعُفٌ شَدِيدٌ وَجْهَهُ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعِ الصَّيْدَ! فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَوْى : مَا بَالُكَ يَا
سَيِّدَ السَّبَاعِ، قَدْ تَغَيَّرَتْ أَحْوَالُكَ؟ قَالَ : هَذَا الْجَرَبُ الَّذِي قَدْ أَجْهَدَنِي، وَلَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ إِلَّا قَلْبُ
حِمَارٍ وَأُذُنَاهُ. قَالَ ابْنُ أَوْى : مَا أَيْسَرَ هَذَا! وَقَدْ عَرَفْتُ بِمَكَانٍ كَذَا حِمَارًا مَعَ قَصَارٍ، يَحْمِلُ عَلَيْهِ
ثِيَابَهُ، وَأَنَا آتِيكَ بِهِ، ثُمَّ دَلَفَ إِلَى الْحِمَارِ، فَأَتَاهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَقَالَ لَهُ : مَالِي أَرَاكَ مَهْزُولًا؟ قَالَ :
لِسُوءِ تَدْبِيرِ صَاحِبِي فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يُجِيعُ بَطْنِي، وَيُثْقِلُ ظَهْرِي^(٣). وَمَا تَجْتَمِعُ هَاتَانِ الْحَالَتَانِ عَلَى
جِسْمٍ إِلَّا أَنْحَلَتَاهُ وَأَسَقَمَتَاهُ! فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ تَرْضَى الْمُقَامَ مَعَهُ عَلَى هَذَا؟ قَالَ : مَالِي حِيلَةٌ
لِلْمُهْرَبِ مِنْهُ؛ فَلَسْتُ أَتَوَجَّهُ إِلَى جِهَةٍ إِلَّا أَضَرَّ بِي إِنْسَانٌ، فَكَذَّنِي وَأَجَاعَنِي! قَالَ ابْنُ أَوْى : فَأَنَا
أَذْلُكَ عَلَى مَكَانٍ مَعْرُوفٍ عَنِ النَّاسِ، لَا يَمُرُّ بِهِ إِنْسَانٌ، خَصِيبُ الْمَرْعَى، فِيهِ عَانَةٌ مِنَ الْخُمْرِ،
تَرْضَى أَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً^(٤). قَالَ الْحِمَارُ : وَمَا يَحْبِسُنَا عَنْهَا؛ فَاَنْطَلِقْ بِنَا إِلَيْهَا، فَاَنْطَلِقْ بِهِ نَحْوَ الْأَسَدِ،
وَتَقَدِّمُ ابْنُ أَوْى، وَدَخَلَ الْغَابَةَ عَلَى الْأَسَدِ، فَأَخْبَرَهُ بِمَكَانِ الْحِمَارِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ، وَأَرَادَ أَنْ يَتَبَّ

(٢) سَنَةٌ : عادة وطريقة. هَيْهَاتَ : بَعْدَ نَزْوِي إِلَيْكَ.

(١) وَأَسْوَءُهُ : وَاحْزَنِي. وَنَصَبٌ : إِعْيَاءٌ.

(٣) أَجْمَةٌ : شَجَرٌ كَثِيرٌ مَلْتَفٍ وَالْجَمْعُ أَجْمٌ. وَجْهَهُ : أَيْتَبَ. قَصَارٌ : مَبِضُّ الْيَابِ وَمَحْوَرُهَا. دَلَفَ : أَسْرَعَ. وَيُثْقِلُ ظَهْرِي : يَحْمِلُنِي فَوْقَ

طَائِفِي.

(٤) أَنْحَلَتَاهُ : جَعَلَتَاهُ نَحِيلًا هَزِيلًا سَقِيمًا. فَكَذَّنِي : أَتَعَبَنِي. عَانَةٌ : قَطِيعٌ مِنَ الْخُمْرِ. وَالْخُمْرُ جَمْعُ حِمَارٍ.

عَلَيْهِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِضَعْفِهِ، وَتَخَلَّصَ الْجِمَارُ مِنْهُ، فَأَفَلَّتْ هَلِيعًا عَلَى وَجْهِهِ . فَلَمَّا رَأَى ابْنُ آوَى أَنَّ
الْأَسَدَ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْجِمَارِ، قَالَ لَهُ : يَا سَيِّدَ السَّبَاعِ أَعَجَزْتَ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ؟! فَقَالَ لَهُ : إِنْ
جِئْتَنِي بِهِ مَرَّةً أُخْرَى فَلَنْ يَنْجُو مِنِّي أَبَدًا؛ فَمَضَى ابْنُ آوَى إِلَى الْجِمَارِ، فَقَالَ لَهُ : مَا الَّذِي جَرَى
عَلَيْكَ؟ إِنْ أَحَدَ الْحُمُرِ رَاكَ غَرِيبًا، فَخَرَجَ يَتَلَقَّاكَ مُرَحِّبًا بِكَ، وَلَوْ ثَبِتَ لَأَنْسَكَ، وَمَضَى بِكَ إِلَى
أَصْحَابِهِ^(١). فَلَمَّا سَمِعَ الْجِمَارُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ رَأَى أَسَدًا قَطُّ، صَدَّقَ مَا قَالَهُ ابْنُ آوَى، وَأَخَذَ
طَرِيقَهُ إِلَى الْأَسَدِ. فَسَبَقَهُ ابْنُ آوَى إِلَى الْأَسَدِ وَأَعْلَمَهُ بِمَكَانِهِ، وَقَالَ لَهُ : اسْتَعِدَّ لَهُ ، فَقَدْ خَدَعْتُهُ
لَكَ، فَلَا يُذِرُكَ الْضَعْفُ فِي هَذِهِ النَّوْبَةِ، فَإِنَّهُ إِنْ أَفَلْتَ لَنْ يَعُودَ مَعِيَ أَبَدًا، وَالْفُرْصُ لَا تُصَابُ
فِي كُلِّ وَقْتٍ؛ فَجَاشَ جَاشُ الْأَسَدِ لِتَحْرِيطِ ابْنِ آوَى لَهُ، وَخَرَجَ إِلَى مَوْضِعِ الْجِمَارِ، فَلَمَّا بَصُرَ
بِهِ عَاجَلَهُ يَوْثِيَةٌ افْتَرَسَتْهُ بِهَا. ثُمَّ قَالَ : قَدْ ذَكَرْتُ الْأَطْبَاءَ : أَنَّهُ لَا يُؤْكَلُ إِلَّا بَعْدَ الْإِغْتِسَالِ
وَالطُّهُورِ^(٢). فَاحْتَفِظْ بِهِ، حَتَّى أَتُودَ فَأَكُلَ قَلْبَهُ وَأُذُنَيْهِ، وَأَتْرِكَ مَا سِوَى ذَلِكَ قُبُورًا لَكَ. فَلَمَّا ذَهَبَ
الْأَسَدُ لِيُغْتَسِلَ عَمَدَ ابْنُ آوَى إِلَى الْجِمَارِ، فَأَكَلَ قَلْبَهُ وَأُذُنَيْهِ رَجَاءً أَنْ يَنْطَلِقَ الْأَسَدُ مِنْهُ، فَلَا يَأْكُلُ
مِنْهُ شَيْئًا! ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ رَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ، فَقَالَ لِابْنِ آوَى : أَيْنَ قَلْبُ الْجِمَارِ وَأُذُنَاهُ؟ قَالَ ابْنُ آوَى :
أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ يَعْقِلُ بِهِ، وَأُذُنَانِ يَسْمَعُ بِهِمَا، لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْكَ بَعْدَمَا أَفَلْتَ وَنَجَا مِنْ
الْهَلَكَةِ^(٣)!.

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لَتَعْلَمَ أَنِّي لَسْتُ كَذَلِكَ الْجِمَارِ الَّذِي زَعَمَ ابْنُ آوَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ
لَهُ قَلْبٌ وَلَا أُذُنَانِ. وَلَكِنَّكَ اخْتَلَتَ عَلَيَّ، وَخَدَعْتَنِي فَخَدَعْتُكَ بِمِثْلِ خَدِيعَتِكَ وَاسْتَدْرَكْتُ فَارِطَ
أَمْرِي. وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الَّذِي يُفْسِدُهُ الْجُلْمُ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْعِلْمُ. قَالَ الْعِلْمُ: صَدَقْتَ إِلَّا أَنَّ الرَّجُلَ
الصَّالِحَ يَعْتَرِفُ بِزَلَّتِيهِ، وَإِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا لَمْ يَسْتَحْيَ أَنْ يُؤَدِّبَ لِيَصْدِّقَهُ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ. وَإِنْ وَقَعَ فِي
وَرُطَةٍ أَمَكَّنَهُ التَّخَلُّصُ مِنْهَا بِحِيلَتِهِ وَعَقْلِهِ، كَالرَّجُلِ الَّذِي يَغْتَرُّ عَلَى الْأَرْضِ، وَعَلَيْهَا يَعْتَمِدُ فِي
نُھُوضِهِ^(٤).

فَهَذَا مَثَلُ الرَّجُلِ الَّذِي يَطْلُبُ الْحَاجَةَ فَإِذَا ظَفِرَ بِهَا أَضَاعَهَا!

(١) وما يحبسنها عنها؟ وما يمتعنا. هلعًا: مسرعًا مضطربًا. إلى هذه الغاية: أي إلى هذا الحد.

(٢) النوبة: الفرصة. لا تصاب: لا توجد. فجاش جاش الأسد: هاج وحميت نفسه.

(٣) ينطير: يشام. أي يعتقد الشؤم وهو ضد البركة.

(٤) واستدركت فارط أمري: طلبت ما فاتني وعملت على تداركه. ورطة: شدة. يعثر: يسقط.

بَابُ النَّاسِكِ وَابْنِ عِرْسٍ

(وهو مثل من يهجم على الأمور ، ويعجل في القضاء قبل التَّثَبُّتِ ؛
فتصير عاقبة أمره إلى الندامة والخسارة!)

قَالَ دَهْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ ، فَاصْرِبْ لِي : مَثَلُ الرَّجُلِ الْعَجَلَانِ فِي أَمْرِهِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَلَا نَظَرٍ فِي الْعَوَاقِبِ^(١).

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي أَمْرِهِ مُتَنَبِّهًا لَمْ يَزَلْ نَادِمًا ، وَيَصِيرُ أَمْرُهُ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ النَّاسِكُ مِنْ قَتْلِ ابْنِ عِرْسٍ ، وَقَدْ كَانَ لَهُ وَدُودًا. قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكًا مِنَ النَّسَاكِ كَانَ بِأَرْضِ جُوجَانَ وَكَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ لَهَا مَعَهُ صُحْبَةٌ ، فَمَكَثَا زَمَانًا لَمْ يُوزَقَا وَلَدًا. ثُمَّ حَمَلَتْ بَعْدَ الْإِبَاسِ ، فَسَرَبَتِ الْمَرْأَةُ وَسَرَّ النَّاسِكُ بِذَلِكَ وَحَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى وَسَلَّاهُ: أَنْ يَكُونَ الْحَمْلُ ذَكَرًا ، وَقَالَ لِزَوْجَتِهِ: أَبْشِرِي ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ غُلَامًا ، فِيهِ لَنَا مَنَافِعُ ، وَقُرَّةُ عَيْنٍ ، اخْتَارَ لَهُ أَحْسَنَ الْأَسْمَاءِ ، وَأَخْضَرَ لَهُ جَمِيعَ الْمُؤَدِّينَ^(٢). فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: مَا يَحْمِلُكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ عَلَى أَنْ تَتَكَلَّمَ بِمَا لَا تَدْرِي ، أَيْكُونُ أُمًّا لَا؟ وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ النَّاسِكُ الَّذِي أَهْرَقَ عَلَى رَأْسِهِ السَّمْنَ وَالْعَسَلَ! قَالَ لَهَا: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قَالَتْ : زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكًا كَانَ يَجْرِي عَلَيْهِ مِنْ يَمِينِ رَجُلٍ تَاجِرٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ رِزْقٌ مِنَ السَّمَنِ وَالْعَسَلِ ، وَكَانَ يَأْكُلُ مِنْهُ قُوَّتَهُ وَحَاجَتَهُ ، وَيَرْفَعُ الْبَاقِي وَيَجْعَلُهُ فِي جَرَّةٍ فَيُعَلِّقُهَا فِي وَتِدٍ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ ، حَتَّى امْتَلَأَتْ^(٣). فَبَيْنَمَا النَّاسِكُ ذَاتَ يَوْمٍ مُسْتَلْقٍ عَلَى ظَهْرِهِ ، وَالْعُكَّازَةُ فِي يَدِهِ ، وَالْجَرَّةُ مُعَلَّقَةٌ فَوْقَ رَأْسِهِ ، تَفَكَّرَ فِي غَلَاءِ السَّمَنِ وَالْعَسَلِ ، فَقَالَ : سَأَبِيعُ مَا فِي هَذِهِ الْجَرَّةِ بِدِينَارٍ ، وَأَشْتَرِي بِهِ عَشْرَةَ أَغْنَرٍ^(٤)؛ فَيَحْبِلُنَ ، وَيَلْدَنَ فِي كُلِّ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ مَرَّةً ، وَلَا تَلْبَثُ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى تَصِيرَ مَغْرًا كَثِيرًا إِذَا وَلَدَتْ أَوْلَادَهَا. ثُمَّ خَرَّرَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ بَيْسَنِينَ ، فَوَجَدَ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ عَنَرٍ. فَقَالَ : أَنَا أَشْتَرِي بِهَا مِئَةً مِنَ الْبَقَرِ؛ بِكُلِّ أَرْبَعَةِ أَغْنَرٍ ثُورًا أَوْ بَقْرَةً ، وَأَشْتَرِي أَرْضًا

(١) العجلان: المتسرع. روية: تفكر وتأمل.

(٢) الإِبَاس: قطع الأمل والرجاء. أبشري: أفرحي. قرة عين: أي سرور.

(٣) أهرق: أراق وصب.

(٤) أغنر: جمع عنز.

وَبَذَرَا، وَأَسْتَأْجِرُوا أَكْرَةً، وَأَزْرَعُوا عَلَى الثَّيْرَانِ، وَأَنْتَفِعَ بِالْبَابِ الْإِنَاثِ وَنَتَائِجِهَا، فَلَا تَأْتِي عَلَى خَمْسِ سِنِينَ إِلَّا وَقَدْ أَصَبْتُ مِنَ الزَّرْعِ مَالًا كَثِيرًا؛ فَأَتَيْتَنِي بِنَتَا فَاخِرًا، وَأَشْتَرِي إِمَاءً وَعَبِيدًا؛ وَأَتَزَوَّجُ امْرَأَةً جَمِيلَةً ذَاتَ حُسْنٍ، فَتَحْبُلُ ثُمَّ تَأْتِي بِغُلَامٍ سَرِيٍّ نَجِيبٍ، فَأَخْتَارُ لَهُ أَحْسَنَ الْأَسْمَاءِ؛ فَإِذَا تَرَعَّرَ أَذَنُّهُ وَأَحْسَنْتُ تَأْدِيبَهُ، وَأَسَدَّدْتُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ فَإِنْ قَبِلَ مِنِّي وَإِلَّا ضَرَبْتُهُ بِهَذِهِ الْعُكَّازَةِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْجَرَّةِ فَكَسَرَهَا، فَسَالَ مَا فِيهَا عَلَى وَجْهِهِ^(١).

وَأِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِكَيْلَا تَعْجَلَ بِذِكْرِ مَا لَا يَتَّبِعِي ذِكْرُهُ، وَمَا لَا تَذَرِي : أَيْصَحُّ أَمْ لَا يَصِحُّ؟ وَلَكِنْ اذْغُرْ رَبَّكَ وَتَوَسَّلْ إِلَيْهِ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ التَّصَاوِيرَ فِي الْحَائِطِ إِنَّمَا هِيَ مَا دَامَ بِنَاؤُهُ قَائِمًا؛ فَإِذَا وَقَعَ وَتَهَدَّمَ لَمْ يَقْدَرْ عَلَيْهَا. فَاتَّعَظْ النَّاسِكُ بِمَا حَكَتْ رَوْجَتُهُ!

ثُمَّ إِنَّ الْمَرْأَةَ وَلَدَتْ غُلَامًا جَمِيلًا، فَفَرَّخَ بِهِ أَبُوهُ، وَبَعْدَ أَيَّامٍ حَانَ لَهَا أَنْ تَتَطَهَّرَ. فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِلنَّاسِكِ: أَقْعُدْ عِنْدَ ابْنِكَ حَتَّى أَذْهَبَ إِلَى الْحَمَّامِ، فَأَغْتَسِلَ وَأَعُودَ؛ ثُمَّ إِنَّهَا انْطَلَقَتْ إِلَى الْحَمَّامِ، وَخَلَقَتْ رَوْجَهَا وَالْغُلَامَ^(٢). فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ رَسُولُ الْمَلِكِ يَسْتَدْعِيهِ، وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يُخْلِفُهُ عِنْدَ ابْنِهِ غَيْرَ ابْنِ عِزْسٍ دَاجِنٍ عِنْدَهُ، كَانَ قَدْ رَبَّاهُ صَغِيرًا، فَهُوَ عِنْدَهُ عَدِيلٌ وَلَدِهِ. فَتَرَكَ النَّاسِكُ عِنْدَ الصَّبِيِّ، وَأَغْلَقَ عَلَيْهِمَا الْبَيْتَ، وَذَهَبَ مَعَ الرَّسُولِ، فَخَرَجَ مِنْ بَغْضِ أَحْجَارِ الْبَيْتِ حَيَّةٌ سُودَاءُ، فَدَنَّتْ مِنَ الْغُلَامِ، فَضَرَبَتْهَا ابْنُ عِزْسٍ، فَوُثِبَتْ عَلَيْهِ فَقَتَلَهَا، ثُمَّ قَطَعَهَا وَامْتَلَأَ فَمُهُ مِنْ دَمِهَا.

ثُمَّ جَاءَ النَّاسِكُ وَفَتَحَ الْبَابَ، فَالْتَقَاهُ ابْنُ عِزْسٍ، كَالْمُشِيرِ لَهُ بِمَا مَنَعَ مِنْ قَتْلِ الْحَيَّةِ! فَلَمَّا رَأَاهُ مُلَوَّنًا بِالْدَمِ، وَهُوَ مَذْعُورٌ، طَارَ عَقْلُهُ، وَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ خَنَقَ وَلَدَهُ، وَلَمْ يَنْتَبِثْ فِي أَمْرِهِ، وَلَمْ يَتَرَوْ فِيهِ حَتَّى يَغْلَمَ حَقِيقَةَ الْحَالِ، وَيَعْمَلَ بِغَيْرِ مَا ظَنَّ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ عَجَلَ عَلَى ابْنِ عِزْسٍ، وَضَرَبَتْهُ بِعُكَّازَةٍ كَانَتْ فِي يَدِهِ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَمَاتَ^(٣).

وَدَخَلَ النَّاسِكُ، فَرَأَى الْغُلَامَ سَلِيمًا حَيًّا، وَعِنْدَهُ أَشْوَدُّ مُقَطَّعٌ. فَلَمَّا عَرَفَ الْقِصَّةَ، وَتَبَيَّنَ لَهُ سُوءُ فِعْلِهِ فِي الْعَجَلَةِ، لَطَمَ عَلَى رَأْسِهِ، وَقَالَ: لَيْتَنِي لَمْ أُزَرَ قَ هَذَا الْوَلَدَ، وَلَمْ أَغْدِرْ هَذَا الْعَذْرَا! وَدَخَلَتِ امْرَأَتُهُ فَوَجَدَتْهُ فَوَجَدَتْهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَقَالَتْ لَهُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَأَخْبَرَهَا بِالْخَبَرِ مِنْ حُسْنِ فِعْلِ ابْنِ عِزْسٍ، وَسُوءِ مُكَافَأَتِهِ لَهُ. فَقَالَتْ: هَذِهِ ثَمَرَةُ الْعَجَلَةِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ إِذَا فَرَطَ، مِثْلُ

(١) أكرّة: خراثين. إماء: جمع أمة وهي الجارية. سري: شريف. نجيب: كريم.

(٢) وتوسل: أي عمل عملًا تقرب به إلى الله تعالى. فانعظ: قبل الموعظة. حان لها: أن أوان غسلها.

(٣) خلقت: تركت. فلم يلبث: فلم يطل. داجن: أليف. عدیل: ولد له. مثل: فندت من الغلام: قربت إليه. مذعور: خائف. ولم يثبت: لم يثان. لم يترو: لم يفكر. أم رأسه: دماغه.

الْكَلَامُ إِذَا خَرَجَ، وَالسَّهْمُ إِذَا مَرَقَ لَا مَرَدُّ لَهُ!
فَهَذَا مَثَلٌ مَنْ لَا يَتَّبِعْ فِي أَمْرِهِ بَلَّ يَفْعَلْ أَغْرَاضَهُ بِالسَّرْعَةِ^(١).

بَابُ

الْجُرَذِ وَالسَّنُورِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَبْدَبَا الْفِيلَسُوفُ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ فَأَضْرِبْ لِي مَثَلَ رَجُلٍ كَثُرَ
أَعْدَاؤُهُ ، وَأَحْدَقُوا بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ؛ فَأَشْرَفَ مَعَهُمْ عَلَى الْهَلَاكِ فَالْتَمَسَ النِّجَاةَ وَالْمَخْرَجَ
بِمُوَالَاةِ بَعْضِ أَعْدَائِهِ، وَمُصَالَحَتِهِ، فَسَلِمَ مِنَ الْخَوْفِ وَأَمِنَ ، ثُمَّ وَفَى لِمَنْ صَالَحَهُ مِنْهُمْ.
وَأَخْبَرَنِي عَنْ مَوْضِعِ الصَّلْحِ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ^(٢)؟

قَالَ الْفِيلَسُوفُ : إِنَّ الْمَوَدَّةَ وَالْعَدَاوَةَ لَا تَتَّبِعَانِ عَلَى حَالَةٍ أَبَدًا، وَرُبَّمَا حَالَتِ الْمَوَدَّةُ إِلَى
الْعَدَاوَةِ، وَصَارَتِ الْعَدَاوَةُ وِلَايَةً وَصَدَاقَةً؛ وَلِهَذَا حَوَادِثٌ وَعِلَلٌ وَتَجَارِبُ. وَذُو الرَّأْيِ يُحْدِثُ
لِكُلِّ مَا يَخْدُثُ مِنْ ذَلِكَ رَأْيًا جَدِيدًا؛ أَمَّا مَنْ قَبِلَ الْعَدُوَّ فَبِالْبَاسِ؛ وَأَمَّا مَنْ قَبِلَ الصَّدِيقَ
فَبِالْإِسْتِنَاسِ^(٣)، وَلَا تَنْفَعُ ذَا الْعَقْلِ عَدَاوَةٌ كَانَتْ فِي نَفْسِهِ لِعَدُوِّهِ، مِنْ مُقَارَبَتِهِ وَالْإِسْتِنَجَادِ بِهِ
عَلَى دَفْعِ مَرْهُوبٍ، أَوْ جَرِّ مَرْغُوبٍ، وَمَنْ عَمِلَ فِي ذَلِكَ بِالْحَزْمِ ظَفِرَ بِحَاجَتِهِ.

وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ الْجُرَذِ وَالسَّنُورِ حِينَ وَقَعَا فِي الْوَرُطَةِ، فَتَجَاوَا بِاصْطِلَاحِهِمَا جَمِيعًا مِنَ الْوَرُطَةِ
وَالشَّدَةِ. قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ يَبْدَبَا : زَعَمُوا أَنَّ شَجَرَةً عَظِيمَةً كَانَتْ فِي أَصْلِهَا جُحْرٌ سَنُورٌ يُقَالُ لَهُ : رُومِيٌّ. وَكَانَ قَرِيبًا
مِنْهُ جُحْرٌ جُرَذٌ يُقَالُ لَهُ فَرِيدُونُ، وَكَانَ الصَّيَّادُونَ كَثِيرًا مَا يَتَدَاوَلُونَ ذَلِكَ الْمَكَانَ، يَصِيدُونَ فِيهِ
الْوَحْشَ وَالطَّيْرَ^(٤). فَأَتَى ذَاتَ يَوْمٍ صَيَّادٌ فَتَنَصَّبَ جِبَالَتَهُ قَرِيبًا مِنْ مَوْضِعِ رُومِيٍّ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ وَقَعَ
فِيهَا. فَخَرَجَ الْجُرَذُ يَدِبُ، وَيَطْلُبُ مَا يَأْكُلُ وَهُوَ حَذِرٌ مِنْ رُومِيٍّ. فَبَيْنَمَا هُوَ يَسْعَى إِذْ بَصُرَ بِهِ فِي
الشَّرِكِ فَمَرَّ وَاسْتَبَشَرَ. ثُمَّ التَفَتَ فَرَأَى خَلْفَهُ ابْنَ عَرَسٍ يُرِيدُ أَخْذَهُ، وَفِي السَّجَرَةِ بُومًا يُرِيدُ

(١) مَا شَأْنُكَ؟ مَا أَمْرُكَ؟ وَمَا قِصَّتُكَ؟. فَرَطُ : سَبَقَ مِنْ غَيْرِ رُوبَةٍ. مَرَقَ : نَفَذَ فِي الرَّمِيَةِ.

(٢) السَّنُورُ : الْهَيْرُ. وَأَحْدَقُوا : أَحَاطُوا. فَأَشْرَفَ : اطَّلَعَ وَقَارَبَ. النِّجَاةُ : طَلَبُ الْخَلَاصِ. بِمُوَالَاةٍ : بِمُصَادَقَةٍ.

(٣) حَالَتْ : تَحَوَّلَتْ وَانْقَلَبَتْ. وِلَايَةٌ : نُصْرَةٌ وَمُحِبَّةٌ. فَبِالْبَاسِ : الشَّجَاعَةُ وَالشَّدَّةُ فِي الْحَرْبِ. فَبِالْإِسْتِنَاسِ : الْأَلْفَةِ.

(٤) وَالْإِسْتِنَجَادُ بِهِ : الِاسْتِعَانَةُ. مَرْهُوبٌ : مَخْوُفٌ. ظَفَرَ : فَازَ. مَا يَتَدَاوَلُونَ : يَتَعَاقَبُونَهُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى.

اِخْتِطَافُهُ. فَتَحَيَّرَ فِي أَمْرِهِ، وَخَافَ إِنْ رَجَعَ وَرَأَاهُ أَخَذَهُ ابْنُ عَرِيسٍ، وَإِنْ ذَهَبَ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا اِخْتِطَفَهُ الْبُومُ، وَإِنْ تَقَدَّمَ أَمَامَهُ افْتَرَسَهُ السُّنُورُ. فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: هَذَا بَلَاءٌ قَدْ اكْتَنَفَنِي، وَشُرُورٌ تَظَاهَرَتْ عَلَيَّ، وَمِحْرَقٌ قَدْ أَحَاطَتْ بِي^(١) وَبَعْدَ ذَلِكَ فَمَعِيَ عَقْلِي، فَلَا يُفْزِعُنِي أَمْرِي، وَلَا يَهُولُنِي شَأْنِي، وَلَا يَلْحَقُنِي الدَّهْشُ، وَلَا يَذْهَبُ قَلْبِي شَعَاعًا؛ فَالْعَاقِلُ لَا يَفْرُقُ عِنْدَ سَدَادِ رَأْيِهِ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ ذِهْنُهُ عَلَى حَالٍ؛ وَإِنَّمَا الْعَقْلُ شَبِيهٌ بِالْبَحْرِ الَّذِي لَا يُدْرِكُ غَوْرُهُ، وَلَا يَبْلُغُ الْبَلَاءُ مِنْ ذِي الرِّأْيِ مَجْهُودَهُ، فَيَهْلِكُهُ وَتَحْقُقُ الرَّجَاءُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْلُغَ مِنْهُ مَبْلَغًا يُبْطِرُهُ وَيُسْكِرُهُ، فَيَعْمَى عَلَيْهِ أَمْرُهُ. وَلَسْتُ أَرَى لِي مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ مَخْلَصًا إِلَّا مُصَالِحَةَ السُّنُورِ، فَإِنَّهُ قَدْ نَزَلَ بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ مِثْلُ مَا قَدْ نَزَلَ بِي أَوْ بَعْضُهُ. وَلَعَلَّهُ إِنْ سَمِعَ كَلَامِي الَّذِي أَكَلَّمُهُ بِهِ، وَوَعَى عَنِّي صَبِيحَ خَطَايِي، وَمَخَضَ صِدْقِي الَّذِي لَا خِلَافَ فِيهِ، وَلَا خِدَاعَ مَعَهُ، فَفَهِمَهُ وَطَمِعَ فِي مَعُونَتِي إِثَّاءَ، نَخْلُصَ جَمِيعًا^(٢).

ثُمَّ إِنْ الْجُرَذُ دَنَا مِنَ السُّنُورِ فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ حَالُكَ؟ قَالَ لَهُ السُّنُورُ: كَمَا تُحِبُّ فِي ضَنْكِ وَضِيقِي. قَالَ: وَأَنَا الْيَوْمَ شَرِيكَكَ فِي الْبَلَاءِ. وَلَسْتُ أَرْجُو لِنَفْسِي خَلَاصًا إِلَّا بِالَّذِي أَرْجُو لَكَ فِيهِ الْخَلَاصَ، وَكَلَامِي هَذَا لَيْسَ فِيهِ كَذِبٌ وَلَا خَدِيعَةٌ. وَابْنُ عَرِيسٍ هَا هُوَ كَامِنٌ لِي، وَالْبُومُ يَرُودُنِي، وَكِلَاهُمَا لِي وَلَكَ عَدُوٌّ^(٣). وَإِنِّي وَإِيَّاكَ وَإِنْ كُنَّا مُخْتَلِفِي الطَّبَاعِ، لَكِنَّا مُتَّفِقَا الْحَالَةِ، وَالَّذِينَ حَالَتُهُمْ وَاحِدَةٌ، وَطِبَاعُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ، تَجْمَعُهُمْ الْحَالَةُ، وَإِنْ فَرَّقَتْهُمْ الطَّبَاعُ. فَإِنْ أَنْتَ جَعَلْتَ لِي الْأَمَانَ قَطْعَتْ حَبَائِلُكَ، وَخَلَّصْتُكَ مِنْ هَذِهِ الْوَرُطَةِ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ تَخْلُصَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا بِسَبَبِ صَاحِبِهِ، كَالسَّفِينَةِ وَالرُّكَّابِ فِي الْبَحْرِ، فَيَالسَّفِينَةَ يَنْجُونَ، وَبِهِمْ تَنْجُو السَّفِينَةُ. فَلَمَّا سَمِعَ السُّنُورُ كَلَامَ الْجُرَذِ، وَعَرَفَ أَنَّهُ صَادِقٌ قَالَ لَهُ: إِنْ قَوْلُكَ هَذَا لَشَبِيهٌ بِالْحَقِّ، وَأَنَا أَيْضًا رَاغِبٌ فِيمَا أَرْجُو لَكَ وَلِنَفْسِي الْخَلَاصَ. ثُمَّ إِنِّي إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ سَأَشْكُرُكَ مَا بَقِيَتْ^(٤). قَالَ الْجُرَذُ: فَإِنِّي سَأَذْنُو مِنْكَ فَأَقْطَعُ الْحَبَائِلَ كُلَّهَا إِلَّا حَبَلًا وَاحِدًا؛ أَبْقِيهِ لِأَسْتَوْثِقَ لِنَفْسِي مِنْكَ، وَأَخْذُ فِي تَقْرِيطِ حَبَائِلِهِ. ثُمَّ إِنْ الْبُومُ وَابْنُ عَرِيسٍ، لَمَّا رَأَىا دُنُوَّ الْجُرَذِ مِنَ السُّنُورِ، أَيْسَا مِنْهُ وَانْصَرَفَا. ثُمَّ إِنْ الْجُرَذُ أَبْطَأَ عَلَى رُومِي فِي قَطْعِ الْحَبَائِلِ. فَقَالَ لَهُ: مَالِي لَا أَرَاكَ جَادًّا فِي قَطْعِ

(١) حالته: مصيسته. يدب: يعيش الهوني. حذر: خائف. اكتنفي: أحاط به. تظاهرت: تعاونت.

(٢) ولا يهولني: ولا يفزعني. الدهش: الحيرة. شعاعا: مُتَبَدِّدًا من الخوف. لا يفرق: أي لا يخاف. سداد: إصابة وتوفيق. يعزب: يغيب. غوره: قعره. مجهوده: غاية جهده. قيعمي: يلتبس. نزل به: خل. ووعى: حفظ. محض صدقي: خالص صدقي.

(٣) ضنك: ضعف. كامن: مستتر. يرصدي: يرقبني.

(٤) الورطة: الشدة.

حَبَائِلِي؟ فَإِنْ كُنْتَ قَدْ ظَفِرْتَ بِحَاجَتِكَ، فَتَغَيَّرْتَ عَمَّا كُنْتَ عَلَيْهِ، وَتَوَانَيْتَ فِي حَاجَتِي فَمَا ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الصَّالِحِينَ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يَتَوَانَى فِي حَقِّ صَاحِبِهِ^(١)، وَقَدْ كَانَ لَكَ فِي سَابِقِ مَوَدَّتِي مِنَ الْفَائِدَةِ وَالنَّفْعِ، مَا قَدْ رَأَيْتَ وَأَنْتَ حَقِيقٌ أَنْ تُكَافِئَنِي بِذَلِكَ، وَلَا تَذْكُرَ الْعَدَاوَةَ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ. فَالَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الصُّلْحِ حَقِيقٌ أَنْ يُنْسِيكَ ذَلِكَ مَعَ مَا فِي الْوَفَاءِ مِنَ الْفَضْلِ وَالْأَجْرِ، وَمَا فِي الْعَدْرِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ. فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يَكُونُ إِلَّا شَكُورًا غَيْرَ حَقُودٍ، تُنْسِيهِ الْخَلَّةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ الْإِحْسَانِ الْخِلَالَ الْكَثِيرَةَ مِنَ الْإِسَاءَةِ. وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ أَعْجَلَ الْعُقُوبَةِ عُقُوبَةُ الْعَدْرِ، وَمَنْ إِذَا تُضَرَّعَ إِلَيْهِ وَسُئِلَ الْعَفْوَ، فَلَمْ يَزَحَمْ وَلَمْ يَغْفُ فَقَدْ عَذَرَ. قَالَ الْجُرْدُ: إِنَّ الصَّدِيقَ صَدِيقَانِ: طَائِعٌ، وَمُضْطَرٌّ، وَكِلَاهُمَا يَلْتَمِسَانِ الْمُنْفَعَةَ وَيَخْتَرِسَانِ مِنَ الْمَضَرَّةِ^(٢): فَأَمَّا الطَّائِعُ فَيَسْتَرْسِلُ إِلَيْهِ، وَيُؤْمِنُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَأَمَّا الْمُضْطَرُّ فَيَبْغِضُ الْأَحْوَالَ يُسْتَرْسِلُ إِلَيْهِ، وَفِي بَعْضِهَا يَتَحَدَّرُ مِنْهُ، وَلَا يَزَالُ الْعَاقِلُ يَرْتَهِنُ مِنْهُ بَعْضَ حَاجَاتِهِ لِيَبْغِضَ مَا يَبْقَى وَيَخَافُ، وَلَيْسَ غَايَةُ التَّوَاصُلِ مِنْ كُلِّ مِنَ الْمُتَوَاصِلِينَ إِلَّا طَلَبُ عَاجِلِ النَّفْعِ وَبُلُوغُ مَأْمُولِهِ. وَأَنَا وَافٍ لَكَ بِمَا وَعَدْتُكَ، وَمُخْتَرِسٌ مِنْكَ مَعَ ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ أَخَافُكَ تَخَوُّفٌ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْكَ مَا أَلْجَأَنِي خَوْفُهُ إِلَى مُصَالَحَتِكَ، وَأَلْجَأَكَ إِلَى قَبُولِ ذَلِكَ مِنِّي، فَإِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ حِينًا^(٣). فَمَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ فِي حِينِهِ فَلَا حُسْنَ لِعَاقِبَتِهِ، وَأَنَا قَاطِعٌ حَبَائِلَكَ كُلَّهَا، غَيْرَ أَنِّي نَارِكَ عُقْدَةً أَرْتَهِنُكَ بِهَا، وَلَا أَقْطَعُهَا إِلَّا فِي السَّاعَةِ الَّتِي أَعْلَمُ أَنَّكَ فِيهَا عَنِّي مَشْغُولٌ، وَذَلِكَ عِنْدَ مُعَايِنَتِي الصِّيَادَ. ثُمَّ إِنَّ الْجُرْدَ أَخَذَ فِي قَطْعِ حَبَائِلِ السَّنُورِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ وَافَى الصِّيَادَ. فَقَالَ لَهُ السَّنُورُ: الْآنَ جَاءَ وَقْتُ الْجَدِّ فِي قَطْعِ حَبَائِلِي، فَجَهَدَ الْجُرْدُ نَفْسَهُ فِي الْقَرْضِ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ وَتَبَّ السَّنُورُ إِلَى الشَّجَرَةِ عَلَى دَهَشٍ مِنَ الصِّيَادِ، وَدَخَلَ الْجُرْدُ بَعْضَ الْأَجْحَارِ وَجَاءَ الصِّيَادُ، فَأَخَذَ حَبَائِلَهُ مُقَطَّعَةً، ثُمَّ انْصَرَفَ خَائِبًا^(٤)! ثُمَّ إِنَّ الْجُرْدَ خَرَجَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَرِهَ أَنْ يَذْنُو مِنَ السَّنُورِ، فَتَادَاهُ السَّنُورُ: أَيُّهَا الصَّدِيقُ النَّاصِحُ ذُو الْبَلَاءِ الْحَسَنِ عِنْدِي، مَا مَنَعَكَ مِنَ الدُّنُوِّ إِلَيَّ لِأَجَارِيكَ بِأَحْسَنِ مَا أَسَدَيْتَ إِلَيَّ؟ هَلُمَّ إِلَيَّ، وَلَا تَقْطَعْ إِخَائِي، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّخَذَ صَدِيقًا، وَقَطَعَ إِخَاءَهُ، وَأَضَاعَ صِدْقَهُ حَرَمَ ثَمَرَةَ إِخَائِهِ، وَأَيْسَ مِنْ نَفْعِهِ الْإِخْوَانُ وَالْأَصْدِقَاءُ. وَإِنَّ يَدَكَ عِنْدِي لَا تُنْسَى، وَأَنْتَ حَقِيقٌ أَنْ تَلْتَمِسَ مُكَافَأَةَ ذَلِكَ مِنِّي،

(١) لَأَسْتَوِقَ لِنَفْسِي: لَأَسْتَأْمِنَ عَلَيْهَا. تَقْرِيطُ حَبَائِلِهِ: تَقْطِيعُ. أَيْسَا: قَطَعَا الرَّجَاءَ. وَتَوَانَيْتَ: لَمْ تَهْتَمَّ.

(٢) وَأَنْتَ حَقِيقٌ: أَهْلُ الْخَلَّةِ: الْخَصْلَةُ. مُضْطَرٌّ: مُحْتَاجٌ.

(٣) فَيَسْتَرْسِلُ إِلَيْهِ: يَرْكَنُ إِلَيْهِ وَيُوْتِقُ بِهِ. يَرْتَهِنُ: يَأْخُذُهَا رَهْنًا. مَأْمُولُهُ: أَيُّ مَا يَرْجُوهُ.

(٤) فَجَهَدَ الْجُرْدَ نَفْسَهُ: جَدَّ وَبَذَلَ قُدْرَتَهُ. الْقَرْضُ: الْقَطْعُ. بَعْضُ الْأَجْحَارِ: الْأَوْكَارِ.

وَمِنْ إِخْوَانِي وَأَصْدِقَائِي، وَلَا تَخَافَنَّ مِنِّي شَيْئًا، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا قَبْلِي لَكَ مَبْدُولٌ^(١). ثُمَّ حَلَفَ وَاجْتَهَدَ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا قَالَ. فَنَادَاهُ الْجُرُذُ: رُبَّ صَدَاقَةٍ ظَاهِرَةٍ بَاطِنُهَا عَدَاوَةٌ كَامِنَةٌ، وَهِيَ أَشَدُّ مِنَ الْعَدَاوَةِ الظَّاهِرَةِ! وَمَنْ لَمْ يَحْتَرِسْ مِنْهَا وَقَعَ مَوْقِعَ الرَّجُلِ الَّذِي يَرْكَبُ نَابَ الْفِيلِ الْهَائِجِ، ثُمَّ يَغْلِبُهُ النَّعَاسُ فَيَسْتَيْقِظُ تَحْتَ فَرَايسِ الْفِيلِ، فَيَدُوسُهُ وَيَقْتُلُهُ. وَإِنَّمَا سُمِّيَ الصَّدِيقُ صَدِيقًا، لِمَا يُرْجَى مِنْ صِدْقِهِ وَنَفْعِهِ، وَسُمِّيَ الْعَدُوُّ عَدُوًّا لِمَا يُخَافُ مِنْ اِعْتِدَائِهِ وَضَرَرِهِ. وَالْعَاقِلُ إِذَا رَجَا نَفْعَ الْعَدُوِّ أَظْهَرَ لَهُ الصَّدَاقَةَ؛ وَإِذَا خَافَ ضَرَرَ الصَّدِيقِ أَظْهَرَ لَهُ الْعَدَاوَةَ؛ أَلَا تَرَى تَتَّبِعُ الْبَهَائِمَ أُمَاتِهَا رَجَاءَ أَلْبَانِهَا، فَإِذَا انْقَطَعَ ذَلِكَ انْصَرَفَتْ عَنْهَا^(٢). وَرُبَّمَا قَطَعَ الصَّدِيقُ عَنِ صَدِيقِهِ بَعْضَ مَا كَانَ يَصِلُهُ مِنْهُ، فَلَمْ يَخَفْ شَرَّهُ لِأَنَّ أَصْلَ أَمْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَدَاوَةً. فَأَمَّا مَنْ كَانَ أَصْلُ أَمْرِهِ عَدَاوَةً جَوْهَرِيَّةً، ثُمَّ أَخَذَتْ صَدَاقَةً لِحَاجَةٍ حَمَلَتْهُ عَلَى ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ إِذَا زَالَتِ الْحَاجَةُ الَّتِي حَمَلَتْهُ عَلَى ذَلِكَ زَالَتْ صَدَاقَتُهُ، فَتَحَوَّلَتْ وَصَارَتْ إِلَى أَصْلِ أَمْرِهِ كَالْمَاءِ الَّذِي يَسْخُنُ بِالنَّارِ، فَإِذَا رُفِعَ عَنْهَا عَادَ بَارِدًا؛ وَلَيْسَ مِنْ أَعْدَائِي عَدُوٌّ أَضُرُّ لِي مِنْكَ. وَقَدْ اضْطَرَّنِي وَإِيَّاكَ حَاجَةٌ إِلَى مَا أَخَذْتُمَا مِنَ الْمُصَالَحَةِ، وَقَدْ ذَهَبَ الْأَمْرُ الَّذِي اخْتَجَجْتُ إِلَيْهِ وَاخْتَجَجْتُ إِلَيْكَ فِيهِ^(٣). وَأَخَافُ أَنْ يَكُونَ مَعَ ذَهَابِهِ عَوْدُ الْعَدَاوَةِ، وَلَا خَيْرَ لِلضَّعِيفِ فِي قُرْبِ الْعَدُوِّ الْقَوِيِّ، وَلَا لِلذَّلِيلِ فِي قُرْبِ الْعَدُوِّ الْعَزِيزِ! وَلَا أَعْلَمُ لَكَ قَبْلِي حَاجَةً إِلَّا أَنْ تَكُونَ تُرِيدُ أَكْلِي، وَلَا أَعْلَمُ لِي قَبْلَكَ حَاجَةً، وَلَيْسَ عِنْدِي بِكَ ثِقَةٌ؛ فَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الضَّعِيفَ الْمُحْتَرِسَ مِنَ الْعَدُوِّ الْقَوِيِّ أَقْرَبُ إِلَى السَّلَامَةِ مِنَ الْقَوِيِّ إِذَا اغْتَرَّ بِالضَّعِيفِ وَاسْتَرْسَلَ إِلَيْهِ. وَالْعَاقِلُ يُصَالِحُ عَدُوَّهُ إِذَا اضْطَرَّ إِلَيْهِ، وَيُصَانِعُهُ وَيُظْهِرُ لَهُ وَدَّهَ وَيُرِيهِ مِنْ نَفْسِهِ الْإِسْتِرْسَالَ إِلَيْهِ إِذَا لَمْ يَجِدْ مِنْ ذَلِكَ بُدًّا، ثُمَّ يَعْجَلُ الْإِنْصِرَافَ عَنْهُ جِئْنَ يَجِدُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا^(٤).

وَاعْلَمْ أَنَّ سَرِيعَ الْإِسْتِرْسَالِ لَا تُقَالُ عَثْرَتُهُ، وَالْعَاقِلُ يَفِي بِمَنْ صَالَحَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَا يَتَّقِي بِهِ كُلَّ الثَّقَةِ وَلَا يَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ مَعَ الْقُرْبِ مِنْهُ، وَيَنْبَغِي أَنْ يُبْعِدَ عَنْهُ مَا اسْتَطَاعَ. وَأَنَا أَوْدُكَ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحِبُّ لَكَ مِنَ الْبَقَاءِ وَالسَّلَامَةِ مَا لَمْ أَكُنْ أُحِبُّهُ لَكَ مِنْ قَبْلُ وَلَيْسَ عَلَيْكَ أَنْ تُجَازِنَنِي عَلَى صَنِيعِي إِلَّا بِمِثْلِ ذَلِكَ إِذْ لَا سَبِيلَ إِلَى اجْتِمَاعِنَا، وَالسَّلَامُ^(٥).

(١) ذو البلاء: الاختيار والامتحان. أسديت: أحسنت. هلم إلى: تعال. إخواني: صداقتي. يدك عندي: إحسانك. ما قبلي: ما عندي مبدول: موهوب.

(٢) فراسن: جمع فرس. وهو للجمال والفيل كالقدم للإنسان. (٣) جوهريّة: أصلية. حملته: أغرته وحرّضته. فتحوّلت: انصرفت.

(٤) ويصانعه: يداهته ويداربه. (٥) الاسترسال: الركون. لا يقال عثرته: لا يرفع منها. صنيعي: إحساني.

باب الملك والطائر فَنَزَة

قال دَبْسَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَبْدَا الْفَيْلَسُوفُ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ ؛ فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ أَهْلِ التَّرَاتِ الَّذِينَ لَا بُدَّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ اتِّقَاءِ بَعْضٍ :

قال يَبْدَا : زَعَمُوا أَنَّ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الْهِنْدِ كَانَ يُقَالُ لَهُ بَرِيدُونُ ، وَكَانَ لَهُ طَائِرٌ يُقَالُ لَهُ : فَنَزَةٌ ، وَكَانَ لَهُ فَرْخٌ ، وَكَانَ هَذَا الطَّائِرُ وَفَرْخُهُ يَنْطِقَانِ بِأَحْسَنِ مَنْطِقٍ ، وَكَانَ الْمَلِكُ بِهِمَا مُعْجَبًا ، فَأَمَرَ بِهِمَا أَنْ يُجْعَلَا عِنْدَ امْرَأَتِهِ ، وَأَمَرَهَا بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِمَا^(١) . وَاتَّفَقَ أَنَّ امْرَأَةَ الْمَلِكِ كَانَتْ حَامِلًا ، فَوَلَدَتْ غُلَامًا فَأَلْفَ الْفَرْخُ الْغُلَامَ ، وَكِلَاهُمَا طِفْلَانِ يَلْعَبَانِ جَمِيعًا . وَكَانَ فَنَزَةٌ يَذْهَبُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الْجَبَلِ فَيَأْتِي بِفَاكِهِةٍ لَا تُعْرَفُ ، فَيُطْعِمُ ابْنَ الْمَلِكِ شَطْرَهَا ، وَيُطْعِمُ فَرْخَهُ شَطْرَهَا . فَأَسْرَعَ ذَلِكَ فِي نَشَأَتِهِمَا وَشَبَابِهِمَا ، وَبَانَ عَلَيْهِمَا أَثَرُهُ عِنْدَ الْمَلِكِ ، فَأَزْدَادَ لِفَنَزَةٍ إِكْرَامًا وَتَعْظِيمًا وَمَحَبَّةً^(٢) . حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَفَنَزَةٌ غَائِبٌ فِي اجْتِنَاءِ الثَّمَرَةِ ، وَفَرْخُهُ فِي حِجْرِ الْغُلَامِ حَدَثَ مِنَ الْفَرْخِ مَا أَعْصَبَ الْغُلَامَ ، فَأَخَذَهُ فَضْرَبَ بِهِ الْأَرْضَ فَمَاتَ ! ثُمَّ إِنَّ فَنَزَةً أَقْبَلَ فَوَجَدَ فَرْخَهُ مَقْتُولًا ؛ فَصَاحَ وَحَرَنَ ! وَقَالَ : قُبْحًا لِلْمُلُوكِ الَّذِينَ لَا عَهْدَ لَهُمْ وَلَا وِفَاءَ ! وَإِلَّ لِمَنْ ابْتُلِيَ بِضُحْبَةِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ لَا ذِمَّةَ لَهُمْ وَلَا حُرْمَةَ ، وَلَا يُجِبُونَ أَحَدًا ، وَلَا يَكْرُمُ عَلَيْهِمْ إِلَّا إِذَا طَمِعُوا فِيمَا عِنْدَهُ مِنْ غَنَاءٍ ، وَاجْتَنَحُوا إِلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ عِلْمٍ ؛ فَيَكْرُمُونَهُ لِدَلِّكَ . فَإِذَا ظَفِرُوا بِحَاجَتِهِمْ مِنْهُ فَلَا وَدَّ وَلَا إِحْصَاءَ وَلَا إِحْسَانَ وَلَا غُفْرَانَ ذَنْبٍ ، وَلَا مَعْرِفَةَ حَقِّ^(٣) . هُمُ الَّذِينَ أَمْرُهُمْ مَبْنِيٌّ عَلَى الرِّبَاءِ وَالْفُجُورِ ، وَهُمْ يَسْتَضَعِرُونَ مَا يَزَكِّيُونَهُ مِنْ عَظِيمِ الذُّنُوبِ ، وَيَسْتَغْضَمُونَ الْيَسِيرَ ؛ إِذَا خُولِفَتْ فِيهِ أَهْوَاؤُهُمْ . وَمِنْهُمْ هَذَا الْكُفُورُ الَّذِي لَا رَحْمَةَ لَهُ ، الْغَادِرُ بِالْفِيءِ وَأَخِيهِ . ثُمَّ وَثَبَ فِي شِدَّةِ حَنَقِهِ عَلَى وَجْهِ الْغُلَامِ فَفَقَأَ عَيْنَيْهِ ! ثُمَّ طَارَ فَوَقَّفَ عَلَى شَجَرَةٍ عَالِيَةٍ ، وَبَلَغَ الْمَلِكُ ذَلِكَ ، فَجَرَعَ أَشَدَّ الْجَرَعِ ثُمَّ طَمِعَ أَنْ يَحْتَالَ لَهُ ؛ فَبَيْهَلَكُهُ فَرَكِبَ مِنْ سَاعَتِهِ ، وَتَوَجَّهَ إِلَى نَاحِيَةِ الطَّائِرِ ؛ حَتَّى وَقَفَ قَرِيبًا مِنْهُ ، وَنَادَاهُ وَقَالَ لَهُ : إِنَّكَ آمِنٌ فَأَنْزِلْ يَا فَنَزَةٌ^(٤) . فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّ الْغَادِرَ

(١) الترات : أصحاب الدم والحقد . جمع ترة . اتقاء : حذر . معجبا : مسرورا .

(٢) حجر الغلام : حاضنه . حدث : حصل . ابتلى : جرب وامتحان . ولا حرمة منه : ولا كرامة لهم تحفظ ، ولا حقوق تصان .

(٣) الرباء : التظاهر بخلاف ما في الباطن . اليسير : القليل . الكفور : الجاحد النعمة .

مَأْخُودٌ بِغَدْرِهِ. وَإِنَّهُ إِنْ أَخْطَأَهُ عَاجِلُ الْعُقُوبَةِ؛ لَمْ يُخْطِئِهِ الْآجِلُ حَتَّى إِنَّهُ يُذَرِّكُ الْأَغْقَابَ وَأَعْقَابَ الْأَغْقَابِ! وَإِنَّ ابْنَكَ غَدَرَ بِائِنِّي؛ فَعَجَلْتُ لَهُ الْعُقُوبَةَ. قَالَ الْمَلِكُ: قَدْ لَعَمْرِي غَدَرَ ابْنِي بِائِنِكَ، وَقَدْ تَنَاصَفْنَا جَمِيعًا؛ فَلَيْسَ لَكَ قِبَلْنَا، وَلَا لَنَا قِبَلَكَ وَتَرَّ مَطْلُوبٌ؛ فَارْجِعْ إِلَيْنَا آمِنًا وَلَا تَخَفْ. قَالَ فَتَرَهُ: لَسْتُ بِرَاجِعٍ إِلَيْكَ أَبَدًا؛ فَإِنَّ ذَوِي الرَّأْيِ قَدْ نَهَوْا عَنْ قُرْبِ الْمُؤْتُورِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَرِيدُكَ لُطْفُ الْحَقُودِ وَلَيْئُهُ وَتَكْرِمَتُهُ إِيَّاكَ إِلَّا وَخْشَةً مِنْهُ، وَسُوءَ ظَنٍّ بِهِ؛ فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ لِلْحَقُودِ الْمُؤْتُورِ أَمَانًا هُوَ أَوْثَقُ لَكَ مِنَ الذُّعْرِ مِنْهُ، وَلَا أَجُودُ مِنَ الْبُعْدِ عَنْهُ، وَالْإِتْقَاءُ لَهُ أَوْلَى^(١). وَقَدْ كَانَ يُقَالُ: إِنَّ الْعَاقِلَ يُعَدُّ أَبَوَيْهِ أَصْدَقَاءَ، وَالْإِخْوَةَ رُفَقَاءَ، وَالْأَزْوَاجَ أَلْفَاءَ، وَالْبَيْنِينَ ذِكْرًا، وَالْبَنَاتِ خُصَمَاءَ، وَالْأَقَارِبَ غُرَمَاءَ، وَيَعُدُّ نَفْسَهُ فَرِيدًا وَحِيدًا! وَأَنَا الْفَرِيدُ الْوَحِيدُ الْغَرِيبُ الطَّرِيدُ، قَدْ تَزَوَّدْتُ مِنْ عِنْدِكُمْ عِبًّا ثَقِيلًا لَا يَحْمِلُهُ مَعِيَ أَحَدٌ، وَأَنَا ذَاهِبٌ فَعَلَيْكَ مِنِّي السَّلَامُ^(٢). قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَكُنْ قَدْ اجْتَزَيْتَ مِنَّا فِيمَا صَنَعْنَاهُ بِكَ، أَوْ كَانَ صَنِيعُكَ بِنَا مِنْ غَيْرِ ابْتِدَاءٍ مِنَّا بِالْغَدْرِ، كَانَ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتَ. وَأَمَّا إِذْ كُنَّا نَحْنُ قَدْ بَادَأْنَاكَ فَمَا ذَنْبُكَ؟! وَمَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الثَّقَةِ بِنَا؟! هَلَمْ فَارْجِعْ فَإِنَّكَ آمِنٌ. قَالَ فَتَرَهُ: اعْلَمْ أَنَّ الْأَحْقَادَ لَهَا فِي الْقُلُوبِ مَوَاضِعٌ مُمَكِّنَةٌ مُوجِعَةٌ؛ فَالْأَلْسُنُ لَا تُصَدِّقُ فِي خَبَرِهَا عَنِ الْقُلُوبِ، وَالْقَلْبُ أَغْدَلُ شَهَادَةٌ عَلَى اللِّسَانِ مِنَ اللِّسَانِ عَلَى الْقَلْبِ.

وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ قَلْبِي لَا يَشْهَدُ لِلِّسَانِكَ بِصِدْقِهِ، وَلَا قَلْبُكَ لِلِّسَانِي! قَالَ الْمَلِكُ: أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ الضَّغَائِنَ، وَالْأَحْقَادَ تَكُونُ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ؟! فَمَنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ كَانَ عَلَى إِمَاتَةِ الْحَقْدِ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى تَرْبِيَّتِهِ^(٣). قَالَ فَتَرَهُ: إِنَّ ذَلِكَ لَكَمَا ذَكَرْتَ، وَلَكِنْ لَا يَنْتَبِهُ لِذِي الرَّأْيِ مَعَ ذَلِكَ أَنَّ يَظُنُّ أَنَّ الْمُؤْتُورَ الْحَقُودَ نَاسٌ مَا وَتَرَّ بِهِ، أَوْ مَضْرُوفٌ عَنْهُ. وَذُو الرَّأْيِ يَتَخَوَّفُ الْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ وَالْحَيْلَ، وَيَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَدُوِّ لَا يُسْتَطَاعُ بِالشَّدَّةِ وَالْمُكَابَرَةِ، حَتَّى يُصَادَ بِالرُّفْقِ وَالْمَلَائِنَةِ، كَمَا يُصْطَادُ الْفِيلُ بِالْوَحْشِيِّ بِالْفِيلِ الدَّاجِنِ.

قَالَ الْمَلِكُ: إِنَّ الْعَاقِلَ الْكَرِيمَ لَا يَتْرُكُ إِلْفَهُ، وَلَا يَقْطَعُ إِخْوَانَهُ، وَلَا يُضَيِّعُ الْإِحْفَاطَ، وَإِنْ هُوَ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ، حَتَّى إِنَّ هَذَا الْخُلُقَ يَكُونُ فِي أَوْضَعِ الدَّوَابِّ مَنَزَلَةً، فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّعَّائِينَ يَلْعَبُونَ بِالْكِلاِبِ، ثُمَّ يَذْبَحُونَهَا، وَيَأْكُلُونَهَا، وَيَرَى الْكَلْبُ الَّذِي قَدْ أَلْفَهُمْ ذَلِكَ، فَيَمْنَعُهُ مِنْ

(١) أخطأه: لم يصبه. الآجل: المتأخر. الأعقاب: الأولاد. لعمرى: قسم. تناصفنا: أنصف كل منا الآخر من نفسه أي استوفى حقه منه. قبلنا: عندنا. وتر: ثار. المؤتور: من قتل له قاتل فلم يدرك بدمه. الذعر: الخوف. الاتقاء: التحفظ.

(٢) ألفاء: جمع أليف، وهو الصديق المؤنس. غرما: جمع غريم وهو الخصم. الطريد: المنفي والهارب.

(٣) اجتزيت: أخذت الجزاء. الضغائن: الأحقاد.

مُفَارَقَتِهِمْ أَلْفَتْهُ إِيَّاهُمْ! قَالَ فَتَرَهُ : إِنَّ الْأَحْقَادَ مَحُوفَةٌ حَيْثُ كَانَتْ وَأَخَوْفُهَا وَأَشَدُّهَا مَا كَانَ فِي أَنْفُسِ الْمُلُوكِ؛ فَإِنَّ الْمُلُوكَ يَدِينُونَ بِالْإِنْتِقَامِ، وَيَزُونَ الدَّرَكَ وَالطَّلَبَ بِالْوَثْرِ مَكْرُمَةً وَفَخْرًا، وَإِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَغْتَرُّ بِسُكُونِ الْحِقْدِ إِذَا سَكَنَ، فَإِنَّمَا مِثْلُ الْحِقْدِ فِي الْقَلْبِ إِذَا لَمْ يَجِدْ مُحَرِّكًَا مِثْلُ الْجَمْرِ الْمَكْنُونِ مَا لَمْ يَجِدْ حَطْبًا^(١). فَلَيْسَ يَنْفَكُ الْحِقْدُ مُطْلَعًا إِلَى الْعِلَلِ كَمَا تَبْتَغِي النَّارُ الْحَطَبَ. فَإِذَا وَجَدَ عِلَّةً اسْتَعَارَ اسْتِعَارَ النَّارِ، فَلَا يُطْفِئُهُ حُسْنُ كَلَامٍ، وَلَا لِينٌ وَلَا رِفْقٌ، وَلَا خُضُوعٌ وَلَا تَضَرُّعٌ، وَلَا مَصَانَعَةٌ وَلَا شَيْءٌ دُونَ تَلَفِ الْأَنْفُسِ وَذَهَابِ الْأَرْوَاحِ. مَعَ أَنَّهُ رَبُّ وَاتِرٍ يَطْمَعُ فِي مُرَاجَعَةِ الْمُؤْتَوِّرِ لِمَا يَرْجُو أَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ مِنَ النَّفْعِ لَهُ وَالدَّفْعِ عَنْهُ. وَلِكِنِّي أَنَا أَضْعَفُ مِنْ أَنْ أَقْدِرَ عَلَى شَيْءٍ يَذْهَبُ بِهِ مَا فِي نَفْسِكَ. وَبَعْدُ فَلَوْ كَانَتْ نَفْسُكَ لِي عَلَى مَا تَقُولُ مَا كَانَ ذَلِكَ عَنِّي مُعْنِيًا أَيْضًا^(٢)، وَلَا أَرَاكَ فِي خَوْفٍ وَوَحْشَةٍ وَسُوءِ ظَنٍّ مَا اضْطَحَبْنَا. فَلَيْسَ الرَّأْيُ يَنْبِي وَيَنْتَكُ إِلَّا الْفِرَاقَ، وَأَنَا أَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ. قَالَ الْمَلِكُ : لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ لِأَحَدٍ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَأَنَّهُ لَا شَيْءَ مِنَ الْأَشْيَاءِ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا يُصِيبُ أَحَدًا إِلَّا بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ مَعْلُومٍ. وَكَمَا أَنَّ خَلْقَ مَا يُخْلَقُ، وَوِلَادَةَ مَا يُولَدُ، وَبَقَاءَ مَا يَبْقَى لَيْسَ لِلْخَلَائِقِ مِنْهُ شَيْءٌ^(٣)، كَذَلِكَ فَنَاءُ مَا يَفْنَى، وَهَلَاكُ مَا يَهْلِكُ. وَلَيْسَ لَكَ فِي الَّذِي فَعَلْتَ بِإِنِّي ذَنْبٌ، وَلَا لِإِنِّي فِيمَا صَنَعْتُ بِإِنَّكَ ذَنْبٌ؛ إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ قَدَرًا مَقْدُورًا، وَكَلاَنَا لَهُ عِلَّةٌ، وَسَبَبٌ، فَلَا نُوَاحِدُ بِمَا أَتَانَا بِهِ الْقَدَرُ. قَالَ فَتَرَهُ : إِنَّ الْقَدَرَ لَكَمَا ذَكَرْتَ. لَكِنْ لَا يَمْنَعُ ذَلِكَ الْحَازِمَ مِنْ تَوْقِي الْمَخَافِ وَالْإِحْتِرَاسِ مِنَ الْمَكَارِهِ، وَإِلَّا كَانَ الْمَرِيضُ غَيْرَ مُصِيبٍ فِي طَلِبِهِ الطَّبِيبَ، وَكَانَ أَهْلُ الْمَصَائِبِ يَتَرَكُونَ النَّظَرَ فِيمَا فِيهِ الْفَرْجُ لَهُمْ. وَلَا يَنْفَعُ الْحَذَرُ وَالْإِحْتِرَاسُ مَعَ الْقَضَاءِ، لَكِنْ الْعَاقِلُ يَجْمَعُ مَعَ التَّضَدِّيقِ بِالْقَدَرِ الْأَخَذَ بِالْخَزْمِ وَالْقُوَّةَ؛ لَعَلَّ مَا يَسْتَسْلِمُ إِلَيْهِ يَكُونُ مَقْدُورًا عَلَيْهِ^(٤). وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ تُكَلِّمُنِي بِغَيْرِ مَا فِي نَفْسِكَ، وَالْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ غَيْرُ صَغِيرٍ؛ لِأَنَّ ابْنَكَ قَتَلَ ابْنِي، وَأَنَا فَقَأْتُ عَيْنَ ابْنِكَ. وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَسْتَفِي بِقَتْلِي وَتَحْتَلِّي عَن نَفْسِي، وَالتَّنَفُّسُ تَأْتِي الْمَوْتَ. وَقَدْ كَانَ يُقَالُ: الْفَاقَةُ بَلَاءٌ، وَالْحُزْنُ بَلَاءٌ، وَقُرْبُ الْعَدُوِّ بَلَاءٌ، وَفِرَاقُ الْأَحِبَّةِ بَلَاءٌ، وَالشَّقْمُ بَلَاءٌ، وَالْهَرَمُ بَلَاءٌ، وَرَأْسُ الْبَلَايَا

(١) ما وتر به : أصيب. المكابرة : المعاندة والمنازعة. أَوْضَعُ : أخس وأدنى. يدينون : يجعلون دينهم الانتقام. الدرك : اللحاق. لا يغتر :

لا يتخددع. المكنون : المستتر.

(٢) مطلقاً : مديماً النظر. العلل : الأسباب. استمر : اتقد واشتعل واضطرم. مصانعة : مداراة ومداينة. تلف : هلاك. مُعْنِيًا : كان ذلك يجديني نفعاً.

(٤) يستسلم : ينقاد. مقدوراً : محتوماً.

(٣) أقرأ عليك السلام : أبلغك إياه. للخلائق : للمخلوقات.

كُلُّهَا الْمَوْتُ^(١). وَلَيْسَ أَحَدٌ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي نَفْسِ الْمُوجِعِ الْحَزِينِ مِمَّنْ ذَاقَ مِثْلَ مَا بِهِ. فَأَنَا مِمَّا فِي نَفْسِي عَالِمٌ بِمَا فِي نَفْسِكَ لِلْمِثْلِ الَّذِي عِنْدِي مِنْ ذَلِكَ، وَلَا خَيْرَ لِي فِي صُحْبَتِكَ، فَإِنَّكَ لَنْ تَتَذَكَّرَ صَنِيعِي بِإِيْنِكَ، وَلَنْ أَتَذَكَّرَ صَنِيعِ إِيْنِكَ بِإِيْنِي إِلَّا أَحَدْتُ ذَلِكَ لِقُلُوبِنَا تَغْيِيرًا. قَالَ الْمَلِكُ: لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِغْرَاضَ عَمَّا فِي نَفْسِهِ، وَلَا يَتَسَاءَلُ وَيُهْمَلُهُ بِحَيْثُ لَا يَذْكُرُ مِنْهُ شَيْئًا، وَلَا يَكُونُ لَهُ فِي نَفْسِهِ مَوْقِعٌ. قَالَ فَتَرَهُ: إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي فِي بَاطِنِ قَدَمِهِ قُرْحَةٌ، إِنْ هُوَ حَرَصَ عَلَى الْمَشْيِ، فَلَا بُدَّ أَنْ تُنْكَأَ قُرْحَتُهُ. وَالرَّجُلَ الْأَرْمَدَ الْعَيْنِ إِذَا اسْتَقْبَلَ بِهَا الرِّيحَ، تَعَرَّضَ لِأَنْ تَزْدَادَ رَمْدًا. وَكَذَلِكَ الْوَاتِرُ إِذَا دَنَا مِنَ الْمُؤْتَرِ، فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَاكِ. وَلَا يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الدُّنْيَا إِلَّا تَوَقَّى الْمَهَالِكِ وَالْمَتَالِفِ، وَتَقْدِيرِ الْأُمُورِ وَقِلَّةِ الْإِتْكَالِ عَلَى الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَقِلَّةِ الْإِغْتِرَارِ بِمَنْ لَا يَأْمَنُ؛ فَإِنَّهُ مِنْ اتَّكَلَ عَلَى قُوَّتِهِ، فَحَمَلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَسْلُكَ الطَّرِيقَ الْمَخُوفَ فَقَدْ سَعَى فِي حَتْفِ نَفْسِهِ^(٢).

وَمَنْ لَا يُقَدِّرُ لِمَطَاقِيهِ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَحَمَلَ نَفْسَهُ مَا لَا تُطِيقُ وَلَا تَحْمِلُ فَقَدْ قَتَلَ نَفْسَهُ، وَمَنْ لَمْ يُقَدِّرْ لِقَمَّتِهِ وَعَظْمَتِهَا فَوْقَ مَا يَسَعُ قُوَّةَ قُرْبَمَا غَصَّ بِهَا قِمَاتٌ. وَمَنْ اغْتَرَّ بِكَلَامِ عَدُوِّهِ وَانْخَدَعَ لَهُ وَضَيَّعَ الْحَزْمَ فَهُوَ أَعْدَى لِنَفْسِهِ مِنْ عَدُوِّهِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ النَّظَرُ فِي الْقَدَرِ الَّذِي لَا يَدْرِي مَا يَأْتِيهِ مِنْهُ، وَلَا مَا يُصْرَفُ عَنْهُ. وَلَكِنْ عَلَيْهِ الْعَمَلُ بِالْحَزْمِ، وَالْأَخْذُ بِالْقُوَّةِ وَمُحَاسَبَةُ نَفْسِهِ فِي ذَلِكَ. وَالْعَاقِلُ لَا يَتَّقَى بِأَحَدٍ مَا اسْتَطَاعَ، وَلَا يُقِيمُ عَلَى خَوْفٍ يَجِدُ عَنْهُ مَذْهَبًا^(٣).

وَأَنَا كَثِيرُ الْمَذَاهِبِ، وَأَرْجُو أَنْ لَا أَذْهَبَ وَجْهًا إِلَّا أَصَبْتُ فِيهِ مَا يُغْنِينِي؛ فَإِنْ خِلَا لَا خَمْسًا مِنْ تَرَوْدَهَنْ كَفَيْتُهُ فِي كُلِّ وَجْهِ، وَأَتَسَنَّهُ فِي كُلِّ غُرْبَةٍ، وَقَوَّيْتُ لَهُ الْبُعِيدَ، وَأَكْتَسَبْتُهُ الْمَعَاشَ وَالْإِخْوَانَ: أَوَّلَاهُنَّ كَفَّ الْأَذَى، وَالثَّانِيَةُ حُسْنُ الْأَدَبِ، وَالثَّالِثَةُ مُجَانِبَةُ الرِّيبِ، وَالرَّابِعَةُ كَرَمُ الْخُلُقِ، وَالْخَامِسَةُ الثَّبَلُ فِي الْعَمَلِ. وَإِذَا خَافَ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ شَيْئًا طَابَتْ نَفْسُهُ عَنِ الْمَالِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالْوَطَنِ، فَإِنَّهُ يَرْجُو الْخَلْفَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَلَا يَرْجُو عَنِ النَّفْسِ^(٤) خَلْفًا. وَشَرُّ الْمَالِ مَا لَا إِنْفَاقَ مِنْهُ، وَشَرُّ الْأَزْوَاجِ الَّتِي لَا تُؤَاتِي بَغْلَهَا، وَشَرُّ الْوَلَدِ الْعَاصِي الْعَاقِ لِوَالِدَيْهِ، وَشَرُّ الْإِخْوَانِ الْخَاذِلُ لِأَخِيهِ عِنْدَ التَّكْبَاتِ وَالشَّدَائِدِ^(٥)، وَالَّذِي يُحْصِي السَّيِّئَاتِ، وَيَتْرُكُ الْحَسَنَاتِ، وَشَرُّ

(١) تشتهي: تنال حاجتك فطبيب نفسك. وتختلني: تخدعني. الفاقة: الفقر. والهزم: الشخوخة.

(٢) قرحة: جراحة متقدمة. تنكأ: تفسر. المتألف: بمعنى المهالك. وتقدير: قياس. الخول: القدرة. حنف نفسه: هلكها.

(٣) ما لا تطيق: ما يصعب عليها تحمله. أعدى: أشد عداوة. القدر: قضاء الله وحكمه. مذهبا: مفرا وطريقا آمنا.

(٤) خللا: خلصا. الأذى: التعدي. الريب: الشكوك. الثبل: الذكاء والنجابة.

(٥) العاق: الذي لا يعرف فضل أبويه ولا يفهمهما حقهما. الخاذل: المتخلى عنه عند الشدائد.

الْمُلُوكِ الَّذِي يَخَافُهُ الْبَرِيُّ، وَلَا يُوَاطَّبُ عَلَى حِفْظِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ، وَشَرُّ الْبِلَادِ بِلَادٌ لَا خِصْبَ فِيهَا وَلَا أَمْنٌ. وَإِنَّهُ لَا أَمْنَ لِي عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ، وَلَا طُمَأْنِينَةً لِي فِي جَوَارِكَ ثُمَّ وَدَّعَ الْمَلِكُ وَطَارَ. فَهَذَا مِثْلُ دَوِي الْأَوْتَارِ الَّذِينَ لَا يَنْبَغِي لِبَعْضِهِمْ أَنْ يَتَّقَ بَعْضُ!

باب

الْأَسَدِ وَابْنِ آوَى النَّاسِكِ

قَالَ دُبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْتَدَا الْفِيلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ ، فَاضْرِبْ لِي مِثْلَ الْمَلِكِ الَّذِي يُرَاجِعُ مَنْ أَصَابَتْهُ مِنْهُ عَقُوبَةٌ مِنْ غَيْرِ جُزْمٍ أَوْ جَفْوَةٍ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ !

قَالَ الْفِيلَسُوفُ : إِنَّ الْمَلِكَ لَوْ لَمْ يُرَاجِعْ مَنْ أَصَابَتْهُ مِنْهُ جَفْوَةٌ عَنْ ذَنْبٍ، أَوْ عَنْ غَيْرِ ذَنْبٍ ظُلْمٍ، أَوْ لَمْ يُظْلَمَ لَأَضَرَّ ذَلِكَ بِالْأُمُورِ^(١). وَلَكِنَّ الْمَلِكَ حَقِيقٌ أَنْ يَنْظُرَ فِي حَالِ مَنْ ابْتُلِيَ بِذَلِكَ، وَيَخْتَبِرَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْمَنَافِعِ؛ فَإِنْ كَانَ مِمَّنْ يُوثِقُ بِهِ فِي رَأْيِهِ وَأَمَانَتِهِ، فَإِنَّ الْمَلِكَ حَقِيقٌ بِالْحَرِصِ عَلَى مُرَاجَعَتِهِ. فَإِنَّ الْمَلِكَ لَا يُسْتَطَاعُ ضَبْطُهُ إِلَّا مَعَ دَوِي الرَّأْيِ، وَهُمْ الْوُزَرَاءُ وَالْأَعْوَانُ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِالْوُزَرَاءِ وَالْأَعْوَانِ، إِلَّا بِالْمُودَّةِ وَالنَّصِيحَةِ، وَلَا مُودَّةٌ وَلَا نَصِيحَةٌ، إِلَّا لِدَوِي الرَّأْيِ وَالْعَفَافِ. وَأَعْمَالُ السُّلْطَانِ كَثِيرَةٌ، وَالَّذِينَ يَحْتَاجُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعَمَالِ وَالْأَعْوَانِ كَثِيرُونَ، وَمَنْ يَجْمَعُ مِنْهُمْ مَا ذَكَرْتُ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْعَفَافِ^(٢) قَلِيلٌ. فَتَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَخْبِرَ وَزَرَءَهُ، وَدَوِي رَأْيِهِ، وَيَرَى مَا عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا يَصْلُحُ أَنْ يُفَكَّرَ فِيهِ، وَيُدَبَّرَهُ وَالْأَيُّجَهُ إِلَى الْأَعْمَالِ إِلَّا مَنْ يَتَّقُ يَدِيهِ وَأَمَانَتِهِ وَعِفَّتِهِ، ثُمَّ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ إِنْغَازٌ مَنْ يَتَّقُ بِهِ لِلْكَشْفِ عَنْ أَعْمَالِهِمْ، وَتَفْقُدِ أُمُورِهِمْ بِالسَّرِّ الْخَفِيِّ، حَتَّى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ إِحْسَانٌ مُخْسِنٍ، وَلَا إِسَاءَةٌ مُسِيءٍ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ تَهَاوَنَ الْمُحْسِنُ، وَاجْتَرَأَ الْمُسِيءُ، وَفِي غَرَضِ ذَلِكَ تَهْلِكُ الرُّعْيَةُ، وَيَفْسُدُ الْمُلْكُ^(٣). وَالْمَثَلُ فِي ذَلِكَ مِثْلُ الْأَسَدِ وَابْنِ آوَى النَّاسِكِ. قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قَالَ الْفِيلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ ابْنَ آوَى، كَانَ يَسْكُنُ فِي بَعْضِ الدَّحَالِ وَكَانَ مُتَرَهِّدًا مُتَعَفِّفًا مَعَ بَنَاتِ آوَى، وَذُنَابٍ وَتَعَالِبٍ، وَلَمْ يَكُنْ يَصْنَعُ مَا يَصْنَعْنَ، وَلَا يُغَيِّرُ، كَمَا يُغَوِّنُ، وَلَا يُهْرِيقُ دَمًا، وَلَا يَأْكُلُ لَحْمًا، وَلَا يُظْلِمُ طَرَفَةً عَيْنٍ. فَخَاصَمَهُ تِلْكَ السَّبَاعُ، وَقُلْنَ: نَحْنُ لَا نَرَى سِيرَتَكَ، وَلَا

(١) جفوة: قطيعة. (٢) ويخبر: يختبر. والأعوان: المساعدون.

(٣) إنفاذ: إرسال. تهاون: استخف وأهمل. غرض: جانب.

رَأَيْكَ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ تَزْهْدِكَ، مَعَ أَنَّ تَزْهْدَكَ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا، وَأَنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكُونَ إِلَّا كَأَحَدِنَا، تَسْعَى مَعْنَا، وَتَفْعَلُ فِعْلَنَا، وَأَيُّ شَيْءٍ يُشْبِهُ كَفَّكَ عَنِ الدَّمَاءِ، وَعَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ ^(١). قَالَ ابْنُ أَوَى: إِنَّ صُحْبَتِي إِذَا كُنَّ لَا تُؤْتِنُنِي إِذَا لَمْ أَوْتُمْ نَفْسِي؛ لِأَنَّ الْأَثَامَ لَيْسَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَمَاكِينِ وَالْأَصْحَابِ، وَلَكِنَّهَا مِنْ قِبَلِ الْقُلُوبِ وَالْأَعْمَالِ. وَلَوْ كَانَ صَاحِبُ الْمَكَانِ الصَّالِحِ يَكُونُ عَمَلُهُ فِيهِ صَالِحًا، وَصَاحِبُ الْمَكَانِ السَّيِّئِ يَكُونُ عَمَلُهُ فِيهِ سَيِّئًا كَانَ حِينَئِذٍ مَنْ قَتَلَ النَّاسِكَ فِي مُحَارَبَةٍ لَمْ يَأْتُمْ، وَمِنْ اسْتَحْيَاهُ فِي مَعْرَكَةِ الْقِتَالِ أَتَمَّ. وَإِنِّي إِنَّمَا صَحْبْتُكَ بِنَفْسِي، وَلَمْ أَصْحَبْكَ بِقَلْبِي وَأَعْمَالِي؛ لِأَنِّي أَغْرِفُ ثَمَرَةَ الْأَعْمَالِ، فَلَزِمْتُ حَالِي، وَإِنَّمَا صَحْبْتُكَ مَوَدَّةً مِنِّي لَكُنَّ ^(٢). فَإِنْ كَانَتْ صُحْبَتِي تَضُرُّكَ، فَالْأَمَاكِينُ وَالْمَوَاضِعُ كَثِيرَةٌ. وَثَبَّتَ ابْنُ أَوَى عَلَى حَالِهِ تِلْكَ، وَاسْتَهْتَرَ بِالنَّسِكَ وَالتَّزْهَدِ، حَتَّى بَلَغَ ذَلِكَ أَسَدًا كَانَ مَلِكَ تِلْكَ النَّاحِيَةِ، فَزَغِبَ فِيهِ لِمَا بَلَغَهُ عَنْهُ مِنَ الْعَفَافِ وَالتَّزَاهِيَةِ وَالتَّزْهَدِ وَالْأَمَانَةِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ يَسْتَدْعِيهِ، فَلَمَّا حَضَرَ كَلَّمَهُ وَأَنَسَهُ، فَوَجَدَهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ عَلَى غَرَضِهِ. ثُمَّ دَعَاهُ بَعْدَ أَيَّامٍ إِلَى صُحْبَتِهِ، وَقَالَ لَهُ: تَعْلَمُ أَنَّ عُمَالِي كَثِيرٌ وَأَعْوَانِي جَمٌّ غَفِيرٌ، وَأَنَا مَعَ ذَلِكَ إِلَى الْأَعْوَانِ مُحْتَاجٌ. وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ عَفَافٌ وَأَدَبٌ وَعَقْلٌ وَدِينٌ، وَقَدْ اخْتَبَرْتُكَ فَوَجَدْتُكَ كَذَلِكَ، فَازْدَدْتُ فِيكَ رَغْبَةً، وَأَنَا مُؤَلِّيكَ مِنْ عَمَلِي جَسِيمًا، وَرَافِعُكَ إِلَى مَنْزِلَةِ شَرِيفَةٍ، وَجَاعِلُكَ مِنْ خَاصَّتِي ^(٣). قَالَ ابْنُ أَوَى: إِنَّ الْمُلُوكَ أَحْقَاءُ بِاخْتِيَارِ الْأَعْوَانِ، فِيمَا يَهْتَمُّونَ بِهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَأُمُورِهِمْ مِمَّنْ لَهُمُ الْخِبْرَةُ بِذَلِكَ، وَهُمْ أُخْرَى أَلَا يَكْرَهُوا عَلَى ذَلِكَ أَحَدًا؛ فَإِنَّ الْمُكْرَةَ لَا يَسْتَطِيعُ الْمُبَالِغَةُ فِي الْعَمَلِ. وَإِنِّي لِعَمَلِ السُّلْطَانِ كَارٍ، وَلَيْسَ لِي بِهِ تَجَرِبَةٌ وَلَا بِالسُّلْطَانِ رِفْقٌ، وَأَنْتَ مَلِكُ السَّبَاعِ، وَعِنْدَكَ مِنْ أَجْنَاسِ الْوُحُوشِ عَدَدٌ كَثِيرٌ فِيهِمْ أَهْلُ نُبْلِ وَقُوَّةٍ، وَلَهُمْ عَلَى الْعَمَلِ جَوْصٌ، وَعِنْدَهُمْ بِهِ وَبِالسُّلْطَانِ رِفْقٌ ^(٤)، فَإِنْ اسْتَعْمَلْتَهُمْ أَغْنَوْا عَنْكَ، وَاعْتَبَطُوا لِأَنفُسِهِمْ بِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ الْأَسَدُ: دَعْ عَنْكَ هَذَا فَإِنِّي غَيْرُ مُعْفِيكَ مِنْ الْعَمَلِ! قَالَ ابْنُ أَوَى: إِنَّمَا يُقَدِّمُ عَلَى خِدْمَةِ السُّلْطَانِ غَيْرُ هَائِبٍ رَجُلَانِ لَسْتُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا: إِمَّا مُصَانِعٌ يَنَالُ حَاجَتَهُ بِفُجُورِهِ، وَيَسْلَمُ بِمُصَانِعَتِهِ. وَإِمَّا هَيِّئَ لَا يَحْسُدُهُ أَحَدٌ. وَأَمَّا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَخْدُمَ السُّلْطَانَ بِالصَّدْقِ وَالْعَفَافِ غَيْرَ خَالِطٍ ذَلِكَ بِمُصَانِعَتِهِ، فَقُلْ أَنْ يَسْلَمَ عَلَى ذَلِكَ، لِأَنَّهُ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ عَدُوُّ السُّلْطَانِ وَصَدِيقُهُ بِالْعَدَاوَةِ وَالْحَسَدِ ^(٥). أَمَّا الصَّدِيقُ فَيَنَافِسُهُ فِي مَنْزِلَتِهِ، وَيَتَغَنَّى عَلَيْهِ

(١) الذِّحَالُ: جَمْعُ دَخَلٍ. وَهُوَ ثَقْبٌ فَمِنْهُ ضَيْقٌ وَأَسْفَلُهُ مَتَسِعٌ. يُغَيِّرُ: يَغْزُو. لَا نَرَى سِيرَتَكَ: لَا نَعْتَقِدُ سُلُوكَكَ.

(٢) لَا تُؤْتِنُنِي: لَا تَجْعَلْنِي أَمَّا خَاطِنًا. مُحَارَبَةٍ: مَكَانَ تَعْبُدُهُ. اسْتَحْيَاهُ: اسْتَبْقَاهُ حَيًّا.

(٣) عَمَالِي: جَمْعُ عَامِلٍ. الْوَلَاةُ الَّذِي أُولَاهِمُ. جَمٌّ غَفِيرٌ: كَثِيرُونَ. مُؤَلِّيكَ: جَاعِلُكَ وَالِيًّا. خَاصَّتِي: أَيِ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيَّ.

(٤) أَحْقَاءُ: جَمْعُ حَقِيقٍ بِمَعْنَى جَدِيدٍ. أُخْرَى: أُوْلَى. يَكْرَهُوا: يَجْبِرُوا. (٥) مُصَانِعٌ: مَدَاهِنٌ مَدْلَسٌ مُدَارٌ. هَيْنٌ: ضَعِيفٌ ذَلِيلٌ.

فِيهَا، وَتُعَادِيهِ لِأَجْلِهَا وَيَشِي عَلَيْهِ كَذِبًا. فَإِذَا لَقِيََتِ الْوِشَايَةَ أَذْنًا وَإِعِيَّةً مِنَ الْمَلِكِ كَانَ فِي ذَلِكَ هَلَاكُهُ. وَأَمَّا عَدُوُّ السُّلْطَانِ، فَيَضْطَعُنْ عَلَيْهِ لِنَصِيحَتِهِ لِسُلْطَانِهِ وَإِعْنَائِهِ عَنْهُ فَيَعْمَلُ عَلَى هَلَاكِهِ، وَيَتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبُ الْمُتَوَنِّينَ. فَإِذَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ هَذَانِ الصَّنَعَانِ، فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْهَلَاكِ. قَالَ الْأَسَدُ: لَا يَكُونَنَّ بَعْغِي أَصْحَابِي عَلَيْكَ وَحَسَدُهُمْ إِلَيْكَ، وَعَدَاوَةُ أَعْدَائِي لَكَ مِمَّا يَغْرِضُ فِي نَفْسِكَ فَأَنْتَ مَعِي، وَأَنَا أَكْفِيكَ ذَلِكَ، وَأَبْلُغُ بِكَ مِنْ دَرَجَاتِ الْكِرَامَةِ وَالْإِحْسَانِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِكَ^(١). قَالَ ابْنُ آوَى: إِنْ كَانَ الْمَلِكُ يُرِيدُ الْإِحْسَانَ إِلَيَّ، فَلْيَدْعُنِي فِي هَذِهِ الْبُرْيَةِ أَعِيشُ آمِنًا، قَلِيلَ الْهَمِّ، رَاضِيًا بِعَيْشِي مِنَ الْمَاءِ وَالْعُشْبِ. فَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ صَاحِبَ السُّلْطَانِ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَذَى وَالْخَوْفِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَا لَا يَصِلُ إِلَى غَيْرِهِ فِي طُولِ عُمْرِهِ، وَأَنَّهُ يَتَّصِلُ إِلَيْهِ النِّفْعُ سَاعَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ هُوَ فِي الْخَوْفِ سَرْمَدًا. وَإِنْ قَلِيلًا مِنَ الْعَيْشِ فِي أَمْنٍ وَطُمَأْنِينَةٍ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعَيْشِ فِي خَوْفٍ وَنَصَبٍ^(٢). قَالَ الْأَسَدُ: قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ؛ فَلَا تَخَفْ شَيْئًا مِمَّا أَرَاكَ تَخَافُ مِنْهُ. وَلَسْتُ أَجِدُ بُدًّا مِنَ الْإِسْتِعَانَةِ بِكَ فِي أَمْرِي. قَالَ ابْنُ آوَى: أَمَّا إِذَا أَتَى الْمَلِكُ إِلَّا ذَلِكَ؛ فَلْيَجْعَلِ الْمَلِكُ لِي عَهْدًا إِنْ بَقِيَ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مِمَّنْ هُوَ فَوْقِي مَخَافَةً عَلَى مَنَزَلَتِي، أَوْ مِمَّنْ هُوَ دُونِي لِيُنَازِعَنِي عَلَى مَنَزَلَتِي، فَذَكَرَ عِنْدَ الْمَلِكِ مِنْهُمْ ذَا كَرٍّ بِلِسَانِهِ، أَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِهِ مَا يُرِيدُ بِهِ تَحْرِيشَ الْمَلِكِ عَلَيَّ أَلَّا يَجْعَلَ فِي أَمْرِي، وَأَنْ يَنْتَبِتَ فِيمَا يُرْفَعُ إِلَيْهِ، وَيُذَكَّرَ عِنْدَهُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَفْحَصَ عَنْهُ؛ ثُمَّ لِيَصْنَعَ مَا بَدَأَ لَهُ. فَإِذَا وَثِقْتُ مِنْهُ بِذَلِكَ أَغْنَتْهُ بِنَفْسِي فِيمَا يَجِبُ إِطَاعَةُ لَهُ، وَعَمَلْتُ لَهُ فِيمَا أَوْلَانِي بِنَصِيحَةٍ وَاجْتِهَادٍ، وَحَرَصْتُ عَلَى أَلَّا أَجْعَلَ لَهُ عَلَى نَفْسِي سَبِيلًا^(٣). قَالَ الْأَسَدُ: لَكَ عَلَيَّ ذَلِكَ وَزِيَادَةٌ. ثُمَّ وَلَاهُ خَزَائِنَهُ، وَاخْتَصَّ بِهِ دُونَ أَصْحَابِهِ، وَزَادَ فِي كِرَامَتِهِ. فَلَمَّا رَأَى أَصْحَابُ الْأَسَدِ ذَلِكَ غَاظَهُمْ وَسَاءَهُمْ؛ فَاجْتَمَعُوا كَيْدَهُمْ، وَاتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يُحَرِّشُوا عَلَيْهِ الْأَسَدَ. وَكَانَ الْأَسَدُ قَدْ اسْتَطَابَ لَحْمًا فَعَزَلَ مِنْهُ مِقْدَارًا، وَأَمَرَ ابْنَ آوَى بِالِاخْتِفَاطِ بِهِ، وَأَنْ يَرْفَعَهُ فِي أَحْصَنِ مَوْضِعٍ طَعَامِيهِ، وَأَحْرَزِهِ، لِيُعَادَ عَلَيْهِ^(٤).

فَأَخَذُوهُ مِنْ مَوْضِعِهِ، وَحَمَلُوهُ إِلَى بَيْتِ ابْنِ آوَى فَخَبَّوهُ فِيهِ، وَلَا عِلْمَ لَهُ بِهِ، ثُمَّ حَضَرُوا يُكَذِّبُونَهُ إِذَا جَرَتْ فِي ذَلِكَ حَالٌ. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِ، دَعَا الْأَسَدُ بَعْدَائِهِ، فَقَفَدَ ذَلِكَ اللَّحْمَ، وَالتَّمَسَّهُ فَلَمْ يَجِدْهُ! وَابْنُ آوَى لَمْ يَشْعُرْ بِمَا صُنِعَ فِي حَقِّهِ مِنَ الْمَكِيدَةِ، وَهُوَ غَائِبٌ فِي خِدْمَةِ

(١) ينافسه في منزلته: يريد أن يغلبه عليها. يشي عليه: من الوشاية وهي الإفساد. يضطعن: يحقد. المنون: الموت.

(٢) فليدعني: يتركني. سمردا: دائما. نصب: تعب.

(٣) أبى: رفض. ينازعني: يخاصمني.

(٤) ولأه خزائنه: جعل له السلطة عليها. واختص به: فضله على غيره وأحبه. . أجمعوا كيدهم: وحدوا كلمتهم. فعزل: نَحَى وأفرد.

أحرزه: أتمعه.

الأسد وأَسْغَالِهِ، فَحَضَرَ الَّذِينَ عَمِلُوا الْمَكِيدَةَ، وَقَعَدُوا فِي الْمَجْلِسِ. ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ سَأَلَ عَنِ
اللَّحْمِ، وَشَدَّدَ فِيهِ وَفِي السُّؤَالِ عَنْهُ، فَتَطَرَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ: فَقَالَ أَحَدُهُمْ قَوْلَ الْمُخْبِرِ النَّاصِحِ:
إِنَّهُ لَا بُدَّ لَنَا أَنْ نُخْبِرَ الْمَلِكَ بِمَا يَصُرُّهُ وَيَنْفَعُهُ، وَإِنْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشُقُّ عَلَيْهِ^(١). وَإِنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّ
ابْنَ آوَى هُوَ الَّذِي ذَهَبَ بِاللَّحْمِ إِلَى مَنْزِلِهِ، لِيَأْكُلَهُ ذُوْنَ الْمَلِكِ. قَالَ الْآخَرُ: مَا أَرَاهُ يَفْعَلُ هَذَا!
وَلَكِنْ انظُرُوا وَافْحَصُوا؛ فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الْخَلَائِقِ شَدِيدَةٌ. فَقَالَ الْآخَرُ: لَعَمْرِي مَا تَلَبَّثُ السَّرَائِرُ أَنْ
تُعْرِفَ، وَأَطْلُتُكُمْ إِنْ فَحَصْتُمْ عَنْ هَذَا وَجَدْتُمْ اللَّحْمَ فِي بَيْتِ ابْنِ آوَى، وَكُلُّ شَيْءٍ يُذَكِّرُ مِنْ
غُيُوبِهِ وَخِيَانَتِهِ، نَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نُصَدِّقَهُ. قَالَ الْآخَرُ: لَيْنَ وَجَدْنَا هَذَا حَقًّا لَمْ تَكُنْ بِالْخِيَانَةِ فَقَطُّ،
وَلَكِنْ مَعَ الْخِيَانَةِ كُفِّرُ النِّعْمَةِ، وَالْجَرَاءَةُ عَلَى الْمَلِكِ. قَالَ الْآخَرُ: أَنْتُمْ أَهْلُ الْفَضْلِ، لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ
أَكْذِبَكُمْ^(٢). وَلَكِنْ سَيَبِينُ هَذَا لَوْ أُرْسِلَ الْمَلِكُ إِلَى بَيْتِهِ مَنْ يُفْتِّشُهُ. قَالَ الْآخَرُ: إِنْ كَانَ الْمَلِكُ
مُفْتِّشًا مَنْزِلَهُ، فَلْيُعْجَلْ؛ فَإِنَّ غُيُوبَهُ وَخَوَاسِيسَهُ مَبْثُوثَةٌ بِكُلِّ مَكَانٍ. وَلَمْ يَزَالُوا فِي هَذَا الْكَلَامِ
وَأَسْبَابِهِ حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِ الْأَسَدِ ذَلِكَ. فَأَمَرَ بَابِنَ آوَى، فَحَضَرَ. فَقَالَ لَهُ: أَيُّنَ اللَّحْمِ الَّذِي
أَمَرْتُكَ بِالْإِحْفَاطِ بِهِ؟ قَالَ: دَفَعْتُهُ إِلَى صَاحِبِ الطَّعَامِ لِيُقَرِّبَهُ إِلَى الْمَلِكِ، فَدَعَا الْأَسَدُ بِصَاحِبِ
الطَّعَامِ، وَكَانَ مِمَّنْ شَايَعَ وَبَايَعَ مَعَ الْقَوْمِ عَلَى ابْنِ آوَى، فَقَالَ: مَا دَفَعْتُ إِلَيَّ شَيْئًا^(٣)! فَأَرْسَلَ الْأَسَدُ
أَمِينًا إِلَى بَيْتِ ابْنِ آوَى لِيَفْتِّشَهُ، فَوَجَدَ فِيهِ ذَلِكَ اللَّحْمَ؛ فَأَتَى بِهِ الْأَسَدَ، فَدَنَا مِنَ الْأَسَدِ ذُتْبَ لَمْ
يَكُنْ يَتَكَلَّمُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَكَانَ يُظْهِرُ أَنَّهُ مِنَ الْعُدُولِ الَّذِينَ لَا يَتَكَلَّمُونَ فِيمَا لَا يَعْلَمُونَ،
حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ. فَقَالَ: بَعْدَ أَنْ أَطَّلَعَ الْمَلِكُ عَلَى خِيَانَةِ ابْنِ آوَى لَا يَغْفِرُونَ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ إِنْ عَفَا
عَنْهُ لَمْ يَطْلُعِ الْمَلِكُ بَعْدَهَا عَلَى خِيَانَةِ خَائِنٍ، وَلَا ذَنْبَ مُذْنِبٍ. فَأَمَرَ الْأَسَدُ بَابِنَ آوَى أَنْ يُخْرَجَ،
وَأَلَّا يُحْتَفَظَ بِهِ^(٤). فَقَالَ بَعْضُ جُلَسَاءِ الْمَلِكِ: إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ رَأْيِ الْمَلِكِ، وَمَعْرِفَتِهِ بِالْأُمُورِ،
كَيْفَ يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرُ هَذَا، وَلَمْ يَعْرِفْ خَبْرَهُ وَمُخَادَعَتَهُ؟ وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنِّي أَرَاهُ سَيَصْفَحُ عَنْهُ
بَعْدَ الَّذِي ظَهَرَ مِنْهُ. فَأَرْسَلَ الْأَسَدُ بَعْضَهُمْ رَسُولًا إِلَى ابْنِ آوَى يَلْتَمِسُ مِنْهُ الْعُذْرَ عَنْ أَمْرِهِ، فَرَجَعَ
إِلَيْهِ الرَّسُولُ بِرِسَالَةٍ كَاذِبَةٍ اخْتَلَقَهَا. فَغَضِبَ الْأَسَدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَمَرَ بَابِنَ آوَى أَنْ يُقْتَلَ، فَعَلِمَتْ أُمُّ
الْأَسَدِ أَنَّهُ قَدْ عَجَلَ فِي أَمْرِهِ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى الَّذِينَ أَمَرُوا بِقَتْلِهِ أَنْ يُرْجُوهُ، وَدَخَلَتْ عَلَى ابْنِهَا

(١) لم يشعر: لم يعلم. المكيدة: المكر والاحتيال. شق: صعب.

(٢) السرائر: الخفايا. نصده: نأتي بما يكون مصداقاً له.

(٣) مَبْثُوثَةٌ: منتشرة. وقع في نفس الأسد: أثر. دفعته: أعطيته. شايع: تابع ووالى. بايع: عاهد وانقاد.

(٤) العدول: محل ثقة الناس. لا يغفون عنه: لا يتركون عقوبته وألا يحتفظ به: أي لا يجعل تحت الحفظ.

فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ بَأَيِّ ذَنْبٍ أَمَرْتُ بِقَتْلِ ابْنِ آوَى؟ فَأَخْبَرَهَا بِالْأَمْرِ. فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ عَجِلْتُ، وَإِنَّمَا يَسْلَمُ الْعَاقِلُ مِنَ النَّدَامَةِ بِتَوَكُّلِ الْعَجَلَةِ وَبِالتَّكَيُّبِ^(١). وَالْعَجَلَةُ لَا يَرَالُ صَاحِبُهَا يَجْتَنِي ثَمَرَةَ النَّدَامَةِ بِسَبَبِ ضَعْفِ الرَّأْيِ. وَمَنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي أُمُورِهِ نَظْرَ مُفَكِّرٍ، كَانَ نَظْرُهُ كَنَظَرِ الَّذِي يَكُونُ بِعَيْنَيْهِ سَبِيلٌ؛ فَيَحْتَلُّ لَهُ أَنَّ أَمَامَهُمَا كَهَيْئَةِ شَعْرَةٍ. وَكَانَ كَالرَّجُلِ الْجَاهِلِ الَّذِي يَسْمَعُ صَوْتَ الْبُعُوضَةِ فِي اللَّيْلِ، فَيَطْلُهَا لِشِدَّةِ صَوْتِهَا شَيْئًا، فَإِذَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ عَلِمَ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِشَيْءٍ. وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحْوَجَ إِلَى التَّوَدَّةِ وَالتَّكَيُّبِ مِنَ الْمُلُوكِ؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ بِزَوْجِهَا، وَالْوَلَدَ بِوَالِدَيْهِ، وَالْمُتَعَلَّمَ بِالْمُعَلِّمِ، وَالْجُنْدَ بِالْقَائِدِ، وَالنَّاسِكَ بِالْدِّينِ، وَالْعَامَّةَ بِالْمُلُوكِ، وَالْمُلُوكَ بِالتَّقْوَى، وَالتَّقْوَى بِالْعَقْلِ، وَالْعَقْلَ بِالتَّكَيُّبِ وَالْأَنَاءَةِ^(٢).

وَرَأْسُ الْحَزْمِ لِلْمَلِكِ مَعْرِفَةُ أَصْحَابِهِ، وَإِنْزَالُهُمْ مَنَازِلَهُمْ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ، وَاتِّهَامُهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَإِنَّهُ لَوْ وَجَدَ بَعْضُهُمْ إِلَى هَلَاكِ بَعْضٍ سَبِيلًا لَفَعَلَ. وَقَدْ جَرَّبْتُ ابْنَ آوَى، وَبَلَوْتُ رَأْيَهُ وَأَمَانَتَهُ وَمُرُوءَتَهُ، ثُمَّ لَمْ تَزَلْ مَادِحًا لَهُ رَاضِيًا عَنْهُ، وَقَدْ اتَّهَمْتُهُ بِشَيْءٍ لَا صِحَّةَ لَهُ، وَلَا تَعْلَمُ صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ عَمَلُ أَهْلِ الْكَذِبِ وَالْحَسَدِ وَالْخِيَانَةِ مِنْ وَزَارَائِكَ. لِأَنَّ الْمَلِكَ إِذَا تَهَاوَنَ فِي أَمْرِ وَزَرَائِهِ، وَتَعَافَلَ عَنْهُمْ، دَخَلَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ مَا تُكْرَهُ عَاقِبَتُهُ. وَالْمَلِكُ أَخْبَرُ مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ أَنَّ الْأَشْرَارَ يَحْسُدُونَ الْأَخْيَارَ، وَيَرْقُبُونَهُمْ؛ لِيُوقِعُوا بِهِمْ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَسْتَحِينَهُ بَعْدَ ارْتِضَائِهِ إِثَّاهُ، وَاتِّمَانِهِ لَهُ^(٣). وَمُنْذُ مَجِيئِهِ إِلَى الْآنَ لَمْ يَطْلُعْ لَهُ عَلَى خِيَانَةٍ إِلَّا عَلَى الْبَغْفَةِ وَالنَّصِيحَةِ، وَمَا كَانَ مِنْ رَأْيِ الْمَلِكِ أَنْ يُعْجَلَ عَلَيْهِ لِأَجْلِ طَابَقِ لَحْمٍ! وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ حَقِيقٌ أَنْ تَنْظُرَ فِي حَالِ ابْنِ آوَى. وَلَتَعْلَمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَعَرَّضُ لِلْحَمِّ وَلَا يَأْكُلُهُ فَكَيْفَ يَلْحَمَ اسْتَوْدَعْتَهُ إِثَّاهُ؟! وَلَعَلَّ الْمَلِكَ إِنْ فَحَصَ عَنْ ذَلِكَ، ظَهَرَ لَهُ أَنَّ ابْنَ آوَى لَهُ خُصَمَاءُ هُمُ الَّذِينَ اتَّخَمَزُوا بِهَذَا الْأَمْرِ، وَهُمْ الَّذِينَ ذَهَبُوا بِاللَّحْمِ إِلَى بَيْتِهِ، فَوَضَعُوهُ فِيهِ^(٤). فَإِنَّ الْجِدَادَةَ إِذَا كَانَ فِي رِجْلِهَا قِطْعَةُ لَحْمٍ، اجْتَمَعَ عَلَيْهَا سَائِرُ الطَّيْرِ، وَالْكَلْبُ إِذَا كَانَ مَعَهُ عَظْمٌ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْكِلَابُ. وَابْنُ آوَى مُنْذُ كَانَ إِلَى الْيَوْمِ نَافِعٌ، وَكَانَ مُحْتَمِلًا لِكُلِّ ضَرَرٍ فِي جَنْبِ مُنْفَعَةٍ تَصِلُ إِلَيْكَ، وَلِكُلِّ غَنَاءٍ يَكُونُ لَكَ فِيهِ رَاحَةٌ، وَلَمْ يَكُنْ يَطْوِي دُونَكَ سِرًّا. فَبَيْنَمَا أُمُّ الْأَسَدِ تَقْصُصُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْمَقَالَةَ، إِذْ دَخَلَ عَلَيْهِ

(١) خيه: خيشه وغشه. اختلقها: افترها. يرجئوه: يؤجلوه.

(٢) سَبَلٌ: شبه غشاوة تعرض للعين. فيخيل له: يتوهم.

(٣) طبقاتهم: مراتبهم. واتهامه: إدخاله التهمة والظن. وبلوت رأيه: اختبرته. ليوقعوا بهم: ليهلكوهم. يستخينه: يحاول خيانه.

(٤) طابق لحم: وعاء يطبخ فيه.

بَعْضُ ثِقَاتِهِ، فَأَحْبَرَهُ بِبَرَاءَةِ ابْنِ آوَى فَقَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ: إِنَّ الْمَلِكَ بَعْدَ أَنْ اطَّلَعَ عَلَى بَرَاءَةِ ابْنِ آوَى حَقِيقٌ أَلَّا يَتَسَاهَلَ مَعَ مَنْ سَعَى بِهِ لِقْلًا يَتَجَرَّعُوا عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ لِكَيْلًا يَغُودُوا إِلَى مِثْلِهِ^(١). وَلَا تَحْتَقِرْ مَا فَعَلُوا مَعَكَ؛ فَإِنَّ الْعُشْبَ وَإِنْ كَانَ لَا قُوَّةَ لَهُ يُصْنَعُ مِنْهُ الْحَبْلُ الَّذِي يُوثَقُ بِهِ الْفِيلُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُرَاجَعَ فِي أَمْرِ الْكُفُورِ لِلْحُسْنَى، وَالْجَرِيِّ عَلَى الْغَدْرِ، وَالزَّاهِدِ فِي الْخَيْرِ، وَالَّذِي لَا يُوقِنُ بِالْآخِرَةِ، وَيَنْبَغِي أَنَّهُ يُجْزَى بِعَمَلِهِ. وَقَدْ عَرَفْتُ شُرْعَةَ الْعُصْبِ، وَفَرَطَ الْهَفْوَةِ، وَمَنْ سَخِطَ بِالْيَسِيرِ لَمْ يَتَلَعْ رِضَاهُ بِالْكَثِيرِ، وَالْأَوَّلَى لَكَ أَنْ تُرَاجَعَ ابْنُ آوَى، وَتَعْطِفَ عَلَيْهِ، وَلَا يُؤْتَسَّكَ مِنْ مُنَاصَحَتِهِ، مَا فَرَطَ مِنْكَ إِلَيْهِ مِنَ الْإِسَاءَةِ؛ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَنْبَغِي تَزُكُّهُ عَلَى حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَهُوَ مَنْ عُرِفَ بِالصَّلَاحِ وَالْكَرَمِ، وَحُسْنِ الْعَهْدِ وَالشُّكْرِ وَالْوَفَاءِ وَالْمَحَبَّةِ لِلنَّاسِ، وَالسَّلَامَةِ مِنَ الْحَسَدِ، وَالْبُعْدِ مِنَ الْأَذَى وَالِإِحْتِمَالِ لِلِإِخْوَانِ وَالْأَصْحَابِ، وَإِنْ ثَقُلْتَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ الْمُثُونَةُ^(٢).

وَأَمَّا مَنْ يَنْبَغِي تَزُكُّهُ؛ فَهُوَ مَنْ عُرِفَ بِالشَّرَاسَةِ، وَلُؤْمِ الْعَهْدِ، وَقِلَّةِ الشُّكْرِ وَالْوَفَاءِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الرَّحْمَةِ وَالْوَرَعِ، وَاتَّصَفَ بِالْجُحُودِ لِثَوَابِ الْآخِرَةِ وَعِقَابِهَا. وَقَدْ عَرَفْتُ ابْنَ آوَى وَجَرَّتُهُ، وَأَنْتَ حَقِيقٌ بِمُوَاصَلَتِهِ. فَدَعَا الْأَسَدُ بِابْنِ آوَى، وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ مِمَّا كَانَ مِنْهُ، وَوَعَدَهُ خَيْرًا وَقَالَ: إِنِّي مُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ، وَرَأْدُكَ إِلَيَّ مَثَرَتِكَ^(٣). فَقَالَ ابْنُ آوَى: هَذَا الَّذِي خِفْتُ مِنْهُ فِي أَوَّلِ اتِّصَالِي بِكَ، وَالَّذِي لِأَجْلِهِ امْتَنَعْتُ مِمَّا عَرَضَتْهُ عَلَيَّ مِنْ صُحْبَتِكَ، وَتَوَلَّيْتُ خِدْمَتِكَ. وَإِنْ شَرَّ الْأَخِلَاءِ مِنَ التَّمَسُّ بِمَنْفَعَةِ نَفْسِهِ بِضَرِّ أَخِيهِ، وَمَنْ كَانَ غَيْرَ نَازِلٍ لَهُ كَنْظَرُهُ لِنَفْسِهِ، أَوْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُرْضِيَهُ بِغَيْرِ الْحَقِّ لِأَجْلِ اتِّبَاعِ هَوَاهُ، وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ ذَلِكَ بَيْنَ الْأَخِلَاءِ.

وَقَدْ كَانَ مِنَ الْمَلِكِ إِلَيَّ مَا عَلِمَ، وَلَا يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَطْمَئِنَّ إِلَى مَنْ عَاقَبَهُ أَشَدُّ الْعُقُوبَةِ مِنْ نَزْعِهِ عَنْ عَمَلِهِ، أَوْ أَخَذَ مَالَهُ بِغَيْرِ ذَنْبٍ، أَوْ مَنْ كَانَ لِلْكَرَامَةِ أَهْلًا، فَلَمْ يَعْرِفْ لَهُ ذَلِكَ، وَلَمْ يُعْطِهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ، أَوْ كَانَ مَظْلُومًا، وَلَمْ يَنْظُرْ فِي أَفْرِهِ، أَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الطَّمَعِ، فَلَمْ يُصَبَّ مَا يَرْجُوهُ، أَوْ كَانَ بَيْنَ قَوْمٍ، قَدْ اجْتَرَمُوا جَرِيمَةً هُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ، فَأَخَذَ هُوَ بِهَا مِنْ بَيْنِهِمْ، وَخَلَّى سَبِيلَهُمْ^(٤).

(١) عتاء: تعب. يطوى دونك سراً: يكتمه عنك. سعى به: نتم عليه ووشى به.

(٢) يوثق به: يقيد. الكفور: المجاهد والمنكر. لا يوقن: لا يعلم. فرط: سبق وعجلة. الهفوة: السقطة والزلة. يوتسك: يقطع أملاك. فرط: سبق وتقدم.

(٣) الورع: التقوى. الجحود: الإنكار. الثواب: الجزاء.

(٤) يطمئن إلى ذلك: يسكن ويؤمن. أهلاً: مستحقاً. اجترموا جريمة: أذنبوا ذنباً. فأخذ: عوقب. خلَّى سبيلهم: تركوا.

فَأَمْتَالُ هَؤُلَاءِ لَا يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَصْحَبَهُمْ، وَأَنَا أَيُّهَا الْمَلِكُ أَحَدُ هَؤُلَاءِ، فَلَعَلَّ الْمَلِكَ يَقُولُ : إِنَّ ابْنَ آوَى لَا يَنْسَى الَّذِي لَقِيَهُ مِنَ الْهَوَانِ فَيَقْتَصُّ مِنِّي . وَأَنَا - يَعْلَمُ اللَّهُ - أَنْ لَيْسَ فِي قَلْبِي شَيْءٌ مِنْ قَبْلِ هَذَا، وَإِنَّمَا خَوْفِي أَنْ يَفْعَلُوا بِي ذَلِكَ مَرَّةً أُخْرَى؛ فَلَا يَغْلُظَنَّ عَلَى نَفْسِ الْمَلِكِ مَا أَخْبِرُهُ أَنِّي بِهِ غَيْرُ وَائِقٍ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَصْحَبَهُ^(١) . وَأَنَّ الْمَلِكَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَصْحَبَ مَنْ كَانَ مِثْلِي، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَرْفُضَهُ أَصْلًا؛ فَإِنَّ ذَا السُّلْطَانِ إِذَا عَزَلَ كَانَ مُسْتَحَقًّا لِلْكَرَامَةِ فِي حَالَةِ إِعْبَادِهِ، وَالْإِقْصَاءِ لَهُ. فَلَمْ يَلْتَفِتِ الْأَسَدُ إِلَى كَلَامِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: إِنِّي قَدْ بَلَوْتُ طِبَاعَكَ وَأَخْلَاكَ وَجَرَّبْتُ أَمَانَتَكَ وَوَفَاءَكَ، وَعَرَفْتُ كَذِبَ مَنْ مَحَلَّ بِكَ، وَإِنِّي مُنْزِلُكَ مِنْ نَفْسِي مَنَزِلَةَ الْأَخْيَارِ الْكَرَمَاءِ، وَالْكَرِيمِ تُنْسِيهِ الْحَلَّةَ الْوَاحِدَةَ مِنَ الْإِحْسَانِ الْخِلَالَ الْكَثِيرَةِ مِنَ الْإِسَاءَةِ^(٢) . وَقَدْ عُدْنَا إِلَى الثِّقَةِ بِكَ، فَعُدَّ إِلَى الثِّقَةِ بِنَا؛ فَإِنَّهُ كَائِنٌ لَنَا وَلَكَ بِذَلِكَ غِطْطَةٌ وَسُرُورٌ. فَعَادَ ابْنُ آوَى إِلَى وِلَايَةِ مَا كَانَ يَلِي، وَضَاعَفَ لَهُ الْأَسَدُ الْكَرَامَةَ، وَلَمْ تَرُدَّهُ الْأَيَّامُ إِلَّا تَقَرُّبًا مِنْهُ .

بَاب

إِيلَادَ وَبِلَادَ وَإِيرَاخَتَ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَتَذَبَا الْفَيْلَسُوفُ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ ؛ فَاضْرِبْ لِي مَثَلًا فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْمَلِكِ أَنْ يُلْزَمَ بِهَا نَفْسُهُ، وَيَحْفَظَ مُلْكُهُ، وَيُثَبَّتَ بِهَا سُلْطَانُهُ، وَيَكُونَ ذَلِكَ رَأْسَ أَمْرِهِ، وَمِلَاكُهُ، أَمْرُ الْحِلْمِ، أَمْرُ الْمُرُوءَةِ، أَمْرُ الشَّجَاعَةِ، أَمْرُ الْجُودِ^(٣) ؟ قَالَ يَتَذَبَا: إِنَّ أَحَقَّ مَا يَحْفَظُ بِهِ الْمَلِكُ مُلْكُهُ - الْحِلْمُ -، وَبِهِ تُثَبَّتُ السُّلْطَنَةُ. وَالْحِلْمُ رَأْسُ الْأُمُورِ، وَمِلَاكُهَا وَأَجُودُ مَا كَانَ فِي الْمُلُوكِ .

كَالَّذِي زَعَمُوا مِنْ أَنَّهُ كَانَ مَلِكٌ يُدْعَى بِلَادَ، وَكَانَ لَهُ وَزِيرٌ يُدْعَى إِيلَادَ، وَكَانَ مُتَعَبِّدًا نَاسِكًا. وَإِنَّ الْمَلِكَ نَامَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَرَأَى فِي مَنَامِهِ ثَمَانِيَةَ أَحْلَامٍ أَفْرَعَتْهُ، فَاسْتَيْقَظَ مَرْعُوبًا. فَدَعَا بِالْبَرَاهِمَةِ، وَهُمْ النَّسَّاكُ لِيَعْبُرُوا رُؤْيَاهُ؛ فَلَمَّا حَضَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ، قَصَّ عَلَيْهِمْ مَا رَأَى، فَقَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ: لَقَدْ رَأَى الْمَلِكُ عَجَبًا، فَإِنْ أَهْمَلْنَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ جِنَاهُ بِتَأْوِيلِهِ^(٤) . قَالَ الْمَلِكُ : قَدْ أَهْمَلْتُكُمْ؛ فَحَرَّجُوا مِنْ

(١) الهوان: الذل والاحتقار. لا يغلظن: لا يصعبن.

(٢) ذا السلطان: صاحب السلطة. والإقصاء: الإبعاد. محل بك: كادك بسعاية. الخلة: الخصلة. (٣) يلي: يتولى. بلاكه: قوامه.

(٤) ملكه: ما يملكه ويولي عليه. السلطنة: المملكة. البراهمة: كما عرفت من قبل كهنة. ليمبروا رؤياه: يفسروا حلمه الذي رآه في النوم أخير هو أم ١٩.

عِنْدِهِ ثُمَّ اجْتَمَعُوا فِي مَنْزِلِ أَحَدِهِمْ؛ وَاتَّخَمُوا بَيْنَهُمْ وَقَالُوا : قَدْ وَجَدْتُمْ عَلِمًا وَاسِعًا تُدْرِكُونَ بِهِ ثَأْرَكُمْ ، وَتَنْتَقِمُونَ مِنْ عَدُوِّكُمْ ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ قَتَلَ مِنَّا بِالْأَمْسِ اثْنَيْ عَشَرَ الْقَوْمَ . وَهَذَا هُوَ قَدْ أَطْلَعَنَا عَلَى سِرِّهِ ، وَسَأَلْنَا تَفْسِيرَ رُؤْيَاهُ . فَهَلُمُّ نُلْغِظْ لَهُ الْقَوْلَ ، وَنُخَفِّهِ حَتَّى يَحْمِلَهُ الْفَرْقُ وَالْجَرْعُ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ الَّذِي نُرِيدُ . وَنَأْمُرُهُ؛ فَتَقُولُ : اذْفَعْ إِلَيْنَا أَجْبَاءَكَ ، وَمَنْ يَكْرُمُ عَلَيْكَ حَتَّى نَقْتُلَهُمْ؛ فَإِنَّا قَدْ نَظَرْنَا فِي كُتُبِنَا ، فَلَمْ نَرَ أَنْ يُدْفَعَ عَنْكَ مَا رَأَيْتَ لِنَفْسِكَ ، وَمَا وَقَعَتْ فِيهِ مِنْ هَذَا الشَّرِّ ، إِلَّا بِقَتْلِ مَنْ نُسَمِّي لَكَ ^(١) . فَإِنْ قَالَ الْمَلِكُ : وَمَنْ تُرِيدُونَ أَنْ تَقْتُلُوا؟ سَمَوْهُمْ لِي . قُلْنَا: نُرِيدُ الْمَلِكَةَ إِيرَاخَتْ أُمَّ جُويِرَ الْمُحْمُودَةِ ، أَكْرَمَ نِسَائِكَ عَلَيْكَ . وَنُرِيدُ جُويِرَ أَحَبِّ نِسَائِكَ إِلَيْكَ ، وَأَفْضَلَهُمْ عِنْدَكَ ، وَنُرِيدُ ابْنَ أَخِيكَ الْكَرِيمِ ، وَإِلَادَ خَلِيلِكَ ، وَصَاحِبَ أَمْرِكَ . وَنُرِيدُ كَالَا الْكَاتِبِ صَاحِبَ سِرِّكَ ، وَسَيِّفَكَ الَّذِي لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ ، وَالْفِيلَ الْأَبْيَضَ الَّذِي لَا تَلْحَقُهُ الْخَيْلُ ، وَالْفَرَسَ الَّذِي هُوَ مَرْكَبُكَ فِي الْقِتَالِ ، وَنُرِيدُ الْفِيلَيْنِ الْآخَرَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ اللَّذَيْنِ يَكُونَانِ مَعَ الْفِيلِ الذَّكَرِ ، وَنُرِيدُ الْبُخْتِيَّ السَّرِيعَ الْقَوِيَّ ، وَنُرِيدُ كِبَارِيُونَ الْحَكِيمَ الْفَاضِلَ الْعَالِمَ بِالْأُمُورِ لِنَسْتَقِمَّ مِنْهُ بِمَا فَعَلَ بِنَا ^(٢) . ثُمَّ نَقُولُ لَهُ : إِنَّمَا يَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ، أَنْ تَقْتُلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ سَمَيْنَاهُمْ لَكَ ، ثُمَّ تَجْعَلَ دِمَاءَهُمْ فِي حَوْضٍ ، تَمْلُؤُهُ ، ثُمَّ تَقْعُدُ فِيهِ . فَإِذَا خَرَجْتَ مِنَ الْحَوْضِ ، اجْتَمَعْنَا نَحْنُ مَعَاشِرَ الْبَرَاهِمَةِ مِنَ الْأَفَاقِ الْأَرْبَعَةِ نَجُولُ حَوْلَكَ ، فَتَرْوِيكَ ، وَتَنْفِلُ عَلَيْكَ ، وَنَمَسِّحُ عَنْكَ الدَّمَ ، وَنَغْسِلُكَ بِالْمَاءِ وَالذَّهْنِ الطَّيِّبِ . ثُمَّ نَقُومُ إِلَى مَنْزِلِكَ الْبَهِيِّ فَيَدْفَعُ اللَّهُ بِذَلِكَ الْبَلَاءِ الَّذِي نَخَوْفُهُ عَلَيْكَ ^(٣) .

فَإِنْ صَبَرَتْ أَيُّهَا الْمَلِكُ ، وَطَابَتْ نَفْسُكَ عَنْ أَجْبَائِكَ الَّذِينَ ذَكَرْنَا لَكَ ، وَجَعَلْتَهُمْ فِدَاكَ ، تَخَلَّصْتَ مِنَ الْبَلَاءِ ، وَاسْتَقَامَ لَكَ مُلْكُكَ وَسُلْطَانُكَ ، وَاسْتَحْلَفْتَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ أَحْبَبْتَ . وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ تَخَوَّفْنَا عَلَيْكَ أَنْ يُعَصِّبَ مُلْكُكَ أَوْ تَهْلِكَ . فَإِنْ هُوَ أَطَاعَنَا فِيمَا نَأْمُرُهُ قَتَلْنَاهُ شَرَّ قِتْلَةٍ . فَلَمَّا أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى مَا اتَّخَمُوا فِيهِ ، رَجَعُوا إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ وَقَالُوا لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّا نَظَرْنَا فِي كُتُبِنَا تَفْسِيرَ مَا رَأَيْتَ ، وَفَحَصْنَا عَنِ الرَّأْيِ فِيمَا بَيْنَنَا ^(٤) . فَلَتَكُنْ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الطَّاهِرُ الصَّالِحُ - الْكَرَامَةُ . وَلَسْنَا نَقْدِرُ أَنْ نُغْلِمَكَ بِمَا رَأَيْنَا إِلَّا أَنْ تَخْلُوَ بِنَا وَتَوُثِّمَنَا؛ فَأَخْرَجَ الْمَلِكُ مَنْ

(١) واتتمروا: تشاوروا كما سبق. نغظ له القول: نخشن ونسي. الفرق: الخوف.

(٢) البختن: واحد البخت وهي الإبل الخراسانية.

(٣) معاشر: جماعة. الآفاق: الجهات. وتنفل عليك: كما يفعل السحرة الذين ينفثون في العقد (وينفخون نفخا ممزوجا بريقهم). البهي: الجميل.

(٤) يغصب ملكك: يأخذه ويستولي عليه غيرك قهرا.

كَانَ عِنْدَهُ، وَخَلَا بِهِمْ؛ فَحَدَّثُوهُ بِالَّذِي اتَّخَمُوا فِيهِ، فَقَالَ لَهُمْ: الْمَوْتُ خَيْرٌ لِي مِنَ الْحَيَاةِ؛ إِنْ أَنَا قَتَلْتُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ عَدِيلُ نَفْسِي! وَأَنَا مَيِّتٌ لَا مَحَالَةَ، وَالْحَيَاةُ قَصِيرَةٌ، وَلَسْتُ كُلَّ الدَّهْرِ مَلِكًا، وَإِنَّ الْمَوْتَ عِنْدِي وَفِرَاقَ الْأَحْبَابِ سَوَاءٌ، فَضَلًّا عَمَّا أَرْتَكِبُهُ مِنَ الْإِثْمِ فِي قَتْلِهِمْ! قَالَ لَهُ الْبَرْهَمِيُّونَ: إِنْ أَنْتَ لَمْ تَغْضَبْ أَخْبَرْنَاكَ؛ فَأَذِنَ لَهُمْ، فَقَالُوا: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّكَ لَمْ تَقُلْ صَوَابًا حِينَ تَجْعَلُ نَفْسَ غَيْرِكَ أَعَزَّ عِنْدَكَ مِنْ نَفْسِكَ^(١)، فَاحْتَفِظْ بِنَفْسِكَ وَمُلْكِكَ وَاعْمَلْ هَذَا الَّذِي فِيهِ لَكَ الرَّجَاءُ الْعَظِيمُ عَلَى ثِقَةٍ وَبِقِيَمٍ، وَقَرَّ عَيْنًا بِمُلْكِكَ فِي وُجُوهِ أَهْلِ مَمْلَكَتِكَ الَّذِينَ شَرُفَتْ وَكَرُمَتْ بِهِمْ، وَلَا تَدْعِ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ، وَتَأْخُذَ بِالضَّعِيفِ، فَتُهْلِكَ نَفْسَكَ بِثَارِ الْيَمَنِ تُحِبُّ.

وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ، أَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يُحِبُّ الْحَيَاةَ مَحَبَّةً لِنَفْسِهِ، وَأَنَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ أَحَبَّ مَنْ الْأَحْبَابِ، إِلَّا لِيَتَمَتَّعَ بِهِ فِي حَيَاتِهِ. وَإِنَّمَا قِوَامُ نَفْسِكَ بَعْدَ اللَّهِ بِمُلْكِكَ، وَإِنَّكَ لَمْ تَتَلَّ مُلْكَكَ إِلَّا بِالْمَشَقَّةِ وَالْعَنَاءِ الْكَثِيرِ فِي الشُّهُورِ وَالسَّنِينَ، وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ تَرْفُضَهُ، وَيَهُونَ عَلَيْكَ. فَاسْتَمِعْ كَلَامَنَا، وَانْظُرْ لِنَفْسِكَ مَنَاهَا؛ وَدَعْ مَا سِوَاهَا؛ فَإِنَّهُ لَا خَطَرَ لَهُ^(٢).

فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ أَنَّ الْبَرْهَمِيِّينَ قَدْ أَعْلَظُوا لَهُ فِي الْقَوْلِ، وَاسْتَجَرُّوا عَلَيْهِ فِي الْكَلَامِ اشْتَدَّ غَمُّهُ وَحُزْنُهُ، وَقَامَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانِيهِمْ، وَدَخَلَ إِلَى حُجْرَتِهِ، فَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ يَبْكِي، وَيَتَقَلَّبُ كَمَا تَتَقَلَّبُ السَّمَكَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْمَاءِ وَجَعَلَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ: مَا أَذْرِي أَيُّ الْأَمْرَيْنِ أَعْظَمُ فِي نَفْسِي: الْهَلَكَةُ، أَمْ قَتْلُ أَحِبَّائِي؟! وَلَنْ أَنَالَ الْفَرْخَ مَا عِشْتُ، وَلَيْسَ مُلْكِي بِبَاقٍ عَلَيَّ إِلَى الْأَبَدِ، وَلَسْتُ بِالْمُصِيبِ سُؤْلِي فِي مُلْكِي^(٣)! وَإِنِّي لَرَاهِدٌ فِي الْحَيَاةِ إِذَا لَمْ أَرِ إِيرَاخْتَ وَجُورَ. وَكَيْفَ أَقْدِرُ عَلَى الْقِيَامِ بِمُلْكِي إِذَا هَلَكَ وَزِيرِي إِيلَادُ؟! وَكَيْفَ أَضْبِطُ أَمْرِي إِذَا هَلَكَ فِيلِي الْأَبْيَضُ، وَفَرَسِي الْجَوَادُ وَكَيْفَ أَذْعَى مَلِكًا وَقَدْ قَتَلْتُ مَنْ أَشَارَ الْبَرَاهِمَةُ بِقَتْلِهِ؟! وَمَا أَصْنَعُ بِالدُّنْيَا بَعْدَهُمْ!؟

ثُمَّ إِنَّ الْحَدِيثَ فَشَا فِي الْأَرْضِ بِحُزْنِ الْمَلِكِ وَهَمِّهِ! فَلَمَّا رَأَى إِيلَادُ مَا نَالَ الْمَلِكُ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ، فَكَّرَ فِي حِكْمَتِهِ، وَنَظَرَ، وَقَالَ: مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَسْتَقْبَلَ الْمَلِكَ، فَأَسْأَلَهُ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ نَالَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْعُونِي^(٤). ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى إِيرَاخْتَ فَقَالَ: إِنِّي مُنْذُ خَدَمْتُ الْمَلِكَ إِلَى الْآنَ، لَمْ يَعْمَلْ عَمَلًا إِلَّا بِمَشُورَتِي وَرَأْيِي. وَارَاهُ يَكْتُمُ عَنِّي أَمْرًا لَا أَعْلَمُ مَا هُوَ، وَلَا أَرَاهُ يُظْهِرُ مِنْهُ

(١) تخلو بنا: تنفرد، عدیل نفسی: مثلها.

(٢) العناء: المعاناة والتعب.

(٣) ظهرائيهم: من وسطهم. فخر على وجهه: سقط. سُؤْلِي: مَطْلَبِي.

(٤) فشا: شاع وانتشر.

سَيِّئًا وَإِنِّي رَأَيْتُهُ خَالِيًا مَعَ جَمَاعَةِ الْبَرْهَمِيِّينَ مُنْذُ لَيَالٍ، وَقَدْ اخْتَجَبَ عَنَّا فِيهَا، وَأَنَا خَائِفٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَطْلَعَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَسْرَارِهِ، فَلَسْتُ أَمْنُهُمْ أَنْ يُشِيرُوا عَلَيْهِ بِمَا يَصُرُّهُ، وَيَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْهُ الشُّوْءُ. فَقُومِي وَادْخُلِي عَلَيْهِ، فَاسْأَلِيهِ عَنْ أَمْرِهِ وَسَأَلِيهِ، وَأَخْبِرْنِي بِمَا هُوَ عَلَيْهِ، وَأَعْلِمْنِي، فَإِنِّي لَسْتُ أَقْدِرُ عَلَى الدُّخُولِ عَلَيْهِ؛ فَلَعَلَّ الْبَرْهَمِيِّينَ قَدْ زَيَّنُوا لَهُ أَمْرًا، وَحَمَلُوهُ عَلَى خُطْئَةٍ قَبِيحَةٍ^(١). وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ مِنْ خُلُقِ الْمَلِكِ أَنَّهُ إِذَا غَضِبَ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا، وَسَوَاءٌ عِنْدَهُ صَغِيرُ الْأُمُورِ وَكَبِيرُهَا. فَقَالَتْ إِيرَاخْتُ: إِنَّهُ كَانَ يَتَنَبَّأُ وَيَتَنَبَّأُ الْمَلِكُ بَعْضُ الْعِتَابِ، فَلَسْتُ بِدَاخِلَةٍ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ! فَقَالَ لَهَا إِيْلَادُ: لَا تَحْمِلِي عَلَيْهِ الْحَقْدَ فِي مِثْلِ هَذَا، وَلَا يَخْطُرَنَّ ذَلِكَ عَلَى بَالِكَ، فَلَيْسَ يَقْدِرُ عَلَى الدُّخُولِ عَلَيْهِ أَحَدٌ سِوَاكَ. وَقَدْ سَمِعْتُهُ كَثِيرًا يَقُولُ: مَا اسْتَدَّ غَمِّي، وَدَخَلْتُ عَلَيَّ إِيرَاخْتُ إِلَّا سُرِّيَ ذَلِكَ عَنِّي؛ فَقُومِي إِلَيْهِ، وَاصْفَحِي عَنْهُ، وَكَلِّمِيهِ بِمَا تَعْلَمِينَ أَنَّهُ تَطِيبُ بِهِ نَفْسَهُ، وَيَذْهَبُ الَّذِي يَجِدُهُ، وَأَعْلِمْنِي بِمَا يَكُونُ جَوَابُهُ؛ فَإِنْ بِذَلِكَ لَنَا وَلِأَهْلِ الْمَمْلَكَةِ أَعْظَمُ الرَّاحَةِ^(٢). فَأَنْطَلَقْتُ إِيرَاخْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَى الْمَلِكِ، فَجَلَسْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَالَتْ: مَا الَّذِي يَكُ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَحْمُودُ؟ وَمَا الَّذِي سَمِعْتَ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ؟ فَإِنِّي أَرَاكَ مَحْزُونًا! فَأَعْلِمْنِي مَا يَكُ، فَقَدْ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَحْزَنَ مَعَكَ، وَنُوَاسِيكَ بِأَنْفُسِنَا. فَقَالَ الْمَلِكُ: أَيُّتُهَا الْمَرْأَةُ، لَا تَسْأَلْنِي عَنْ أَمْرِي، فَتَرِيدِنِي غَمًّا وَحُزْنًا! فَإِنَّهُ أَمْرٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَسْأَلْنِي عَنْهُ. قَالَتْ: أَوْ قَدْ نَزَلْتُ عِنْدَكَ مِثْلَةَ مَنْ يَسْتَحِقُّ هَذَا؟! إِنَّمَا أَحْمَدُ النَّاسِ عَقْلًا مَنْ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ النَّازِلَاتُ كَانَ لِنَفْسِهِ أَشَدَّ ضَبْطًا، وَأَكْثَرَهُمْ اسْتِمَاعًا مِنْ أَهْلِ النَّصِيحِ حَتَّى يَنْجُو مِنْ تِلْكَ النَّازِلَةِ بِالْحِيلَةِ وَالْعَقْلِ وَالتَّبَحُّثِ وَالْمُشَاوَرَةِ، فَعَظِيمُ الذَّنْبِ لَا يُقْنِطُ مِنَ الرَّحْمَةِ^(٣).

وَلَا تُدْخِلَنَّ عَلَيْكَ سَيِّئًا مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ؛ فَإِنَّهُمَا لَا يَزِدَانِ سَيِّئًا مَقْضِيًّا إِلَّا أَنَّهُمَا يَنْجِلَانِ الْجِسْمَ، وَيَشْفِيَانِ الْعُدُوَّ. وَالصَّبْرُ عِنْدَ نُزُولِ الْمُصِيبَةِ عِبَادَةٌ، وَسَوْفَ تَحْمَدُ أَمْرَكَ إِنْ أَخْبَرْتَنِي. قَالَ لَهَا الْمَلِكُ: لَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ فَقَدْ شَقَقْتُ عَلَيَّ. وَالَّذِي تَسْأَلْنِي عَنْهُ لَا خَيْرَ فِيهِ؛ لِأَنَّ عَاقِبَتَهُ هَلَاكِي وَهَلَاكُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِي، وَمَنْ هُوَ عَدِيلُ نَفْسِي^(٤)، وَذَلِكَ أَنَّ الْبَرَاهِمَةَ زَعَمُوا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ قَتْلِكَ، وَقَتْلِ جَوِيرٍ، وَكَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ مَوَدَّتِي، وَلَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ

(١) لست آمنهم: لا أطمئن لهم. زينوا له أمرًا: حبيوه إليه وجعلوه يقدم عليه. وحملوه: دفعوه.

(٢) لا تحملي: لا تظهرِي. سُرِّي: كُتِبَ عَنِّي.

(٣) ونواسيك: من المواساة وهي ينزل الإنسان غيره منزلة نفسه في النفع له. والدفع عنه: النازلات: مصائب الدهر. لا يقنط: لا يئس.

(٤) ينجلن الجسم: يصيبانه بالضعف والسقم. شققت على: أصبتي بالمشقة وأوقعتني فيها.

بَعْدُكُمْ، وَهَلْ أَحَدٌ يَسْمَعُ بِهَذَا إِلَّا اغْتَرَاهُ الْحُزْنُ؟! فَلَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ إِبْرَاحُثُ جَرَعَتْ، وَمَنْعَهَا عَقْلُهَا أَنْ تُظْهِرَ لِلْمَلِكِ جَزَعًا فَقَالَتْ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، لَا تَجْزَعْ فَتَحْرُقَ لَكَ الْفِدَاءُ، وَلَكَ فِي سِوَايَ وَمِثْلِي مِنَ الْجَوَارِي مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ. وَلَكِنِّي أَطْلُبُ مِنْكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ حَاجَةً يَحْمِلُنِي عَلَى طَلَبِهَا حُبِّي لَكَ، وَإِثَارِي إِيَّاكَ، وَهِيَ نَصِيحَتِي لَكَ. قَالَ الْمَلِكُ: وَمَا هِيَ؟ قَالَتْ: أَطْلُبُ مِنْكَ أَلَّا تَتَّقَ بَعْدَهَا بِأَحَدٍ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ، وَلَا تُشَاوِرَهُمْ فِي أَمْرِ حَتَّى تَنْتَبِثَ فِي أَمْرِكَ، ثُمَّ تُشَاوِرَ فِيهِ ثِقَاتِكَ مِرَازًا، فَإِنَّ الْقَتْلَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، وَلَسْتُ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ تُخَيِّي مَنْ قَتَلْتُ^(١). وَقَدْ قِيلَ فِي الْحَدِيثِ: إِذَا لَقِيتَ جَوْهَرًا لَا خَيْرَ فِيهِ، فَلَا تُلْقِهِ مِنْ يَدِكَ حَتَّى تُرِيَهُ مَنْ يَعْرِفُهُ، وَأَنْتِ أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَعْرِفُ أَعْدَاءَكَ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَرَاهِمَةَ لَا يُحِبُّونَكَ، وَقَدْ قَتَلَتْ مِنْهُمْ بِالْأَمْسِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، وَلَا تَنْظُرَنَّ أَنْ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا مِنْ أَوْلِيكَ. وَلَعَمْرِي مَا كُنْتُ جَدِيرًا أَنْ تُخْبِرَهُمْ بِرُؤْيَاكَ، وَلَا أَنْ تُطْلِعَهُمْ عَلَيْهَا. وَإِنَّمَا قَالُوا لَكَ مَا قَالُوا لِأَجْلِ الْحَقْدِ الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ؛ لَعَلَّهُمْ يَهْلِكُونَكَ وَيَهْلِكُونَ أَحِبَّاءَكَ وَوَزِيرَكَ؛ فَيَبْلُغُوا قَصْدَهُمْ مِنْكَ. وَأَطْنُكَ لَوْ قِيلَتْ مِنْهُمْ، فَقَتَلْتُ مَنْ أَشَارُوا بِقَتْلِهِ، ظَفَرُوا بِكَ وَغَلَبُواكَ عَلَى مُلْكِكَ، فَيَعُوذُ الْمُلْكُ إِلَيْهِمْ كَمَا كَانَ. فَإِنَّ الشَّجَرَةَ إِذَا أُرِيدَ قَلْعُهَا عُجِدَ أَوَّلًا إِلَى أَصُولِهَا وَمَا تَنْتَبِثُ بِهِ فِي الْأَرْضِ فَقُطِعَتْ ثُمَّ قُلِعَتْ فَهَانَ قَلْعُهَا^(٢). فَانْطَلِقِي إِلَى كِبَارِيِّونَ الْحَكِيمِ، فَهُوَ فِطْنٌ عَالِمٌ؛ فَأَخْبِرِيهِ عَمَّا رَأَيْتَ فِي رُؤْيَاكَ، وَاسْأَلِيهِ عَنْ وَجْهِهَا وَتَأْوِيلِهَا.

فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ سُرِّي عَنْهُ مَا كَانَ يَجِدُهُ مِنَ الْعَمِّ، فَأَمَرَ بِفَرَسِهِ فَأَسْرَجَ، فَرَكِبَهُ ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى كِبَارِيِّونَ الْحَكِيمِ. فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ نَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ، وَسَجَدَ لَهُ وَقَامَ مُطَاطِفًا الرَّأْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْحَكِيمُ: مَا بَالُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ، وَمَالِي أَرَاكَ مُتَغَيِّرَ اللَّوْنِ^(٣)؟. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ ثَمَانِيَةَ أَحْلَامٍ قَصَصْتُهَا عَلَى الْبَرَاهِمَةِ وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ ذَلِكَ عَظِيمٌ أَمْرٌ مِمَّا سَمِعْتُ مِنْ تَغْيِيرِهِمْ لِرُؤْيَايَ، وَأَخْشَى أَنْ يُغْصَبَ مِنِّي مُلْكِي، أَوْ أَنْ أَغْلَبَ عَلَيْهِ! فَقَالَ لَهُ الْحَكِيمُ: إِنْ شِئْتَ قَصَصْتُ عَلَيْكَ أَحْلَامَكَ، وَإِنْ شِئْتَ قَصَصْتُهَا عَلَيْكَ، وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا رَأَيْتَ جَمِيعِهِ. قَالَ الْمَلِكُ: بَلْ مِنْ فَيْدِكَ أَحْسَنُ. قَالَ الْحَكِيمُ: لَا يُخْزِنُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ هَذَا الْأَمْرُ، وَلَا تَخَفْ مِنْهُ.

أَمَّا السَّمَكَتَانِ الْحُمْرَاوَانِ اللَّتَانِ رَأَيْتُهُمَا قَائِمَتَيْنِ عَلَى ذَنَبَيْهِمَا، فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ رَسُولٌ مِنْ مَلِكِ

(١) يحملني: يدفعني. ثقاتك: من تعتمد عليهم من أمتائك.

(٢) تظلمهم عليها: تظهرهم عليهم. عُجِدَ: قُصِدَ.

(٣) وتأويلها: تفسيرها. مطاطنا: خافضا.

هَيْمُونَ يَعْقِدِينَ مُكَلَّلِينَ^(١) بِالذَّرِّ وَالْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ قِيمَتُهُمَا أَرْبَعَةُ آلَافِ رِطْلٍ مِنْ ذَهَبٍ فَيَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ. وَأَمَّا الْوَزَنَانِ اللَّتَانِ رَأَيْتَهُمَا طَارَتَا مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِكَ فَوَقَعَتَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ بَلِّحٍ فَرَسَانِ لَيْسَ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلُهُمَا فَيَقُومَانِ بَيْنَ يَدَيْكَ.

وَأَمَّا الْحَيَّةُ الَّتِي رَأَيْتَهَا تَدِبُ عَلَى رِجْلِكَ الْيُسْرَى، فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ صِنْجِينٍ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِسَيْفٍ خَالِصٍ الْحَدِيدِ لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ.

وَأَمَّا الدَّمُ الَّذِي رَأَيْتَ كَأَنَّهُ خُضِبَ بِهِ جَسَدُكَ، فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ كَازِرُونَ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِإِلْيَاسٍ مُعْجَبٍ يُسَمَّى حَلَّةُ أَرْجَوَانٍ يُضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ^(٢).

وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ مِنْ غَسَلِكَ جِسْمَكَ بِالْمَاءِ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ رَهْزِينَ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِشِيَابِ كَتَّانٍ مِنْ لِبَاسِ الْمُلُوكِ.

وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ مِنْ أَنَّكَ عَلَى جَبَلٍ أَيْضَ، فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ كَيْدُورٍ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِفِيلٍ أَيْضَ لَا تَلْحَقُهُ الْخَيْلُ.

وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ عَلَى رَأْسِكَ شَبِيهَا بِالنَّارِ، فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكِ الْأَرْزَنِ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِإِكْلِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ بِالذَّرِّ وَالْيَاقُوتِ^(٣).

وَأَمَّا الطَّائِرُ الَّذِي رَأَيْتَهُ ضَرَبَ رَأْسَكَ بِمِنتَقَارِهِ فَلَسْتُ مُفَسِّرًا ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَلَيْسَ بِضَارِكَ، فَلَا تَوَجَلَنَّ مِنْهُ، وَلَكِنَّ فِيهِ بَعْضُ السُّخْطِ وَالْإِعْرَاضِ عَمَّا تُحِبُّهُ. فَهَذَا تَفْسِيرُ رُؤْيَاكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ. وَأَمَّا هَذِهِ الْبُرْدُ وَالرُّشْلُ؛ فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَكَ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ جَمِيعًا فَيَقُومُونَ بَيْنَ يَدَيْكَ.

فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ سَجَدَ لِكِبَارِيُونَ وَرَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ. فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ جَاءَتْ الْبَشَائِرُ بِقُدُومِ الرُّشْلِ، فَخَرَجَ الْمَلِكُ فَجَلَسَ عَلَى التَّخْتِ وَأَذِنَ لِلْأَشْرَافِ وَجَاءَتْهُ الْهَدَايَا كَمَا أَخْبَرَهُ كِبَارِيُّونَ الْحَكِيمِ. فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ ذَلِكَ اسْتَدَّ عَجْبُهُ وَفَرَحُهُ مِنْ عِلْمِ كِبَارِيُونَ، وَقَالَ: مَا وَفَّقْتُ حِينَ قَصَصْتُ رُؤْيَايَ عَلَى الْبَرَاهِمَةِ، فَأَمْرُونِي بِمَا أَمْرُونِي بِهِ^(٤). وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَذَارَكَنِي لَهْلَكْتُ وَأَهْلَكْتُ. وَكَذَلِكَ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْمَعَ إِلَّا مِنَ الْأَخِلَاءِ ذَوِي الْعُقُولِ.

(١) بل من فيك: من فمك. أي: أحب أن أسمعها منك. مكَلَّلين: مزِينين.

(٢) يقوم بين يديك: يقف منتصباً. تدب: تسري. خُضِبَ: صُيغ ولَوْن. حَلَّةُ أَرْجَوَانٍ: ثوب أحمر.

(٣) إكليل: تاج، وعصابة تزين بالجوهر، وطلاقة من الورود والأزهار على هيئة التاج تكلل الرأس أو تطوق العنق للفرسان.

(٤) تَوَجَلَنَّ منه: تخافن. البرد: جمع برید بمعنى رسول يحمل رسالة شفوية أو خطية، وقد كان البرید يأتي على الخيل. التخت: سرير الملك.

وَأَنَّ إِيْرَاخْتَ أَشَارَتْ بِالْخَيْرِ فَقَبِلْتُهُ، وَرَأَيْتُ بِهِ النَّجَاحَ، فَضَعُوا الْهَدِيَّةَ بَيْنَ يَدَيْهَا لِتَأْخُذَ مِنْهَا مَا اخْتَارَتْ. ثُمَّ قَالَ لِإِيلَادَ: خُذِ الْإِكْلِيلَ وَالثِّيَابَ، وَاحْمِلْهَا، وَاتَّبِعْنِي بِهَا إِلَى مَجْلِسِ النِّسَاءِ، وَدَعَا الْمَلِكُ إِيْرَاخْتَ، وَحُورَقْنَاهُ أَكْرَمَ نِسَائِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِإِيلَادَ: دَعِ الْكُسُوَّةَ وَالْإِكْلِيلَ بَيْنَ يَدَيَّ إِيْرَاخْتَ، لِتَأْخُذَ أَيَّا شَاءَتْ^(١). فَوُضِعَتِ الْهَدَايَا بَيْنَ يَدَيَّ إِيْرَاخْتَ، فَأَخَذَتْ مِنْهَا الْإِكْلِيلَ، وَأَخَذَتْ حُورَقْنَاهُ كُسُوَّةً مِنْ أَفْخَرِ الثِّيَابِ وَأَحْسَنِهَا. وَإِنَّ الْمَلِكَ زَارَ بَعْدَ ذَلِكَ إِيْرَاخْتَ، فَصَنَعَتْ لَهُ أُرْزًا بِحَلَاوَةٍ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ بِالصَّحْفَةِ وَالْإِكْلِيلِ عَلَى رَأْسِهَا، فَعَلِمَتْ حُورَقْنَاهُ بِذَلِكَ، فَغَارَتْ مِنْ إِيْرَاخْتَ، فَلَبِسَتْ تِلْكَ الْكُسُوَّةَ، وَمَرَّتْ بَيْنَ يَدَيَّ الْمَلِكِ، وَتِلْكَ الثِّيَابُ تُضِيءُ عَلَيْهَا مَعَ نُورِ وَجْهِهَا، كَمَا تُضِيءُ الشَّمْسُ فَلَمَّا رَأَاهَا الْمَلِكُ أَعْجَبَتْهُ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى إِيْرَاخْتَ فَقَالَ: إِنَّكَ جَاهِلَةٌ حِينَ أَخَذْتَ الْإِكْلِيلَ، وَتَرَكْتَ الْكُسُوَّةَ الَّتِي لَيْسَ فِي خَزَائِنِنَا مِثْلُهَا^(٢). فَلَمَّا سَمِعَتْ إِيْرَاخْتَ مَدَحَ الْمَلِكِ لِحُورَقْنَاهُ، وَثَنَاءَهُ عَلَيْهَا، وَتَجَهَّلَهَا هِيَ، وَذَمَّ رَأْيَهَا، أَخَذَهَا مِنْ ذَلِكَ الْغَيْثَةِ وَالْغَيْظِ، فَضَرَبَتْ بِالصَّحْفَةِ رَأْسَ الْمَلِكِ، فَسَالَ الْأُزْرُ عَلَى وَجْهِهِ، وَكَانَ ذَلِكَ تَمَامَ تَغْيِيرِ الرُّؤْيَا الَّتِي عَبَّرَهَا كِبَارِيُّوهُ. فَقَامَ الْمَلِكُ مِنْ مَكَانِهِ، وَدَعَا بِإِيلَادَ وَقَالَ: أَلَا تَرَى وَأَنَا مَلِكُ الْعَالَمِ كَيْفَ حَقَرْتَنِي هَذِهِ الْجَاهِلَةُ وَفَعَلْتَ بِي مَا تَرَى؟! فَانْطَلِقْ بِهَا، وَاقْتُلْهَا وَلَا تَرْحَمْهَا. فَخَرَجَ إِيلَادُ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ وَقَالَ: لَا أَقْتُلُهَا حَتَّى يَسْكُنَ عَنْهُ الْغَضَبُ، فَالْمَرْأَةُ عَاقِلَةٌ سَدِيدَةُ الرُّأْيِ مِنَ الْمَلَكَاتِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا عَدِيلٌ فِي النِّسَاءِ، وَلَيْسَ الْمَلِكُ بِصَابِرٍ عَنْهَا، وَقَدْ خَلَصْتُهُ مِنَ الْمَوْتِ، وَعَمِلْتُ أَعْمَالًا صَالِحَةً، وَرَجَاؤُنَا فِيهَا عَظِيمٌ^(٣)، وَلَسْتُ أَمْنُهُ أَنْ يَقُولَ: لِمَ لَمْ تُؤَخِّرْ قَتْلَهَا حَتَّى تُرَاجِعَنِي؟ فَلَسْتُ قَاتِلَهَا حَتَّى أَنْظُرَ رَأْيَ الْمَلِكِ فِيهَا ثَانِيَةً، فَإِنْ رَأَيْتُهُ نَادِمًا خَزِينًا عَلَى مَا فَعَلَ جُمْتُ بِهَا حَيَّةً، وَكُنْتُ قَدْ عَمِلْتُ عَمَلًا عَظِيمًا، وَأَنْجَيْتُ إِيْرَاخْتَ مِنَ الْقَتْلِ، وَحَفِظْتُ قَلْبَ الْمَلِكِ، وَأَتَّخَذْتُ عِنْدَ عَامَّةِ النَّاسِ بِذَلِكَ يَدًا. وَإِنْ رَأَيْتُهُ فَرِحًا مُسْتَرِيحًا مُصَوِّبًا رَأْيَهُ فِي الَّذِي فَعَلَهُ فَقَتْلُهَا لَا يَقُوتُ^(٤). ثُمَّ انْطَلَقَ بِهَا إِلَى مَنْزِلِهِ، وَوَكَّلَ بِهَا خَادِمًا مِنْ أُمَنَائِهِ، وَأَمَرَهُ بِخِدْمَتِهَا وَحِرَاسَتِهَا، حَتَّى يَنْظُرَ مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِ الْمَلِكِ. ثُمَّ خَضِبَ سَيْفَهُ بِالْدِّمِ، وَدَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ كَالْكَيْبِ الْحَزِينِ فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ أَمْرَكَ فِي إِيْرَاخْتَ. فَلَمْ يَلْبَثِ الْمَلِكُ أَنْ سَكَنَ عَنْهُ الْغَضَبُ، وَذَكَرَ

(١) دَعِ الْكُسُوَّةَ: اتركها. (٢) بِالصَّحْفَةِ: إِنَاءُ الطَّعَامِ. طَبَقٌ: «صَحْنٌ».

(٣) يَسْكُنُ عَنْهُ الْغَضَبُ: يَهْدَأُ. عَدِيلٌ: شَبِيهِ وَنَظِيرٌ.

(٤) وَأَنْجَيْتُ: خَلَصْتُ. يَدًا: جَمِيلًا لَا يَنْسَى وَأَكْبَرُوا هَذَا الْعَمَلَ مِنْهُ. مُصَوِّبًا رَأْيَهُ: حَاكِمًا لَهُ بِالصَّوَابِ.

جَمَالَ إِبْرَاحِثَ، وَفَضَّلَهَا، وَاشْتَدَّ أَسْفُهُ عَلَيْهَا، وَجَعَلَ يُعْزِي نَفْسَهُ عَنْهَا، وَيَتَجَلَدُ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَسْأَلَ إِبِلَادَ: أَحَقًّا أَمْضَى أَمْرُهُ فِيهَا أَمْ لَا؟ وَرَجَا لِمَا عَرَفَ مِنْ عَقْلِ إِبِلَادَ أَنْ لَا يَكُونَ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ! وَنَظَرَ إِلَيْهِ إِبِلَادُ بِفَضْلِ عَقْلِهِ، فَعَلِمَ الَّذِي بِهِ فَقَالَ لَهُ: لَا تَهْتَمَّ وَلَا تَحْزَنْ أَتَيْهَا الْمَلِكُ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الِهَمِّ وَالْحُزْنِ مَنَفْعَةٌ، وَلَكِنَّهُمَا يُنْجِلَانِ الْجِسْمَ وَيُفْسِدَانِهِ. فَاصْبِرْ أَتَيْهَا الْمَلِكُ عَلَى مَا لَسْتَ بِقَادِرٍ عَلَيْهِ أَبَدًا^(١). وَأَنْ أَحَبَّ الْمَلِكُ أَنْ أُحْدِثَهُ بِحَدِيثٍ يُسْلِيهِ. قَالَ: حَدِّثْنِي.

قَالَ إِبِلَادُ: زَعَمُوا أَنَّ حِمَامَتَيْنِ: ذَكَرًا وَأُنْثَى مَلَأَ عُشَّهُمَا مِنَ الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ، فَقَالَ الذَّكَرُ لِلْأُنْثَى: إِنَّا إِذَا وَجَدْنَا فِي الصَّحَارَى مَا نَعِيشُ بِهِ فَلَسْنَا نَأْكُلُ مِمَّا هُنَا شَيْئًا. فَإِذَا جَاءَ الشِّتَاءُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الصَّحَارَى شَيْءٌ رَجَعْنَا إِلَى مَا فِي عُشِّنَا فَأَكَلْنَاهُ. فَرَضِيَتْ الْأُنْثَى بِذَلِكَ وَقَالَتْ لَهُ: نَعِمًا رَأَيْتَ. وَكَانَ ذَلِكَ الْحَبُّ نَدِيًّا حِينَ وَضَعَاهُ فِي عُشِّهِمَا؛ فَانْطَلَقَ الذَّكَرُ فَغَابَ، فَلَمَّا جَاءَ الصَّيْفُ يَيْسَ الْحَبُّ وَتَصَصَّرَ^(٢).

فَلَمَّا رَجَعَ الذَّكَرُ رَأَى الْحَبَّ نَاقِصًا. فَقَالَ لَهَا: أَلَيْسَ كُنَّا جَمَعْنَا رَأَيْنَا عَلَى أَلَّا نَأْكُلُ مِنْهُ شَيْئًا، فَلِمَ أَكَلْتِهِ؟ فَجَعَلَتْ تَحْلِفُ أَنَّهَا مَا أَكَلَتْ مِنْهُ شَيْئًا، وَجَعَلَتْ تَتَنَصَّلُ إِلَيْهِ، فَلَمْ يُصَدِّقْهَا، وَجَعَلَ يَقْرُهَا حَتَّى مَاتَتْ! فَلَمَّا جَاءَتِ الْأَمْطَارُ وَدَخَلَ الشِّتَاءُ تَنَدَّى الْحَبُّ وَامْتَلَأَ الْعُشُّ كَمَا كَانَ^(٣)! فَلَمَّا رَأَى الذَّكَرُ ذَلِكَ: نَدِمَ! ثُمَّ اضْطَجَعَ إِلَى جَانِبِ حِمَامَتِهِ وَقَالَ: مَا يَنْفَعُنِي الْحَبُّ وَالْعِيشُ بَعْدَكَ، إِذَا طَلَبْتُكَ فَلَمْ أَجِدْكَ وَلَمْ أَقِدِرْ عَلَيْكَ!! وَإِذَا فَكَّرْتُ فِي أَمْرِكَ وَعَلِمْتُ أَنِّي قَدْ ظَلَمْتُكَ وَلَا أَقْدِرُ عَلَى تَدَارِكِ مَا فَاتَ!! ثُمَّ اسْتَمَرَّ عَلَى حُزْنِهِ، فَلَمْ يَطْعَمْ طَعَامًا وَلَا شَرَابًا حَتَّى مَاتَ إِلَى جَانِبِهَا!!

وَالْعَاقِلُ لَا يَفْعَلُ فِي الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ، وَلَا سِيَّمَا مَنْ يَخَافُ النَّدَامَةَ كَمَا نَدِمَ الْحَمَامُ الذَّكَرُ. وَقَدْ سَمِعْتُ أَيْضًا أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْجَبَلَ وَعَلَى رَأْسِهِ طَبَقٌ مِنَ الْعَدَسِ، فَوَضَعَ الطَّبَقَ عَلَى ظَهْرِهِ لِيَسْتَرِيحَ. فَتَنَزَّلَ قِرْدٌ مِنْ شَجَرَةٍ فَأَخَذَ مِلءَ كَفِّهِ مِنَ الْعَدَسِ، وَصَعِدَ إِلَى الشَّجَرَةِ، فَسَقَطَتْ مِنْ يَدِهِ حَبَّةٌ، فَتَنَزَّلَ فِي طَلَبِهَا فَلَمْ يَجِدْهَا، وَانْتَشَرَ مَا كَانَ فِي يَدِهِ مِنَ الْعَدَسِ أَجْمَعُ^(٤). وَأَنْتَ أَيْضًا

(١) خضب سيفه بالدم: لونه وصبغه. كالكتيب: كالحزين. يتجلد: يتكلف الجلادة وهي الصبر.

(٢) الحنطة: الفمخ. نعيمًا رأيت: من أساليب المدح أي نعم الرأي رأيك. نديًا: مبللا بالندى. تضرع: جف وصغر وانكمش.

(٣) تتنصل: تتبرأ، وتكر. يقرها: يضربها بمنقاره.

(٤) تدارك ما فات: إصلاح ما مر ومضى. فلم يطعم: لم يذق. وانتشر: تثار وتساقت متفرقا.

أَيُّهَا الْمَلِكُ عِنْدَكَ نِسَاءٌ كَثِيرَةٌ، تَدْعُهُنَّ وَتَطْلُبُ الَّتِي لَا تَجِدُ!

فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ خَشِيَ أَنْ تَكُونَ إِيرَاخْتُ قَدْ هَلَكَتْ ، فَقَالَ : إِيهَاا إِيلَادُ مِنْ كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ فَعَلْتَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ مِنْ سَاعَتِكَ ، وَتَعَلَّقْتَ بِخَوْفِ وَاحِدٍ كَانَ مِنِّي ، وَلَمْ تَتَنَبَّأْ فِي الْأَمْرِ! قَالَ إِيلَادُ : إِنَّ الَّذِي قَوْلُهُ وَاحِدٌ لَا يَخْتَلِفُ ، هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَلَا اخْتِلَافَ لِقَوْلِهِ. قَالَ الْمَلِكُ : لَقَدْ أَفْسَدْتَ أَمْرِي ، وَشَدَّدْتَ حُزْنِي بِقَتْلِ إِيرَاخْتُ^(١). قَالَ إِيلَادُ : ائْتَانُ يَنْبَغِي لَهُمَا أَنْ يَحْزَنَا : الَّذِي يَعْمَلُ الْإِثْمَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَالَّذِي لَا يَعْمَلُ الْخَيْرَ قَطُّ ؛ لِأَنَّ فَرْحَهُمَا فِي الدُّنْيَا وَنَعِيمَهُمَا قَلِيلٌ ، وَنَدَامَتُهُمَا إِذَا يُعَايِنَانِ الْجَزَاءَ طَوِيلَةٌ لَا يُسْتَطَاعُ إِخْصَاؤُهَا. قَالَ الْمَلِكُ : لَكِنَّ رَأَيْتُ إِيرَاخْتَ حَيَّةً لَا أَحْزَنَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا. قَالَ إِيلَادُ : ائْتَانُ لَا يَنْبَغِي لَهُمَا أَنْ يَحْزَنَا : الْمُجْتَهِدُ فِي الْبِرِّ كُلِّ يَوْمٍ ، وَالَّذِي لَمْ يَأْتُمْ قَطُّ. قَالَ الْمَلِكُ : مَا أَنَا بِنَاطِرٍ إِلَيْ إِيرَاخْتُ أَكْثَرَ مِمَّا نَظَرْتُ . قَالَ إِيلَادُ : ائْتَانُ لَا يَنْظُرَانِ : الْأَعْمَى ، وَالَّذِي لَا عَقْلَ لَهُ. وَكَمَا أَنَّ الْأَعْمَى لَا يَنْظُرُ السَّمَاءَ وَنُجُومَهَا ، وَلَا يَنْظُرُ الْبَعْدَ وَالْقُرْبَ ، كَذَلِكَ الَّذِي لَا عَقْلَ لَهُ لَا يَعْرِفُ الْحَسَنَ مِنَ الْقَبِيحِ ، وَلَا الْمُحْسِنَ مِنَ الْمُسِيءِ^(٢). قَالَ الْمَلِكُ : لَوْ رَأَيْتُ إِيرَاخْتَ لَأَشَدَّ فَرْحِي. قَالَ إِيلَادُ : ائْتَانُ هُمَا الْفَرِحَانِ : الْبَصِيرُ ، وَالْعَالِمُ ؛ فَكَمَا أَنَّ الْبَصِيرَ يُبْصِرُ أُمُورَ الْعَالَمِ ، وَمَا فِيهِ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ ، وَالْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ ، فَكَذَلِكَ الْعَالِمُ يُبْصِرُ الْبِرَّ وَالْإِثْمَ ، وَيَعْرِفُ أَعْمَالَ الْآخِرَةِ ، وَيَتَبَيَّنُ لَهُ نَجَاتُهُ ، وَيُهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. قَالَ الْمَلِكُ : إِنِّي لَمْ أَشْتَفِ مِنَ النَّظَرِ إِلَى إِيرَاخْتُ بَعْدُ! قَالَ إِيلَادُ : ائْتَانُ لَا يَشْتَفِيَانِ أَبَدًا: مَنْ يَكُونُ هَمُّهُ جَمْعُ الْمَالِ وَادِّحَارُهُ ، وَمَنْ يَأْمُلُ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَيَسْأَلُ مَا لَا يَجِدُ^(٣).

قَالَ الْمَلِكُ : يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَبَاعَدَ مِنْكَ يَا إِيلَادُ ، وَنَأْخُذَ الْحَذَرَ ، وَنَلْزِمَ الْإِتْقَاءَ. قَالَ إِيلَادُ : ائْتَانُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَبَاعَدَ مِنْهُمَا : الَّذِي يَقُولُ لَا بِرَّ ، وَلَا إِثْمَ ، وَلَا عِقَابَ ، وَلَا ثَوَابَ ، وَلَا شَيْءَ عَلَيَّ مِمَّا أَنَا فِيهِ. وَالَّذِي لَا يَكَادُ يَصْرِفُ بَصَرَهُ عَمَّا لَيْسَ لَهُ بِمُحَلَّلٍ ، وَلَا أَذْنَهُ عَنِ اسْتِمَاعِ الشُّوْءِ ، وَلَا نَفْسَهُ عَنْ نِسَاءٍ غَيْرِهِ ، وَلَا قَلْبَهُ عَمَّا تَهْمُ بِهِ نَفْسُهُ مِنَ الْإِثْمِ وَالْجُرْصِ! قَالَ الْمَلِكُ : صَارَتْ يَدَيَّ مِنْ إِيرَاخْتُ صِفْرًا. قَالَ إِيلَادُ : أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ أَضْفَاؤُ : النَّهْرُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ ، وَالْأَرْضُ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا

(١) تدعهن : تتركنهن . إيها : كلمة تقال عند الاستغراب وتكون للإسكات والكف . بمعنى حسبك . فنقول : إيها لا تحدث . إيلاد . أي : يا إيلاد . لم تنبأ : لم تنبأ .

(٢) يعاينان : يريان بأعينهما . البر : الصلاح والخير والعدل . لم يأت : لم يعمل ما لا يحل . (٣) صراط : طريق .

مَلِكٌ، وَالْمَرْأَةُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا بَعْلٌ، وَالْجَاهِلُ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْحَيْرَ مِنَ الشَّرِّ^(١).

قَالَ الْمَلِكُ : إِنَّكَ يَا إِبِلَادُ لَتُنْقِي الْجَوَابَ. قَالَ إِبِلَادُ : ثَلَاثَةٌ يَلْقَوْنَ الْجَوَابَ : الْمَلِكُ الَّذِي يُعْطِي وَيَقْسِمُ مِنْ خَزَائِنِهِ، وَالْمَرْأَةُ الْمُهْدَاةُ إِلَى مَنْ تَهْوَى مِنْ ذَوِي الْحَسَبِ ، وَالرَّجُلُ الْعَالِمُ الْمُؤَفَّقُ لِلْحَيْرِ.

قَالَ الْمَلِكُ : أَهْلَكَتِ إِيرَاخْتَ يَا إِبِلَادُ ، بَغَيْرِ حَقٍّ. قَالَ إِبِلَادُ : ثَلَاثَةٌ هُمُ الرَّاغِبُونَ عَنِ الْحَقِّ، الَّذِي يَلْبَسُ الثِّيَابَ الْبَيْضَ ثُمَّ يَنْفُخُ بِالْكَبِيرِ فَيَسْوَدُّهَا بِالْدَّخَانِ، وَالْقَصَّارُ الَّذِي يَلْبَسُ الْجُورَيْنِ الْجَوْرَيْنِ الْجَدِيدَيْنِ وَرِجْلَاهُ أَبَدًا فِي الْمَاءِ، وَالَّذِي يَقْتَنِي الْفَرَسَ الْكَرِيمَ لِلرُّكُوبِ ثُمَّ يَلْتَهِي عَنْهُ فَلَا يَرْكُبُهُ فَيَبْطِرُ^(٢).

قَالَ الْمَلِكُ : لَيْتَنِي أَنْظُرَ إِلَى إِيرَاخْتَ قَبْلَ فِرَاقِ الدُّنْيَا! قَالَ إِبِلَادُ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ مَا لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ ثَلَاثَةٌ : مَنْ لَا وَرَعَ لَهُ وَهُوَ يَوْتَجِي ثَوَابَ الْأَبْرَارِ، وَالْبَخِيلُ الَّذِي يَلْتَمِسُ يُبْخِلُهُ أَنْ يَنَالَ مَنْرَلَةَ السَّخِيِّ، وَالْفَاجِرُ الَّذِي يَسْفِكُ الدَّمَاءَ وَيَأْمُلُ أَنْ رُوحَهُ مِنْ أَزْوَاجِ الشُّهَدَاءِ. قَالَ الْمَلِكُ : أَنَا الَّذِي جَنَيْتُ عَلَى نَفْسِي ، وَجَرَزْتُ الْبَلَاءَ إِلَيْهَا. قَالَ إِبِلَادُ : أُولَئِكَ فِي النَّاسِ خَمْسَةٌ : الَّذِي يَتَعَرَّضُ لِلْقِتَالِ وَهُوَ أَعْزَلُ، وَالْبَخِيلُ يَجْمَعُ مَالَهُ فِي مَنْرَلِهِ، وَلَا أَخَذَ مَعَهُ، فَيَقْصِدُهُ اللَّصُوصُ فَيَقْتُلُونَهُ، وَيَأْخُذُونَ مَالَهُ^(٣)، وَالْكَبِيرُ يَخْطُبُ الصَّغِيرَةَ، وَالْقَبِيحُ يَخْطُبُ الْجَمِيلَةَ. وَالْمَرْأَةُ الَّتِي تُحِبُّ وَلَدَهَا وَهُوَ شَاطِرٌ خَبِيثٌ فَهِيَ تَشْتَرُ أُمُورَهُ، وَتُخْفِيهَا ثُمَّ هُوَ يَكُونُ تَعَبًا لَهَا، وَوَبَالًا عَلَيْهَا. قَالَ الْمَلِكُ : قَدْ وَصَعْتُ الْأَمْرَ غَيْرَ مَوْضِعِهِ فِي قَتْلِي إِيرَاخْتَ! قَالَ إِبِلَادُ : مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَةٌ، وَهُمْ : الطَّائِرُ الَّذِي يَوْفَعُ رَجُلِيهِ نَحْوَ السَّمَاءِ خَوْفًا مِنْ سُقُوطِهَا عَلَيْهِ، وَالْكُرْكِيُّ الَّذِي يَقُومُ عَلَى رِجْلِ وَاحِدَةٍ وَلَا يَضَعُ الثَّانِيَةَ عَلَى الْأَرْضِ خَوْفًا أَنْ يَخْسِفَهَا، وَالْغَنِيُّ الْبَخِيلُ إِذَا أَكَلَ لَا يَشْبَعُ يَخَافُ عَلَى مَالِهِ مِنَ النَّفَادِ كَالْخَرَّاطِينِ الَّتِي طَعَامُهَا التُّرَابُ تَقْصِدُ الْإِقْلَالَ مِنَ الْأَكْلِ مِنْهُ لِقَلَّ يَنْفَدَ، وَيَقْتَنِي، وَكَالْكَلْبِ الَّذِي يَلْعُ مِنَ النَّهْرِ بِلِسَانِهِ وَلَا يَعْبُ مِنْهُ حِذَارًا أَنْ يَجِفَّ، وَالْخَفَّاشُ الَّذِي يَطِيرُ بِاللَّيْلِ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ بِالنَّهَارِ مَخَافَةً أَنْ يَصْطَادَهُ النَّاسُ لِحُسْنِهِ، وَهُوَ أَقْبَحُ الطَّيْرِ^(٤)! قَالَ الْمَلِكُ : لَمْ

(١) الاتقاء : الوقاية والسلامة والتحفظ . تهم به نفسه : تقصده وتعزم عليه ولم تفعله .

(٢) لَتُنْقِي الجواب : توفى له وتلهمه . المهداة : المزفوفة . الحسب : المفاخر : الزائغون عن الحق : المائلون . الكير : الزق الذي ينفخ فيه الحداد . القصار : الذي يدق الثياب ويبيضها . والجورين : مثنى جورب : ما يلبس في الرجل . فيطر : فيكره أن يركب ويقل عليه الركوب . (٣) السخن : الكريم . الشهداء : جمع شهيد وهو القاتل في سبيل الله . أعزل : بدون سلاح .

(٤) شاطر : خبيث . عارم : شرس مؤذ . وبالا : شرا عليها في مستقبل أيامها . يخسفها : يخرقها أو يخرقها . الخراطين : الديدان الحمر التي تكون في التراب الندى . ينقد : ينتهي ويفرغ . يلغ : يحرك لسانه في الماء . يعب : يشرب كالذباب . الخفّاش : البوطاط .

أَحْزَنَ قَطُّ حُزْنِي عَلَى إِيرَاحْتَ. قَالَ إِيْلَادُ : خَمْسَةُ أَشْيَاءَ إِذَا كُنَّ فِي الْمَوَاةِ كَانَتْ أَهْلًا أَنْ يُحْزَنَ عَلَيْهَا: إِذَا كَانَتْ غَافِقَةً ، كَرِيمَةً الْحَسْبِ وَالنَّسَبِ ، عَاقِلَةً ، جَمِيلَةً ، مُوَافِقَةً لِزَوْجِهَا مُجِبَّةً لَهُ^(١).

قَالَ الْمَلِكُ : لَيْسَ تَأْخُذْنِي سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ مِنْ حُزْنِي عَلَى إِيرَاحْتَ! قَالَ إِيْلَادُ : ائْتَانِ لَا يَهْجَعَانِ وَلَا يَسْتَرِيحَانِ : الْكَثِيرُ الْمَالِ ، وَلَيْسَ لَهُ خَازِنٌ وَلَا أَمِينٌ ، وَالشَّدِيدُ الْمَرَضِ ، وَلَا طَبِيبٌ لَهُ!

ثُمَّ إِنَّ إِيْلَادَ لَمَّا رَأَى الْمَلِكَ قَدِ اسْتَدَّ بِهِ الْأَمْرَ ، سَكَتَ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَا بِكَ يَا إِيْلَادُ سَكَتَ؟ قَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنِّي قَدْ تَطَاوَلْتُ عَلَيْكَ فِيمَا امْتَحَنْتُكَ بِهِ ، إِرَادَةً أَنْ أَعْلَمَ مَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُكَ فِي إِيرَاحْتَ ، وَأَرَانِي قَدْ تَجَاوَزْتُ طَوْرِي فِي ذَلِكَ ، وَبَانَ لِي مِنْ حِلْمِكَ وَعَقْلِكَ مَا أَذْهَلَنِي ؛ إِذْ لَمْ يَبْدُ مِنْكَ مَعَ مَا اجْتَرَأْتُ بِهِ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنَ الْغَضَبِ ، وَلَا تَغَيَّرَتْ عَنْ حَالِكَ^(٢). وَهَاءَ أَنَا شَاكِرٌ لِعَفْوِكَ وَصَفْحِكَ ، وَتَجَاوَزَكَ عَنِّي ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِنِّي إِلَّا نَضْحًا لِلْمَلِكِ وَاسْتِطْلَاعًا لِأَمْرِهِ ، فَاعْفُ عَنِّي إِنْ شِئْتَ أَوْ فَعَّاقِبْنِي بِمَا تَرَاهُ ، فَإِنَّ إِيرَاحْتَ بِالْحَيَاةِ. فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ اسْتَدَّ فَرَحُهُ ، وَقَالَ : يَا إِيْلَادُ إِنَّمَا مَنَعَنِي مِنَ الْغَضَبِ مَا أَعْرِفُ مِنْ نَصِيحَتِكَ ، وَصَدَّقِي حَدِيثَكَ ، وَكُنْتُ أَرْجُو لِمَعْرِفَتِي بِغِلْمِكَ أَنْ لَا تَكُونِ قَدْ قَتَلْتَ إِيرَاحْتَ ، فَإِنَّهَا وَإِنْ تَكُنْ أَتَتْ عَظِيمًا وَأَغْلَطْتَ فِي الْقَوْلِ لَمْ تَأْتِهِ عَدَاوَةٌ ، وَلَا طَلَبَ مَضَرَّةٍ ، وَلَكِنَّهَا فَعَلَتْ ذَلِكَ لِلْغَيْرَةِ. وَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أُعْرِضَ عَنْ ذَلِكَ وَأَحْتَمِلَهُ^(٣). وَلَكِنَّكَ يَا إِيْلَادُ أَرَدْتَ أَنْ تَحْتَبِرَنِي وَتَتَرَكَّنِي فِي شَكٍّ مِنْ أَمْرِهِ. وَقَدْ اتَّخَذْتُ عِنْدِي أَفْضَلَ الْأَيَادِي ، وَأَنَا لَكَ شَاكِرٌ ؛ فَاَنْطَلِقْ فَأَتِنِي بِهَا ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ فَأَتَى إِيرَاحْتَ وَأَمَرَهَا أَنْ تَتَرَتَّبَ ، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ ، وَانْطَلَقَ بِهَا ، فَلَمَّا دَخَلَتْ ، سَجَدَتْ لِلْمَلِكِ ، ثُمَّ قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَتْ : أَحْمَدُ اللَّهَ تَعَالَى ثُمَّ أَحْمَدُ الْمَلِكَ الَّذِي أَحْسَنَ إِلَيَّ. قَدْ أَذْنَبْتُ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَمْ أَكُنْ لِبَقَاءِ أَهْلًا بَعْدَهُ فَوَسَّعَهُ جِلْمُهُ وَكَرَّمُ طَبِيعِهِ وَرَأْفَتُهُ^(٤). ثُمَّ أَحْمَدُ إِيْلَادَ الَّذِي أَخَّرَ أَمْرِي ، وَأَنْجَانِي مِنَ الْهَلَكَةِ لِعِلْمِهِ بِرَأْفَةِ الْمَلِكِ ، وَسَعَةِ جِلْمِهِ وَجُودِهِ ، وَكَرَمِ جَوْهَرِهِ وَوَفَاءِ عَهْدِهِ. وَقَالَ الْمَلِكُ لِإِيْلَادَ : مَا أَعْظَمَ يَدَكَ عِنْدِي ، وَعِنْدَ إِيرَاحْتَ ، وَعِنْدَ الْعَامَّةِ! إِذْ قَدْ أَحْيَيْتَهَا بَعْدَ مَا أَمَرْتُ بِقَتْلِهَا. فَأَنْتَ الَّذِي وَهَبَهَا لِي الْيَوْمَ ؛ فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ وَائِقًا بِنَصِيحَتِكَ وَتَذْيِيرِكَ ، وَقَدْ أَرَدَدْتُ الْيَوْمَ عِنْدِي كَرَامَةً وَتَعْظِيمًا. وَأَنْتَ مُحَكَّمٌ فِي مُلْكِي تَعْمَلُ فِيهِ

(١) أهلاً : مستحقة .

(٢) سينة : نعاس . لا يهجمان : لا ينامان . ليس له خازن : من يتولى حفظ ماله وإنفاقه . آل : رجع و صار . طورى : قدرى وحدي .

(٣) وتجاوزك عني : عفوك وعدم مواخذتك إياي . واستطلاعاً لأمره : طلباً للإطلاع عليه .

(٤) اتخذت عندي أفضل الأيادي : قدمت من المعروف والخدمات مالا أنساء واطل أقدره لك .

بِمَا تَرَى، وَتَحْكُمُ عَلَيْهِ بِمَا تُرِيدُ، فَقَدْ جَعَلْتُ ذَلِكَ إِلَيْكَ، وَوَيْثُتُ بِكَ^(١). قَالَ إِيْلَادُ: أَدَامَ اللَّهُ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُلْكُ وَالشُّرُورُ، فَلَسْتُ بِمَحْمُودٍ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُكَ. لَكِنْ حَاجَتِي أَلَّا يَعْجَلَ الْمَلِكُ فِي الْأَمْرِ الْجَسِيمِ الَّذِي يَنْدَمُ عَلَى فِعْلِهِ وَتَكُونُ عَاقِبَتُهُ الْغَمُّ وَالْحُزْنُ وَلَا سِيَّمَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ النَّاصِحَةِ الْمُشْفِقَةِ، الَّتِي لَا يُوْجَدُ فِي الْأَرْضِ مِثْلُهَا. فَقَالَ الْمَلِكُ: بِحَقِّ قُلْتِ يَا إِيْلَادُ، وَقَدْ قِيلْتُ قَوْلَكَ، وَلَسْتُ عَامِلًا بِعَظْمَا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا فَضْلًا عَنْ مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي سَلِمْتُ مِنْهُ إِلَّا بَعْدَ الْمُوَامَرَةِ وَالنَّظَرِ وَالتَّرَدُّدِ، وَمُشَاوَرَةِ أَهْلِ الْمُوَدَّةِ وَالرَّأْيِ.

ثُمَّ أَحْسَنَ الْمَلِكُ جَائِزَةَ إِيْلَادُ، وَمَكَّنَهُ مِنْ أَوْلِيَاكِ الْبَرَاهِمَةِ الَّذِينَ أَشَارُوا بِقَتْلِ أَحْبَابِهِ فَأَطْلَقَ فِيهِمُ السَّيْفَ، وَقَوَّتْ عَيْنُ الْمَلِكِ، وَغُيُوتُ عُظَمَاءِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ، وَحَمِدُوا اللَّهَ، وَأَتَنُوا عَلَى كِبَارِيُونِ لِسَعَةِ عِلْمِهِ، وَفَضْلِ حِكْمَتِهِ؛ لِأَنَّ بَعْلِمِهِ خَلَصَ الْمَلِكُ وَوَزِيرُهُ الصَّالِحُ وَأَمْرَأَتُهُ الصَّالِحَةُ^(٢)!

بَابُ

الْلُبُوءَةُ وَالْإِسْوَارِ وَالشَّخْبَرِ^(٣)

قَالَ دَبْسَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَعْدِيَا الْفَيْلَسُوفِ: قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ، فَأَضْرِبْ لِي مَثَلًا فِي شَأْنٍ مِنْ يَدْعُ ضَرَّ غَيْرِهِ إِذَا قَدَّرَ عَلَيْهِ بِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الضَّرَرِ، وَيَكُونُ لَهُ مِمَّا يَنْزِلُ بِهِ وَاعِظُ وَرَاجِرٌ عَنْ اِزْتِكَابِ الظُّلْمِ وَالْعُدَاوَةِ لِعَیْرِهِ. قَالَ الْفَيْلَسُوفُ: إِنَّهُ لَا يُقَدِّمُ عَلَى طَلَبِ مَا يُضُرُّ بِالنَّاسِ، وَمَا يَسُوْهُمْ إِلَّا أَهْلُ الْجَهَالَةِ وَالسَّفَهَةِ، وَشَوْءُ النَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَلَّةُ الْعِلْمِ بِمَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ مِنْ حُلُولِ النُّقْمَةِ، وَبِمَا يَلْزُمُهُمْ مِنْ تَبَعَةٍ مَا اكْتَسَبُوا مِمَّا لَا تُحِيطُ بِهِ الْعُقُولُ. وَإِنْ سَلِمَ بَعْضُهُمْ مِنْ ضَرَرٍ بَعْضٍ بِاتِّفَاقٍ، عَرَضَ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ وَبِالْ مَا صَنَعَ لَمْ يَسْلَمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ؛ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَفْكَرْ فِي الْعَوَاقِبِ لَمْ يَأْمَنِ الْمَصَائِبِ، وَكَانَ حَقِيقًا أَنْ لَا يَسْلَمْ مِنَ الْمَعَاطِبِ^(٤). وَرَبَّمَا اتَّعَطَّ الْجَاهِلُ، وَاعْتَبَرَ بِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْمَضَرَّةِ مِنَ الْغَيْرِ، فَارْتَدَعَ عَنْ أَنْ يَنْشَى أَحَدًا بِمِثْلِ ذَلِكَ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ، وَحَصَلَ لَهُ نَفْعٌ مَا كَفَّ عَنْهُ مِنْ ضَرَرِهِ لِعَیْرِهِ فِي

(١) جوهره: أصله ومعذنه. جعلت ذلك إليك: استندته إليه وتركته لك حرية التصرف فيه.

(٢) الموامرة: التشاور.

(٣) اللبوة: أنثى الأسد. الإسوار: الصياد الجيد الرمي بالسهم.

(٤) المعاطب: المهالك.

العاقبة. ومثل ذلك حديث اللبوة والإسوار والشعبر. قال الملك: وكيف كان ذلك؟

قال الفيلسوف: زعموا أنَّ لبوة كانت في غيضة، ولها شبلان^(١)، وأنها خرجت في طلب الصيد وخلفتها في كهفهما فمرَّ بهما إسوار فحمل عليهما، ورمأهما فقتلتهما، وسلخ جلديهما، فاحتبتهما، وانصرف بهما إلى منزله. ثم إنَّها رجعت فلما رأت ما حلَّ بهما من الأمر الفظيع، اضطربت ظهرها ليطن، وصاحت وصحَّت، وكان إلى جنبها شعبر فلما سمع ذلك من صياحها، قال لها: ما هذا الذي تصنعين؟ وما نزل بك أخبريني به! قالت اللبوة: شبلاي مرَّ بهما إسوار فقتلتهما، وسلخ جلديهما، فاحتبتهما ونبذهما في الغراء^(٢). قال لها الشعبر: لا تضحكي، وأنصفي من نفسك، وأعلمي أنَّ الدنيا دارُ مكافأة؛ ففاعل الخير يحمدُه، وفاعل الشرَّ يعجني ثمره. وإنَّ هذا الإسوار لم يأت إليك شيئاً إلا وقد كنت تفعلين بغيرك مثله، وتأتين مثل ذلك غير واحد ممن كان يجد بحميمه، ومن يعزُّ عليه مثل ما تجدين بشبلانك، فأصيري من غيرك على ما صبر غيرك عليه منك. فإنه قد قيل: كما تدينُ تدان، ولكلِّ عملٍ ثمرة من الثواب والعقاب، وهما على قدره في الكثرة والقلة، كالزرع إذا حضر الحصاد أعطى على حسب بذره^(٣). قالت اللبوة: بين لي ما تقول، وأفصح لي عن إشارته. قال الشعبر: كم أتى لك من الغمر؟ قالت اللبوة: كذا، وكذا سنة. قال الشعبر: ما كان قوتك فيه. قالت اللبوة: لحم الوحش. قال الشعبر: ومن كان يطعمك إياه؟ قالت اللبوة: كنت أصيد الوحش وأكله. قال الشعبر: أرايت الوحش التي كنت تأكلين؟ أما كان لها آباء وأُمات؟! قالت: بلى. قال الشعبر: فما بالي لا أرى ولا أسمع لأولئك الآباء والأُمهات من الجزع ما أرى وأسمع لك؟! أما إنَّه لم ينزل بك ما نزل، إلا لشيء نظرك في العواقب، وقلة تفكيرك فيها وجهالتك فيما يرجع عليك من ضررها^(٤). فلما سمعت اللبوة ذلك من كلام الشعبر، عرفت أنَّ ذلك مما جنت على نفسها، وأنَّ عملها كان جوراً وظلماً، فتركت الصيد، وانصرفت عن أكل اللحم إلى أكل الثمار، والنسك والعبادة. فلما رأى ذلك ورشاً كان صاحب تلك الغيضة، وكان عيشه من الثمار، قال لها: قد كنت أظنُّ أنَّ الشجر عاتنا هذا لم تحمِل لقلَّة الماء، فلما أبصرتك تأكلينها، وأنت آكلة اللحم،

(١) اعتبر: اتعظ وتعلم واستفاد. فارتدع: فكف، وامتنع. غيضة: أجمة وموضع يكثر فيه الشجر ويلتف. شبلان: الشبل ابن الأسد.

(٢) فحمل عليهما: هجم. احتبهما: ربطهما خلفه على ركبته. نبذهما: طرحهما. الغراء: الفضاء.

(٣) بحميمه: بصديقه وقريبه الذي يهتم بأمره.

(٤) جمع أم.

فَتَرَكْتَ رِزْقَكَ، وَطَعَامَكَ، وَمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ وَتَحَوَّلْتَ إِلَى رِزْقٍ غَيْرِكَ فَانْتَقَصْتَهُ^(١)، وَدَخَلْتَ عَلَيْهِ فِيهِ، عَلِمْتُ أَنَّ الشَّجَرَ أَثْمَرَتْ كَمَا كَانَتْ تُثْمِرُ قَبْلَ الْيَوْمِ؛ وَإِنَّمَا أَتَتْ قَلَّةَ الثَّمَرِ مِنْ جَهْتِكَ! فَوَيْلٌ لِلشَّجَرِ، وَوَيْلٌ لِلثَّمَارِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ عَيْشُهُمْ مِنْهَا! مَا أَسْرَعَ هَلَاكَهُمْ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِمْ فِي أَرْزَاقِهِمْ، وَغَلَبَهُمْ مَنْ لَيْسَ لَهُ فِيهَا حِطٌّ، وَلَمْ يَكُنْ مُعْتَادًا لِأَكْلِهَا! فَلَمَّا سَمِعَتِ اللَّبْوَةُ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْوَرْشَانِ تَرَكَتْ أَكْلَ الثَّمَارِ، وَأَقْبَلَتْ عَلَى أَكْلِ الْعُشْبِ وَالْعِبَادَةِ! وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْجَاهِلَ رُبَّمَا انْصَرَفَ بِضُرِّ يَصِيبُهُ عَنْ ضُرِّ النَّاسِ، كَاللَّبْوَةِ الَّتِي انْصَرَفَتْ لِمَا لَقِيتْ فِي شَبَلِهَا عَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ، ثُمَّ عَنْ أَكْلِ الثَّمَارِ بِقَوْلِ الْوَرْشَانِ وَأَقْبَلَتْ عَلَى التَّشْكِ وَالْعِبَادَةِ^(٢).

وَالنَّاسُ أَحَقُّ بِحُسْنِ النَّظَرِ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ: مَا لَا تَرْضَاهُ لِنَفْسِكَ لَا تَصْنَعُهُ لِغَيْرِكَ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ الْعَدْلَ، وَفِي الْعَدْلِ رِضَى اللَّهِ تَعَالَى، وَرِضَى النَّاسِ^(٣)!

بَابُ النَّاسِكِ وَالضَّيْفِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَتَدَبَّأَ الْفَيْلَسُوفُ: قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ فَاضْرِبْ لِي مَثَلًا: الَّذِي يَدْعُ صُنْعُهُ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ وَيُشَاكِلُهُ، وَيَطْلُبُ غَيْرَهُ، فَلَا يَذَرُكَهُ، وَيَرْجِعُ إِلَى الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَيَبْقَى خَيْرَانِ مُتَرَدِّدًا!!

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ الْكَرْخِ نَاسِكٌ عَابِدٌ مُجْتَهِدٌ، فَتَزَلَّ بِهِ ضَيْفٌ ذَاتَ يَوْمٍ، فَدَعَا النَّاسِكُ لِضَيْفِهِ بِثَمَرٍ لِيُطْرَفَهُ بِهِ، فَأَكَلَا مِنْهُ جَمِيعًا. ثُمَّ قَالَ الضَّيْفُ: مَا أَخْلَى هَذَا الثَّمَرُ وَأَطْيَبُهُ! فَلَيْسَ هُوَ فِي بِلَادِي الَّتِي أَسْكُنُهَا، وَلَيْتَهُ كَانَ فِيهَا^(٤). ثُمَّ قَالَ: أَرَى أَنَّ تُسَاعِدُنِي عَلَى أَنْ آخِذَ مِنْهُ مَا أَعْرَسُهُ فِي أَرْضِنَا، فَإِنِّي لَسْتُ عَارِفًا بِثَمَارِ أَرْضِكُمْ هَذِهِ، وَلَا بِمَوَاضِعِهَا. قَالَ لَهُ النَّاسِكُ: لَيْسَ لَكَ فِي ذَلِكَ رَاحَةٌ؛ فَإِنَّهُ يَثْقُلُ عَلَيْكَ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ لَا يُوَافِقُ أَرْضَكُمْ، مَعَ أَنَّ بِلَادَكُمْ كَثِيرَةُ الْأَثْمَارِ، فَمَا حَاجَةٌ مَعَ كَثَرَةِ ثَمَارِهَا إِلَى الثَّمَرِ مَعَ وَخَامَتِهِ، وَقَلَّةِ مُنَاسَبَتِهِ لِلْجَسَدِ؟! ثُمَّ قَالَ لَهُ

(١) ورشان: طائر. فانتقصته: أي أخذت منه.

(٢) انصرفت: امتنعت وكفت.

(٣) العدل: إعطاء كل ذي حق حقه. والمساواة بينك وبين غيرك.

(٤) الكرّخ: قال ياقوت: وكرّخ سامرا منسوب إلى فيروز بن قباد الملك.

النَّاسِكُ : إِنَّهُ لَا يُعَدُّ سَعِيدًا مَنْ طَلَبَ مَا لَا يَجِدُ. وَإِنَّكَ سَعِيدُ الْجَدِّ إِذَا قَنِعْتَ بِالَّذِي تَجِدُ، وَتَزْهَدُ فِيمَا لَا تَجِدُ. وَكَانَ هَذَا النَّاسِكُ يُحْسِنُ الْعِبْرَانِيَّةَ، فَسَمِعَهُ الضَّيْفُ يَتَكَلَّمُ بِهَا مَرَّةً فَاسْتَحْسَنَ كَلَامَهُ، وَأَعْجَبَهُ، فَتَكَلَّفَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ، وَعَالَجَ فِي ذَلِكَ نَفْسَهُ أَيَّامًا^(١)، فَقَالَ النَّاسِكُ لَهُ: مَا أَخْلَقَكَ أَنْ تَقَعَ مِمَّا تَرُكْتَ مِنْ كَلَامِكَ، وَتَكَلَّفْتَ مِنْ كَلَامِ الْعِبْرَانِيَّةِ فِي مِثْلِ مَا وَقَعَ فِيهِ الْغُرَابُ ! قَالَ الضَّيْفُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

مثل الخراب والحجلة

قَالَ النَّاسِكُ : زَعَمُوا أَنَّ غُرَابًا رَأَى حَجَلَةً تَذْرُجُ وَتَمْشِي ، فَأَعْجَبَتْهُ مَشْيُهَا، وَطَمِعَ أَنْ يَتَعَلَّمَهَا، فَرَأَى عَلَى ذَلِكَ نَفْسَهُ ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِحْطَائِهَا، وَأَيْسَ مِنْهَا، وَأَرَادَ أَنْ يُعَوِّدَ إِلَى مَشْيِهَا الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا، فَإِذَا هُوَ قَدْ اخْتَلَطَ مَشْيُهُ، وَتَخَلَّعَ فِيهِ، وَصَارَ أَقْبَحَ الطَّيْرِ مَشْيًا^(٢) !

وإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ أَنَّكَ تَرُكْتَ لِسَانَكَ الَّذِي طُبِعَتْ عَلَيْهِ، وَأَقْبَلْتَ عَلَى لِسَانِ الْعِبْرَانِيَّةِ، وَهُوَ لَا يُشَاكِلُكَ، وَأَخَافُ أَنْ لَا تُدْرِكُهُ، وَتَنْسِيَ لِسَانَكَ، وَتَرْجِعَ إِلَى أَهْلِكَ وَأَنْتَ شَرُّهُمْ لِسَانًا! فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ : إِنَّهُ يُعَدُّ جَاهِلًا مَنْ تَكَلَّفَ مِنَ الْأُمُورِ مَا لَا يُشَاكِلُهُ وَلَيْسَ مِنْ عَمَلِهِ، وَلَمْ يُؤَدِّبْهُ عَلَيْهِ أَبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَمْ يُعْرِفْ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ وَذَوِي قَرَابَتِهِ فَإِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَتَعَدَّى طَوْرَهُ!

وَالْوَلَاةُ أَيُّهَا الْمَلِكُ، وَأَرْبَابُ الْأَمْرِ أَوَّلَى بِالْإِثْبَاهِ إِلَى هَذَا الشَّانِ، وَمَنْعِ حُدُوثِهِ بَيْنَ النَّاسِ؛ لِأَنَّ فِيهِ مَضَرَّةً لَهُمْ بِمَا يُجْرَى^(٣) الْأَنْفَسَ عَلَى مُنَازَعَتِهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَيُغَرِّبُهَا بِمُقَاوَمَتِهِمْ فِي أَحْكَامِهِمْ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ إِطْمَاعِ السَّفِيلَةِ فِي مَرَاتِبِ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الْعَالِيَةِ، وَمُزَاحِمَةِ اللَّئِيمِ لِلْكَرِيمِ، وَالْجَاهِلِ لِلْعَالِمِ، وَالْخَامِلِ لِلنَّسِيبِ، وَالذَّنِيءِ لِلشَّرِيفِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُفْضِي إِلَى تَشَوُّشِ الْعَالَمِ ، وَفَسَادِ الْأُمُورِ، وَاخْتِلَاطِ الطَّبَقَاتِ، وَضِياعِ الْمَرَاتِبِ وَالْأَقْدَارِ. وَالْأُمُورُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ تَجْرِي عَلَى مِثَالِ وَاحِدٍ، يَنْتَهِي إِلَى الْأَمْرِ الْخَطِيرِ الْجَسِيمِ، مِنْ مُزَاحِمَةِ الْمَلِكِ عَلَى مُلْكِهِ وَمُضَادَّتِهِ فِيهِ^(٤) !.

(١) وخامته: عدم موافقته. الجد: الحظ. فتكلف أن يعلمه: حاول. عاج: مازس واشتغل.

(٢) ما أخلقك: ما أولاك وما أحقك! الحجلة: طائر في حجم الحمام أحمر المنقار طيب اللحم. إحكامها: إتقانها. وأيس: يش. تخلع: تفكك.

(٣) لا يشاكلك: لا يوافقك ولا يشبهك. طوره: حده. أرباب: أصحاب. يجرى: يشجع.

(٤) ويغريها: يحرضها. السفلة: الأدنى. الطبقة: الرتبة. يفضي: يبلغ وينتهي. الخامل: الساقط المنزلة.

بَابُ السَّائِحِ وَالصَّائِحِ

قَالَ دَهْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَبْدَا الْفَيْلَسُوفُ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ . فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الَّذِي يَصْنَعُ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَيَرْجُو الشُّكْرَ عَلَيْهِ^(١).

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ لَيْسَ أَصْنَعُ مِنْ جَمِيلٍ يَصْنَعُ مَعَ غَيْرِ شَاكِرٍ ، وَلَا أَخْسَرُ مِنْ صَانِعِهِ ، كَمَا أَنَّهُ لَا بَذْرَ أَنْمَى مِنْ بَذْرِ الْجَمِيلِ فِي قُلُوبِ الشَّاكِرِينَ ، وَلَا تِجَارَةَ أَرْبَحَ مِنْ تِجَارَتِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمَرْءَ جَدِيدٌ أَنْ يَصْنَعَ الْمَعْرُوفَ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ ، فَإِنَّهُ إِنْ ضَاعَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ النَّاسِ لَا يَصْنَعُ عِنْدَ اللَّهِ ! وَلَا سِيَّما إِلَى ذَوِي الشُّكْرِ وَالْوَفَاءِ ، كَيْفَ كَانَتْ مِثْلُهُمْ ، فَلَعَلَّهُ احتِاجَ إِلَيْهِمْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ فَيُكَافِئُهُ عَلَيْهِ .

غَيْرَ أَنَّ الْمُلُوكَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ ذَوِي الْعُقُولِ إِذَا تَعَمَّدُوا بِمَعْرُوفِهِمْ أَحَدًا يَخْتَصُّونَهُ بِهِ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَصْنَعُوهُ مَوْضِعَهُ ، وَلَا يُضَيِّعُوهُ عِنْدَ مَنْ لَا يَحْتَمِلُهُ ، وَلَا يَقُومُ بِشُكْرِهِ^(٢) . فَيَنْبَغِي لِلْمُلُوكِ أَنْ لَا يَصْطَفُوا أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ الْخَبْرَةِ بِطَرَائِقِهِ ، وَالْمَعْرِفَةِ بِوَفَائِهِ وَمَوَدَّتِهِ وَشُكْرِهِ ؛ فَإِنَّ مَنْ أَقْدَمَ عَلَى الْمَشْهُورِ بِالِاسْتِقَامَةِ وَالْعِفَّةِ ، وَاسْتَرْسَلَ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ اخْتِيَارٍ ، وَلَا تَجَرِبَةٍ كَانَ مُحَاطِرًا فِي ذَلِكَ ، مُشْرِفًا مِنْهُ عَلَى هَلَاكِهِ وَفَسَادِهِ . أَلَا تَرَى أَنَّ الطَّبِيبَ الرَّفِيقَ الْعَاقِلَ لَا يَكْتَفِي فِي مُدَاوَاةِ الْمَرِيضِ بِالْمُعَانَاةِ فَقَطْ ، لَكِنَّهُ لَا يُقَدِّمُ عَلَى عِلَاجِهِ إِلَّا بَعْدَ تَعَرُّفِ أَحْوَالِهِ ، وَالْجَسِّ لِعُرْوَقِهِ ، وَمَعْرِفَةِ طَبِيعَتِهِ ، وَسَبَبِ عِلَّتِهِ ، فَإِذَا عَرَفَ ذَلِكَ كُلَّهُ أَقْدَمَ عَلَى مُعَالَجَتِهِ ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْتَصُّوا بِذَلِكَ قَرِيبًا لِقَرَابَتِهِ ، وَلَا أَحَدًا مِنْ خَاصَّتِهِمْ لِشَرَفِهِ ، إِذَا كَانَ غَيْرَ مُحْتَمِلٍ لِلصَّنِيعَةِ ؛ فَإِنَّهُ إِنَّمَا شَرَفَ بِتَشْرِيفِهِمْ إِثَاءً^(٣) .

وَلَا أَنْ يَمْنَعُوا مَعْرُوفَهُمْ وَجَمِيلَهُمْ عَنْ بَعِيدٍ لِيُعِدَّهُ ، أَوْ خَامِلٍ لِحُمُولِهِ ، إِذَا كَانَ عَارِفًا بِحَقِّ مَا يُصْطَلَحُ إِلَيْهِ ، مُؤَدِّيًا لِشُكْرِ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ . وَقَدْ قِيلَ : لَا يَنْبَغِي لِذِي الْعَقْلِ أَنْ يَحْتَقِرَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ حَتَّى الْبَهَائِمِ ، وَلَكِنَّهُ خَلِيقٌ أَنْ يَيْلُوهُمْ وَيَحْتَبِرَهُمْ وَيَكُونَ مَا يَصْنَعُ إِلَيْهِمْ عَلَى قَدْرِ مَا يَرَى مِنْهُمْ ، فَقَدْ يَكُونُ الْخَيْرُ عِنْدَ مَنْ يُظُنُّ بِهِ الشَّرَّ ، وَالشَّرُّ عِنْدَ مَنْ يُظُنُّ بِهِ الْخَيْرُ^(٤) !

(١) في غير موضعه : يصنعه مع من لا يستحقه ولا يقدره من اللتام .

(٢) يحتمله : يتقلده ويشكره .

(٣) يصطفوا : يختاروا .

(٤) ييلوهم : يختبرهم .

وَأَنَّ طَبَائِعَ الْخَلْقِ أَتْيَهَا الْمَلِكُ ، مُخْتَلِفَةٌ ، وَلَيْسَ مِمَّا خَلَقَهُ اللَّهُ مِمَّا يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ، أَوْ عَلَى رَجْلَيْنِ ، أَوْ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْنِ ، أَوْ يَسْبَحُ فِي الْمَاءِ شَيْءٌ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْإِنْسَانِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَرُبَّمَا تَحْدَرُ الْعَاقِلُ مِنَ النَّاسِ ، فَلَمْ يَأْمَنْ أَحَدًا مِنْهُمْ ، وَأَخَذَ ابْنُ عَرَسٍ فَأَدْخَلَهُ فِي كُمِهِ ، وَأَخْرَجَهُ مِنَ الْآخِرِ ، وَأَخَذَ الطَّيْرَ الْجَارِحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ ، فَإِذَا صَادَ شَيْئًا أَبْقَى لَهُ مِنْهُ نَصِيبًا . وَمِنَ النَّاسِ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ ؛ وَمِنْ هَؤُلَاءِ كُلُّ كَفُورٍ كَنُودٍ ، حَتَّى لَقَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ الْبَهَائِمِ وَالسَّبَاعِ وَالطَّيْرِ مَا هُوَ أَوْفَى مِنْهُ ذِمَّةً ، وَأَشَدُّ مُحَامَاةً عَنْ حُرْمَةٍ ، وَأَشْكُرُ لِلْمَعْرُوفِ وَأَقْرُبُ بِهِ . وَقَدْ مَضَى فِي ذَلِكَ مَثَلٌ صَرَبَهُ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ (١) ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ جَمَاعَةً اخْتَفَرُوا رَكِيَّةً ، فَوَقَعَ فِيهَا رَجُلٌ صَائِغٌ ، وَحَيَّةٌ ، وَقِرْدٌ ، وَبَيْرٌ ، وَمَرَّ بِهِمْ رَجُلٌ سَائِغٌ ، فَأَشْرَفَ عَلَى الرَّكِيَّةِ ، فَبَصَرَ بِالرَّجُلِ ، وَالْحَيَّةِ وَالْقِرْدِ وَالْبَيْرِ ، فَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ وَقَالَ : لَسْتُ أَعْمَلُ لِأَخِرَتِي عَمَلًا أَفْضَلَ مِنْ أَنْ أَخْلَصَ هَذَا الرَّجُلَ مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ ! فَقَدْ قِيلَ : لَمْ يُؤْجَرْ مَاجُورٌ بِأَعْظَمَ مِنْ أَجْرِ مَنْ اسْتَحْيَا نَفْسًا هَالِكَةً ، وَلَا عُوقِبَ مُعَاقَبٌ بِأَشَدَّ مِنْ عِقَابِ مَنْ كَفَّ عَنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ ، وَلَوْ بِمَشَقَّةٍ مِمَّا خَلَا ذَهَابَ نَفْسِهِ (٢) . فَأَخَذَ حَبَلًا وَأَذْلَاهُ إِلَى الْبَيْرِ ، فَتَعَلَّقَ بِهِ الْقِرْدُ لِخَفِيَّتِهِ ، فَخَرَجَ ، ثُمَّ أَذْلَاهُ ثَانِيَةً فَالْتَفَتَ بِهِ الْحَيَّةُ ، فَخَرَجَتْ ، ثُمَّ أَذْلَاهُ ثَالِثَةً فَتَعَلَّقَ بِهِ الْبَيْرُ ، فَأَخْرَجَهُ ، فَشَكَرَنَ صَنِيعَهُ ، وَقُلْنَ لَهُ لَا تُخْرِجْ هَذَا الرَّجُلَ مِنَ الرَّكِيَّةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَقْلَ مِنْ شُكْرِ الْإِنْسَانِ ! ثُمَّ قَالَ لَهُ الْقِرْدُ : إِنَّ مَنَزْلِي فِي جَبَلٍ قَرِيبٍ مِنْ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا : نُوَادِرْخَتْ . فَقَالَ لَهُ الْبَيْرُ : أَنَا أَيْضًا فِي أَجْمَةٍ إِلَى جَانِبِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ (٣) . قَالَتِ الْحَيَّةُ : وَأَنَا فِي سُورِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ ، فَإِنَّ أَنْتَ مَرَرْتَ بِنَا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ وَاحْتَجَجْتَ إِلَيْنَا فَصَوَّتْ عَلَيْنَا ، حَتَّى نَأْتِيكَ ، فَتَجَزِيكَ بِمَا أَسَدَيْتَ إِلَيْنَا مِنَ الْمَعْرُوفِ . فَلَمَّا يَلْتَفَتِ السَّائِغُ إِلَى مَا ذَكَرُوا لَهُ مِنْ قِلَّةِ شُكْرِ الْإِنْسَانِ ، وَأَذَلَّى الْحَبْلِ ، فَأَخْرَجَ الصَّائِغَ ، فَسَجَدَ لَهُ وَقَالَ : لَقَدْ أَوْلَيْتَنِي مَعْرُوفًا ؛ فَإِنْ مَرَرْتَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ بِمَدِينَةِ نُوَادِرْخَتْ ، فَاسْأَلْ عَنْ مَنَزْلِي ، فَأَنَا رَجُلٌ صَائِغٌ وَاسْمِي فُلَانٌ ، لَعَلِّي أَكَاثِفُكَ بِمَا صَنَعْتَ إِلَيَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ . فَاَنْطَلَقَ الصَّائِغُ إِلَى مَدِينَتِهِ ، وَانْطَلَقَ السَّائِغُ إِلَى وَجْهَتِهِ ، فَعَرَضَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ السَّائِغَ اتَّفَقَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى تِلْكَ الْمَدِينَةِ ، فَاَنْطَلَقَ فَاسْتَقْبَلَهُ الْقِرْدُ فَسَجَدَ لَهُ ، وَقَبَّلَ رِجْلَيْهِ ، وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ ، وَقَالَ : إِنَّ الْقِرْدَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ، وَلَكِنْ أَفْعُدُ حَتَّى آتِيكَ ، وَانْطَلَقَ الْقِرْدُ ،

(٢) رَكِيَّةٌ : بَرَأ . الْبَيْرُ : النَّجْر .

(١) تحذر : اتخذ حذره . كنود : كفور .

(٣) صنيعة : معروفه وجميله .

وَأَنَّهُ بِفَاكِهَةِ طَبِيعَةٍ، فَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَكَلَ مِنْهَا حَاجَتَهُ^(١).

ثُمَّ إِنَّ السَّائِحَ انْطَلَقَ حَتَّى دَنَا مِنْ بَابِ الْمَدِينَةِ، فَاسْتَقْبَلَهُ الْبَيْرُ، فَخَرَّ لَهُ سَاجِدًا وَقَالَ لَهُ : إِنَّكَ قَدْ أَوْلَيْتَنِي مَعْرُوفًا، فَاطْمَئِنَّ سَاعَةً، حَتَّى آتِيكَ، فَانْطَلَقَ الْبَيْرُ، فَدَخَلَ فِي بَعْضِ الْحِيطَانِ إِلَى بَنَتِ الْمَلِكِ فَقَتَلَهَا، وَأَخَذَ حُلِيِّهَا، فَأَنَّهُ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَ السَّائِحُ مِنْ أَيْنَ هُوَ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : هَذِهِ الْبَهَائِمُ قَدْ أَوْلَتْنِي^(٢) هَذَا الْجَزَاءُ، فَكَيْفَ لَوْ آتَيْتُ إِلَى الصَّائِغِ ؟ ! فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ مُعْسِرًا لَا يَمْلِكُ شَيْئًا فَسَيَبِيعُ هَذَا الْحُلِيَّ، فَيَسْتَوْفِي ثَمَنَهُ، فَيُعْطِينِي بَعْضَهُ وَيَأْخُذُ بَعْضَ وَهُوَ أَعْرَفُ بِثَمَنِهِ، فَانْطَلَقَ السَّائِحُ فَأَتَى إِلَى الصَّائِغِ فَلَمَّا رَأَاهُ رَحَّبَ بِهِ، وَأَدْخَلَهُ إِلَى بَيْتِهِ. فَلَمَّا بَصُرَ بِالْحُلِيِّ مَعَهُ عَرَفَهُ، وَكَانَ هُوَ الَّذِي صَاغَهُ لِابْنَةِ الْمَلِكِ. فَقَالَ الصَّائِغُ : اطْمَئِنَّ حَتَّى آتِيكَ بِطَعَامٍ، فَلَسْتُ أَرْضَى لَكَ مَا فِي الْبَيْتِ، ثُمَّ خَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ : قَدْ أَصَبْتُ فُرْصَتِي. أُرِيدُ أَنْ أَنْطَلِقَ إِلَى الْمَلِكِ، وَأَدُلُّهُ عَلَى ذَلِكَ فَتَحَسُّنْ مَنَزَلَتِي عِنْدَهُ^(٣). فَانْطَلَقَ إِلَى بَابِ الْمَلِكِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَنَّ الَّذِي قَتَلَ ابْنَتَكَ، وَأَخَذَ حُلِيِّهَا عِنْدِي، فَأَرْسَلَ الْمَلِكُ، وَآتَى بِالسَّائِحِ، فَلَمَّا نَظَرَ الْحُلِيَّ مَعَهُ لَمْ يُمِهِلْهُ، وَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُعَذَّبَ، وَيُطَافَ بِهِ فِي الْمَدِينَةِ وَيُضْلَبَ. فَلَمَّا فَعَلُوا بِهِ ذَلِكَ، جَعَلَ السَّائِحُ يَبْكِي وَيَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : لَوْ أَنِّي أَطَعْتُ الْقِرَدَ وَالْحَيَّةَ وَالْبَيْرَ فِيمَا أَمَرْتَنِي بِهِ، وَأَخْبَرْتَنِي مِنْ قِلَّةِ شُكْرِ الْإِنْسَانِ، لَمْ يَصِرْ أَمْرِي إِلَى هَذَا الْبَلَاءِ، وَجَعَلَ يُكَرِّرُ هَذَا الْقَوْلَ. فَسَمِعَتْ مَقَالَتَهُ تِلْكَ الْحَيَّةُ، فَخَرَجَتْ مِنْ جُحْرِهَا فَعَرَفَتْهُ، فَاسْتَدَّ عَلَيْهَا أَمْرُهُ فَجَعَلَتْ تَحْتَالُ فِي خِلَاصِهِ. فَانْطَلَقَتْ حَتَّى لَدَغَتْ ابْنَ الْمَلِكِ، فَدَعَا الْمَلِكُ أَهْلَ الْعِلْمِ فَرَفَعُوهُ، لِيَشْفُوهُ، فَلَمْ يُعْنُوا عَنْهُ شَيْئًا^(٤) ! ثُمَّ مَضَتْ الْحَيَّةُ إِلَى أُخْتِ لَهَا مِنَ الْجِنِّ فَأَخْبَرَتْهَا بِمَا صَنَعَ السَّائِحُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَمَا وَقَعَ فِيهِ، فَزَوَّتَ لَهُ وَانْطَلَقَتْ إِلَى ابْنِ الْمَلِكِ وَتَرَاءَتْ لَهُ، وَقَالَتْ : إِنَّكَ لَا تَبْرَأُ حَتَّى يَرَوْفِكَ هَذَا الرَّجُلُ، الَّذِي قَدْ عَاقَبْتُمُوهُ ظُلْمًا. وَانْطَلَقَتِ الْحَيَّةُ إِلَى السَّائِحِ فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ السَّجْنَ وَقَالَتْ لَهُ : هَذَا الَّذِي كُنْتُ نَهَيْتُكَ عَنْهُ مِنْ اضْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ إِلَى هَذَا الْإِنْسَانِ، وَلَمْ تُطِيعْنِي، وَأَنْتَهُ يَوْرِقُ يَنْفَعُ مِنْ سُمْمِهَا، وَقَالَتْ لَهُ : إِذَا جَاءُوا بِكَ لِتَرْفِقِي ابْنَ الْمَلِكِ، فَاسْقِهِ مِنْ مَاءِ هَذَا الْوَرَقِ، فَإِنَّهُ يَبْرَأُ، وَإِذَا سَأَلَكَ الْمَلِكُ عَنْ حَالِكَ فَاصْذُفْهُ؛ فَإِنَّكَ تَنْجُو إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى^(٥) ! وَإِنَّ ابْنَ الْمَلِكِ أَخْبَرَ أَبَاهُ أَنَّهُ سَمِعَ قَائِلًا يَقُولُ : إِنَّكَ لَنْ تَبْرَأَ حَتَّى يَرَوْفِكَ

(١) أسديت : قدمت . أوليتني : صنعت إلني . وجهته : الجهة التي يقصدها .

(٢) دنا : قرب . أولتني : منحتني وقد إلى . (٣) فتحسن منزلي منزلي عنده : فتكون لي مكانة عنده .

(٤) لم يصبر أمري : لم يتحول إلى ما أنا فيه من بلاء . تحتال في خلاصة : تحاول إنقاذه . لم يغنوا عنه شيئاً : لم تنفع وسائلهم ولم تغده .

(٥) وتراءت له : ظهرت بحيث يراها .

السَّائِغُ الَّذِي حُسِّنَ ظُلْمًا. فَدَعَا الْمَلِكُ بِالسَّائِغِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْقِيَ وَلَدَهُ، فَقَالَ : لَا أَحْسِنُ الرَّقْيَ، وَلَكِنْ أَشْقِيهِ مِنْ مَاءِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، فَيَبْرَأُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَسَقَاهُ فَبَرَأَ الْغُلَامُ. فَفَرِحَ الْمَلِكُ بِذَلِكَ، وَسَأَلَهُ عَنْ قِصَّتِهِ فَأَخْبَرَهُ فَشَكَرَهُ الْمَلِكُ، وَأَعْطَاهُ عَطِيَّةً حَسَنَةً، وَأَمَرَ بِالصَّائِغِ أَنْ يُصَلَّبَ فَصَلَّبُوهُ لِكَذِبِهِ، وَأَنْجَرَاهُ عَنِ الشُّكْرِ، وَمُجَازَاتِهِ الْفِعْلَ الْحَمِيدَ بِالْقَبِيحِ^(١)!

ثُمَّ قَالَ الْفِيلَسُوفُ لِلْمَلِكِ: فِي صَنِيعِ الصَّائِغِ بِالسَّائِغِ، وَكُفْرِهِ لَهُ بَعْدَ اسْتِنْقَازِهِ إِثْمًا، وَشُكْرِ الْبَهَائِمِ لَهُ، وَتَخْلِيصِ بَعْضِهَا إِثْمًا عِبْرَةٌ لِمَنْ اعْتَبَرَ، وَفِكْرَةٌ لِمَنْ افْتَكَرَ، وَأَدَبٌ فِي وَضْعِ الْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ عِنْدَ أَهْلِ الْوَفَاءِ وَالْكَرَمِ، قَرُّوْا أَوْ بُعْذُوا لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ صَوَابِ الرَّأْيِ، وَجَلَبِ الْخَيْرِ، وَصَرَفِ الْمَكْرُوهِ!.

بَاب

ابْنِ الْمَلِكِ وَأَصْحَابِهِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيُنْدَبَا الْفِيلَسُوفُ: قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ. فَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَا يُصِيبُ الْخَيْرَ إِلَّا بِعَقْلِهِ وَرَأْيِهِ وَتَنَبُّهِهِ فِي الْأُمُورِ كَمَا يَزْعُمُونَ فَمَا بَالُ الرَّجُلِ الْجَاهِلِ يُصِيبُ الرَّفْعَةَ وَالْخَيْرَ، وَالرَّجُلُ الْحَكِيمُ الْعَاقِلُ قَدْ يُصِيبُ الْبَلَاءَ وَالضَّرَّ؟ قَالَ يُنْدَبَا : كَمَا أَنَّ الْأَعْمَى لَا يُبْصِرُ إِلَّا بِقَلْبِهِ، وَلَا يَمْشِي إِلَّا بِحَسِّهِ مَعَ الْمُهْلَةِ وَالثَّانِي. كَذَلِكَ يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَسْلُكَ فِي الْأُمُورِ بَعَيْنَ الْعَقْلِ وَالْبَصِيرَةِ وَالْعِلْمِ، وَبِالنَّبْئِ وَالْأَنَاءِ، فَقُلْ أَنْ يَعْتَرِ عَلَى هَذَا^(٢)! غَيْرَ أَنَّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ قَدْ يُغْلِبَانِ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَدْ يَعْتَرِ الْبَصِيرُ، وَيَسْلُمُ الضَّرِيرُ! وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ ابْنِ الْمَلِكِ وَأَصْحَابِهِ. قَالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قَالَ الْفِيلَسُوفُ: زَعَمُوا أَنَّ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ، اضْطَحَبُوا فِي طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ: أَحَدُهُمْ ابْنُ مَلِكٍ، وَالثَّانِي ابْنُ تَاجِرٍ، وَالثَّلَاثُ ابْنُ شَرِيفٍ، ذُو جَمَالٍ، وَالرَّابِعُ ابْنُ أَكَّارٍ. وَكَانُوا جَمِيعًا مُحْتَاجِينَ، وَقَدْ أَصَابَهُمْ ضَرَرٌ وَجَهْدٌ شَدِيدٌ فِي مَوْضِعٍ غُرْبَةٍ، لَا يَمْلِكُونَ إِلَّا مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الثِّيَابِ^(٣). فَبَيْنَمَا هُمْ يَمْشُونَ إِذْ فَكَّرُوا فِي أَمْرِهِمْ، وَكَانَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ رَاجِعًا إِلَى طِبَاعِهِ، وَمَا كَانَ يَأْتِيهِ مِنْهُ الْخَيْرُ.

(١) وَتَنَبُّهُ: نَأْيُهُ. بِحَسِّهِ: بِلَمْسِهِ.

(٢) فَيَبْرَأُ: فَيَشْفَى.

(٣) الضَّرِيرُ: الْذَاهِبُ الْبَصَرِ. أَكَّارٌ: خَزَائِفُ فَلَاحِ زَرْاعٍ. وَجَهْدٌ: تَعَبٌ.

فَقَالَ ابْنُ الْمَلِكِ: إِنَّ أَمْرَ الدُّنْيَا كُلَّهُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَالَّذِي قُدِّرَ عَلَى الْإِنْسَانِ يَأْتِيهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَالصَّبْرُ لِلْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَانْتِظَارُهُمَا أَفْضَلُ الْأُمُورِ.

وَقَالَ ابْنُ التَّاجِرِ: الْعَقْلُ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

وَقَالَ ابْنُ الشَّرِيفِ: الْجَمَالُ أَفْضَلُ مِمَّا ذُكِرَ. ثُمَّ قَالَ الْأَكَّارُ: لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْإِجْتِهَادِ فِي الْعَمَلِ^(١). فَلَمَّا قَرَّبُوا مِنْ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا: مَطْرُونٌ جَلَسُوا فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا يَتَشَاوَرُونَ. فَقَالُوا لِابْنِ الْأَكَّارِ: انْطَلِقْ فَانْكَسِبْ لَنَا بِاجْتِهَادِكَ طَعَامًا لِيَوْمِنَا هَذَا. فَاانْطَلَقَ ابْنُ الْأَكَّارِ، وَسَأَلَ عَنْ عَمَلٍ إِذَا عَمِلَهُ الْإِنْسَانُ يَكْتَسِبُ فِيهِ طَعَامَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ، فَعَرَفُوهُ أَنَّ لَيْسَ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ شَيْءٌ أَغْزَرَ مِنَ الْحَطَبِ. وَكَانَ الْحَطَبُ مِنْهَا عَلَى فَوْسَخٍ، فَاانْطَلَقَ ابْنُ الْأَكَّارِ فَاحْتَطَبَ طُنًّا مِنَ الْحَطَبِ. وَاتَى بِهِ الْمَدِينَةَ فَبَاعَهُ بِدِرْهَمٍ وَاشْتَرَى بِهِ طَعَامًا، وَكَتَبَ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ: عَمَلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ إِذَا جَهَدَ بِهِ الرَّجُلُ بَدَنُهُ قِيمَتُهُ دِرْهَمٌ^(٢). ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِالطَّعَامِ فَأَكَلُوا. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْعَدِّ قَالُوا: يَنْبَغِي لِلَّذِي قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَغْزَرَ مِنَ الْجَمَالِ أَنْ تَكُونَ نَوْبُهُ. فَاانْطَلَقَ ابْنُ الشَّرِيفِ، لِيَأْتِيَ الْمَدِينَةَ فَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ وَقَالَ: أَنَا لَسْتُ أَحْسِنُ عَمَلًا، فَمَا يُدْخِلُنِي الْمَدِينَةَ؟ ثُمَّ اسْتَحَى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِغَيْرِ طَعَامٍ، وَهُمْ بِمُفَارَقَتِهِمْ، فَاانْطَلَقَ حَتَّى أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى شَجَرَةٍ عَظِيمَةٍ، فَغَلَبَهُ النَّوْمُ، فَتَأَمَّرَ بِرَجُلٍ مُصَوَّرٍ وَبَصُرَ بِهِ، فَأَعْجَبَهُ حُسْنُهُ أَنْ يُصَوَّرَهُ، وَيَكْتَسِبَ مِنْ صُورَتِهِ إِذَا عَمِلَ مِنْهَا صُورًا، وَبَاعَهَا فَأَيُّقُظُهُ وَذَهَبَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ لِيُصَوَّرَهُ. فَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ أَجَازَهُ بِمِائَةِ دِرْهَمٍ، فَخَرَجَ وَكَتَبَ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ: جَمَالُ يَوْمٍ وَاحِدٍ يُسَاوِي مِئَةَ دِرْهَمٍ^(٣). وَاتَى بِالدَّرَاهِمِ إِلَى أَصْحَابِهِ. فَلَمَّا أَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ قَالُوا لِابْنِ التَّاجِرِ: انْطَلِقْ أَنْتَ، فَاطْلُبْ لَنَا بِعَقْلِكَ وَتِجَارَتِكَ لِيَوْمِنَا هَذَا شَيْئًا. فَاانْطَلَقَ ابْنُ التَّاجِرِ، فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى بَصُرَ بِسَفِينَةٍ مِنْ سُفُنِ الْبَحْرِ كَثِيرَةِ الْمَتَاعِ، قَدْ قَدِمَتْ إِلَى السَّاحِلِ، فَخَرَجَ إِلَيْهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الثُّجَّارِ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَاغَاوَا مِمَّا فِيهَا مِنَ الْمَتَاعِ، فَجَلَسُوا يَتَشَاوَرُونَ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْمَرْكَبِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ارْجِعُوا يَوْمَنَا هَذَا لَا نَشْتَرِي مِنْهُمْ شَيْئًا حَتَّى يَكْسُدَ الْمَتَاعُ عَلَيْهِمْ، فَيُرْخِصُوهُ عَلَيْنَا مَعَ أَنَّنَا مُحْتَاجُونَ

(١) بالقضاء والقدر: بما قضاه الله وقدره على عباده.

(٢) أعز: أقل وأندر وجودًا. الفرسخ: مقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال. والميل: أربعة آلاف ذراع، وهو بري وبحري. فالبري ١٦٠٩ من الأمتار، والبحري ١٨٥٢ من الأمتار. طنًا: حزمة.

(٣) ويصغر به: رآه. أجازاه: منحه جائزة.

إِلَيْهِ، وَسَيَرُحُصُ^(١). فَخَالَفَ ابْنُ التَّاجِرِ الطَّرِيقَ، وَجَاءَ إِلَى أَصْحَابِ الْمَرْكَبِ، فَأَتْبَاعَ مِنْهُمْ مَا فِيهِ بِمِئَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ نَسِيقَةً، وَأَظْهَرَ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْقُلَ مَتَاعَهُ إِلَى مَدِينَةٍ أُخْرَى فَلَمَّا سَمِعَ التَّجَارُ ذَلِكَ، خَافُوا أَنْ يَذْهَبَ ذَلِكَ الْمَتَاعُ مِنْ أَيْدِيهِمْ، فَأَرْبَحُوهُ عَلَى مَا اشْتَرَاهُ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَأَحَالَ عَلَيْهِمْ أَصْحَابُ الْمَرْكَبِ بِالْبَاقِي، وَحَمَلَ رِبْحَهُ إِلَى أَصْحَابِهِ، وَكَتَبَ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ : عَقْلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ ثَمَنُهُ أَلْفُ دِرْهَمٍ^(٢). فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الرَّابِعُ قَالُوا لِابْنِ الْمَلِكِ: انْطَلِقْ أَنْتَ وَانْتَسِبْ لَنَا بِقَضَائِكَ وَقَدْرِكَ فَانْطَلَقَ ابْنُ الْمَلِكِ حَتَّى أَتَى إِلَى بَابِ الْمَدِينَةِ فَجَلَسَ عَلَى ذِكَّةٍ فِي بَابِ الْمَدِينَةِ. وَاتَّفَقَ بِالْقَدَرِ أَنَّ مَاتَ مَلِكُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ، وَلَمْ يُخْلَفْ وَلَدًا وَلَا أَحَدًا ذَا قَرَابَةٍ، فَمَرُّوا عَلَيْهِ بِجِنَازَةِ الْمَلِكِ وَلَمْ يُحْزِنُوهُ، وَكُلُّهُمْ يَحْزَنُونَ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَكْتَرِثْ لِمَا هُمْ فِيهِ. فَأَتَوْا حَالَهُ، وَسَمِعَهُ الْبُؤَابَ، وَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ يَا لَيْمٍ؟ وَمَا يُجْلِسُكَ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ؟ وَلَا تَرَكَ تَحْزَنَ لِمَوْتِ الْمَلِكِ، وَلَا تَهْتَمُّ، وَطَرَدَهُ الْبُؤَابُ عَنِ الْبَابِ! فَلَمَّا ذَهَبُوا عَادَ الْغُلَامُ، فَجَلَسَ مَكَانَهُ، فَلَمَّا دَفَنُوا الْمَلِكَ وَرَجَعُوا بَصُرَ بِهِ الْبُؤَابُ، فَغَضِبَ وَقَالَ لَهُ: أَلَمْ أَنْهَكَ عَنِ الْجُلُوسِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؟! وَأَخَذَهُ فَحَبَسَهُ^(٣). فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ وَقَدْ اجْتَمَعَ أَهْلُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ يَتَشَاوَرُونَ فِيمَنْ يُمْلِكُونَهُ عَلَيْهِمْ، وَيُخْتَلِفُونَ بَيْنَهُمْ، إِذْ دَخَلَ الْبُؤَابُ فَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي رَأَيْتُ أَمْسٍ غُلَامًا جَالِسًا عَلَى الْبَابِ، وَلَمْ أَرَهُ يَحْزَنُ لِحُزْنِنَا، كَأَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ عِنْدَهُ بِعَظِيمٍ، وَتَلَوَّحَ عَلَيْهِ لَوَائِحُ الْعِزَّةِ وَالشَّرَفِ، فَكَلَّمْتُهُ فَلَمْ يُجِِبْنِي، فَطَرَدْتُهُ عَنِ الْبَابِ، فَلَمَّا عُدْتُ رَأَيْتُهُ جَالِسًا، فَأَدْخَلْتُهُ السَّجْنَ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ عَيْنًا، فَبَعَثْتُ أَشْرَافَ الْمَدِينَةِ إِلَى الْغُلَامِ، فَجَاءُوا بِهِ وَسَأَلُوهُ عَنْ حَالِهِ، وَمَا أَقْدَمَهُ إِلَى مَدِينَتِهِمْ^(٤)؟ فَقَالَ : أَنَا ابْنُ مَلِكٍ قَوِيرَانٍ، وَإِنَّهُ لَمَّا مَاتَ وَالِدِي غَلَبَنِي أَخِي عَلَى الْمُلْكِ، وَقَدْ كَانَ أَبِي عَهْدَ إِلَيَّ فِيهِ، فَغَضَبَنِي إِثْمًا، فَهَرَبْتُ مِنْ يَدِهِ حَذَرًا عَلَى نَفْسِي، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ. فَلَمَّا ذَكَرَ الْغُلَامُ مَا ذَكَرَ مِنْ أَمْرِهِ عَرَفَهُ بَعْضُ مَنْ كَانَ يَغُشَّى بِلَادَ أَبِيهِ مِنْهُمْ، وَأَثْنُوا عَلَى أَبِيهِ خَيْرًا. ثُمَّ إِنَّ الْأَشْرَافَ اخْتَارُوا الْغُلَامَ أَنْ يُمْلِكُوهُ عَلَيْهِمْ، وَرَضُوا بِهِ، وَكَانَ لِأَهْلِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ سُنَّةٌ إِذَا مَلَكُوا عَلَيْهِمْ مَلِكًا حَمَلُوهُ عَلَى فِيلٍ أَيْضًا، وَطَافُوا بِهِ حَوَالِي الْمَدِينَةِ! فَلَمَّا فَعَلُوا بِهِ ذَلِكَ مَرَّ بِبَابِ

(١) المتاع: ما ينتفع به من الحوائج والأدوات والأطعمة. بكسد: لا يجد من يشتريه. فيرخصوه: يجعلونه رخيصا بناء على قانون العرض والطلب.

(٢) نسيقة: إلى أجل. وأحوال عليهم: أي نقل الدين الذي في ذمته إلى ذمتهم.

(٣) ذكة: بناء يسطح أعلاه للجلوس عليه مضطبة. فأنكروا: جهلوا.

(٤) لوائح أمارات وعلامات. عينا: جاسوساً.

الْمَدِينَةِ، فَرَأَى الْكِتَابَةَ عَلَى الْبَابِ، فَأَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ: إِنَّ الْجَهْدَ، وَالْجَمَالَ، وَالْعَقْلَ، وَمَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، إِنَّمَا هُوَ بِقَضَاءِ وَقَدَرٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(١). وَقَدْ اُعْتَبِرَ ذَلِكَ بِمَا سَأَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالْخَيْرِ. ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى مَجْلِسِهِ فَجَلَسَ عَلَى سَرِيرٍ مُلْكِيهِ، وَأَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُمْ، فَأَخَضَرَهُمْ فَأَشْرَكَ صَاحِبَ الْعَقْلِ مَعَ الْوُزَرَاءِ، وَضَمَّ صَاحِبَ الْجَهْدِ إِلَى أَصْحَابِ الزَّرْعِ، وَوَلَّى صَاحِبَ الْجَمَالِ إِحْدَى مَصَالِحِهِ!

ثُمَّ جَمَعَ عُלَمَاءَ أَرْضِهِ وَذَوِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: أَمَّا أَصْحَابِي فَقَدْ تَبَيَّنُوا أَنَّ الَّذِي رَزَقَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الْخَيْرِ، إِنَّمَا هُوَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ^(٢). وَإِنَّمَا أَحَبُّ أَنْ تَعْلَمُوا ذَلِكَ وَتَسْتَفِيدُوا؛ فَإِنَّ الَّذِي مَنَحَنِي اللَّهُ وَهَيَّأَهُ لِي إِنَّمَا كَانَ بِقَدَرٍ، وَلَمْ يَكُنْ بِجَمَالٍ، وَلَا عَقْلٍ، وَلَا اجْتِهَادٍ، وَمَا كُنْتُ أَزْجُرُ إِذْ طَرَدَنِي أَخِي أَنْ يُصِيبَنِي مَا يُعْيِشُنِي مِنَ الْقُوَّةِ، فَضَلًّا عَنْ أَنْ أَصِيبَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ، وَمَا كُنْتُ أَوْمِلُ أَنْ أَكُونَ بِهَا؛ لِأَنِّي قَدْ رَأَيْتُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي حُسْنًا وَجَمَالًا، وَأَشَدُّ اجْتِهَادًا، وَأَحْزَمُ رَأْيًا، فَسَأَلَنِي الْقَضَاءُ إِلَى أَنْ اعْتَزَلْتُ بِقَدَرٍ مِنَ اللَّهِ^(٣). وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَمْعِ شَيْخٌ، فَتَهَضَّ حَتَّى اسْتَوَى قَائِمًا وَقَالَ: إِنَّكَ قَدْ تَكَلَّمْتَ بِكَلَامٍ عَقْلٍ وَحِكْمَةٍ، وَلَكِنَّ الَّذِي بَلَغَ بِكَ ذَلِكَ وَفُورَ عَقْلِكَ، وَحُسْنَ ظَنِّكَ، وَقَدْ حَقَّقْتَ ظَنَّنَا فِيكَ وَرَجَاءَنَا لَكَ، وَقَدْ عَرَفْنَا مَا ذَكَرْتَ، وَصَدَّقْنَاكَ فِيمَا وَصَفْتَ! وَالَّذِي سَأَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ مِنَ الْمُلْكِ وَالْكَرَامَةِ، كُنْتُ أَهْلًا لَهُ لِمَا قَسَمَ اللَّهُ تَعَالَى لَكَ مِنَ الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ، وَإِنْ أَسْعَدَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ رَأْيًا وَعَقْلًا، وَإِنَّمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْنَا بِقَضَائِهِ، إِذْ وَفَّقَكَ لَنَا عِنْدَ مَوْتِ مَلِكِنَا، وَكَرَّمَنَا بِكَ. ثُمَّ قَامَ شَيْخٌ آخَرُ فَحَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: إِنَّ شَأْنَ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ لَكُمَْا ذَكَرْتُمْ^(٤). وَقَدْ رَعِمُوا أَنْ أَحَدَ السَّيَاحِ حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ فَقَالَ:

إِنِّي كُنْتُ أَخْدُمُ وَأَنَا غُلَامٌ قَبْلَ أَنْ أَكُونَ سَائِحًا رَجُلًا مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، فَلَمَّا بَدَأَ لِي رَفُضُ الدُّنْيَا، فَارَقْتُ ذَلِكَ الرَّجُلَ، وَقَدْ كَانَ أَعْطَانِي مِنْ أَجْرَتِي دِينَارَيْنِ؛ فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا، وَأَسْتَبْقِيَ الْآخَرَ، فَأَتَيْتُ الشُّوقَ، فَوَجَدْتُ مَعَ رَجُلٍ مِنَ الصَّيَّادِينَ زَوْجِي هَذَا، فَسَأَوْتُهُ فِيهِمَا؛

(١) سنة: تقليد وعادة. عهد إلى: أوحى لي. حذرا على نفسي: خوفا عليها. (٢) سرير ملكه: تخت. وذوي: وأصحاب. (٣) وتستيقنوه: تعلموه وتحققوا من صحته. منحني: أعطاني إياه. وأحزم: أحكم. اعتزلت: تشرفت وتمسكت. استوى: استقام واعتدل.

(٤) استوى قائما: استقام واعتدل. وفور: كمال. أهلا: مستحقا. وفكك: هياكلنا. وأثنى عليه: مدحه.

لَأُطْلِقَهُمَا، وَأَتَى الصَّيَّادُ أَنْ يَبْعَهُمَا إِلَّا بِدِنَارَيْنِ، فَاجْتَهَدْتُ أَنْ يَبْعَنِيهِمَا بِدِنَارٍ وَاحِدٍ فَأَتَى^(١). فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: أَشْتَرِي أَحَدَهُمَا، وَأَتْرُكُ الْآخَرَ. ثُمَّ قُلْتُ: لَعَلَّهُمَا يَكُونَانِ زَوْجَيْنِ: ذَكَرًا وَأُنْثَى، فَأَفْرَقَ بَيْنَهُمَا، فَأَذَرَ كَنِي لَهُمَا رَحْمَةً، فَتَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، وَابْتَعْتُهُمَا بِدِنَارَيْنِ، وَأَشْفَقْتُ إِنْ أَرْسَلْتُهُمَا فِي أَرْضٍ عَامِرَةٍ أَنْ يُصَادَا، وَلَا يَسْتَطِيعَا أَنْ يَطِيرَا مِمَّا لَقِيَا مِنَ الْجُوعِ وَالْهَزَالِ وَلَمْ آمَنْ عَلَيْهِمَا الْآفَاتُ. فَانْطَلَقْتُ بِهِمَا إِلَى مَكَانٍ كَثِيرِ الْمَرْعَى، وَالْأَشْجَارِ، بَعِيدٍ عَنِ النَّاسِ وَالْعُمَرَانِ، فَأَرْسَلْتُهُمَا ففَطَارَا وَوَقَعَا عَلَى شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ، فَلَمَّا صَارَا فِي أَغْلَاهَا شَكَرَا لِي، وَسَمِعْتُ أَحَدَهُمَا يَقُولُ لِلْآخَرِ: لَقَدْ خَلَصْنَا هَذَا السَّائِخُ مِنَ الْبَلَاءِ الَّذِي كُنَّا فِيهِ، وَاسْتَقْدْنَا وَنَجَّانَا مِنَ الْهَلَكَةِ، وَإِنَّا لَخَلِيقَانِ أَنْ نُكَافَهُ بِفِعْلِهِ، وَإِنَّ فِي أَصْلِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ جَرَّةٌ مَمْلُوءَةٌ دَنَانِيرَ، أَفَلَا نَذُلُّهُ عَلَيْهِمَا فَيَأْخُذَهَا؟^(٢) فَقُلْتُ لَهُمَا: كَيْفَ تَذُلَّانِي عَلَى كَثِيرٍ لَمْ تَرَهُ الْعُيُونُ، وَأَنْتُمَا لَمْ تُبْصِرَا الشَّبَكَةَ؟ فَقَالَا: إِنَّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ الَّذِي يَتَسَلَّطُ عَلَى الْقَمَرِ وَالشَّمْسِ فَيَكْسِفُهُمَا، وَعَلَى الْحَوْتِ فِي قَعْرِ الْبَحْرِ فَيُضْطَاذُ، إِذَا نَزَلَ صَرَفَ الْعُيُونُ عَنْ مَوْضِعِ الشَّيْءِ، وَعَشَى الْبَصَرُ! وَإِنَّمَا صَرَفَ الْقَضَاءُ أَغْيَيْنَا عَنِ الشَّرِكِ، وَلَمْ يَصْرِفْهَا عَنْ هَذَا الْكَنْزِ، لِيَنْتَفِعَ أَنْتَ بِهِ، فَاحْتَفَرْتُ وَاسْتَخْرَجْتُ الْبُرْنِيَّةَ وَهِيَ مَمْلُوءَةٌ دَنَانِيرَ، فَدَعَوْتُ لَهُمَا بِالْعَافِيَةِ، وَقُلْتُ لَهُمَا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَّمَكُمَا مَا لَمْ تَعْلَمَا، وَأَنْتُمَا تَطِيرَانِ فِي السَّمَاءِ، وَأَخْبَرْتُمَانِي بِمَا تَحْتَ الْأَرْضِ، فَقَالَا لِي: أَيُّهَا الْعَاقِلُ، أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الْقَدَرَ غَالِبٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَتَجَاوَزَهُ؟^(٣).

فَلْيَعْرِفْ أَهْلُ النَّظَرِ فِي الْأُمُورِ: أَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ بِقَدَرِ اللَّهِ وَقَضَائِهِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَجْلُبُ إِلَى نَفْسِهِ مَحْبُوبًا وَلَا يَدْفَعُ عَنْهَا مَكْرُوهًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى. فَلْيَتَّقِ نَفْسُ أَهْلِ الْفِكْرِ بِذَلِكَ وَتَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ رَاحَةً لِلْمُبْتَلى وَدَاعِيًا لِمَنْ تَوَاتَاهِ الْمَقَادِيرُ إِلَى شُكْرِ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(٤)!

(١) هُذُودٌ: طائر ذو خطوط وألوان جاء ذكره في القرآن في قصة سيدنا سليمان. فساومته: عرضت عليه ثمنًا منتظرًا قبوله.

(٢) أَشْفَقْتُ: خفت. وَالْهَزَالُ: الضعف. الْآفَاتُ: العاهات أو الأعراض المفسدة.

(٣) لَخَلِيقَانِ: لجديران. لِمُسْتَحَقَّانِ. دَنَانِيرُ: جمع دينار. وهو قطعة ذهبية من العملات القديمة. البرنية: الجرة.

(٤) لِلْمُبْتَلى: لمن أصيب وكان محل ابتلاء واختبار من الله.

بَابُ

الْحَمَامَةِ وَالتَّغْلَبِ وَمَالِكِ الْحَزِينِ

وَهُوَ آخِرُ الْكِتَابِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَبْدَا الْفَيْلَسُوفُ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ ، فَأَضْرِبْ لِي مَثَلًا فِي : شَأْنِ الرَّجُلِ الَّذِي يَرَى الرَّأْيَ لغيرِهِ وَلَا يَرَاهُ لِنَفْسِهِ . قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ الْحَمَامَةِ وَالتَّغْلَبِ وَمَالِكِ الْحَزِينِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَمَا مَثَلُهُمْ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ حَمَامَةً كَانَتْ تُفْرِخُ فِي رَأْسِ نَخْلَةٍ طَوِيلَةٍ ذَاهِبَةٍ فِي السَّمَاءِ ، فَكَانَتْ الْحَمَامَةُ تَسْرِعُ فِي نَقْلِ الْعُشِّ إِلَى رَأْسِ تِلْكَ النَّخْلَةِ فَلَا يُمكنُهَا أَنْ تَنْقُلَ مَا تَنْقُلُ مِنَ الْعُشِّ وَتَجْعَلَهُ تَحْتَ الْبَيْضِ إِلَّا بَعْدَ شِدَّةٍ وَتَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ لِطُولِ النَّخْلَةِ وَسُخْقِهَا^(١) . وَكَانَتْ إِذَا فَرَعَتْ مِنَ الثَّقَلِ بَاضَتْ ، ثُمَّ حَضَنْتْ بَيْضَهَا ، فَإِذَا فَقَسَتْ وَأَذْرَكَ فِرَاحُهَا ، جَاءَهَا تَغْلَبٌ قَدْ تَعَهَّدَ ذَلِكَ مِنْهَا لَوْقَتٍ قَدْ عَلِمَهُ ، رَيْثَمَا يَنْهَضُ فِرَاحُهَا ، فَوَقَفَ بِأَصْلِ النَّخْلَةِ ، فَصَاحَ بِهَا وَتَوَعَّدَهَا ، أَنْ يَرْفِيَ إِلَيْهَا ، أَوْ تُلْقِيَ إِلَيْهِ فِرَاحَهَا ، فَتُلْقِيهَا إِلَيْهِ . فَبَيْنَمَا هِيَ ذَاتَ يَوْمٍ - وَقَدْ أَذْرَكَ لَهَا فِرَاحَانِ - إِذْ أَقْبَلَ مَالِكُ الْحَزِينِ فَوَقَعَ عَلَى النَّخْلَةِ^(٢) ، فَلَمَّا رَأَى الْحَمَامَةَ كَثِيبَةً حَزِينَةً شَدِيدَةً الْهَمِّ قَالَ لَهَا : يَا حَمَامَةُ ، مَا لِي أَرَاكَ كَاسِفَةً الْبَالِ ، سَبِيَّةَ الْحَالِ؟ فَقَالَتْ لَهُ : يَا مَالِكُ الْحَزِينُ ، إِنَّ تَغْلَبًا دُهِيتُ بِهِ ، كُلَّمَا كَانَ لِي فِرَاحَانِ جَاءَنِي يَتَهَدَّدُنِي ، وَيَصِيخُ فِي أَصْلِ النَّخْلَةِ ، فَأَفْرُقُ مِنْهُ ، فَأَطْرَحُ إِلَيْهِ فِرَاحِي ! قَالَ لَهَا مَالِكُ الْحَزِينُ : إِذَا أَتَاكَ لِيَفْعَلَ مَا تَقُولِينَ فَقُولِي لَهُ : لَا أُلْقِي إِلَيْكَ فِرَاحِي ، فَأَرْقُ إِلَيَّ ، وَغَرَّزَ بِنَفْسِكَ ، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ ، وَأَكَلْتَ فِرَاحِي ، طُرْتُ عَنْكَ ، وَنَجَوْتُ بِنَفْسِي ، فَلَمَّا عَلَّمَهَا مَالِكُ الْحَزِينِ هَذِهِ الْحِيلَةَ طَارَ فَوَقَعَ عَلَى شَاطِئِ نَهْرٍ^(٣) . وَأَقْبَلَ التَّغْلَبُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي عَرَفَ ، فَوَقَفَ تَحْتَ النَّخْلَةِ ، ثُمَّ صَاحَ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ ، فَأَجَابَتْهُ الْحَمَامَةُ بِمَا عَلَّمَهَا مَالِكُ الْحَزِينُ ، فَقَالَ لَهَا : أَخْبِرِينِي مَنْ عَلَّمَكِ هَذَا؟ قَالَتْ : عَلَّمَنِي مَالِكُ الْحَزِينِ . فَتَوَجَّهَ التَّغْلَبُ حَتَّى أَتَى مَالِكَا الْحَزِينِ عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ ، فَوَجَدَهُ وَاقِفًا . فَقَالَ لَهُ التَّغْلَبُ : يَا مَالِكُ الْحَزِينُ ، إِذَا أَتَيْتُكَ الرِّيحُ عَنْ يَمِينِكَ ،

(١) مَالِكُ الْحَزِينِ : طَائِرٌ مِنْ طُيُورِ الْمَاءِ . وَسُخْقُهَا : وَغَلْوُهَا .

(٢) حَضَنْتْ بَيْضَهَا : ضَمَّتْهُ تَحْتَ جَنَاحِهَا وَرَخِمَتْ عَلَيْهِ لِلتَّفْرِيحِ . وَأَذْرَكَ فِرَاحَهَا : كَبُرَتْ . تَعَهَّدَ : تَفَقَّدَ وَعَرَفَ . رَيْثَمَا : إِلَى أَنْ . أَوْ حَتَّى . وَتَوَعَّدَهَا : تَهَدَّدَهَا . يَرْفِي : يَصْعَدُ . تُلْقِي : تَطْرَحُ . فَوَقَعَ : نَزَلَ .

(٣) كَاسِفَةُ الْبَالِ : كَثِيبَةُ النَّفْسِ . سَبِيَّةُ الْحَالِ . وَغَرَّزَ بِنَفْسِكَ : عَرَضَهَا لِلْهَلَاكِ وَالتَّلَفِ .

فَأَيُّنَ تَجْعَلُ رَأْسَكَ؟ قَالَ: عَنْ شِمَالِي. قَالَ: فَإِذَا أَتَيْتَكَ عَنْ شِمَالِكَ، أَيُّنَ تَجْعَلُ رَأْسَكَ! قَالَ: أَجْعَلُهُ عَنْ يَمِينِي، أَوْ خَلْفِي، قَالَ: فَإِذَا أَتَيْتَكَ الرِّيحُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَكُلِّ نَاحِيَةٍ أَيُّنَ تَجْعَلُهُ؟ قَالَ: أَجْعَلُهُ تَحْتَ جَنَاحِي. قَالَ: وَكَيْفَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْعَلَهُ تَحْتَ جَنَاحَيْكَ؟ مَا أَرَاهُ يَنْهَيَا لَكَ^(١).

قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَأَرْنِي كَيْفَ تَصْنَعُ، فَلَعَمْرِي يَا مَعْشَرَ الطَّيْرِ، لَقَدْ فَضَّلَكُمُ اللَّهُ عَلَيْنَا، إِنْ كُنْ تَدْرِي فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلَ مَا نَدْرِي فِي سَنَةٍ، وَتَبْلُغُنَّ مَا لَا نَبْلُغُ، وَتُدْخِلُنَّ رُءُوسَكُنَّ تَحْتَ أَجْنِحَتِكُنَّ مِنَ الْبَرْدِ وَالرَّيْحِ، فَهَيِّئَا لَكُنَّ، فَأَرْنِي كَيْفَ تَصْنَعُ؟ فَأَدْخَلَ الطَّائِرُ رَأْسَهُ تَحْتَ جَنَاحِيهِ، فَوَثَبَ عَلَيْهِ الثَّعْلَبُ مَكَانَهُ، فَأَخَذَهُ فَهَمَزَهُ هَمَزَةً دَقَّ عُنْقُهُ^(٢). ثُمَّ قَالَ: يَا عَدُوَّ نَفْسِهِ تَرَى الرَّأْيَ لِلْحِمَامَةِ، وَتَعْلَمُهَا الْحِيلَةَ لِنَفْسِهَا، وَتَعْجِزُ عَنْ ذَلِكَ لِنَفْسِكَ حَتَّى يَتِمَّكَ مِنْكَ عَدُوُّكَ! ثُمَّ قَتَلَهُ وَأَكَلَهُ! أَلَهَمَنِي اللَّهُ أَنْ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْتَمِرِينَ لِمَا يَأْمُرُونَ، وَالْمُنْتَصِحِينَ بِمَا يَنْصَحُونَ.

فَلَمَّا انْتَهَى الْمُنْطِقُ بِالْفَيْلَسُوفِ إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ، سَكَتَ الْمَلِكُ. فَقَالَ لَهُ الْفَيْلَسُوفُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ عِشْتَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَمُلَكْتَ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ، وَأَعْطَيْتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَظًّا، وَبَلَغْتَ مَا أَمَلْتَهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي سُورٍ مِنْكَ، وَفَرَّةٍ عَيْنٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ بِكَ وَمُسَاعَدَةِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ لَكَ^(٣)، فَإِنَّهُ قَدْ كَمُلَ فِيكَ الْحِلْمُ وَالْعِلْمُ وَحَسَنَ مِنْكَ الْعَقْلُ وَالنِّيَّةُ، وَتَمَّ فِيكَ الْبَأْسُ وَالْجُودُ، وَاتَّفَقَ مِنْكَ الْقَوْلُ وَالْعَمَلُ، فَلَا يُوجَدُ فِي رَأْيِكَ نَقْصٌ، وَلَا فِي قَوْلِكَ سَقَطٌ، وَلَا عَيْبٌ. وَقَدْ جَمَعْتَ الْجُودَةَ وَاللِّينَ فَلَا تُوجَدُ جَبَانًا عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَلَا ضَيِّقَ الصَّدْرِ عِنْدَ مَا يُتَوَلَّكَ مِنَ الْأَشْيَاءِ^(٤)!

وَقَدْ جَمَعْتُ لَكَ فِي هَذَا الْكِتَابِ شَمْلَ بَيَانِ الْأُمُورِ، وَشَرَحْتُ لَكَ جَوَابَ مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ مِنْهَا تَرْفَعًا إِلَى رِضَاكَ، وَابْتِغَاءً لِبَطَاعَتِكَ، فَأَبْلَغْتُكَ فِي ذَلِكَ غَايَةَ نُصْحِي، وَاجْتَهَدْتُ فِيهِ بِرَأْيِي وَنَظَرِي وَمَبْلَغِ فِطْنَتِي، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقْضِي حَقِّي بِحُسْنِ النِّيَّةِ مِنْكَ فِي إِعْمَالِ فِكْرِكَ وَعَقْلِكَ فِيمَا وَضَعْتُ لَكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْمَوْعِظَةِ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ الْمَنْصُوحُ بِأَوَّلَى بِالنَّصِيحَةِ مِنَ النَّاصِحِ وَلَا الْآمِرُ بِالْخَيْرِ بِأَسْعَدَ مِنَ الْمُطِيعِ لَهُ فِيهِ. فَافْهَمْ ذَلِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ^(٥).

انْتَهَى

(١) ما أراه ينهيًا لك: ما أظنه يمكنك. (٢) فهمز همة: ضغطه وعضه. دق: كسر. (٣) المؤتمرين: الممتثلين المستجيبين المنفذين. المنطق: النطق. ما أملته: ما رجوته وتعبت أن تناله وتحقق أملك. (٤) النجدة: الشجاعة. والإقدام. ينوبك: يصيبك. (٥) ترفلاً: تقرباً. وابتغاء: طلب. ومبلغ فطنتي: نهاية فهمي. ولا حول: الحول القدرة على التصرف. والله أعلم.



الفهرس

الموضوع	الصفحة
هذا الكتاب	٤
شخصيات الحوار	٧
باب : مقدمة الكتاب	١١
باب : بعثة الملك كسرى أنوشروان إلى بلاد الهند في تحصيل هذا الكتاب	٢٧
باب : عرض الكتاب لعبد الله بن المقفع معرب هذا الكتاب	٤٠
مثل الرجل واللص	٤٢
مثل الفقير واللص	٤٤
مثل الشريكين والأعدال	٤٦
مثل اللص والتاجر	٤٧
مثل الأخوة الثلاثة	٤٧
مثل الصياد والصدفة	٤٨
أغراض هذا الكتاب وأهدافه	٤٩
باب : برزويه لبزرجمهر بن البختكان	٥٠
مثل الرجل واللص	٥٢
مثل الرجل والبئر	٥٩
باب : الأسد والثور	٦٠
محاورة كليلة ودمنة بشأن الأسد	٦٣
مثل القرد والنجار	٦٣
مثل الثعلب والطبل	٦٨
مثل الناسك واللص	٧١

٧٥	 مثل الغراب والأسود
٧٧	 مثل الأرنب والأسد
٧٩	 مثل السمكات الثلاث
٨١	 مثل القملة والبرغوث
٨٤	 مثل البطّة وضوء الكوكب
٨٦	 مثل الذئب والغراب وابن آوى مع الجمل والأسد
٩٠	 مثل الطيطوى ووكيل البحر
٩٠	 مثل السلحفاة والبطنتين
٩٣	 مثل القردة والطائر والرجل
٩٤	 مثل الخب والمغفل
٩٥	 مثل العلجوم والحية
٩٦	 مثل التاجر والحديد
٩٨	 باب : الفحص عن أمر دمنة
١٠١	 مثل الخازن والمصور
١٠٦	 مثل ابنة الملك والمطبيب
١٠٧	 مثل الحراث وامراتيه
١١١	 مثل البازيار وزوجة المرزبان
١١٣	 باب : الحمامة المطوقة
١١٨	 مثل المرأة والسمسم
١١٨	 مثل الذئب ووتر القوس
١٢٥	 باب : البوم والغربان
١٢٦	 مثل أهل العداوة
١٢٩	 مثل الأرنب وملك الفيلة
١٣٠	 مثل الصفرد والأرنب

١٣٣		مثل الجماعة والناسك وعريضة
١٣٤		مثل التاجر والسارق
١٣٥		مثل الناسك واللص والشيطان
١٣٦		مثل الرجل واللصوص
١٣٧		مثل الناسك والفأرة
١٤٠		مثل الأسود وملك الضفادع
١٤٢		باب : القرد والغيلم
١٤٥		مثل ابن آوى والأسد و الحمار
١٤٧		باب : الناسك وابن عرس
١٤٩		باب : الجرذ والسنور
١٥٣		باب : الملك والطائر فنزة
١٦٣		باب : إيلاذ وبلاذ وإيراخت
١٧٤		باب : اللبوة والإسوار والشغبر
١٧٦		باب : الناسك والضيف
١٧٧		مثل الغراب والحجلة
١٧٨		باب : السائح و الصائغ
١٨١		باب : ابن الملك وأصحابه
١٨٦		باب : الحمامة والثعلب ومالك الحزين